

فَصْهَ الكَنِيسَةِ القبطِيَّةِ

وهي تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية

التي أسستها

مارموقس البشير

الكتاب الثالث

إيريس حبيب المصري

قصة الكنيسة القبطية

من سنة ٩٤٨ - ١٥١٨ م

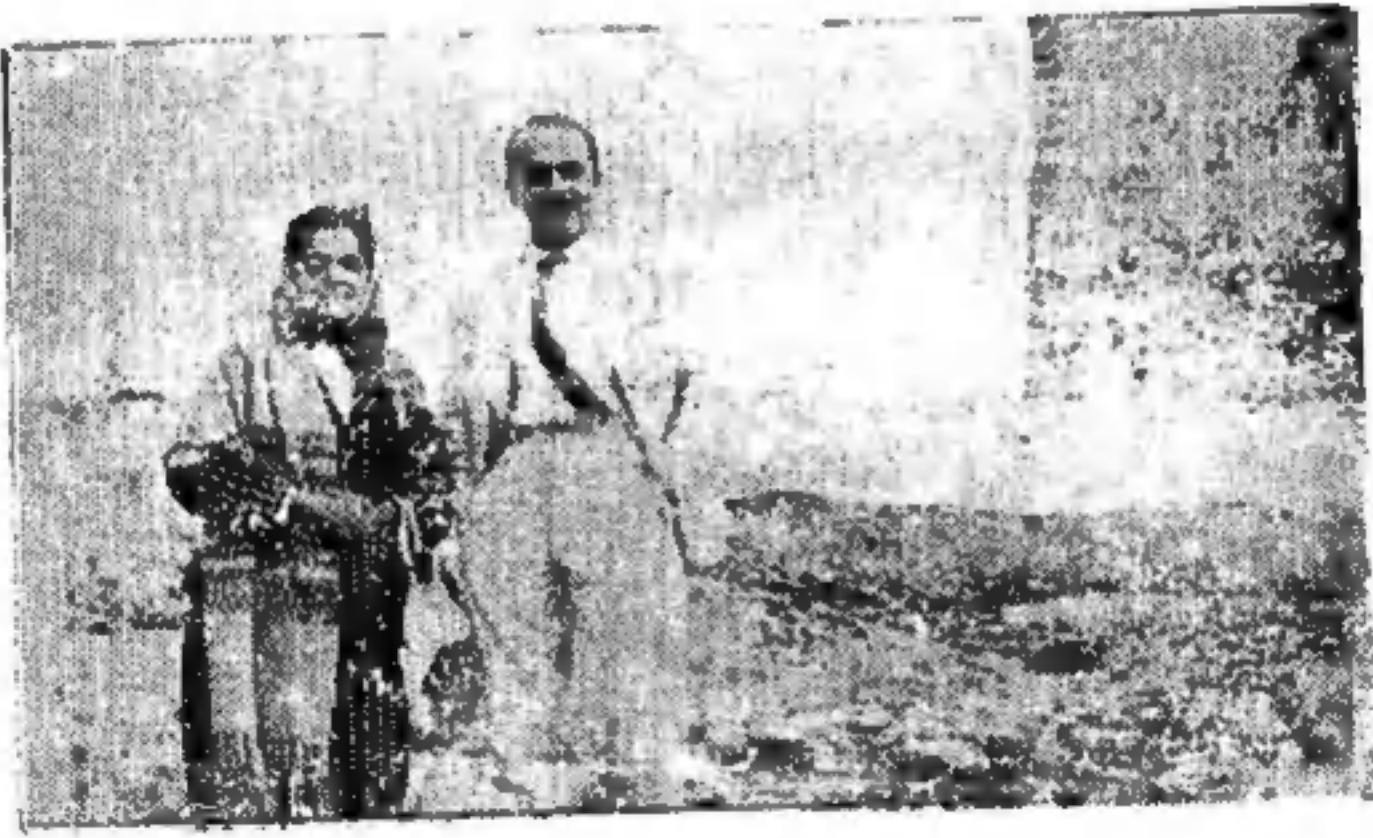
الكتاب الثالث

بقلم المتنيحة
أيريس حبيب المصري

الإهداء

إلى أخى أمين

الذى كان يضيق صدره بالتقصير ولا ينبذ ولا يقطع المقصر .
الذى كد ليحقق آمال غيره وأفنى نفسه ليخفف عنهم آلامهم فضحى
بآماله وتكتم آلامه
الذى أحب بدون استرسال فى الألفاظ وأبى أن يقبل فى يوم العرفان
والشكر .



المؤلفة إلى جانب أخيها الكبير الدكتور أمين حبيب المصرى

عند خرائب كنيسة مارميثا العجايبى بمربوط يوم ١٥ بؤونة سنة ١٦٧٥ ش
(٥٩/٦/٢٢) - وكان يوماً مشهوداً لأن الأنبا كيرلس السادس أقام فيه
صلوات القداس احتفاءً بذكرى الشهيد العظيم وسط جمع حاشد . كما أنه
كان اليوم المعتبر بدء عمل الترميم والتجديد الذى حققه
خليفة مارمرقس منذ السنة الأولى لارتقائه السدة البابوية .



صليب قبطى يتصدر قاعة الطعام للمدفعية الملكية الانجليزية
بمدينة نوريتش بشمال انجلترا .

الاعتراف بالفضل لذويه

كلما أنعم الله علىّ بالفرصة لإصدار جزء من قصة الكنيسة القبطية - الكنيسة التي سهرت عليها عنايته الأبوية العليا - أجدنى مفتيطة بشكره تعالى أولاً وآخرأ ؛ ثم بتقديم شكرى وعرفانى لجميع الذين مكنونى بمعاونتهم من السير فى سبيل استكمال قصة هذه الكنيسة الخالدة .

لهذا أتقدم بعظيم شكرى إلى حضرة أبينا المكرم القمص متى المسكين الذى يراجع كل ما أكتبه باهتمام بالغ ويوجهنى توجيهاته الأبوية الكريمة ويشجعنى على المضى فى الجهاد .

وأقدم كل الشكر إلى حضرة أبينا المكرم القمص بطرس سيفين لتفضله بأعارتى مجلدات « صوت الشهداء » لاستكمال بحثى .

كما أبعث بشكرى إلى الدكتور فرج روفائيل لتفضله باعطائى عدد كبير من الصور .

ولا يفوتنى أن أبعث بالتحية الالاققة إلى روح أستاذى بسى عهد المسيح فى عليائها لأن ما تركه لى من كتابات عاونتى فى الكثير من الموضوعات .

كذلك أرفع تشكراتى إلى جميع الذين شجعونى وآزرونى وعلى رأسهم حضرة أبينا المكرم القمص بيشوى كامل .

ثم أكرر شكرى لله على عنايته وفى أشخاص من عاونونى .

إبريس حبیب المصرى

تمهيد

أن قصة الكنيسة القبطية أشبه بانسياب النيل : فكما ينساب النهر الخالد وسط واديها الرحيب هكذا تتساب قصة الكنيسة عبر الأجيال : فيمكننا أن نصفها بتلك الكلمات التي وردت في القداس الإلهي : « من جيل إلى جيل وإلى دهر الداهرين آمين » . ولكونها شبيهة بالنهر فهي تؤلف وحدة واحدة رغم ظهورها في أجزاء - هي وحدة الروح القدس الخال فيها المؤازر لها الذي يلهم مختلف أعضائها بالجهد في سبيلها . ونستطيع هنا أن نستعير كلمات بولس الرسول حين قال بأننا أعضاء في جسد ربنا يسوع المسيح فنقول بأن كل جزء من أجزاء قصة الكنيسة القبطية هو عضو في جسدها الممتد منذ نشأتها إلى مالا نهاية له .



طور جديد : ١ - الأنبا مينا الثانى

- ١ - نشأة مينا ووسيلته للاتحاق بالدير .
- ٢ - البحث عن موقف عروسه .
- ٣ - أبوا مينا يكتشفان انه راهب .
- ٤ - استقرار الراى على انتخاب الراهب مينا للكرسى المرقسى .
- ٥ - استعلان السر الذى بينه وبين عروسه .
- ٦ - ولاية الاخشيدي .
- ٧ - مزايا هذا الوالى .
- ٨ - نقص الفيضان والمجاعة والحرب قتال على المصريين .
- ٩ - عدالة كافور تحبب فيه المصريين .
- ١٠ - استقرار العدالة .
- ١١ - موت الاخشيدي وشيوع الفوضى والمجاعة والابوة .
- ١٢ - انتصار الفاطميين وتأسيس القاهرة
- ١٣ - المعز لدين الله يستميل قلوب المصريين اليه .
- ١٤ - استقرار العدالة .
- ١٥ - دخول المعز مصر فى موكب حافل .
- ١٦ - « امرأة رئيسة » .
- ١٧ - عدالة المعز تسرى الى ولاته .
- ١٨ - نياحة الانبا مينا الثانى .
- ١٩ - العصر الفاطمى جمع بين الحرية الدينية والاضطهاد الجريز .
- ٢٠ - سماحة المعز وسخاؤه وتعلمه اللغات .
- ٢١ - السيدة المرقسية تظل شاغرة ستين .
- ٢٢ - انتخاب ابرآم بن زرعة السريانى الاصل .
- ٢٣ - الانبا ابرآم يستحل باباويته .
- بتوزيع ماله .
- ٢٤ - المناقشات الدينية فى حضرة المعز .
- ٢٥ - الخليفة يطالب البابا الاسكندري بنقل جبل المقطم .
- ٢٦ - نصيحة سمعان الخراز للانبا ابرآم .
- ٢٧ - الجبل ينخفض ويرتفع مع السجود والوقوف .
- ٢٨ - اختفاء سمعان الخراز .
- ٢٩ - ازدياد تقدير المعز للانبا ابرآم .
- ٣٠ - اعادة بناء كنيسة ابي السيفين .
- ٣١ - تجديد الكنائس .
- ٣٢ - ابو اليعن وزير قبلى للمعز .
- ٣٣ - ابو اليعن يستودع ماله يدى الانبا ابرآم .
- ٣٤ - اندلاع ثورة فى فلسطين .
- ٣٥ - من حفر حفرة لاختيه وقع فيها .
- ٣٦ - مقابلة البابا لابس اليعن ثم نياحته .
- ٣٧ - سلام واستقرار .
- ٣٨ - انتخاب البابا المرقسى .
- ٣٩ - بنو المطيع .
- ٤٠ - مدى تسامح العزيز بالله .
- ٤١ - توسط ملك النوبة لمصالحة الاحباش .
- ٤٢ - الشعراء يتغنون بما لا قوة من هناء فى الاديرة .
- ٤٣ - عناية العزيز بالعلم وبرضاء الشعب .
- ٤٤ - الانبا فيلوثينوس يستودع روحه فجأة أثناء القداس الالهى .
- ٤٥ - جرجس المزاحم .

١ - كان الاخشيدون لا يزالون يحكمون مصر . وكان السلام مرفقاً على البلاد من أقصاها إلى أقصاها . فازدهرت الأديرة بالرهبان الزاهدين المشقنين . وكان بين هؤلاء الرهبان ناسك اسمه مينا من بلدة صندلا . جعل الله منه شخصية ممتازة : فقد جمع في شخصه بين شجاعة الإيمان واستقامة الخلق وصدق العزيمة . ولما كان وحيد أبويه فقد اشتاق إلى تزويجه ليسعدا بتربية أولاده . وحين أطلعا على رغبتهما لزم الصمت التام عملاً بوصية اكرام الوالدين . وقد فسر والداه هذا الصمت تفسيراً خاطئاً لأنهما توخيا أن السكوت علامة الرضى . ومن ثم اتفقا مع أبوى كريمة من بنات أقاربهما وحددا يوم الإكليل . وظل مينا ملازماً للصمت خلال كل هذه الترتيبات ، بل استمر على صمته إلى أن تمت المراسيم الدينية . فلما انصرفت جموع المدعوين إلى حفلة العرس ، وانفرد مينا بعروسه ، أخذ يزين لها الحياة النسكية ويصف لها الرهبنة وصفاً بارعاً حتى استمالها إلى هذه الحياة القدسية العجيبة . وإذا أدرك أنها اقتنعت بأحاديثه أطلعها على ما كان ينتويه من الالتحاق بأحد الأديرة . فوافقته لساعتها على رغبته وأعلمته بأنها ستتحدى به في الكبت والكفد . فاتفق مينا إذ ذاك مع عروسه على أن يغادر بلدته في الليلة عينها إلى الصحراء ليشتق بدير الأنبا مكاري الكبير وأن تبقى هي في البيت الذي اختاره لها دون أن تبوح لأحد بما تم بينهما .

٢ - وفي صباح اليوم التالي ذهب الأهل والأصدقاء إلى بيت مينا وعروسه ليقدموا لهما التهاني والهدايا وليتمنوا لهما التعفيق من الله كما هي العادة المتبعة . وحين وصلوا إلى البيت ذهلوا إذ لم يجدوا مينا وسألوا عروسه عنه فأجابتهم بكلمة مبهمّة قائلة « لقد خرج منذ بضع ساعات » فبقى البعض منهم مع العروس يواسونها على غياب عريسها الفجائي بينما خرج البعض الآخر يبحث عنه . ولما انقضت عدة أيام دون أن يعثروا له على أثر توهم أبواه وأقاربه بأنه قد انتقل من هذا العالم . فامتلأوا حزناً وأقاموا عليه مناحة عظيمة .

ولما انتهت مدة الحزن جاء أبوا العروس ليأخذاها إلى بيتها ويزوجاها من رجل ثان ، ولكنها رفضت أن تذهب معهما وأصررت على عدم الزواج من أى رجل آخر قائلة « اتنى راضية بنصيبى » .

وسأعيش. في البيت الذي هياه لى مينا الى أن تلتقى معاً أمام عرش
النعمة » .

٣ - وانقضت ثلاث سنين سيع بعدها أبوا مينا أن ابنتهما حتى يرزق وأنه
مقيم في صومعة معروفة باسم دير ناه تاهمة لدير الأنبا مكارى الكبير .
وما كاد هذا الثبأ يبلفهما حتى خفا إلى الصحراء وقصدا إلى دير الأنبا
مكارى لساعتتهما فاذا بهما وجهاً لوجه مع ابنتهما الذى ظناه ميتاً . فتهلل
قلباهما ومجدا الله الرحيم الذى أسبغ نعمة رؤيته بعد هذه السنين الثلاث .
كذلك تهللا لما سمعاه عن نسكه وفضائله ولما رأياه من عطف أبيه الروحى
عليه . وكانت فرحة أبوى مينا بلاقائه عميقة الى حد أنها لم يعتفاه ولم
يطلبا إليه العودة الى عروسه بل سلماه فى رضى وحبور الى الأب السماوى
الذى اجتلبه اليه لخدمته . فعاش مينا فى ضبطة وسكينة مع أبيه الروحى
هذه سنوات . ثم أختار بعد ذلك أن يعيش سائحاً ^(١) .

٤ - وحدث عند انتقال الأنبا ثيوفانيوس الى دار الخلود أن اجتمع
الأساقفة والأراخنة للتشاور في انتخاب خليفة له . وكانوا هذه المرة على
حذر للغاية . فبعثوا برسلهم الى الأديرة للتعهد الى الشيوخ المقيمين فيها
والاسترشاد بهم فى هذا الموضوع الحيوى . وبين الشيوخ الذين قابلوهم معلم
السائح مينا . فحدثوه فى تواضع وحرارة راجين منه أن يتقبل رعايتهم
ويرضى بانتخابهم اياد . فأجابهم هذا الشيخ الروحانى قائلاً : « أن رئاسة
الكهنوت مسئولية خطيرة وكرامة عظيمة لا يجوز أن ينالها الا من اكتملت
رجلته وتميز بالعلم والفضل . فأصغروا لنصيحى واعلموا أن من يليق لأن
يحتلى هذه السدة الجليلة هو الراهب مينا » . وقبل رسل الأساقفة والأراخنة
هذه النصيحة وتركوا الناسك الشيخ واتجهوا نحو الصومعة التى يقيم فيها
مينا إذ ذاك . وأخذوه قسراً الى الاسكندرية حيث أقيمت حفلة الرسامة فى
الكنيسة المرقسية على الفور فأصبح الراهب مينا البابا الاسكندرى الحادى
والستين باسم مينا الثانى سنة ٩٤٨ م .

٥ - وما أن تمت رسامة هذا البابا الزاهد حتى قام بزيارة راعوية فى
أنحاء القطر المصرى . فلما وصل الى صندلا - مسقط رأسه - فرح به

(١) السواح فى الكنيسة هم المتوحدون الذين لا يقيمون فى مكان واحد بل يتجولون
فى الصحارى .

أهلها فرحاً عظيماً والتمسوا فيه أن يقضى بعض الوقت بينهم فلبى دعوتهم . وكان في تلبية حقيقة أعلنها الشاعر بقوله :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وذلك أنه بينما كان منهكاً في الحديث مع أهل بلدته المتزاحمين عليه والكل فرح مفتوح همس أحد الأشرار في أذن أسقف من المصاحبين للبابا الاسكندري : « ألا تقولون أنه لا يجوز للمتزوج أن يجلس على الكرسي المرقسي ؟ » وهز الأسقف رأسه بالإيجاب . فعاد الناس يقول : « كيف أذن وضعت اليد على هنا وهو قد تزوج وزوجه باقية عندنا إلى الآن ؟ » وسرى هذا الحديث من أسقف إلى أسقف . فلاحظ الأنبا ميخائيل الثاني هذا التهامس وما بدا على الوجه من وجوم . وأدرك أن هناك أمراً أثقل بالهم وأدى إلى هذا الارتباك الظاهر . فالتفت إلى أحد اخوته في الخدمة الرسولية مستفسراً عن الباعث إليه فأجابه أكبرهم ستاً : « لقد عرفنا من بعضهم أن غيبتكم قد ارتبطتم بهابط الزواج . وهذا يخالف القانون الكنسي القائل من البابا الاسكندري أنه يجب أن يكون بتولاً . فهل هذا الذي سمعناه صحيح ؟ » فابتسم الأنبا ميخائيل في هدوء وأرسل لقرره في طلب السيدة التي زفت إليه . ولما جاءت التفت إليها وعرفها بنفسه ثم قال لها : « أرجوك أن تعلمي للأب . الأساقفة . ولجميع الحاضرين معنا هنا ما جرى بيننا ليلة الزفاف » . فأطاعته وياحت للجميع بالسرا الذي اتفقا عليه وكيف أنها - مع بقائها في العالم - قد احتفظت بتوليبتها تفيلاً لعهدا معه . وقد شهد جميع أهالي صندلا بصدق حديثها وباستقامتها الثامة . فتعجب الجميع ومجدوا الأب السماوي الذي يهب أبنائه وبناته نعمة تؤهلهم لأن يرتفعوا فوق الطبيعة البشرية ويقترعوا من الطبيعة المثلى : طبيعة الحياة الروحية .

٦ - ولم يكد أتبا ميخائيل الثاني يستقر في الأسكندرية بعد لقام زيارته الراحوية حتى غادر الاخشيدي مصر قاصداً إلى دمشق ليقود الجيش في حربه ضد خصوم العباسيين . على أن المنية وافته قبل الاشتباك في المعركة . وكان له في مصر ولدان : أكبرهما أبو القاسم وعمره إذ ذاك أربعة عشرة سنة ، وأبو الحسن وعمره ثمانى سنوات . وكان هذان الولدان تحت اشراف

خصى نوبى ^(١) اسمه كافور صاحب دهاء فكرى ومطامع واسعة . فأعلن نفسه وصياً على الولدين واتخذ لنفسه لقب الاخشيدى . ولكى يحفظ لنفسه خط الرجعة اتفق على أن يعطى كلا منهما أربعمائة ألف دينار ، ونصحهما بأن يستمتعا بشبابهما ويصرفا هذه الآلاف من الدنانير على لهنهما وملاذهما ، ويتركا سياسة الدولة له . ففرحا بهذا الاتفاق إذ لم يكن أحدهما ليدرك معنى الحكم وتبعاته . فقضى حياتهما مغمورين غارقين فى اللهو والعبث وانتهيا من هذه الدنيا وكأنهما لم يكونا . بينما قبض كافور الاخشيدى على زمام الحكم بحزم وبقطة .

٧ - ولم تكن الإرادة الماضية بالميزة الوحيدة لهذا النوبى القوى الشكيمة بل أنه كان قائداً مقداماً ، فبغاض المعركة التى كان الاخشيد بنوبى خوضها وانتصر على خصومه . فوسع بذلك حدود مصر حتى شملت حلب وطرسوس . كذلك كان كافور ميالاً إلى الهدخ والترف ولوعاً بالشعر والموسيقى . وقد اجتذب كرمه أعظم شعراء عصره صيتاً فتزاحموا على قصره وبالفؤا فى مديحه بشعرهم .

٨ - ومن سوء الطالع أن الليضان جاء ناقصاً ثلاث سنوات متوالية . فكانت النتيجة الحتمية لهذا النقص قلة المحصول وغلاء الأسعار فعمت المجاعة . وكان المجاعة لم تكن كافية فتضاعفت بكارثة الحرب التى شنها أهالى النوبة على كافور الاخشيدى رغم أنه من مواطنيهم . وقد نجح النوبيون فى الفتك بأهالى الصعيد وبإشاعة الذعر بينهم .

٩ - على أنه بالرغم من حروب النوبيين . فقد ظل المصريون على ولائهم لكافور لما امتاز به من عدل وانصاف جعله يسوى بين رعاياه جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ^(٢) . بل أن الوزير المقرب إليه كان قبطياً اسمه أبو اليمن قزمان بن . ما الذى ظل فى الوزارة طيلة حكم كافور . وقد دام هذا الحكم اثنتين وعشرين سنة : حكم كافور فعلاً خلال تسع عشرة منها بينما كان حاكماً بالاسم فى السنوات الثلاث الأخيرة من أيامه .

(١) يقول البعض أنه كان حبشياً - أنظر « تاريخ مصر فى العصر الوسطى » (بالانجليزية) لستانلى لايڤ بول ص ٨٧ .

(٢) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ بول ص ٨٧-٨٨ .

ومن أعظم الأدلة على انصافه وتقديره للكفايات بغض النظر عن دين أصحابها أن عمال الترسات والمراكب كانت غالبيتهم من القبط . وكان القداس الإلهي يقام رسمياً على المراكب إذا لم يكن يحارثها من القبط فحسب بل كان إلى جانبهم الصنائع الحاذقون لمختلف المهارات كالحلادين والتجارين وصانعي الأثاث وغيرهم .

كذلك كانت الأحتفالات بالأعياد المسيحية تقام بصورة رائعة على شاطئ النيل كما كانت المراكب الخاصة بها تسير في الميادين العامة والشوارع الرئيسية^(١) .

١٠ - وكان الهدوء النفسى المنبعث من استقرار العدالة خير معوان لأنها مهنا الثانی فی جهاده . فانصرف إلى بناء الكتائس والمدارس الجديدة وترميم القديم منها وإلى حث الأولاد الصغار على الإقبال على ارتشاف العلم . فسارع الآباء والأمهات إلى العمل بتعليمه وتعليم أبنائهم التعاليم الأرثوذكسية الصميمة .

١١ - وخلال هذه الفترة ظل الفاطميون يرقبون مصر بعينى الصقر . ولم يكن فشلهم فى الاستيلاء عليها مرتين كافياً لردعهم عن محاولة غزوها
ثالثة : فقد كانت لقمة سائغة تشبع كل من يأتئها : لا تفرق بين لاجئ وباطش . فلما انتقل كافور الاخشيدى إلى رحمة مولا ترك لهم المجال واسعاً ، لأن الحاكم الذى خلفه فى الولاية على مصر كان صبياً فى الحادية عشر من عمره - هو أهر الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد الذى تولى ابن عمه الحسين بن عبيد الله الوصاية عليه . وكان ابن الفرات ملتزم الخراج شحيح اليد طماعاً مقتصباً . بينما أقيم صموئيل الذى كان مديراً لهرى الحمام الزاجل مستولاً عن المملكات الحربية . الا أن بطش الأول وتراخى الثانى أدبا إلى تمرد رجال الجيش (وهم من الأتراك) . فقد أمعنوا فى تمردهم إلى حد أنهم دخلوا بيت ابن الفرات ونهبوه علانية . فانتشرت الفوضى . ومن العجيب ان الطبيعة ضاعفت من آلام الشعب المصرى إذ جاء الفيضان ناقصاً

(١) تاريخ الأمة المصرية - المجلد الرابع : مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح التركى (بالفرنسية) لجاستون فبيت ص ١٧٥ - ١٧٧ .

عن منسريه فعلت المجاعة بالبلاد . وأدت المجاعة إلى انتشار الأوبئة كالمعتاد . لأن الناس ضعفت أجسامهم فلم تعد قادرة على مقاومة الجراثيم . وقد أفتت المجاعة والأوبئة ستمائة ألف شخص

١٢ - ولم تفت هذه الحالة المروعة على المعز لدين الله الفاطمي فأدرك أن فرصته قد حانت وعهد إلى جوهر الصقلي - قائد جيشه بغزو مصر . فزحف هذا القائد المحنك على وادينا الجيبي . وانتصر انتصاراً حاسماً استغله بأن خل البلاد في موكب فخم رافع في الخامس من أغسطس سنة ٩٦٤ م ش^(١) . وفي الليلة عينها التي اقتحم فيها جوهر مدينة الفسطاط وضع الأساس لمدينة جديدة تكون عاصمة الفاطميين - أي للدولة الجديدة - وهي مدينة القاهرة - وحين بدأت معالم المدينة الجديدة تتضح أمامه رأى أن يزيدها رونقاً ببناء مسجد كبير قصى في بنائه مستين . وقد اشتغل في تشييده وزخرفته مهرة الصناع والفنانين . وهكذا ضرب جوهر القائد عصفورين بحجر واحد لأنه أقام جامعاً منيفاً هو الجامع الأزهر ، وفي الوقت عينه فتح باب الرزق أمام العمال وأصحاب المواهب .

وقيام الدولة الفاطمية في مصر له أهمية فريدة في تاريخها الطويل . ذلك أنه لم يحدث قط أن تغير شكل الحكم بهذه السرعة وبهذه المسألة . كما أن ظفر الفاطميين بمصر قد حولها تدريجياً من دولة تابعة إلى دولة مستقلة وبالتالي أوصلها إلى مكانة ساطعة بين مختلف الدول^(٢) .

١٣ - ولما كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي رجلاً بعيد النظر ثاقب الرأي فقد أدرك أن خير وسيلة لتمهيد الطريق أمامه هي أشباع البطون المجاعة وتغطية الظهور العارية ، وبخاصة لأن المجاعة والأوبئة كانت قد فتكت بالشعب المصري فتكاً ذريعاً . فجاء القائد جوهر ومعه مراكب مشحونة بالغلل لتوزيعها على الناس مجاناً . وقد نجحت خطة المعز إذ قد هدأت النفوس المتبرمة ولم يبق من بين المصريين من ثار على الفاتح غير البشموريين . وقد وجد هؤلاء الثوار فرصة لإعلان قردهم بأن انضموا إلى أحد الاخشيديين الذي تزعمهم . على أن جوهر الصقلي قمع الثورة بسرعة

(١) أوسنة ٩٧٢ م غ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... المجلد الرابع ، مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (بالفرنسية) لجاستون فييت ص ١٩ .

عجيبة وبطش بالأخشيديين بطشاً عنيفاً كان فيه الكفاية لردع أى شخص آخر تسول له نفسه القيام بشورة . فاستتب السلام مرة أخرى فى وادينا الرحيب . ثم بعث جوهر الصقلى برسول الى جرجس ملك التوبة يذكره بالجزية التى كانت مفروضة على سلفائه ويعرض عليه أن شاء الاعفاء من الجزية أن يعتنق الاسلام . فرد عليه الملك التوبى بأن ارسل المبلغ المطلوب ^(١) .

١٤ - وكان المعز مثالاً يحتذى سار على متواله القائد جوهر اذ قد اتبع السياسة الحكيمة التى اختطها المعز فأحسن معاملة المصريين واتبع سبيل العدل والاتصاف مع الجميع فلم يفرق بين قبطى ومسلم . وأتى الى أبى الحسن الذى كان وزيراً لكافور الأخشيدي . ولما وجده أميناً مخلصاً فى عمله ، خوله سلطة أوسع مما كان يتمتع بها فى عهد كافور . وكاد الفرح أن يكون شاملاً لولا أن النيل جاء ناقصاً فى فيضانه . وفى الوقت عينه تواطأ حكام سوريا مع أمير العراق ضد الحكم الفاطمى . فجمعوا جنودهم وغزوا مصر . وقد أفلحوا فى الوصول الى مشارف مدينة القاهرة التى حاصروها شهرين كاملين . الا أن القائد جوهر استطاع - بعد هذه الفترة - أن يضرب هؤلاء الزاحفين ضربة قاصمة اضطرتهم الى الرجوع على أعقابهم بسرعة حتى أن فلولهم تخاصمت ودب بينها دبيب الشقاق .

١٥ - وفى السنة التالية للغزو الفاطمى أحس جوهر الصقلى بأن السوريين يستجمعون قواهم ليعادوا غزو مصر ، فبعث الى المعز يطلب اليه أن يحضر بنفسه الى القاهرة التى كان قد أتم بنائها ، وأن يتخذها له عاصمة بدلاً من تونس لئى يكون على مقربة من الأقطار السورية التى لا يطمع حكامها فى الانفصال عن مصر فحسب بل يراودهم الأمل فى أن يستولوا عليها أيضاً . فتكون اقامته فى العاصمة المصرية سبباً فى إرهاب السوريين وتوقيفهم عند حدهم . وقد رأى المعز الحكمة من هذا الطلب فعمل به وحضر الى مصر فى موكب حافل جمع بين وزرائه وقواد جيشه وجنوده . وقد سار بعض الجند خلفه وهم يحملون توابيت أسلافه الذين رأى أن تضمهم أرض مصر لاثبات سلالته الملكية وأصوله الوراثية ^(٢) .

(١) تاريخ مصر فى القرون ... لستانلى لاين بويل ص ١٠١ - ١٠٥ ، كنيسة الاسكندرية فى افرقيا لزاخر رياض ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) تاريخ مصر ... لستانلى لاين بويل ص ١٠٨ - ومن الطرف ما قيل عن المعز أنه أخرج سيفه أمام رجال الدولة وقال لهم « هذا نسى » ثم أخرج سراً من الذهب نشره وقال « وهذا دليلى »

وحالما وصل المعز الى الاسكندرية ارسل فى طلب القاضى وغيره من كبار رجال الدولة ، وألقى فيهم كلمة حركت مشاعرهم الى حد جعل البعض منهم يذرف الدموع تأثراً . وبعد وصوله بشهر واحد جلس يتسامر مع بعض الرهبان فى دير لهم بالجيزة ، وكانت هذه الزيارة الأولى مقدمة لزيارات متوالية .

١٦ - وكان الأتيا ميثا الثانى - خلال فترة المجاعة - ينتقل من بلد الى بلد ليتفقد شعبه . فلما وصل الى محلة دانيال خرجت اليه امرأة « ربيسة »^(١) من بلقونة لترحب به . وكانت غنية خاتمة الرب . فألحت على البابا أن يمكث فى ضيافتها هو وحاشيته طيلة المجاعة . وكان الحاحها قوياً الى حد أنها اقنعتة بالبقاء فعلاً . فقضى فى تلك البلدة سنة كاملة استطاع خلالها ان يبنى كنيسة « لطيفة »^(٢) على اسم القديس مرقس كاروز ديارنا المصرية . وأقام فيها الشعائر الخاصة بتكريس الميرون بدلاً من اقامة هذه الشعائر فى دير الأتيا مكارى الكبير حسب العادة .

١٧ - أخيراً استقر السلام ، وحل الرخاء . محل القحط والجوع : فكثرت المحاصيل ورخست أسعارها . فهدأت النفوس . ولم يكن الرخاء المادى وحده هو السبب فى تهدئة النفوس ولكن العدالة دعمت هذا الرخاء لأن المعز كان منصفاً حسن المعاملة . فاقتردى به جميع ولائه فى أنحاء القطر المصرى . وكان اهتمام هذا الخليفة بتروسيخ قواعد العدل بالغاً الى حد أنه كثيراً ما ينظر فى القضايا المعروضة بنفسه . كذلك أبدى اهتماماً بمنسوب النيل ومدى ارتفاعه وانخفاضه . فكان يذهب ليرقب مقياسه ويعلم بفعده مقدار ارتفاعه على الشعب . فأنس اليه المصريون والتفوا حوله^(٣) .

(١) هذا هو التعبير المحلى الذى أورده الأتيا ساويرس فى كتابه تاريخ البطارقة . أفلا يدل هذا التعبير على أن المرأة القبطية استعنت بمكانة ممتازة حتى فى العصور الموصوفة بمصير الظلام ؟ ثم ألا يكون الأسقف الأشموني متأثراً بالتعبير القبطى « أرخن » فترجمه إلى « ربيسة » ؟ أن مثل هذه الاصطلاحات جديرة بالتأمل ولا يكتفى أن تلقى عليها نظرة عابرة لأن فيها عمرة لكل مفكر .

(٢) هذه هى الكلمة الواردة فى كتاب الأتيا ساويرس لوصف الكنيسة وهى تعنى كنيسة صغيرة أو ضيقة .

(٣) تاريخ مصر . لسقائلى لاين ببول ص ١٠٤ . مختصر تاريخ .. لجاستون فييت ج ٢ المبحث الثانى ص ١٨٠

ومن أقوى الأدلة على الاستقرار فى ذلك العهد ما تبقى عنه من آثار فنية . فلقد كان الفنانين والصناع القبط ذوى صيت حسن لمهارتهم ودقتهم وتفانيهم حتى أن الخليفة العباسى كان قد استعان بهم فى بناء مدينته التى اختطها فى شمال العراق والتى دعاها « سمارا » (أوسر من رأى) . وما زالت هناك قطع فنية تحمل فى ناحيتها الصليب أو عبارة « باسم الأب والإبن والروح القدس » . بل إن الكتبة القبط كانوا يرسمون علامة الصليب خلف الأوراق الحكومية ذاتها ^(١) . كذلك استمرت المهارة الفنية تبدو فى النسيج خلال عصور متوالية . وكانت الدول الشرقية تستورد النسيج المصرى الذى كانت تطلق عليه كلمة « قباطى » (أو قبطى) - وفى هذه التسمية دليل على أن النسيج كانوا من القبط .

كذلك كانت هناك صلات تجارية - ولو أنها على نطاق محدود - بين مصر وفرنسا وإيطاليا . فقد كان هذان البلدان يستوردان المنسوجات وأوراق اليردى من بلادنا ^(٢) .

١٨ - وتأمل الآننا مينا الثانى تطور الأحداث فمجد الأب السماوى الذى أهذل الضيق بالفرج وحول العسر يسراً ، وأحس بأن ثقلاً من الهموم والمخاوف قد زال عن قلبه حينما رأى اهتمام الخليفة بأمر الشعب ووجد هذا الاهتمام شاملاً الجميع بلا تفرقة . وفى غمرة هذا الفرح النفسى وهذا التمجيد الروحى انتقل إلى مساكن النور فى هدوء ورضى بعد أن تولى رعاية شعبه سبعة عشر عاماً وأحد عشر شهراً ^(٣) .



(١) تاريخ الأمة ... المجلد الرابع : « مصر العربية ... » لجاستون فبهيت ص ١٧٣ - ١٧٤

(٢) شرحه ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونيين نشره مع ترجمته إلى الإنجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد بورمستر - طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ ، المجلد الثانى الجزء الثانى ص ١٢٤ - ١٣٥ .

ب - الأتيا ابرآم بن زرعة

١٩ - ان العصر الفاطمي الذي بدأ بخلافة المعز كان أعجب العصور التي اجتازتها مصر ذات التاريخ الملى بالأعاجيب . فقد عرف فيه المصريون معنى الحرية الدينية في أوسع حدودها ، كما ذاقوا مر الإضطهاد في سبيل العقيدة .

٢٠ - وكان المعز نفسه من أكثر الحكام تسامحاً وأوسعهم صدراً . وكان الى جانب مساحته سياسياً محنكاً ، ذا مقدرة على الأخذ بأسباب النجاح ، ودراية بحسن استغلال الفرص . كذلك كان واسع العلم ، له قوة عجيبة على استيعاب اللغات : فهو لم يهرع في حفظ الشعر العربي فحسب وإنما كان يجيد اليونانية والسودانية ولغة شمال افريقيا كما كان يلزم بالسلاكونية ليتحدث بها مع العبيد الذين اقتنأهم من شرق أوروبا . وكان خطيباً بارعاً الى حد أنه كان يستلطف الدموع من هبون سامعيه .. وفوق هذه المزايا فقد كان جواداً سخياً كما كان يحب العدالة والانصاف ^(١) .

ولأن المعز جمع في شخصه كل هذه المزايا ، فقد تسابق الشعراء الى يابه لينعموا بجوده . وحدث ذات يوم ان شاعراً فقيراً حمل جرتة ، وقصد الى النيل ليستقي منه الماء ، فرأى نفرأ من الشعراء المعروفين متجهين نحو دار الخلافة وانضم اليهم لساعته . ولحرقه من ان يسبقوه فتفلت منه الفرصة ، دخل وهو حامل جرتة . فانكر عليه الخليفة وجوده بينهم وسأله عن السبب الذي أتى لأجله فأجابه :

لما رأيت القوم شدوا رحالهم الى يحرك الطامى اتيت بهجرتي

فسر المعز بهذا الرد وامر رجاله بأن يملأوا له جرتة ذهباً . فعارضه البعض منهم قائلين انه رجل ساذج لا يعرف قدر المال ، وأنه لابد موزعه على غيره . فقال الخليفة : « المال ماله يعمل به ما يشاء ، ومثلنا يعطى ولا يرجع في العطاء » فملئت الجرة ذهباً ، وخرج الشاعر الفقير جذاً ، وبالفعل وزع ما فيها على اهله واصحابه . فوشى به الى الخليفة الذي استدعاه وسأله عما فعل بالمال ، فأجابه لساعته : « يجود علينا الخيرون

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ٩٩

بإلهم ونحن بمال الخيرون مجود . . وقد أعجب المعز بهذا الجواب لأنه يتضمن معنى العرفان بالجميل مقترناً بالصدق والعطف على الآخرين . فأمر رجاله بأن يملأوا له الجرة عشر مرات . فأخذ الشاعر الفقير المال وخرج وهو يقول : « الحصنة بعشرة أمثالها » .

٢١ - وكان من نتائج هذا الكرم وهذا التسامح أن انتشرت الطمأنينة في البلاد . ومن الغريب أن هذه الطمأنينة أدت إلى تقاعس القبط عن انتخاب البابا الاسكندري الثاني والسعين ، فظل الكرسي شاغراً سنتين كاملتين ... وبعد هذا التراخي الطويل ، اتفق بعض الأساقفة من غفوتهم فبعثوا إلى الأراخنة للاجتماع بهم في كنيسة أبي سرجه .

٢٢ - وكان يعيش في مصر في ذلك الوقت تاجر صرياني اسمه ابرآم بن زوعة ، اشتهر بالزهد والعفاف ، وكان يكثر من التصدق على الفقراء والمعوزين ومن اختى عليهم الدهر .

وحدث أنه بينما كان الأساقفة والأراخنة مجتمعين في تلك الكنيسة ، ان دخلها ابرآم هذا للصلاة . وكان شيخاً وقوراً تسطع على وجهه النعمة الإلهية لما أن وقع عليه نظر احد الأراخنة حتى مال على من كان بجانبه من الأساقفة وقال له : « انظر يا أبي إلى هذا الشيخ الوقور . الا يذكرك منظره بقول داود في المزمور : مثل الطيب الكائن على الرأس الذي ينزل على اللحية - لحية هارون النازلة على جيب قميصه ؟ » ^(١) الا يكون هذا الشبه بينه وبين الصورة التي رسمها لنا المرنم عن هارون تعبيراً عن جذراته بالخلافة المرقسية ؟ » وتفرد الأسقف في ابرآم ووافق الأرغن على رأيه ثم أعلنه جهاراً ، فصادف رضى من جميع الحاضرين ، وأمسكوا به ، وهتفوا بصوت واحد : « اكسيوس » (أى مستحق) . وسارعوا به إلى الاسكندرية حيث اقيمت حفلة الرسامة في الكنيسة المرقسية ، وبها أصبح ابرآم بن زوعة الخليفة المرقسي الثاني والسعين سنة ٦٨٤ ش (سنة ٩٦٨ م) .

٢٣ - وأول خدمة أداها الأنبا ابرآم بعد رسامته هي توزيع نصف ما يملك من مال وعقار على الفقراء والمعوزين ، والنصف الآخر على الكنائس

(١) مزمور ١٣٢ في الألفية (١٣٣ في الكتاب المقدس)

والأديرة ، عملاً بأمر الفادى الحبيب « بيع كل مالك واتبعنى » (١) .

٢٤ - وقد شاعت العناية الإلهية أن يتعم القبط وباباهم بالهدوء والطمانينة ، لأن المعز - الى جانب عدالته وسماحته - كان ولوعاً بالعلوم الروحية ولشدة ولعه بهذه العلوم كان يدعو رجال الدين - من مسلمين وقبط ويهود - ليتناقشوا امامه بكل صراحة ، معلناً ان حرية الرأى لها حرمتها ، وان على المتناقشين ان يبادلوا الحجة بالحجة من غير غضب ولا خصام . بل أن ولعه بهذه العلوم جعله لا يكتفى بهذه المجادلات التى سمح بأن تجرى امامه وإنما دفعه ايضاً إلى أن يجعل للأزهر هدفاً مزدوجاً : الأول كونه جامعاً يزدى فيه المسلمون الصلاة والثانى جعله معهداً تدرس فيه العلوم الدينية . كذلك كان أول من جعل لطلاب العلم فيه اعانات مالية وعينية تشجيعاً لهم على الدرس والاجتهاد (٢) .

وكان فى ديوان المعز رجل يهودى اسمه ابن كلس (٣) استضاف واحداً من بنى قومه اسمه موسى وأستصحبه عدة مرات الى دار الخلافة . فطلب ذات يوم من المعز أن يسمح له بمجادلة الأنبا ابرآم . وامتلأت نفس الخليفة رغبة فى ان يسمح ما قد يدور من الحوار بين البابا المرقسى وبين هذا اليهودى ولكنه فى الوقت عينه لم يرد ان يخرج الأنبا ابرآم الذى كان يحبه ويحبه فقال له : « ان شئت يوماً ان نحاجج اليهود بنفسك أو بواسطة من تختار من الأساقفة فتعال الى دارى ونناقشهم امامى . » وأدرك البابا الاسكندرى الرغبة الخفية التى حاول الخليفة سترها خلف هذه الكلمات المليئة ذوقاً وأدباً فاتفق معه على الموعد المناسب ثم اصطحب معه الأنبا ساويرس اسقف الأشمونين (كاتب سير البطارقة) وقصد إلى دار الخلافة فى الساعة المتفق عليها . ولما دخل إلى حضرة المعز وجد الوزير ابن كلس ومعه موسى . وبعد تبادل التحية جلس المهران القبطيان فى صمت . ومرت لحظات قال المعز بعدها : « تكلم ايها البابا الوقور أو امتنع رفيقك الأذن قس ، الكلام » . فالتفت الأنبا ابرآم الأسقف الأشمونى وقال له : « تكلم يا بنى ، ولتمنحك النعمة الإلهية حكمة من لدنها » . فقال الأنبا ساويرس :

(١) مرقس ١٠ : ٢١

(٢) القاهرة : تاريخها وآثارها لعبد الرحمن زكى ص ١٧ .

(٣) اعتنق الاسلام فيما بعد .

« ليس من اللائق أن يتحدث إلى يهودى فى حضرة الخليفة » . فاحتد موسى قائلاً : « انك تهيننى على مسمع من أمير المؤمنين إذ تستتج أننى جاهل » . أجابه الأنبا ساويرس : « ان قدمت لك الدليل على جهلك فلا تغضب » . وهنا قال المعز : « لا داعى للغضب فى المناقشة لأن الحرية مكفولة لكل منكم ليعبر عن عقيدته بصراحة ولا حرج عليه » فقال الأسقف الأشمونى : « لست انا الذى يستتج جهلكم بل أن نبياً عظيماً نال كرامة خاصة من الله هو الشاهد عليكم » فسأل موسى : « ومن يكون هذا النبى ؟ » أجابه : « انه اشعيا الذى قال عنكم : عرف الشور قانيه ، والحصار معلق صاحبه ، اما اسرائيل فلم يعرفنى » ^(١) فسأل المعز : « أهذه كلمات اشعيا النبى فعلاً ؟ » أجابه موسى : « نعم يا مولاي » . فاستطرد الأنبا ساويرس يقول : « ترى ان نبياً عظيماً من انبيائكم قد اعلن بأن الحيوانات اكثر فهماً منكم » . وسر المعز بهذه الدعاية ، ورأى ان يكتفى بها دون الخوض فى جدال أو مناقشة .

٢٥ - وقد استثار هذا الحادث حقد كل من ابن كلس وصديقه موسى على الأنبا ابرآم وشريكه فى الخدمة الرسولية الأنبا ساويرس فقرر الانتقام . وحدث ذات يوم أن حضر موسى على الآية المقدسة التى يقول فيها المسيح له المجد : « من كان له إيمان كحبة الخردل فانه يقول لهذا الجبل انتقل فيكون » ^(٢) . وفرح موسى لعثوره على هذه الآية إذ توهم انه يستطيع بواسطتها ان يقضى على القبط . ومن ثم بادر بالذهاب الى قصر المعز وقال له : « مكتوب فى انجيل النصارى أن من له إيماناً كحبة الخردل فقط فهو يستطيع ان ينقل الجبل . فحق لنا ان نطالبهم باثبات حقيقة إيمانهم . فان لم يستطيعوا وجب عقابهم بوصفهم شهود زور على الله تعالى . » ورأى المعز ان كلام موسى منطقى صحيح « فبحث فى طلب الأنبا ابرآم ، وحالاً وآه ابتدره بالسؤال : « احقاً ان لديكم آية فى الإنجيل تنص على ان من له إيماناً لا يزيد على حبة الخردل يستطيع بهذا الايمان ان يزحزح الجبال ؟ » فأجابه البابا الجليل : « نعم - لدينا هذه الآية » . قال المعز : « انه يوجد داخل حدود دولتى آلاف المسيحيين ومئات الآلاف .

(١) اشعيا ١ : ٣ .

(٢) مرقس ١١ : ٢٣ .

أفلا يوجد بهتهم واحد يستطيع أن يزحزح جبل المقطم ؟ ثم انك انت وليسهم ، فيجب أن تكون قادراً على عمل مثل هذه المعجزة . فان لم تستطع انت ولا غيرك ان تهيئوا لنا حقيقة هذه الآية فعلاً فسايدكم بعد السيف » . وكان هذا الطلب عجيبياً الى حد اذهل الأنبا ابرآم فلم يجر جواباً بل غاص في تأملاته بضع ثوان ، انته بهدها والتفت الى المعز طالباً اليه ان يمهله ثلاثة ايام . فوافق المعز على امهاله المدة المطلوبة .

٢٦ - وما ان خرج البابا الاسكندري من حضرة الخليفة حتى ذهب على الفور الى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالعلقة) وارسل في طلب الاساقفة المجردين بهابلون اذ ذاك والأراخنة وعدد من الرهبان كانوا قد جاءوها من شيهيت لقضاء بعض لوازم الأديرة . وحالما اكتمل عقدهم اعلمهم بما طلبه اليه المعز ، وقال لهم : « علينا بالصوم والصلاة هذه الأيام الثلاثة التي استعملتد اياها ليعرف الله علينا بنعمته ويهيى لنا طريق النجاة » . ثم طلب الى الرهبان ان يبقوا في الكنيسة ، اما الآخرون فمن شاء منهم البقاء بقى ، ومن شاء الذهاب الى بيته ذهب ماداموا جميعاً سيصلون ويصومون بنفس واحدة . وقد صام الجميع وصلوا بالفعل حتى اليوم الثالث . وفي فجر ذلك اليوم ، هنا الأنبا ابرآم غفوة قصيرة ، رأى خلالها السيدة العذراء وسمعها تقول له : « ماذا بك ؟ » اجابها : « انت تعلمين يا سيادة السحاثين والأرضيين » . قالت له : « لا تخف ايها الراعى الأمين : فلن انسى الدموع التي سكبتها هنا في كنيسة ، ولا الأصوام والصلوات التي قدمتها انت وشعبك . فأخرج الآن من الباب الحديدى المؤدى الى السوق ، وعند خروجك منه ستجد امامك رجلاً بعين واحدة حاملاً جرة ماء ، فأمسك به لأنه الرجل الذى سستتم المعجزة على يديه » . وما ان قاهت السيدة العذراء بهذه الكلمات حتى توارت عن عيني الأنبا ابرآم الذى صبحا من نومه وقام فى الحال فخرج من الباب الحديدى المؤدى الى السوق ، ورأى الرجل الذى اشارت اليه والدة الإله ماشياً امامه . وللوقت امسك به ، وادخله الباب الحديدى ، ثم اغلق الباب واطلعه على كل ما جرى بينه وبين المعز ثم ما اصرته اليه السيدة العذراء من أمره وعندها قال الرجل : « اغفر لى يا ابنتى قاتنى رجل خاطئ ، ولكن ما دامت ام التور هي التى حكمت على بأن اؤدى هذا الواجب العظيم فأنا اضع نفسى فى خدمتك » .

وهنا سأله الاتيا ابرآم عن اسمه وعن السبب فى انه سائر فى السوق فى مثل هذه الساعة المبكرة بينما الناس لا يزالون نياماً . فاجابه الرجل : « ان اسمى سمعان الخراز . وانا اشتغل بدباغة الجلود ولكنى اقوم فى مثل هذه الساعة من كل صباح لاملأ قرتى ماء . واذرع الماء على الكهول والمرضى الذين اعدتهم الشبخوخة او المرض عن المقدرة على استجلاب الماء لانفسهم . ولما انتهى من خدمتى هذه ، أعيد قرتى الى البيت وأذهب الى عملى عند صاحب مصنع الدباغة حيث أعمل حتى المساء . وعند غروب الشمس أخرج مع بقية الاجراء أكل القليل لأسد به رمقى ثم انصرف الى الصلاة . وقد رجل سمعان الخراز بعد ذلك من الاتيا ابرآم بأن يكتم حقيقة أمره طالما هو حى على هذه الارض .

٢٧ - ولما انتهى من حديثه قال للباها الاسكندرى : « أصعد يا أبى المكرم الى الجبل الذى يشير عليك الخليفة به ، وخذ معك رجال الدين والشمامسة والأراخنة ، واجعلهم يحملون عالياً الإنجيل والصلبان والشموع الطويلة الموقدة والمجامر محلاة بخوراً . واطلب الى الملك وحاشيته أن يصعدوا معكم . فتقفون أنتم على ناحية من الجبل ، بينما يتقنون هم على الناحية المقابلة لكم . وسأقف أنا خلف غبظتكم مباشرة وحين يستقر بكم المقام ، أقرأ ما تشاء من الإنجيل ثم ردد « كيرىاليسون » ^(١) « انت وكهنتك احدى وأربعين مرة . وأصمت بعد ذلك مدى لحظات ، ثم اسجد أنت وكهنتك معاً أمام العلى ، وكرر هذا العمل ثلاث مرات ... وفى كل مرة تقف فيها بعد السجود أرسم الجبل بعلامة الصليب فسترى مجد الله » .

وأحسن الباهيا الاسكندرى بأن ثقلاً قد انزاح من على صدره فعاد إلى الخليفة يبلغه استعداداه للصعود إلى الجبل لنقله . وصعد المعز مع جنوده وعدد من رجاله المختارين الى الجبل ، ووقف مقابل الاتيا ابرآم ورجاله الذين بدأوا صلواتهم حالما استقر بهم المقام . وعمل الباهيا الاسكندرى بنصيحة سمعان الخراز تماماً . فحدث أنهم - حين سجدوا بعد الصلاة والاسترحام - انخفض الجبل ، فلما وقفوا ارتفع الجبل . وكرروا الصلوات والسجود ثلاثاً فكان الجبل يتخفض ويرتفع كلما سجدوا ووقفوا بعد سجودهم . وحين رأى

(١) كلمة يونانية قبطية معناها « يا رب ارحم » .

المعز الجبل يهتز ، ولم يكن يتوقع ذلك ، هتف قائلاً « عظيم هو الله تعالى . وتبارك اسمه » ثم إلتفت إلى الانبيا ابرآم وقال له : « لقد أثبتتم أن إيمانكم إيمان حى حقا » .

٢٨ - وكان من الطبيعى أن تحدث هذه الآية شيئاً من الاضطراب فى صفوف من شاهدها جميعاً . فلما هدأت نفوسهم ، واستعادوا طمأنينتهم ، وبدأوا ينزلون من الجبل ليعودوا إلى منازلهم ، تلفت غبطة الهايا الاسكندري يمنة ويسرة باحثاً عن سمعان الخراز ولكنه لم يجده . ولم يعثر أحد عليه بعد ذلك . ويروى التقليد أن ملاك الرب اختطفه إلى السماء .

٢٩ - وفيما هم نازلون من الجبل ، التفت المعز إلى الانبيا ابرآم وقال له : « والآن اطلب منى ما تشاء فأقضيه لك » . أجابه هذا الهايا الحكيم : « لا طلب لى الا الدعاء إلى الله أن يطيل حياتك ويمنعك النصر على جميع أعدائك » . لكن هذا الجواب لم يقنع المعز إذ ألح فى أن يعرف رغبات الانبيا ابرآم الذى قال : « ما دمت تلح علىّ فى أن أعلن لك رغبتى . فأسمح لى بأن أقول اننى أتوق إلى إعادة بناء كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) ببابلون إذ قد هدمها بعض السوق واستعملوا ما بقى منها كمخزن للقصب . كذلك أود ترميم جدران الكنيسة المعلقة إذ قد أصابها بعض التصدع » . فما كاد الهايا الاسكندري يعرب عن رغبته هذه حتى أمر المعز أحد كتبة الديوان بأن يكتب مرسوماً يختم الدولة بخول للانبيا ابرآم الحق فى عمل كل ما طلبه . ثم أمر بأن تصرف النفقات اللازمة من خزانة الدولة . ولقد أخذ الهايا المرقسى الخطاب الذى يخوله حق البناء ، ولكنه اعتذر عن أخذ المال . فازدادت منزلته قدراً عند الخليفة .

٣٠ - وحين قرئ المرسوم الذى أصدره المعز أمام باب كنيسة أبى سيفين ، تجمع الرعايا محتجين صاخبين معلنين أنهم لن يسمحوا لأحد بأن يعيد بناء الكنيسة . وسمع الخليفة بما حدث فغضب غضبة مضرية دفعتة إلى أن يمتطى صهوة جواده ، ويذهب على رأس جيشه إلى بابلون ، إلى البقعة التى يبغى الانبيا ابرآم العمل فيها . وما أن وصل إليها حتى أمر البنائين بالعمل أمامه وتحت إشرافه وحين رأى الرعايا هذا الحزم من الخليفة المعز وقفوا صامتين ينظرون إليه وكان على رؤوسهم الطير . إلا أن شيخاً أعمام التعصب وحفره على استفزاز الشعب ضد القبط ، رمى بنفسه فى الحفرة

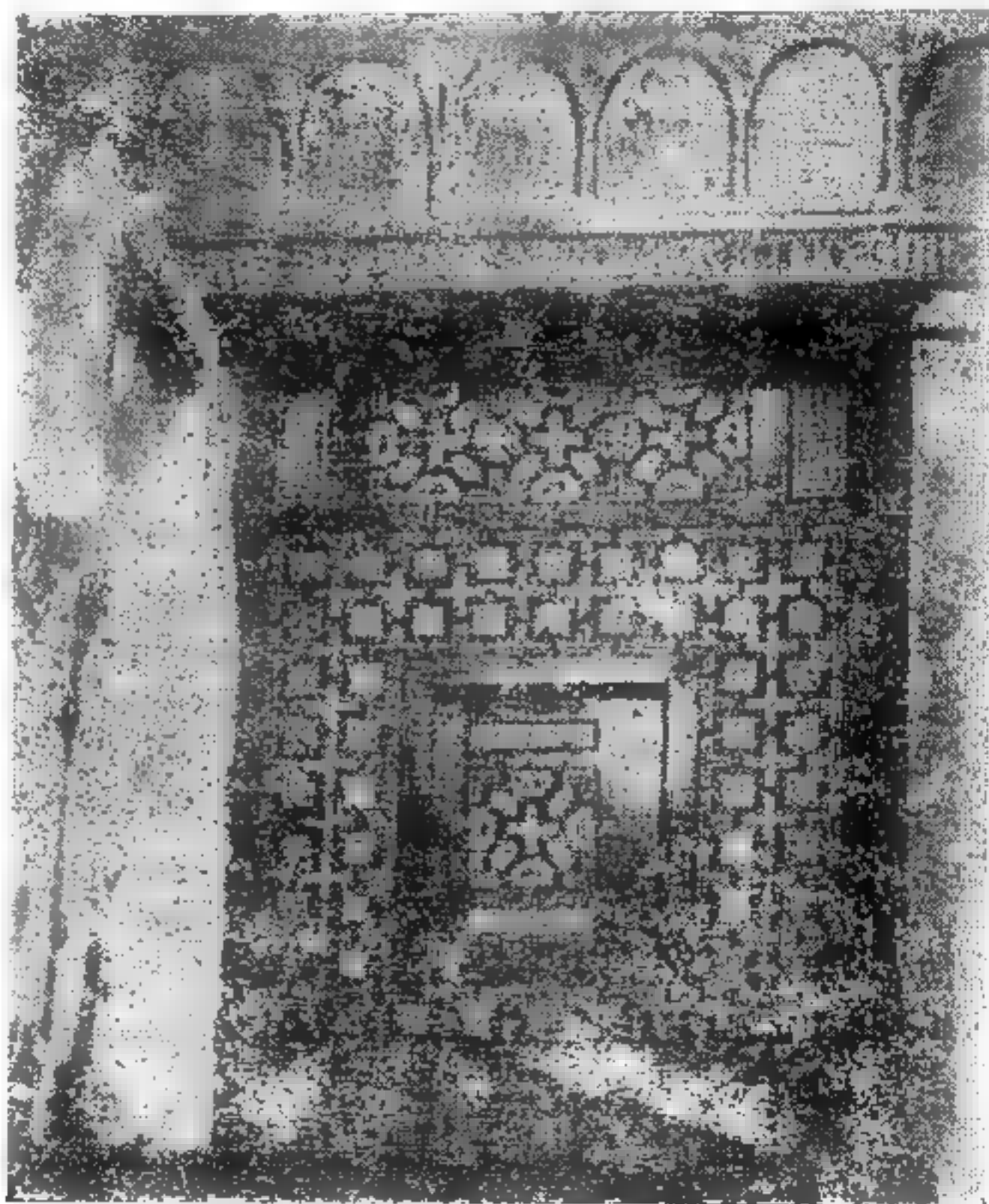
المهياة لوضع الأساس وهتف بأعلى صوته : « أنه لأهون على أن أموت اليوم من أن أرى الكنيسة وقد أعيد بناؤها » . وهنا قال المعز : « دعوه اذن في الحفرة ، وأرموا فوقه الأساس لكي يموت ويريحنا » . ولكن الاتيا ابرآم تشفع فيه ، ورجا من المعز أن يعفو عنه بحرارة واستعطاف مما جعل الخليفة يلين ، وبأمر عندها من جنوده بأن يخرجوه من الحفرة التي كان قد رمى بنفسه فيها .

٣١ - وكان تمهيد بناء كنيسة مرقوريوس (أبى سيفين) فائحة عهد من البناء والتجديد ، فتجدد عدد من الكنائس وبخاصة في الاسكندرية ^(١) . وقد استنفذت كل هذه الأعمال ما لدى الاتيا ابرآم من مال الى درجة أنه لم يتمكن من دفع الألف دينار التي كان من المتفق دفعها الى الاسكندريين . فتفاوض معهم ، واسترضاهم بأن دفع لهم خمسمائة دينار .

٣٢ - ولم يتجمل تقدير المعز للقبط في السماح لهم بترميم الكنائس وتجديدها فحسب ، وإنما بدأ أيضاً في أنه عين قبطياً متولياً للخراج أولاً في مصر ثم في فلسطين . وكان هذا القبطى هو أبو اليمى الذى كان قد حظى بالتقدير العظيم من كافور الاخشيدى . وكان أبو اليمى جديراً بهذه الثقة لأنه كان عفيفاً محباً للفقراء والغرباء تقياً مستقيماً . على أن ابن كنس الوزير اليهودى الذى كان قد تواطأ مع صديقه موسى على الايقاع بالقبط حين طلب إليهم نقل جبل المقطم كان لا يزال مترهباً لهم . ولم يرتدع هذا الوزير اليهودى حين رأى المعجزة تتم بالفعل ، بل راح يبيحث عن وسيلة أخرى لمطاردة القبط . ولما لاحظ الثقة التي يتمتع بها أبو اليمى عند الخليفة قال له : « أن أبا اليمى مستقيماً الى درجة تستطيع معها انتدابه ليتولى هناك جمع الضريبة المقررة على الفلسطينيين » . وقد صادف هذا الكلام صدى في نفس المعز فأمر بانتدابه فعلاً .

٣٣ - وكان أبو اليمى غنياً جداً يملك تسعين ألفاً من الدنانير . ولم تكن له عائلة إذ كان متبتلاً . فرأى عند انتدابه للذهاب الى فلسطين - أن يعهد بماله الى الاتيا ابرآم نفسه ، فسلمه إليه قائلاً : « احتفظ بمالى هذا عندك . وان شاء الله أن أصوت بعيداً عن وطنى الحبيب ، فأرجو منك

(١) السنكسار الاثيوبي - ترجمة الى الانجليزية والهمس يودج - طبع في كامبردج سنة ١٩٢٨ ج ٢ ص ٣٢٦ .



حجاب الهيكل بكنيسة القديس مرقوريوس (أبى سيفين)
ببابلون (مصر عتيقة)

أن تفضل بتوزيعه على الفقراء واليتامى والفرهاء والمسيكين تكفوفاً عن دنوبى . ثم سافر مستريح البال .

٣٤ - وقد نشط أبو اليمن في جبهة الضرائب فنجح في أن يجمع من الفلسطينيين مائتى ألف دينار . فعول على العودة الى مصر ليسلمها الى الخليفة المعز الذى اتسمه على جمعها . غير أنه - قبل أن يغادر فلسطين - اندلعت نار الثورة فيها على المعز ، فقد هاجمه القرمطيون ^(١) في سوريا وفلسطين . وخشى أبو اليمن أن ينتصر الثوار على جنود الخليفة ، فقصده إلى جبل طابور - خارج حيفا - وكان هناك دير يقع في أعلى هذا الجبل . فدخل الدير وتفاهم مع رئيسه ثم أودعه المال الذى جمعه ، ورجا منه أن يحتفظ به حتى يصغر الجو فيتسنى له أن يسلم الأمانة الى المعز . وبعدما خرج أبو اليمن وأخذ يتنقل بين مختلف البلاد الفلسطينية ، ويعمل على تهدئة الحوادر ، فنجح بنعمة الله في تهدئة النفوس الثائرة .

٣٥ - وفي تلك الآونة رأى ابن كلس الوزير اليهودى أن يعاود الدس للقبض ، فأتهم أبا اليمن لدى المعز بالانضمام الى القرمطيين . ومن عجب أن المعز صدق رواية هذا اليهودى ، فأمر باعتقال أقارب أبي اليمن جميعاً . غير أنه لما كان جبل الكذب قصيراً وحامله لا يد مشنوقاً به ، فإن ثورة الفلسطينيين لم تخمد نيرانها حتى عاد أبو اليمن إلى القاهرة حاملاً المائتى ألف دينار التى كان قد أودعها رئيس دير جبل طابور . فاحتدم غيظ المعز على خيانة ابن كلس المتكررة وأمر بالقائه في غياهب السجون ، وأخرج عن أقارب أبي اليمن معتذراً لهم عن الظلم الذى وقع عليهم .

وقد اشتهر عدد من رجال عائلة أبي اليمن في خلافة الفاطميين وأدوا خدمات جليلة لوطنهم ولكتبتهم ، ومن هؤلاء : الشيخ أبو المكارم بن حنا الذى اشتهر بتجديده قباب بيعة أبي نفر بالحراء ^(٢) والشيخ صنيعة الملك

(١) القرمطيون يرجعون بأصلهم إلى عبد الله بن ميمون القنّاج (من القدس) ورجع بنسبه إلى علي بن أبي طالب ، قام زعيمهم بثورة في كل البلاد الخاضعة للمباسيين في عهد المعتضد ثم عرج على فلسطين وسوريا - أطلق عليه لقب « قرمط » استغفافاً بقصر قامته .

(٢) كان يحيى الحراء (في طائفة القاهرة) عدد من الكتائب خدمت كلها في عهد السلطان برقوق المملوكى

أبو الفرج : والشيخ علم السعداء أبو اليمن : والشيخ أبو الفرج بن أبي اليمن^(١) .

٣٦ - وفي خلال التوتر والمعارك التي دارت على الحدود المصرية - الفلسطينية انقطعت أخبار أبي اليمن ومواطنيه من بني مصر عن أهلهم . وكانت القوات المصرية قد أحرزت نصراً ساحقاً على الثوار حتى أن زعيمهم سقط صريعاً في ساحة القتال . وانتشرت الشائعات - كما يحدث عادة في أيام الحروب - ومن بينها أن أبا اليمن راح ضحية الثوار . وانتظر الأنبا إبرآم لعل رسولا يأتيه من البلاد المشتعلة بالحرب ليبلغه أخبار أبي اليمن - انتظر من دون جدوى . فتوهم أن الشائعات حقيقة ، وأن أبا اليمن قد لاقى ربه . وعلى ذلك نفذ وصيته بتوزيع ماله على الفقراء وذوى الحاجة وعلى الكنائس والأديرة . فلما هاد أبو اليمن إلى مصر قصد لقوره إلى المعز وقدم له المال الذي جهاه باسمه . ثم توجه بعد ذلك إلى الدار الباهوية لينال بركة الأنبا إبرآم ويسأله عن المال الذي استودعه إياه . ودهش البابا الاسكندري حين رأى أبا اليمن داخلاً عليه ، إذ خيل إليه أنه رأى رجلاً أتياً من عالم الأبراج ... واستفهم منه عن كل ما جرى له . ثم أعلمه بما سمعه من أن الثوار قتلوه . وأنه - استناداً إلى هذه الأخبار - قد وزع ماله حسب الرغبة التي كان قد أبدأها له قبل رحيله إلى فلسطين . فقال أبو اليمن : « أنى شكور لك يا أبي الجليل لاهتمامك بخلاص نفسي لأن مالي الذي تكرمتم بتوزيعه ترحماً علىّ سيكون مقدمة مقبولة أمام عرش النعمة » .

ثم حل السلام محل الثورة والحرب ، فامتلاً قلب الأنبا إبرآم طمأنينة على شعبه الأمين . وكانت أيامه على هذه الأرض قد بلغت منتهاها رغم أنه لم يكن قد قضى على السدة المرقسية غير ثلاث سنين ونصف . ولكن هذه المدة - على قصرها - كانت مليئة بالأحداث حتى وكأنها دهر^(٢) .

(١) راجع دائرة المعارف القبطية لرمزي تادرس ج ١ ص ٧٣ .

(٢) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته إلى الإنجليزية بمسي عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر - المجلد الثاني - الجزء الثاني ص ١٣٥ - ١٥٠ ، كتاب تاريخ الأمة القبطية ص ١٠٩ - ١١٠ ليعقوب نخلة روفيلة .



نحت على الخشب صور به الفنان ميلاد المسيح له المجد يزين
حجاب كنيسة أبي سرجة ببابلون (مصر عتيقة) ويرجع أنه
يرجع إلى القرن التاسع .

٣٧ - وكان لتعاقب الليل والنهار أثره إذ قد خلا الكرسي المرقسى .
وقد خلا هذا الكرسي المجيد فى وقت خلا فيه عرش البلاد أيضاً . على أن
العزیز بالله اعتلى عرش أبيه المعز بهدوء واتسجام . وكان حاكماً ممتازاً :
فارساً ، بأسلاً ، ديباً ، كما كان صياداً ماهراً وقائداً جسوراً . وفوق هذا
كله فقد كان مرهف المشاعر ، ميالاً إلى السلام ، ذا طبيعة سليمة ، يمت
أراقة الدماء . وينفر من التخاصم ^(١) . ومثل هذا الملك كان منحة إلهية
للشعب المصرى المسكين الذى كان قد ذاق الأمرين تحت نير الولاة الظالمين ،
والذى كان متلهفاً الى تلك الحرية اللازمة لكل انتاج فنى أو علمى . فهياً
العزیز للمصريين هذه الفرصة السعيدة وأتاح لهم أن يتنفسوا الصعداء .

٣٨ - وابتهج القبط بهذه الفرصة . وسعدت نفوسهم بسلام داخلى
شامل انعكس فى ما أنتجوه من روائع فنية لا تزال تشهد بذوقهم الرفيع .
وربما كان الهدوء الذى سرى إلى قلوبهم سبباً فى أنهم ظلوا ستة شهور دون
أن يجتمعوا للتشاور فى اختيار من يجلس على السدة المرقسية وبعد
انقضاء هذه الفترة ، اجتمع الأساقفة والأراخنة فى القاهرة ليتداولوا معاً .
وفيها هم يوازنون مزايا بعض الرهبان الصالحين ذكر بعضهم اسم يؤنس
المتنسك بدير الأنبا مكارى الكبير ، ووافقت الأغلبية على انتخابه . ومن
ثم اتدبوا وقدأ منهم ليذهب إلى برية شيهيت ويأتى بهذا الراهب الفاضل .
وتوجه الوفد إلى الدير حيث تجمعوا فى استصحاب يؤنس هذا مع تلميذه
فيلوثيوس . ولما وصلوا به ، أمن الأساقفة النظر فى يؤنس وابقنوا انه
كهل ، يصعب على من فى سنه تولى القيادة ، فأثروا أن ينتخبوا تلميذه
فيلوثيوس إذ توسعوا فى هدوء ووقاره الكفاية اللازمة لقيادة دفة
الكنيسة . واتفقوا على رسامته دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن
شخصيته . فبادروا بالسفر إلى الاسكندرية حيث رسموه الخليفة الثالث
والستين للقديس مرقس سنة ٦٨٧ ش (سنة ٩٧١ م) .

٣٩ - وفى تلك الآونة كان فى ديوان الخليفة نفر من القبط يتمتعون
بنفوذ واسع . وكانوا جميعاً من عائلة واحدة هى عائلة بنى المطيع . على
أن هؤلاء الرجال كانوا مستبدين . إستغلوا مركزهم لفرض سلطانهم حتى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستالى لاين هول ص ١١٩ .

على البابا الاسكندري . فاشترطوا عليه أن لا يرسم أسقفاً على أية
إيبارشية من غير موافقتهم . ومع ما فى هذا الشرط من غرابة ومن خروج
على القوانين الكنيسة ، فقد نزل الأتبا فيلوثيريوس على رغبتهم . فكان
لرضا هذا أوجع العواقب . ذلك لأن بنى المطيع لم يكن لهم من هدف غير
تكديس المال . فكانوا لا يقيسون المرشح للأسقفية إلا بمقدار ما يستطيع
تقديمه لهم من مال وهكذا أهانوا كرامة الكهنوت إذ جعلوا السيمونية^(١)
قاعدة التعامل . ومن المحزن أن خليفة مارمرقس ترك المهمل على القارب
لبنى مطيع فلم يحاول أن يردعهم . ولم يتراجع عن تسليمه لشرطهم . بل
لم يذكرهم بأن تدخلهم فى الرسامة غير مشروع من أساسه .

٤ - وقد ضاعف المأساة فى هذا الموقف المحزن أن القبط فى تلك
الآونة كانوا يستمتعون بالحرية التامة^(٢) . ومقابل تراخى البابا الاسكندري
أهدى الخليفة العزيز همة عالية فى نشر روح التسامح والتفاهم فكان كثيراً
ما يدعو الأتبا ساويرس (كاتب سير البطاركة) ليتناقش مع القاضى ابن
النعمان . فكان كل منهما يستعرض أهم تعاليم دينه فى حضرة الخليفة
ورجاله . فيستمتع الجميع لهذه المناقشات فى هدوء ورضى . ولم يقف
تسامح الخليفة عند هذا الحد . بل أنه كان يرفض أن يلحق الأذى بالمسلم
الذى يعلن انضمامه لدين المسيح^(٣) . كما أن أحد هؤلاء المتصرين -
وأسمه الواضح بن الرجاء - أتاحت له القرص لأن يتناقش ويلقى الخطب
اللاهوتية علناً أمام المسلمين والقبط على السواء^(٤) . وكان الواضح
صديقاً حميماً للأتبا ساويرس أسقف الأشمونين وكاتب سير البطاركة .
فليس يستغرب أن القبط انتخبوا فى العصر الفاطمى - وبخاصة فى أيام
خلافة العزيز - من روائع الفن ما يشهد لهم بأنهم كانوا جديرين بأجنادهم

(١) السيمونية نسبة إلى سيمون الساحر الذى أراد أن يحتاج المراهب الإلهية بالفضة -
راجع أعمال الرسل ٨ : ١٨ - ٢٠ .

(٢) بل أن نفوذ الخليفة الفاطمى كان قد امتد إلى اليمن فخطب له على منابر اليمن
فى صلوات الجمعة - راجع « مصر ورسالتها » لحسين مؤنس ص ١١٥ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ بول ص ١٠٩ .

(٤) تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزير سوربال عطية ص ٨٩ .



نحت على الخشب صور به الفنان معجزة أشباع الآلاف بالخمسة
خيزات والسماكتين - وهو أيضاً يزين حجاب كنيسة أبي سرجة
ببابلون (مصر عتيقة)

ويجدر الانتباه إلى أن الفنان رتب الجالسين حول مائدة - مما يدل
على النظام الذي كان سائداً في العصر الذي تمت فيه هذه الصورة .

الفراعنة . وقد ترصعت فنون عديدة إذ ذاك كالنسيج ، والحفر على الخشب والعاج والمعادن المختلفة ، ونحت المرمر . كذلك شيدت المكتاتس والأديرة في مختلف البلاد المصرية ^(١) . فكان لهذا التسامح الملكي الكريم أثره في حفظ توازن الأمور القبطية - إذ أن الأنبا فيلوثيوس الذي بدأ بالرضى على أعمال بني مطيع انتهى إلى مشاركتهم طمعهم ومكاسبهم وقمع باقتناء الكماليات المريحة لجسمه دون أن يعبا بما يعانيه بعض أبنائه من فقر وحاجة ، أو ما قد يواجهونه من مشاكل . ومثل هذا الانزلاق أمر طبيعي ، لأن من اعتاد أن يهادن الرذيلة انتهى به الأمر إلى استحسانها ، ومن دأب على السعى وراء الفضيلة إزداد تعلقاً بها وسعياً وراءها - ولا عجب فقد قال المسيح له المجد : « من له يعطى ويزاد » ^(٢) .

٤١ - على أن الأب السعوى الذى وعد أن يكون مع كنيسته إلى الانتقضاء قد تداركها بوسع رحمة فيها السبيل لإعادة الصلات بين الكنيستين القبطية والحبشية . وقد تم التصالح بين الكنيستين نتيجة لشفاعته ملك النوبة فقد بعث ملك الحبشة بخطاب إلى جرجس ملك النوبة يصف له فيه بالتفصيل الثورة التى قادتها ملكة الحاموية ضده ، وانتصارها عليه ، والخراب الذى أحدثته فى بلاده . وبعد هذه التفصيلات رجا ملك الحبشة من أخيه ملك النوبة أن يشفع فيه وفى قومه عند البابا الاسكندري . معترفاً له بأنه هو وشعبه مقتنعون بأن كل هذه الريلات قد أصابتهم عقاباً لهم على مسلك آباءهم مع أسقفهم الذى كان قد رسمه لهم الأنبا قزما الثالث - خليفة مارمرقس الثامن والخمسون ^(٣) . واختتم ملك الحبشة خطابه هذا بقوله : « لهذا كله أتوسل اليك أن تشاركنا آلامنا حياً فى الله ، وإكراماً للإيمان الواحد الذى ندين به - اكتب إلى الأب البطريرك ، وأرجو منه يعلننا ويحل شعبنا من رباطات خطايانا ، وأن يصلى لأجلنا ليبدد الله تعالى كل هذه البلايا التى حافت بنا . كذلك استعطف لنا الأب

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث لجامسون فيبت ص ١٨١ وما يجدر الإشارة اليه هنا أنه تخلفت عن هذا العصر خريطة مصنوعة من الحرير ومرسومة بالذهب والألوان - راجع أيضاً تاريخ مصر فى المصور ... ص ١١
(٢) مت ٢٥ : ٢٩ .
(٣) راجع سيرته فى الجزء الثانى لهذا الكتاب .

البطريك ليرسم لنا أسقفاً راقية بنا حتى لا تتلاشى المسيحية من بلادنا ،
إذ لنا الآن ما يربو على ستين سنة هاتين بلا راح . فقد رقص خمسة من
اليهابوات الاسكندريين المتعاقبين على السلة المرقسية أن يرسموا لنا أسقفاً .
وأدى حرماننا هذا إلى نقص متزايد في عدد الكهنة لأنه لم يوجد بيتنا من
ملك سلطان رسامة كهنة جدد عند نياحة أى كاهن . فكانت التهجئة وبالأ
علينا وتدهورت حياتنا الروحية (١) .

وما أن اطلع جرجس ملك النوبة على خطاب العاهل الحبشى حتى يادر
بإرسال خطاب على جناح السرعة إلى الأتيا فيلوثيريوس ، وصف له فيه ما
يعانيه الأحباش عن آلام مبررة ، وأضاف اليه توسلاته لإتقاذهم برسامة
أسقف لهم وقد كملت مراحم الله لأن هذا الهايا الاسكندري صبحا إلى
مستوليته هذه المرة ورأى أن يتلقى راهباً صالحاً ليرعى الشعب الحبشى
المتوجع ، وانتهج المنهج الصحيح المنصوص عليه في القوانين الكنسية بدلاً
من اتباع القاعدة التى كان سائراً عليها منذ اتفاقه مع بنى المطيع . فانتخب
راهباً ورعاً اسمه دانيال معزهاً بدير الأتيا مكارى الكبير ، ورسمه وأرسله
لقوره إلى بلاد الحبشة . وحالما وصل الأسقف الجليل إلى مقر كرسيه سعى
جهده إلى تهدئة الخواطر وكانت للصلوات الحارة التى رفعها إلى عرش
النعمة استشفاعاً في شعبه أثراً كبيراً ، فاستطاع الملك أن يقهر الثوار
ويعيد السلام إلى بلاده . وهكذا تجمع شمل الإخوة المتفرقين ، وهادت
السكنة إلى الكرازة المرقسية بتأزر أبنائها وتآلفهم في القطرين المصرى
والأثيوبي .

٤٢ - وكان للحياة الودعة التى ثبت العزيز أركانها أثرها في
النفوس ، فزادتها نشاطاً وبهجة . وانصرف المصريون إلى تجاراتهم وزراعتهم
وصناعاتهم في أمان . وبالتالى ازداد دخلهم نعم الرخاء ودفع الجميع
الضريبة بسهولة ورضى . ونشئ الأغنياء قصوراً فخمة ، وشجعوا الفنون
الجميلة ، واستمتعوا بما في الحياة من جمال . ولما كان القبط ذوي نزعة
روحانية فقد هيات لهم هذه الفرصة أن يرضوا نزعتهم هذه ببناء الكنائس
العديدة وتجميلها ، وتجديد الأديرة وزخرفتها ، ثم يوقف العقارات عليها

(١) السنكلر الأثيوبي ترجمه إلى الانجليزية وليس بودج ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

عن سعة . وأحاطوا هذه الكتانس وهذه الأديرة بالحدائق فكان الخلفاء يستمتعون بهجمال هذه الحدائق إذ كانوا يقضون فيها أيام الراحة والاستجمام . وقد تغنى الشعراء والمسلمون بالأيام الهنيئة بين الطبيعة الرائعة في تلك الحدائق . وأبرز هؤلاء الشعراء الشاهشتي أمين المكتبة الملكية التي أنشأها الخليفة العزيز ، أبو بكر محمد الخالدي ، أبو عثمان سعد الخالدي ، أبو الفرج الاصفهاني ، ابراهيم بن القاسم الكاتب الملقب بالرشيق الذي قال يتشوق إلى مصر :

هل الريح أن سارت مشرقة تسرى	تؤدي تحياتي إلى ساكني مصر
فما خطرت إلا بكيت صباية	وحملتها ما ضاق عن حمله صدرى
لأنى إذا هبت قبولا ^(١) يتشرهم	شمنت نسيم المسك من ذلك النشر
فكم لى بالأهرام أو دير تهية	مصايد غزلان المطايد والقر
وفى بئر دوس مستعراة وملعب	إلى دير مارحنا إلى ساحل البحر ^(٢)

وأعظم الأيام التي قضها هؤلاء الشعراء في الأديرة كانت تلك التي يحتفل فيها الناس بأعياد ذكرى الشهداء والقديسين^(٣) . يتقاطر فيها الجماهير إلى الكتانس أو الأديرة فيمضون نهارهم بين الصلاة ثم الاستراحة تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ويصفون في المساء إلى سيرة الشهيد أو القديس يترتلها الكهنة والرهبان . وكانت هذه السيرة تنتهى عادة بمواكب غاية في الروعة^(٤) .

ولقد كان الاتسجام بين العزيز بالله وأمرائه وبين القبط بالغاً إلى حد أن الوزير اليهودي بن كلس عبر عن حقه في أبيات شعرية ساخرة قال فيها بأن من يبتغى الريح عليه أن يعتنق المسيحية فهي دين الحق ودين

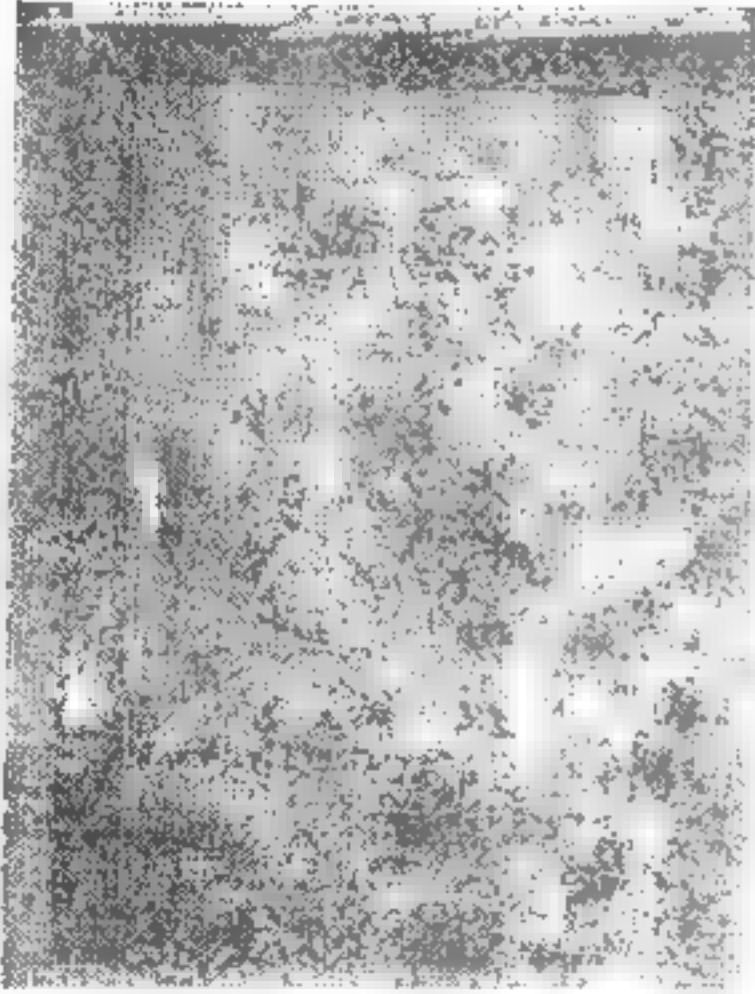
(١) المخطوط للمقرئى ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) راجع مقال الدكتور عزيز سوريال عطية نشره بالانجليزية في مجلة جمعية الآثار القبطية هام ٩٣٩ ص ١ - ٢٨ وعنوانه : « بعض الأديرة المصرية نقلًا عن مخطوط الشاهشتي لم ينشر بعد وهو (كتاب الديارات) » .

(٣) تاريخ الأمة القبطية لعقوب نخلة ووليلة ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ولا تزال هذه العادة سائدة الآن إذ تتقاطر الجوع على الكتانس والأديرة في أيام الذكرى الخاصة بالقديسين والقديسات ولا يعرف روعة هذه الزيارات المباركة إلا من أسعدته العناية الإلهية بتأديتها بنفسه .

المفانم معاً ١ على أن مثل هذه السخرية لم تؤثر إطلاقاً في نفس العزيز بالله بل أن كلس هذا جاء ذات يوم يشتكى بأن شخصاً ما كتب بعض الأبيات فيها تعرض بهما . أجابه العزيز : « أن نصف الإهانة خاص بنا فاشترك معنا في نصف المسامحة »^(١) .

ومن بين الذين نالوا منزلة سامية في عيني هذا الخليفة طبيب قبطي اسمه أبو الفتح بن مقشر . فقد بلغ التعاطف بينهما حداً بعيداً حتى أن الطبيب حين قائل للشفاء من مرض كاد يفتك به بعث إليه الخليفة برسالة غاية في الرقة . وقد أمتد العصر باين مقشر فاستمر يمارس مهنته بوصفه طبيباً للخليفة في أيام الحاكم بأمر الله أيضاً^(٢) .



منظر يمثل صفحة من مخطوط قبطي قديم وقد زين بزخارف نباتية وهندسية بالألوان والتذهيب بدقة رائعة . وقد استعملت تلك الزخارف في تزيين كثير من صفحات المصاحف الإسلامية الفخمة الهامة .

صود فريدة على رقع بالألوان الزاهية محفوظة على إحدى صفحات مخطوطات المتحف القبطي وترجع إلى القرن العاشر الميلادي غالباً وتمثل القديس يوحنا الرسول يحمل الإنجيله

(١) تاريخ الأمة المصرية ... ص ١٨٨ ، ١٩٤ .

(٢) تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي لعبد الرحمن زكي ص ٢٢ .

وفي العصر القبطي انتقلت شعلة الفكر والتأليف واقتناء المؤلفات الى الدير والكنائس القبطية القديمة وتبوءت مكانة الهياكل المصرية في العناية بجميع نفائس المخطوطات والمصنفات الدينية وقلما يخلو دير أو كنيسة من مكتبة زاخرة بكثير من الكتب المخطوطة على اختلاف أنواعها - وكان يوجد في كل دير عادة فئة خاصة من الرهبان كانت مهمتها القيام بالنسخ وتجليد المخطوطات . وقد فطن علماء الغرب منذ أزمان بعيدة الى أهمية تلك المخطوطات القبطية فتهاققتوا الى اقتناء أكبر مجموعة منها ونشطوا في حركة جمعها بكافة الطرق والوسائل وبذلك تسرب الكثير من كنوز تلك المخطوطات إلى أمهات مكتبات العواصم الأوروبية والأمريكية وكلها تعتبر تحفاً فنية نادرة وخصوصاً فيما يخصه من سمو الموضوعات وعلى الأخص الدينية واللاهوتية منها كما أن الكثير من صفحاتها تزدهن برسوم رائعة بالألوان الجميلة الزاهية المزينة بالليقة بدقة وإتقان يأخذ بالآهbab .

ومن مميزات العصر القبطي التي تسجل بالفخر والتقدير الكبير أنه العهد الذي بدأت تظهر فيه صناعة الكتب لأول مرة في تاريخ العلم . إذ فيه بدأت فكرة تكوين المخطوط من صفحات بأرقام متسلسلة وقبلها كانت تستعمل اللقائف البردية أو المدارج والأسفار أو الشقاقة أو العظام أو قطع الأحجار أو اللوحات الخشبية . وكان من نتيجة انتشار الكتب والمخطوطات أنها مهدت لنشر العلوم على اختلاقتها وبدأت فكرة الثقافة والمعرفة تسرى في جميع أنحاء العالم وانتشرت المكتبات كثيراً على أثرها (١) .



٤٣ - وكان العزيز - إلى جانب تسامحه وكرمه - ولوعاً بالعلم يرغب رغبة أكيدة في أن يرفع الشعب بتعليمه وتشقيفه . وقد وجد أن خير وسيلة للوصول الى هدفه في إنشاء جامعة داخل الأزهر الذي كان قد تم بناؤه قبيل دخول المعز مدينة القاهرة . وهكذا أسس أقدم جامعة لا تزال

(١) عن مقال للدكتور ولوف حبيب مدير المتحف القبطي السابق نشره في جريدة وطني يوم الأحد ٢٦ أكتوبر ١٩٦٩ بعنوان « المصريون أول من أبتدع المكتبات ومثلها الأعلى مكتبة الاسكندرية » .

تحمل مشعل العلم حتى الآن . ثم أنه كان أول من أجرى الأذواق على طلاب العلم ممن وفدوا من جميع نواحي العالم الاسلامي ^(١) .

كذلك أقر العزيز الرخاء بتشجيعه الصناعات . ومن أبرز الأدلة على عنايته بهذا النوع من الإنتاج النسيج المعروف بالديبقي (نسبة الى ديبق من قرى دمياط) . والديبقي نسيج من الحرير الملون فيه رقعات منسوجة من الذهب الخالص حتى لقد كان الذهب في القطعة الواحدة يبلغ ثمنه خمسمائة دينار عند الحرير والغزل ^(٢)

ولقد حكم العزيز واحداً وعشرين عاماً ، ولو أنه حكم ضعف هذه السنين لتضاعف فرح المصريين قاطبة لأنه دفع بهم إلى طريق الرخاء دفعة صادقة نادرة المثال . ولقد روى لنا المؤرخون كلمة جاءت على لسان هذا الخليفة الكريم تبين لنا مدى اهتمامه بالشعب وهي : « اننى أرغب فى أن أرى الرخاء فى كل بيت ، وانه ليسعدنى أن أرى اليوم الذى أستطيع فيه أن أعطي كل شعبى نصيبه من الفضة والذهب والحجارة الكريمة واليهوت والحقول ^(٣) .

واستتشق القبط نسيم الحرية فى فبطة وطمانينة رغم ما كان يملأ افئدتهم من الألم لضعف باياهم . فاستلهموا من ماضيهم الأمل لمستقبلهم ، وذكروا أنفسهم بالأمثلة التى لا تحصى فى تاريخهم عن العناية الإلهية الشاملة . فظلت ثقتهم فى مصير كنيستهم راسخة تدعمها ثقتهم فى الله تعالى .

على أن الأنبا فيلوثيئوس رغم تراخيه قد بنى فى الجهة الشمالية من سطح كنيسة القديس شنودة بياهلون كنيسة باسم القديس فلثاؤوس تشغل ثلث مساحة الكنيسة الأصلية . كذلك شيد مقصورة على اسم السيدة العذراء ملاصقة للخورس القبلى بتلك الكنيسة ^(٤) .

٤٤ - وحدث فى يوم من أيام الأحاد أن كان الأنبا فيلوثيئوس يسودى

(١) القاهرة : تاريخها وآثارها لعبد الرحمن زكى ص ١٧ .

(٢) المخطوط للمقرئى ج ١ ص ٢٢٦ .

(٣) مختصر للمقرئى ج ١ ص ٢٢٦ .

(٤) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لاغورد بطر ج ١ ص ١٤٨ .

شعائر القداس الإلهي في كنيسة مارمرقس بالاسكندرية . وبينما هو يرفع
القربان المقدس إذ به بصمت فجأة . وكان أسقفان يحضران الصلاة معه ،
فظنا أن موجة من النسيان طغت عليه فأسكتته ، ووددا على مسمع منه
الكلمات التي كان قد وصل إليها في الصلاة ، لكنه ظل صامتاً رغم هذا .
فكروا الكلمات ثانية ووجداء على صمته . وعندها تقدم الأنبا مرقس أسقف
البهنسا - وأكمل القداس عوضاً عنه . وفي الوقت عينه حمل الشماعنة
البابا الاسكندري إلى غرفته إذ وضع للجميع أنه مريض .

ولما انتهت الشعائر الدينية صعد الأساقفة والكهنة وأراخنة الشعب إلى
الدار البابوية للاستفسار عن صحة الأنبا فيلوثيريوس . فوصف لهم
بالتفصيل الرؤيا التي رآها والتي أسكتته مما زاد في مرضه ، إذ لم يتفوه
بكلمة واحدة بعد ذلك . وبعد أيام قليلة انتقل إلى دار الخلود بعد أن قاد
دفة الكنيسة مدى أربع وعشرين سنة وثمانى شهور^(١) .

أما الأنبا مرقس أسقف البهنسا الذي أكمل القداس الإلهي حيث تركه
البابا فيلقب بالكاتب . ويقول عنه القمص ميصائيل بعر أنه كان حاضراً مع
بابانا عند كتابة الرسالة المبهوثة رداً على استفسار البطريرك أثناسيوس
الانطاكي . ومكتنا الاستنتاج من تلقيب الأنبا مرقس بالكاتب ومن وجوده
ساعة كتابة الرسالة أنه هو الذي كتبها ولو أن أحداً لم يذكر هذا . وسواء
أكان الأنبا فيلوثيريوس البابا هو الذي كتبها أو كتبها الأنبا مرقس الكاتب
فهى تدل صراحة على أن الآباء كانوا محافظين على العقيدة الأرثوذكسية
التي تسلموها عاملين على توضيحها لمن يسألهم عن الإيمان الذي فيهم .
فقد جاء في هذه الرسالة : ... أعلم أن الله الابن الكلمة بتجسده خلق
له جسداً في بطن العذراء واتحد به وكان ذا نفس ناطقة عاقلة وهو البشر
التمام الذي اتخذه من غير نقص واتحد به الكلمة بوحداًية اقنومية لا تنحل
... والقول بأن الله تألم ومات وإنما بجسده وإرادته من أجلنا قول صحيح
ومستقيم ... لذا فإن الآلام والموت الحاصلة للجسد قد حسبت لهذا الواحد ،
لهذا الإله المتأنس ... وإنما موت المسيح تعالى كان بفارقة نفسه لجسده

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامي الهرموس عن النسخة
المحفظة بديره ج ١ ص ٣١٢ - ٣٢٤ .

فقط بحيث أن لاهوته لم يفارق أحدهما طرفة عين ولمح البصر فكان اللاهوت ملازماً للجسد على الصليب وفي القبر كما أنه كان ملازماً للنفس حال نزولها إلى عالم الأرواح البرية . قال أثناسيوس الرسولي : « أن الرب نزل إلى الجحيم لا بجسده بل بروحه وضبط كل الأرض لنلا تهلك قبل وقتها وأراق دمه عليها . ليحفظها ويحفظ ما فيها وترك جسده معلقاً في الهواء من أجل حفظ العناصر ونزلت روحه القدوسة إلى الجحيم وبشرت من كان فيه بالنجاة ، ثهب الجحيم وضبط الكل بجسده ، حملت روحه الأنفس التي كانت في الجحيم حين كان جسده معلقاً على الصليب . وفي ذلك الوقت انفتحت القبور . ولما أبصره يواكيم الجحيم جزعوا وهربوا . ومن ثم سحق أبواب النحاس وكسر متاريس الحديد . ولما حملت روحه الأنفس سكان الجحيم صعد بهم إلى أبيه ... » (١) .



(١) عن مقال للقمص ميخائيل بحر خاص بالقلم المنيا في العصر القبطي في مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة العددين الثالث والرابع (مارس وأبريل سنة ١٩٦٢) ص ٣٣ - ٣٤ .

ج - جرجس المزاحم

٤٥ - بينما كان المصريون جميعاً يتنسمون عبير الحرية والاستقرار في عهد العزيز بالله سرت بين بعض الرعايا من المسلمين موجة من الخلق حين رأوا القبط يصلون إلى منصب الوزير ويهوون رضى الخليفة وثقته . فكانت الأزجال والأقاويل الساخرة تتردد من فم لقم إلى حد أن بعض الشعراء كانوا يزجون بكتاباتهم في يده وهو سائر في الطريق . ومع أن العزيز ظل على تسامحه رغم كل هذه الأقاويل إلا أنه حاول تهدئة الخواطر بالمسألة أولاً ولكنه اضطر في نهاية الأمر إلى استعمال الحزم لإقرار السكينة (١) .

وفي فترة الخلق والتوتر حدث بعض الشغب في عدد من الأقاليم . ومن أقوى هذه الحوادث ما جرى في منطقة طلخا . وكان السبب في ذلك رجل اسمه جرجس المزاحم . ذلك أن جرجس هذا كان ابن امرأة مسيحية من أب مسلم . وكان اسمه « مزاحم » في صباه . وقد قضى الإثني عشرة سنة الأولى من عمره على دين أبيه . على أنه في هذه السن لاحظ أن أمه تذهب إلى الكنيسة في يوم الأحد فأحس برغبة ملحة في أن يتبعها ويرى ماذا تفعل داخل الكنيسة . ثم رجا منها عند عودتها أن تعطيه جزء من القربانة التي معها فلما ذاقها استلذ طعمها . وبعد ذلك استمر في تتبع أمه . واستقر رأيه فيما بينه وبين نفسه أن يصير مسيحياً . ومن ثم اعتاد أن يتردد على الكنيسة . وفي عيد السيدة العذراء قصد الأتيا زخاريوس أسقف دمياط ونال المعمودية على يدى أحد كهنته واتخذ اسم جرجس . ولهذا أصبح معروفاً باسم جرجس المزاحم . وبعد ذلك تزوج من سيولا ابنة القمص أبالوب راعى كنيسة بساط النصرى .

ولما علم أهله بحقيقة أمره أرادوا أن يقهضوا عليه بقصد إرجاعه إلى دين أبيه . فخافت عليه زوجته وهرته . وعندها ضربوها ضرباً مبرحاً . ثم اشتغل في معصرة للزيت فترة من الزمن . ولكن المترهين به عرفوا مكانه فبدأ بينهم وبينه صراع بلا هوادة : فتارة يلقونه في السجن وأخرى

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) استانبول لاين پزل ص ١٢ .

« تاريخ الكنائس الشرقية » (بالانجليزية) لعزيز سوريال عطية ص ٨٨ .

يضرهونه ، ومرة يذهبونه وأخرى يحاولون اغراءه بالمقتنيات العالمية . على أن وإلى المنطقة حاول اقصاصهم عنه وعرفهم بأنه كتب للسلطان يستفهم منه عما يجب عمله بمثل هذا الرجل . وبالفعل تركوه أسبوعاً في السجن من غير أن يتعرضوا له إطلاقاً . وكان هو خلال هذه الأيام يصلى بلا انقطاع ويستشفع برئيس الملائكة ميخائيل . فرآه في نصف الليل داخلاً زائراته وهو يحمل رداء أبيض كالثلج وقال له : « افرح يا جرجس يا عبد يسوع المسيح . ان لي اليوم أسبوعاً أسأل الرب هناك ، فأرسلني الليلة إليك بهذا الرداء لتكون لك به قوة . فتقدم إلى لأعطيك به » . وأطاع جرجس الأمر . وحين نشر الملاك الرداء عليه صار واحداً مع جسده . ورسم عليه علامة الصليب ، توارى عن عينيه .

وفي اليوم التالي بدأ جهاده . فكان الخائفون عليه يذهبونه إلى أن يداخلهم الشك في أنه مات فيتركونه ملقى في السجن ويذهبون لحال سبيلهم ويعودون إليه في اليوم التالي فيجدونه ما زال على قيد الحياة فيعاودون تعذيبه . واستمروا على هذا الحال من الحادى عشر إلى الثامن عشر من بؤونة ٦٩٥ ش (سنة ٩٧٩ م) . ثم جاءهم رسول السلطان إلى الوالى يحمل خطاباً فيه الأمر بتترك جرجس وشأنه . وقد قال الرسول السلطانى شفاهاً بأن اثنين من سكان القاهرة قد اعتنقا المسيحية وأن السلطان تركهما وشأنهما (عدا الواضح بن الرجاء) . ولكن حدة الغضب التى كانت قد استولت على القلوب جعلتهم يتجاهلون أمر السلطان . ففي صبيحة يوم الخميس ١٩ بؤونة ذهبوا إلى السجن وقالوا لجرجس بأن عليه أن يختار بين الموت وبين انكار المسيح . ولكن تهددهم ضاع هباء منثوراً إذ أعلن لهم استعدادهم لتقبل العذاب لا الموت فقط . وعندها أخرجه خارج البلدة وساروا به إلى شاطئ البحر وهناك ضربه على رأسه إلى أن تحطمت ثم قطعوا جسده ورموا بالأجزاء في البحر .

وحدث في اليوم عينه أن شماساً كان ماشياً عند الشاطئ فسمع صوتاً يقول له : « يا أيها المؤمن المار على هذا الشاطئ - باسم المسيح انتظر إلى أن تقلب الأمواج إليك بجزء من جسد الشهيد جرجس المزاحم . فخذ وأعطه لزوجته المباركة سيولا » . وانتظر الشماس حسب الأمر . وأخذ الجزء الذى قذفت به الأمواج إلى بيته . وأعطاه لأمه وأبلغها الرسالة التى

سمعها . فأخذت أمه الرفات ولقته بقماش أبيض وأوصلته إلى السيدة البارة
سيولا ، التي وضعت بهورها في بيت أبيها فترة من الزمن ثم في الكنيسة
بعد ذلك . وقد جرت منه آيات وعجائب عديدة ^(١) .



(١) عن المخطوط المحفوظ بكنيسة القديس الشهيد جرجس المزاحم - كتبه الراهب ميتا
الذي ضمن هذا القديس أمام الوالى حينما كان الوالى متورداً في أمره . وقد نشر على
هذا المخطوط إلى جانب الأيقونة التي تحتوي على رفات القديس الشهيد في هيكل
الكنيسة المسماة باسمه . وهذه الكنيسة تقع الآن تحت كنيسة السيدة العذراء القائسة في
بساط النصارى ، السنكسار الأثيوبي...ترجمة وليس يودج ج١ ص ١٠١٣-١٠١٥ .

السحب تتكاثر

- ٤٦ - وصاية برجوان على ولي عهد العزيز بالله .
 ٤٧ - سكرتير قبلى لبرجوان .
 ٤٨ - لاعب التاجر ابراهيم بن بشر .
 ٤٩ - ارادة الله تعالى تتجلى بصورة عجيبة .
 ٥٠ - الاتبا زكريا يعطى طائر ابراهيم بن بشر .
 ٥١ - شيخ سنين رجاء .
 ٥٢ - الفهم ينقلب برأساً .
 ٥٣ - الاحكام الثلاثة تفج على قوم دون غيرهم .
 ٥٤ - رمى الاتبا زكريا لاسود .
 ٥٥ - حرق كنيسة القيامة بالقدس الشريف .
 ٥٦ - صوت من الجراء والبسالة .
 ٥٧ - جهود بتيمة في خدمة المجتمع ورعاية ابن التسطل للشعب .
 ٥٨ - الابن الضال يرجع الى نفسه^(١) .
 ٥٩ - الراهب يعنى .
 ٦٠ - الطيب بعد الجنب .
 ٦١ - ولج الحاكم باحاطة نفسه بالظلم .
 ٦٢ - الملك موضع المحيطة باشتاء الحاكم .
 ٦٣ - نياحة الاتبا زكريا .
 ٦٤ - مدى حناني هذا البابا الاسكندري .
 ٦٥ - بولس بن الرجاء .

٤٦ - وأنتهت الواحد والعشرون سنة المرسومة لحكم العزيز بالله ، ففاجأت المنية وهو في حمامه في بلبس سنة ٩٩٦ م وكان له ابن دعاه الحاكم بأمر الله . وكأنه استشعر في أعماق نفسه أنه قد يموت قبل أن يبلغ وحيدته سن الرشد ، فرتب عناية منه بالشعب - أنه في حالة انتقاله الى الدار الباقية وابنه قاصر يقوم بالوصاية عليه وزيره برجوان . وحدث أن توفي العزيز وابنه في الحادية عشرة من عمره ، فتولى برجوان الوصاية عليه تنفيذاً لوصية العزيز وكان برجوان عبداً سلاوونياً^(٢) تربي في قصر الخلافة وأبدى من المهارة ما أكسبه ثقة الخليفة فرقاء درجة درجة حتى أقامه وزيراً ، ثم أوصى باقامته وسماً على ابنه القاصر . فلما وجد برجوان نفسه صاحب نفوذ واسع وثروة طائلة امتلاً غروراً زهواً ، فلم يكن بعيد النظر ولم يتبصر في عواقب الأمور، بل زعم أنه في أمكانه بسط نفوذه أكثر فأكثر .

(١) لوقا ١٥ : ١١-٣١ .

(٢) السلاوونيون هم القبائل التي انحدر منها الروس والبلغار وسكان رومانيا وبولانده وإيليريا وسيليزيا . ويوهيميا وبوميرانيا .

وقد نجح بالفعل في استمالة الجيش الى مناصرته . وعندها تجاوز حدود سلطته فتغافل عن رغبات الحاكم - وهو ولي العهد - ثم تمادى في غروره فتسلّى باطلاق اسم « وزعة » ^(١) على الحاكم بأمر الله . وربما كان مثل هذا القرار وهذا التعدي لحدود سلطته موزة لبرجوان لو أنه كان يعامل شخصاً مستكيناً . ولم يفتن الى أن تهجعه هذا يستثير غضب الأمير الموكل اليه أمره الى أبعد الحدود . على أن الحاكم - رغم ثورته النفسية ضد الوصى عليه - استطاع أن يتمالك نفسه أربع سنين كاملة . ولما بلغ الخامسة عشرة لم يستطع أن يكبح جماح غضبه ، فأرسل في طلب برجوان (الذي كان أستاذه أيضاً) قائلاً : « ان الوزعة الصغيرة قد أصبحت تنيناً كبيراً وهي تأمرك بالحضور » . وارتاع الوصى لهذه اللهجة ولكنه لم يستطع الا أن يلبى الأمر . وأدرك أن الزمام قد أفلت من يده ولكن بعد فوات الأوان . وما أن أدخل الى حضرة الحاكم بأمر الله حتى أصدر الأمر بقطع رقبته على الفور .

٤٧ - وكان لبرجوان سكرتير قبطي اسمه فهد بن ابراهيم معروفًا للحاكم لأنه كان يحمل رسائل رئيسه يومياً الى قصر الخلافة ويتلقى من المسئولين فيه أوامره بخصوصها . بل لقد كانت له خطورة كبيرة إذ قد قال عنه المقرئ في كتابه « الخطط » « انه في غطاس سنة ٢٨٨ هـ ضربت المضارب والأسرة في عدة مواضع على شاطئ النيل . ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان . وأوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون . وجلس مع أهله الى أن كان وقت الغطاس ففطس وأنصرف » .

وحيثما رأى فهد رأس برجوان تسقط على الأرض امتلأت نفسه فزعاً وأصفر وجهه اضطراباً . على أن الحاكم هدأ من روعه وأمنه على حياته ، بل لقد أطلق عليه لقب « الرئيس أبي العلاء » . فسمى فهد جهده لاكتساب رضا الحاكم وصار يترقى في المناصب المختلفة إلى أن أصبح وزيراً . واستمر في هذه الرتبة خمس سنين وتسعة أشهر انتهى معها رضى الحاكم بأمر الله فقتله ^(٢) .

(١) الوزعة هي السحلية الصغيرة .

(٢) تاريخ مصر في العصور الوسطى لتانلى لابن يـول (بالانجليزية) ص ١٢٨ ، « تاريخ الأمة القبطية » لمعقوب نخلة روفيلة ص ١١٤ ، ١١٦ .

٤٨ - وكانت سنة ٩٩٦ م من السنوات الحاسمة فى تاريخ مصر الطويل إذ لم تنتقل الخلافة فيها من يدى العزيز بالله إلى يدى ولى عهده فحسب بل لقد أعتلى خلالها بابا جديد للسنة المرقسية التى لم تبق شاغرة غير ستة شهور بعد نياحة الأنبا فيلوثيوس .

وكان فى الاسكندرية تاجر غنى اسمه ابراهيم بن بشر طمع فى اعتلاء الكرسي المرقسى وبخاصة لأنه كان صديقاً لجميع الولاة فى القطر المصرى . وكان يستعين بشروته لقضاء حاجاته هتدهم . فزعم - استناداً الى هذه الثروة عينها - أنه يستطيع الوصول الى الخلافة المرقسية . وبالفعل وجد استجابة من الولاة جميعاً .

٤٩ - وما أن سمع الأساقفة بما فعله ابراهيم بن بشر حتى عارضوه كل المعارضة فاجتمعوا فى كنيسة القديس مرقس الشهيرة باسم (القمح) للتداول معاً . وكان فى الاسكندرية إذ ذاك كان متبعل اسمه زكريا ، وقد جمع الى رعاية كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل - الاشراف على كافة الكنائس فى تلك المدينة ، وكان الأساقفة ضيوفه فى كنيسة مدة اقامتهم بالاسكندرية . فكرس نفسه لخدمتهم بأمانة تامة . ولتواضعه المتناهى كان يقضى حوائجهم وحوائج الكهنة والشعب بنفسه . فلم يخطر ببال أحدهم ترشيحه . إلا أن الله تعالى ، العجيب بالمجد ، الذى اختار داود مع كونه أصغر اخوته ، اختار هذا الكاهن المتواضع ليكون راعياً لشعبه . وقد تجلّى الاختيار الإلهى بصورة عجيبة تتلخص فى أن زكريا صعد إلى السطح ليستعصر من المخزن جرة خل للطهاغ . وفيما هو نازل انزلت قدماء فسقط وتدرج على عدد من الدرجات . وعلى الرغم من ذلك فقد قام وكأن شيئاً لم يحدث . فلم يصبه أى أذى ولا انكسرت الجرة . وحين علم الأساقفة بذلك قالوا : « حقاً أن هذا الرجل بار . إذ لولا بره ما حفظه الله من هذه السقطة » . وعندئذ بدأوا يستفهمون عنه من الكهنة والشعب . فأجمع الكل على أنه خادم أمين ، وراع ساهر ، ممتلى نعمة ومحبة ، مستعد لخدمة الصغير قبل الكبير . فاستقر الرأى بالاجماع على رسامته فى اليوم التالى إذ تصادف أنه يوم الأحد . وبالفعل ألفوا مركباً فخماً وساروا به الى الكنيسة المرقسية حيث احتفلوا باقامته الخليفة الرابع والستين للقديس مرقس البشير .

هـ - وفى تلك الآونة كان ابراهيم بن بشر فى القاهرة منشغلاً بمقاومة
الوالي ليتفق معه على أن يعاونه لكي يصل الى بغيته . وفعلاً حصل
على مرسوم سلطاني يخوله الحق فى اعتلاء الكرسي المرقسى . فزعم أنه
فاز حقاً بأمله ، وأخذ المرسوم السلطاني وسافر لفرره الى الاسكندرية لعله
يصلها والأساقفة لا يزالون فيها لكي يضعوا اليد عليه . على أنه وصلها
بعد فوات الأوان . لأن الأساقفة كانوا قد وضعوا اليد على المختار من الله
للهاوية قبل وصوله بساعات معدودات .

وما أن بلغ ابراهيم بن بشر مشارف الاسكندرية حتى سارع اليه أحد
أصدقائه وأبلغه أن زكريا راعى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل قد نال
الكرامة العظمى على أهدى الأساقفة . فلما سمع هذا الخبر أصيب برعدة
هزته من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، فهرع الى بيته وقد امتلأت نفسه
خيبة . وعندها رأى الأنبا زكريا وأساقفته أن يطهروا خاطره فاتفقوا على
رسمته أسقفاً على أول ايبارشية تخلص . ومن ثم زاره بعضهم وقالوا له :
« أن الهاوية دعوة من الله تعالى . فطوب نفساً ولا تضطرب . وعند خلو
أول ايبارشية سنرسمك أسقفاً . ولكن يشتهوا له عزمهم على تحقيق وعدهم
استصحبوه الى الكنيسة حيث رسموه قساً وألبسوه الملابس السوداء ^(١) .
فهدأت نفس ابراهيم بن بشر ، وزالت عنه الرعدة التي كانت قد اعترته .
ولما خلت ايبارشية منوف ، حقق له الأساقفة وعدهم له إذ قد رسمه الأنبا
زكريا أسقفاً عليها .

٥٩ - وكانت السنوات السبع الأولى لحلافة الحاكم بأمر الله سنوات سلام
واستقرار ، فكانت أشبه بالسبع سنوات التي سادها الشعب والتي سبقت
السبع سنين العجاف ^(٢) . وخلال هذه السنوات أهدى الحاكم عناية فائقة
بالشعب المصري الى حد أنه أمر بتعليق الفواتيم المضاعة فوق أبواب المنازل
وواجهات المحال التجارية بعد الغروب ليتمكن الناس من البيع والشراء ومن
السير فى الطرقات فى أمن وسلام حتى فى الليل . فاتسعت التجارة
وازدادت ثروة البلاد . ولم يكتف الحاكم بذلك ، بل كان يخرج بنفسه ليلاً

(١) يلاحظ أن هذه أول مرة توصف فيها الملابس الكهنوتية بالسواد .

(٢) تكمين ٤١ : ١٧ - ٣٩

ويتمشى فى الشوارع ويختلط بالشعب ، فيسمح للعايرين أن يقتربوا منه ويتفرسوا فيه ويكلموه . ولشدة فرح الناس بهذه المعاملة كانوا يرفعون أكفهم بالضراعة الى الله تعالى ليبارك خليفتهم الشاب .

ولم تقتصر عناية الحاكم بأمر الله على التجارة والصناعة ، بل شملت الثقافة أيضاً . فأنشأ مكتبة ضخمة أسماها « دار العلوم ودار الحكمة » ، وكانت جدران هذه المكتبة مزخرفة زخرفة فنية آية فى الإبداع . ولجملت الكتب فى هذه المكتبة من أركان العالم الأربعة . ولقد أباح الحاكم لسائر الناس دخولها : فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمعاير^(١) . وكان الطلاب يتعلمون الى جانب الفقه علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم . كذلك كان يسر الحاكم أن يدعو الأطباء والفقهاء وغيرهم ليهتناظروا كل فى موضوع تخصصه ثم يمنح المتناظرين جوائز قيمة^(٢) . كذلك كانت هناك سلسلة من الدراسات والمحاضرات فى الفلك والنحو والصرف والبيان والقانون^(٣) .

٥٢ - على أن هذه الهتامة لم تدم غير سنين سبع تبدل التصميم بعدها بؤساً وظلاماً . ذلك أن الحاكم كان ذا نزعة عنيفة للخفاء . وكان التعلق بالخفاء من شيم الفاطميين جميعاً منذ عهد المعز لأنهم ادعوا معرفة الغيب^(٤) . وأحاطوا أنفسهم بالكثير من الغموض ليكتسبوا نوعاً من القدسية والمهابة . حتى لقد بلغ الأمر أنه إذا رأى أحد المغاربة سحابة عابرة ترجل وانحنى لها بحجة أن الخليفة الفاطمى مستتر خلفها^(٥) . ولقد ظهرت هذه النزعة على أشدها فى الحاكم بأمر الله . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ محمد عبد الله عتات فى وصف الحاكم : « كانت شخصية الحاكم لغزاً مدهشاً ، وكانت خلاله مزيجاً من الأهواء والنزعات المدهشة المتناقضة فى

(١) مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال الدين سرور ص ٢٢٠

(٢) تاريخ الأمة القبطية - ليعقوب نخلة روقيلة ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣) مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين هول ص ١٢٠ .

(٤) المخطط للمقرئ ج ١ ص ٤٥٨ .

(٥) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين للدكتور عطية مصطفى مشرفة - الطبعة الثانية ص ٣٦ .

معظم الأحوال ... وقد رأينا أن هذا الذهن الهائم ، كما أنه يهبط في تصرفاته أحيانا إلى ضروب مثيرة من التطرف والتناقض والهوس ، فإنه يرتفع كذلك إلى ضروب من الحكمة والسحر تحمل على التقدير والتأمل . ولعل التاريخ الإسلامى لم يعرف شخصية يحيط بها الحفاء كملك الشخصية العجيبة التى تثير من حولها الدهشة والروح فى كل تصرفاتها الخاصة والعامة ، والتى يلزمها الحفاء لا فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن فى الحياة الأخرى أيضاً ، حيث تغادر هذا العالم فى ظروف كالأساطير . وتبقى هذه الظروف لغزاً على التاريخ حتى يومنا هذا ^(١) . ومحققاً لهذه لهذه النزعة كان كثيراً ما يدعو وزراءه للاجتماع به فى الليل . وكثيراً ما كان يركب حماراً رمادى اللون ويتسلق به جبل المقطم فى جتح الظلام بدعوى أنه سيرقب النجوم ويسير غور أسرارها . وهذا الفموض والتخفى الذى التحف بهما غيراً من معاملته لشعبه . فبدلاً من رعايتهم والسهر على راحتهم ، تحول إلى التضيق عليهم والبطش بهم دون سبب ظاهر . وكانت أوامره أشبه بهذيان المحموم . فمثلاً أصدر أمراً بمنع بيع البهرة والخمر ، فأمر بترك الكروم حتى تجف ، كما أمر بصب العسل فى النيل ! ثم أمر بقتل جميع الكلاب ، وعدم ذبح الماشية الا فى عيد الأضحى . وحدث أنه رأى أن يمنع السيدات من الخروج بتاتاً ، ولكن بضمن تنفيذ مثل هذا المنع الغريب أمر بمصادرة أحذيتهم ، وعدم صنع أحذية جديدة لهن . ولم يكتف بذلك ، بل حرم على النسوة التطلع من النوافذ أو الجلوس على أسطح المنازل . وكانت هذه الأوامر مشددة الى حد أن من تمسك على عصيانها كان جزاؤه الجلد وأحياناً الإعدام ^(٢) .

٥٣ - ولم يكن شلوة الحاكم منصفاً على فئة معينة بل ذاق الشعب كله الهول منه ، فعاش ثلاث سنين فى ذعر مما قد يصيبه ، اذا لم يعرف أحدهم من منهم سيكون الفريسة التالية ولا ما الأمر الشاذ الذى سيصدره الحاكم

(١) راجع مقاله « عصر الخلفاء فى مصر الإسلامية » الذى نشر فى مجلة الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين پول ص ١٢٥ - ١٢٦ ، مصر : من ميتا الى فؤاد الأول بالفرنسية لبول دى هنو ص ٢٣٤ . تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١١٥ - ١١٦ .

اليهم . وبعد أن اتقضت هذه السنرات الثلاث رأى الحاكم أن يختص قوماً دون قوم بأحكامه المقلقة ، فصب سهامه الى تحوير القبط وذلك بأن حكم عليهم بأن يعلق كل منهم صليبا من الخشب حول عنقه ، وأن يلبسوا جميعاً الملابس السوداء . ولا يمتنعوا بلبس الألوان الزاهية والأقمشة الناعمة . وحرم على القبطي تشغيل خادم مسلم في بيته . واستخفاف مراكبي مسلم أن شاء أن يعبر النيل ، ولكن يقطع على القبط سبيل الشفاعة قطع رأس فهد بن ابراهيم القبطي الذي كان وزيره مدى خمس سنين وتسعة أشهر . ثم استتبع هذه الأحكام بأمر يقضى بهدم الكنائس ومصادرة الأملاك الموقوفة عليها . وزاد على ذلك بأن استولى على الأملاك الخاصة . وبعد أن نشر الحاكم الفزع بهذه الأحكام المجازة ، أصدر منشورا أعلن فيه بأن من أعتنق الاسلام أصبح في مأمن منها كلها . فكان لقل هذا المنشور أثره في ضعف الايمان .

غير أن هذا كله لم يشبع شهوة الفتك التي استرلت على الحاكم آنذاك . فاستدعى كاهنا من كهراء القبط اسمه غبريال بن نجاح ، وعرض عليه أن يقتله وزيرا إن هو اعتنق الاسلام . فرجا منه غبريال هذا أن يهله أربعاً وعشرين ساعة . فلما قبل الحاكم امهاله ، هاد الى بيته ، وجمع عائلته وأهله وأصدقائه ، وأبلغهم العرض الذي عرضه عليه الخليفة . وأعلن لهم استعدادهم لأن يموت على دين المسيح . ثم أعطاهم وصيته الأخيرة . وبالطبع كان من بين قومه من حاول أن يثنيه عن عزمه ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . وذهب غبريال بن نجاح في اليوم التالي الى الحاكم ورجا منه أن يقتله وزيرا دون أن يشترط عليه الاسلام لأنه لا يهني عن دينه بديلاً . فشارت ثائرة الخليفة وأمر جنده بأن يجلدوه ألف جلدة . ولكنهم ما كادوا يصلون الى نصف العدد المقرر حتى كان ابن نجاح قد استردع ووجه يدي الآب السماوي .

واستمر الحاكم خطته التي اتبعها مع غبريال بن نجاح ورأى أن يجربها مع غيره ، فاستدعى عشرة من كبار القبط وأبدى لهم رغبته في أن ينضموا إلى الاسلام ، فرفضوا بالاجماع . وعندها نادى على جنده وأمرهم بجلد هؤلاء العصاة ، فانهالوا عليهم بالجلد قوفاً . ولم يلبث ستة منهم أن أسلموا الروح ، بينما أعلن الأربعة الآخرون رضوخهم لحكمه ، فكف الجند

عن جلد هم . وفي الليلة عينها مات واحد من هؤلاء الأربعة متأثراً بجراحه ويؤخذ ضميره . أما الثلاثة الباقون فانتزوا بعيداً عن الأنظار إلى أن مات الحاكم ، فظهروا مرة أخرى وأعلنوا توبتهم جهاراً فقبلتهم الكنيسة بفرح .

٥٤ - ويبدو أن الحاكم بأمر الله كان في تلك الآونة شبيهاً بالوحش الذي تتضاعف فيه شهوة الفتك إذا ما اشتتم رائحة الدم ، فلم يكفه ما فعله بالأراخنة والشعب بل زاد عليه ألقاء الأتيا زكريا في السجن مدى ثلاثة شهور . ثم أخرجه بعد ذلك من السجن ورماء للأسود . على أن الله تعالى الذي سد أفواه الأسود أمام دانيال النبي^(١) قد سد أفواه الأسود عن صفيه البابا السكندري ، فلم تقترب منه ولم تمسه بسوء . وحينما رأى الحاكم هذا ظن أن الحراس أطعموا الأسود ، فأمر بوضعها تحت حراسة خاصة ومنع الأكل عنها ثلاثة أيام . ثم أمر بذبح شاة وتلطيف ملابس الأتيا زكريا بدمائها قبل طرحه للأسود مرة ثانية . ورغم كل هذه الاحتياطات وقفت الأسود تنظر إلى البابا الاسكندري دون أن تقترب منه . فكان لموقفها بأزاء رجل الله أثر بعيد إذ قد أمر الحاكم بأمر الله باطلاق سراحه^(٢) .

٥٥ - ومن العجيب أن يكون الوحش أكثر انسانية من الإنسان في بعض المواقف ، وأن يحس بالرهبة أمام أصفىاء الله في الوقت الذي يتعدى عليهم اخوتهم من الناس . هكذا كان موقف الحاكم ، ولكنه انعط بالأسود وأخلى سبيل الأتيا زكريا ، ثم لم يلبث أن نسي الدرس الذي لفتته إياه هذه الضواري ، وعادته شهوة الفتك . على أنه رأى أن ينفس عنها بصورة جديدة ، فلم يقتل ولم يستعن بالكواسر ، بل أرسل أمراً عاجلاً إلى والي القدس يأمره فيه بحرق كنيسة القيامة . وخاف الوالي أن هو لم ينفذ أمر مولاه أن يلحقه الأذى . فاشعل النار في الكنيسة فوراً^(٣) .

على أنه أضمن في تعصفه بأن أمر كاتبه النصراني - ابن عبلون - أن

(١) دانيال ٦ : ٢٢ .

(٢) القول الامريزي للعلامة القريزي . طبع في القاهرة سنة ١٨٩٠ على نفقة مرقس جرجس ص ٥٨ . تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأتيا ساويرس أسقف الأسكوتيين نشره مع ترجمته إلى الانجليزية بمسى عهد المسيح ، عزيز سوريال عطية ، أرسولد برمستر - المجلد الثاني - ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) تاريخ الأمة المصرية ... ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .

يرقع بالثيابة عند أمر احراق كنيسة القيامة . وجبن هذا القبطى أمام بطش مولاه فرضى أن ينتقل أمره على الرغم من أنه وصف بأنه « ثقة ثقات السيف والقلم »^(١) ولكن الجبن لم يحم ابن عبيدون لأن الحاكم لم يلبث أن استغنى عن خدماته وأخرجه من ديوانه . وبعد أيام رأى الحاكم أن يستغنى عنه نهائياً فأمر بقتله وبمصادرة أمواله .

ولما كانت أهواء الحاكم فى تقلب مستمر فقد عين كاتباً نصرانياً بدل ابن عبيدون ولو أنه كان هذه المرة من الخلقيدونيين وهو زرعة بن عيسى بن نسطور . واستمر هذا الخلقيدونى يجمع بثقة الحاكم ما يقرب من عامين ثم أكتفهر الجو حوله فجأة فصدر الأمر بقتله من دون مقدمات . وامتد بطش الحاكم بعد ذلك الى جميع المسيحيين من خلقيدونيين وقبط فأمرهم بلبس السواد وتعليق صلبان من الخشب حول أعناقهم على أن يكون طول الصليب ذراعاً ووزنه خمسة أرتال ويوضع على الصدر فوق الثياب ليكون مرئياً من جميع المارة . كذلك تكون سروج الخمير والبغال التى يركبونها من الخشب والسيور السوداء الحالية من كل زينة ولا يركبون الحبل اطلاقاً . وتشدد فى تضيق الخناق عليهم بانزال أشد العقاب من لا ينفذ هذه الأوامر . فكان هذا التعسف سبباً فى دفع البعض الى انكار مسيحيتهم واعتناق الاسلام .

ولم يكتف الحاكم بهذا كله بل أمر بإبطال الاحتفالات التى كانت تقام حتى بعد ذلك العصر بأحد الشعانين وبعيدى الصليب والغطاس إذ كانت العادة أن يخرج القبط فى مواكب احتفالية رائعة : بالصلبان والشموع والمباخر ويطوفون بالشوارع وعلى ضفاف النيل حتى ساهات متأخرة من الليل . كذلك كتب الى ولايته فى مختلف بلاد مصر أن يستبجحوا أواني الكنائس وأوقافها مما أدى الى نهبها ثم هدمها . وفى هذه الضيقة هدم العامة دير القصير وهو أحد الأديرة التى طالما تغنى بها شعراء المسلمين . ثم قام بدور خاص بأن هدم كنائس خط راشدة والمقس واستولى على الأراضى التى كانت مقامة عليها كما استولى على كل ما وجد فيها من أواني وملابس^(٢) .

(١) المخطوط للمقريزى ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) شرحه ج ٢ ص ٢٨٧ و ٢٩٥ - وخط راشدة والملس كانا من الأحياء الواقعة خارج مدينة القاهرة . كما أن المقريزى يعلق على مدى السلب الذى حدث إذ ذاك بقوله : « فانتبهوا منها ما يجبل عن الوصف » .

٥٦ - على أن الأب السامو أبدي وأفعه كالمعتاد فهيأ للفتانين والصناع القبط طريقاً تظهر فيه مواهبهم . فقد كان ملك الحبشة يومذاك لاليبالا الذي رغب في أن يشيد عدداً من الكنائس فبعث إلى مصر برجاء إلى البابا المرقسي يطلب منه إيفاد الاختصاصيين في البناء والزخرفة . فسارع إليه عدد غير قليل ونحتوا له مجموعة من الكنائس في الصخور الطبيعية لا تزال للآن آية من آيات الفن المسيحي^(١) .

كذلك بدت المراحم الإلهية في مصر نفسها إذ قد رن صوت من المرأة والبسالة وسط اللعمر والإضطراب . فقد كان في ديوان الخلافة كاتب قبطي اسمه بقيرة ، شق عليه أن تنزل كل هذه الهلايا بقومه . فاعتزل منصبه ، وحمل صليبه ودخل قصر الخليفة . ولما وصل إلى بوابة ، وقف وصرخ بأعلى صوته : « أن المسيح هو ابن الله » فما أن وصلت كلماته مسامع الحاكم حتى استعضره وأمره بابتكار دينه . فكرر بقيرة في حضرة ما جاء به عند البوابة . والغريب أن الحاكم لم يأمر بقطع عنقه وإنما أكتفى باللقائه في السجن وتطويق عنقه بسلسلة حديدية . وذهب صديق له اسمه مينا ليعوده في السجن ، فوجده واقفاً يصلي في نشوة روحية عجيبة . فلما رآه على هذا الحال تهلل بالروح . وحينما هم مينا بالخروج سأل بقيرة أن كانت هناك أية رسالة يريد تهليفاً لأهله . فقال له بقيرة : « قل لهم طهروا نفوساً لأنني سأكون معكم الليلة » . وقد تحققت كلمات هذا الشاهد الأمين للمسيح ، إذ قد جاء مرسوم من الحاكم بالافراج عنه وإعنته الحرية في أن يتجول حيث شاء ، ويشغل بما يروق له من المهن . وبهذا المرسوم خرج بقيرة ، وأخذ ينتقل بين عائلات القبط ، يشجعهم ويعزي قلوبهم ، وينبئهم بأن هذه الشدة ستزول بعد ثلاثة أيام . ثم قرن كلماته المعزية بهدايا من الطعام والشراب - وظل بقيرة في مجواله ، وفي توزيع عطاياها خلال الأيام الثلاثة التي تنبأ عنها .

وفي اليوم الرابع صدر مرسوم بتوقيع الحاكم يأذن فيه للقبط بأن يياتشروا صناعاتهم وزراعاتهم وتجارتهم ، وأن ينتقلوا حيث شاؤوا بكل حرية . ومن أراد منهم أن يسافر إلى الحبشة أو غير من البلاد يستطيع ذلك دون مانع ولا عائق .

(١) كنيسة الأسكندرية في أفريقيا لظاهر رياض ص ٩٨ - ٩٩ .

٥٧ - وظل بقيرة بعد هذا الفرج يوالى زياراته ، فافتقد المحبوسين منهم والمعوزين والغرباء . وعشر ذات يوم على قبلى مسجون لأنه عجز عن أداء الضريبة المفروضة على من يعبر النيل ، فدفعها عنه وبذلك هباً له سبيل الحرية . ثم رأى بقيرة أن يقوم عند أتشاق الفجر ، ويبحث عن الأشخاص أو العائلات المعذمة تماماً ، ويقدم لهم الطعام والشراب عن سعة . وذات يوم اشترى عدداً كبيراً من الأرغفة وزعها كلها ولم يستبق منها رغيف واحد لنفسه . ولما كان معتاداً أن لا يأكل الا عند غروب الشمس ، فقد جلس يومئذ ليأكل الرغيف فى تلك الساعة . ولم يكذ يأخذ منه لقمة حتى دق الباب ، ففتحه ، وإذا بشيخ عجوز جاء يطلب طعاماً ، فأعطاه الرغيف على الفور لأن الدكاكين كانت قد أغلقت اذ كان الوقت ليلاً .

وكان بين الرهبان آنذاك كاهن اسمه أبو ياسر بن القسطل ، عالماً فاضلاً كثير التأمل فى الأسفار الإلهية وفى ما آل اليه القبط . وقد وجد نتيجة لهذا التأمل أن هناك أخطاء اجتماعية يمكن ملاحظتها بشئ من التبصر . فقد رأى الكثير من الأزواج فى شجار مع زوجاتهم لذلك كتب كتاباً قال فيه بأنه يجب على الخطيب والخطيبة أن يتقابلا متى انعقدت نيتهما على الزواج . لأنهما فى تقابلهما يعرف كل منهما أن كان قد راق فى عينى الآخر . ومتى قبل كل منهما الآخر من رضى ومن غير اكراه شرعت العائلتان فى اتخاذ اجراءات الزواج - وذلك منعاً لما قد يحدث من تخاصم نتيجة لجهلها بعضهما البعض أو للاكراه من جانب الآباء والأمهات . كذلك كتب ضد المختان اذ كان قد وجد أن بعض الآباء والأمهات يزعم أنه ضرورة الى حد أنه لا يعد طفله قبل اختتانه . فبين أنه عادة اجتماعية فقط كانت مفروضة عند اليهود ولكنها لم تعد فرضاً فى المسيحية فمن شاء ممارستها نفذها ومن لم يشأ تركها . أما المعمودية فهى الباب الوحيد الذى يستطيع المؤمن أن يدخل منه الى الإيمان المسيحى فهو ضرورة موضوعة على الجميع . على أن مثل هذه النصائح لم ترق لغالبية الإكليروس والشعب مما أدى الى طرده من الدير الذى كان مترهباً فيه . وكان هذا الدير بنواحى طرة وجبانه بستان فسيح زرعه واعتنى به هذا الكاهن فلم يسمحوا له حتى بالاقامة فى البستان . ثم حدث فى أوائل العصر الأيوبي أن صدر الأمر بالاستيلاء على أوقاف الأديرة والكنائس فكان هذا البستان ضمن ما تم عليه الاستيلاء .

وكان لأبي ياسر صديق يهودى شديد الولع بالبحث فى الأمور الروحية فكان كلاهما يتناقشان معاً فى هذه الموضوعات . ولقد نجح أبو ياسر فى أن يجتذب صديقه اليهودى الى الإيمان المسيحى . فدأب هذا الصديق على الدراسة وعلى تعلم اللغة القبطية الى حد أنه رسم شماساً على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة حيث عاش الى النفس الأخير مكرساً كل جهوده لخدمة هذه الكنيسة وشعبها ^(١) .

٥٨ - وفى تلك الأثناء عاود الحاكم بأمر الله خطة الارهاب فأمر باغلاق عدد كبير من الكنائس . ولما كان لا يتورع عن الاستخفاف بأى شخص علت مكانه أو كبر سنه . فقد رأى أغلب الأساقفة أن يلجأوا الى الصحراء ليجتنبوا الفرصة للتعبد والتضرع الى الله تعالى أن يتراخى على شعبه . واعتاد بعض المؤمنين أن يقصدوا الى الصحراء مرتين سنوياً : فى عيد الغطاس وفى عيد القيامة ليتمكنوا من الصلاة فى مأمن من غدر الحاكم . على أن الغالبية لم تستطع الذهاب الى الصحراء لبعد المسافة من جهة ولأن السفر اذ ذاك كان شاقاً بالإضافة الى ما يتطلبه من مصروفات . ولكن تستطيع هذه الغالبية أن تستمتع بالمشاعر الدينية . لجأت الى رشوة الحراس ليتفادوا عنهم بعد الغروب . ومن ثم اعتادوا أن يقيموا صلواتهم ليلاً بدلاً من النهار . واستمرت هذه الحالة غير الطبيعية تسع سنين متتالية . وحدث ذات يوم أن تجمع عدد من القبط الذين أنكروا الإيمان هرباً من الضيق . ووقفوا بجموعهم فى طريق الحاكم . وما أن رأوه حتى هتفوا بصوت واحد : « أسمع لنا أن نعود الى ديتنا » فسألهم : « أين صلبانكم وأحزمتكم وغيرها من العلامات التى أمرت المسيحيين بحملها ؟ » فأخرج كل منهم لقفور الأشياء المظلمة التى كانوا يخفونها بين طيات ثيابهم . وعندئذ أمرهم بأن يلبسوها أمامه . ففعلوا . فسمح لهم بالعودة الى دينهم . وأعطى كلا منهم كتاباً يضمن لهم الأمان على حياته ومباشرة أعماله والتنقل حيث شاء .

٥٩ - وحدث أن كان بين القبط الذين أسلموا وعادوا الى مسيحيتهم بهذه الوقفة القريبة راهب اسمه يمين . وتقدم هذا الراهب الى الحاكم برجو

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١٥٠ - ١٥٣ . دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ١٧ .

منه أن يسمح له بتجديد دير على مقربة من القاهرة يعرف بدير شهران .
فمنحه الأذن على الفور . ولما انتهى يمين من تجديد هذا الدير اجتمع معه
عدد من النساك . وعاشوا معه عيشة مشتركة ونال يمين حظوة عظيمة في
عيني الحاكم إلى حد أنه كان لا يرفض له طلباً . فاعتاد كل قبطي أن يلجأ
إليه إن كانت له حاجة عند الحاكم . كذلك اعتاد الخليفة أن يذهب إلى هذا
الدير ليقضي فيه أياماً للتسامر مع الرهبان (١) .

٦- وكان الأنبا زكريا قد قصد إلى دير الأنبا مكارى الكبير ببرية
شبهت على أثر الأفراج عنه من سجنه ليجد في رحاب الصحراء وسكونها
الهدوء والاستقرار اللازمين للصلاة والضراعة . وهناك قضى أيامه ولياليه
يصلى بدموع غزيرة لكي يتراطف الله على شعبه . فلما حل السلام بعد
سنى الأهوال التسعة . تقدم يمين إلى الحاكم يرجو منه أن يأذن له بالذهاب
إلى برية شيهيت ليطلب إلى البابا الاسكندري أن يعود إلى مقر رياسته .
وكما يتساقط المطر فيحمل الحصب في نقاطه . هكذا تهدد سخط الحاكم
وغضبه إلى رضى مثير . فلم يأذن للأنبا زكريا بالعودة فحسب . بل أبدى
رغبته في أن يقابله . وعندها سارع المندوبون إلى برية شيهيت يحملون إلى
البابا الاسكندري أخبار السلام الذى أشتت . فعاد معهم . يصحبه عدد من
الأساقفة . وقصدوا جميعاً إلى دير شهران وبعد أيام من وصولهم . جاء
الحاكم إلى الدير . وسأل يمين عنهم . ولم تمض دقائق حتى دخل الجميع
قاعة الاستقبال . وتفرس الحاكم فيهم واحداً واحداً وقد بدت أمارات الدهشة
على وجهه . لأن الأنبا زكريا كان قصير القامة . بسيط الملبس . خالياً من
كل مسحة الوجاهة أو الرسامة . ورغم ذلك فقد حقه الوقار وشع منه
الجلال . وكانت غالبية الأساقفة طويلة القامة . لا يخلو أحدهم من وجاهة .
وقد أحاطوا جميعاً بباباهم في احترام وألفة . وسألهم الحاكم : « أهذا
كبيركم » أجابوه : « نعم . هو يمينه » . فعاد يسألهم : « وإلى أين
يمتد سلطانه ؟ » قالوا : « ان سلطانه يمتد من مصر إلى النوبة فالسودان
فالبحشة جنوباً . وإلى الخمس مدن غرباً وإلى فلسطين شرقاً » . واستمر
الحاكم فى تساؤله : « وبأية قوة يستطيع أن يجعل هؤلاء أقوام
يطيعونه ؟ » أجابوه فى ثقة : « لا قوة له إطلاقاً . ولكن هؤلاء الأقوام

(١) تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١١٩ .

يطيعونه بقوة الصليب » ولأن الحاكم كان وقتئذ في ساعات رضاء فقد أعجب بصراحتهم وقال لهم : « أنتظروا قليلاً » ثم غادر قاعة الاستقبال وجلس في المكتب حيث كتب مرسوماً جاء كالغيث بعد الجفاف . فقد نص على فتح الكنائس المغلقة ، وتجهيد المتداعية ، ورد جميع الأملاك المصادرة الى أصحابها - سواء في ذلك الأملاك الموقوفة على الكنائس أو الأملاك الخاصة . كذلك نص هذا المرسوم على أنه لا داعي لتعليق الصلبان الخشبية وغيرها من العلامات على الصدور ، وعلى السماح بدق أجراس الكنائس في مواعييدها . فكان يوماً سعيداً حقاً : يوماً استعاد فيه القبط كامل حريتهم للعبادة وللعمل وأحسوا بالاستقرار النفسي وسعدوا بالسلام. فخرجت جموعهم كهنة وشعباً الى الكنائس ، ورفعوا شكرهم للأب السماوي الذي تداركهم بمراحمة . ولم يعودوا في حاجة الى الذهاب للصلاة في الصحراء لأن مرسوم الحاكم هياً لهم الفرصة لتعميد الغطاس على ضفاف النيل كما كانوا يفعلون في أيام العزيز والمعز كذلك استعادوا الحرية في أن يطوفوا الشوارع بمواكبهم آحاد السعف، فرنت أصوات ألعانهم في الطرقات والميادين مرة أخرى ^(١١) .

(١١) من الأدلة على تسامح المعز والعزيز ثم الحاكم حين تاب إلى رشده أنه يوجد في القترينة السادسة بالجهة الشرقية في الخزانة حرف D بالمتحف القبطي ملف على ورق كان ملصق على قماش يتضمن ألعاناً لرهان الأديرة هذا نصه : « عماراتكم ولا تطالبوا بحشد في حرب ، ولا بخروج وإعزاز كل راهب يخرج منكم إلى الضاحج للتعيش فيها ورضاء حاجات من وراء منكم وألا تلتزموا بعمل يحمل النصر من الميرة وما يجري مجراها مكساً ولا غرماً قل أوجل وأن تحفظوا ما لكم من زرع وغلة وعوامل من مهاني النواحي وألا يحترض ما يخلفه بموت من رهبانكم خارجاً عن دياراتكم في حال تردده إلى الريف وغيره لتتصرف في مآربكم من كل شئ يملكه ليكون جمعية عانداً على إخوته في رهبانيته دون كل قريب له ونسب غيرهم فإن الإمام المعز لدين الله والإمام العزيز بالله والإمام الحاكم بأمر الله قدس الله أرواحهم تقدموا يكتب سجلات بإمضاء ذلك كله لكم وسألتهم كتب سجل بتجهيدها كانت أمضته لكم الأئمة وتؤكد ما دعتهم أكافئكم من الحرمة وحفظ ما لكم من هذه الموات والأزمة فأمر أمير المؤمنين يكتب هذا السجل المنشور يحملكم على مقتضى النص المذكور وموجب الشرع المنظور وإقراره في أيديكم حجة بذلك باقية على مر الأيام والعهود حتى لا يعترضكم معترض بما يزيل هذا الاتعام عن حده أو يتأول متأول بما يصرقه عن جهته وقصده والذنب عنكم لمن قراه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة والمتصرفين في الأموال والجيابة وسائر هيبة الدولة وخدمها على اختلاف طبقاتهم وتراجع درجاتهم فليعلمه من أمير المؤمنين ورسده ليعمل عليه ويحسبه إن شاء ...) مرشد المتحف القبطي لربيع شتودة ص ٨٢ - ٨٣ .



قطعة من النسيج عليها كتابة كوفية وزخارف مسيحية - صناعة الفيوم في
القرن العاشر الميلادي - محفوظة بدار الآثار العربية رقم السجل ٩٠٥٢ .

نشرت مع مقال للدكتور زكي محمد حسن عنوانه « بعض التأثيرات
القبطية في الفنون الإسلامية » في مجلة الآثار القبطية - المجلد الثالث -
القاهرة سنة ١٩٣٧ .

على أن التأثيرات القبطية امتدت خلال الفنون الإسلامية إلى أوروبا فيقول
المستشرق الفرنسي جاستون فييت ما نصه :

(L' Europe se mit à l'école de la civilisation Orientale : la production en Occident se transforma . C'est d'Orient que nos ancêtres apprirent à fabriquer les étoffes de luxe - le satin, le velour, les étoffes brochés d'or et d'argent, ou les tissus légers comme la mousseline, la gaze, le taffeta .. avec l'usage de l'alun pour fixer les couleurs ..C'est encore à l' Orient que l'Occident emprunta l'art de faire le papier, la confiserie, les sirops . De la même source, enfin, nous vinrent certaines espèces, dont la culture devait susciter des industries nouvelles Comme la canne et le lin ...) .

وترجمته ما يلي : « لقد انتسبت أوروبا إلى مدرسة الحضارة الشرقية وبذلك تطور الإنتاج في الغرب . فمن الشرق تعلم أجدادنا نسج أقمشة كالساتان والقطيفة والأقمشة المزركشة بالذهب والفضة والأقمشة الخفيفة كالموسلين والشفيرن والثقاقاء ... مع استعمال حجر الشب (الشبة) لتثبيت الألوان ... ومن الشرق أيضا تعلم الغرب صناعة الورق والحلوى والشرابات . ومن المنبع ذاته وردت إلينا أنواع معينة من النبات التي أدت زراعتها إلى قيام صناعات جديدة : كالكتان والعييل » (١) .



(١) « تاريخ الأمة المصرية » ج ٤ مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني
سنة ٦٤٢ - سنة ١٥١٧ م لجاستون فييت ص ٣٨٦ .

٦١ - على أن الحاكم - رغم عودته إلى جادة الحق في معاملة القبط - ظل يحيط نفسه بالخفاء والغموض الذي كان شيمة آله جميعاً . فاستمر يخرج ليلاً بمفرده على ظهر حماره ويصعد فوق جبل المقطم والظلام مخيم . وفي هذا التجول الليلي ، كان يلبس ثوباً أبيض وعمامة بيضاء ، ويكتفي بهذه البساطة المتناهية في اللبس ، فلا يتحلى بجمهرة واحدة - سواء في ثوبه أو في عمامته . وكان قد بنى مرصداً للنجوم في أعلى هذا الجبل ليقضى فيه الساعات الطويلة . وكانت إحدى وسائله لإرهاب شعبه ادعاؤه معرفة الغيب والرؤيا في الظلام . حتى لقد اعتقد بعض الناس أنه يستطيع أن يستشف الحقايا . وكان خروجه ليلاً بمفرده لا يحيط به حرس ولا يمشي خلفه تابع ، لأن الخفاء الذي أشاعه عن نفسه وقوته الجسمية الخارقة وعدم تورعه عن الفتك بأي شخص - كل هذه الصفات أحاطته بسياج من الرهبة وكانت بمثابة حرس ساهر عليه .

٦٢ - ثم تجاوز الحدود وادعى الألوهة . وتشبهتاً لهذا الادعاء في القلوب أعلن حرمان ابنه الظاهر من العرش وأوصى بتوليده أحد المشايخين له من بعده كذلك ظل يبطش بالمسلمين رغم مهادنته القبط ، وزاد على هذا كله تعرضه بشرف أخته التي قضت حياتها بغير زواج والتي كانت على جانب كبير من الذكاء والدهاء . فتقمت عليه ، وتآمرت ضده مع بعض المتبرمين به من حرس القصر . فحدث بعد أن عرض الحاكم بشرف أخته بأيام قليلة - أن خرج ليلاً كالمعتاد ولم يعد . ولم يعثر أحد على جثته ولا حتى على بقية منها ، مع أن حماره وجد مشغناً بالجراح . وظل اختفاء سرّاً مكتوماً . فادعى مشايخه أنه اختفى مؤقتاً وأنه سيعود إلى الظهور يوماً ما ، بينما أشاع غيرهم أنه قصد إلى جبل الدروز حيث نادى بدين جديد ^(١) . وهناك تقليد قبطي يقول أنه ذهب إلى دير شهران حيث تنصر وقضى بقية حياته في هدوء وانزواء . وقد تولت أخته الملك سنتين ثم سلمت مقاليدته للأمير الظاهر الذي كان قد حرمه أبوه .

٦٣ - أما أنها زكريا فقد عاش ثلاث سنين بعد الحاكم ، تمتع خلالها

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤن پول ص ١٣٣ - ١٣٤ مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثاني المبحث الثاني لجاستون فيبيت ص ١٨٢ - ١٨٣ .

هو وشعبه بالأمن والاستقرار . لان أخت الحاكم أولاً ثم الظاهر ثانياً اتبعا خطة المعز والعزیز فی حسن المعاملة وفي اقرار حق الجميع : مسلمين وقبط سواء بسواء . وتنسم القبط عبير هذه الحرية فرحين مسبحين الله الذي فرج كربهم وأراح قلوبهم بعد التعب والعناء ^(١) .

٦٤ - ولقد تجلت نعمة الله تعالى فی شخص الأثينا زكريا إذ كان عطوفاً على اخوته الأساقفة وعلى أبنائه الكهنة والشعب . وقد بدا هذا العطف واضحاً بأزاء الأثينا مرقوريوس أسقف تلانة . فقد أصيب هذا الأسقف فجأة بالبرص ، فامتلات نفسه حزناً وقصد إلى دمره حيث كان الهابا الاسكندري مقيماً . وما أن وقعت عيننا رجل الله على أخيه المريض حتى أنهمرت الدموع عليه وقال له فی دعة وتراجع : « اننى حزين القلب من أجلك يا أخى ، لكن اسمع لى أن أقول لك أن كهنتك فی خطر ان لم يرفع الله عنك هذا المرض لأنه من الأمراض التى قيل عنها فى الكتاب المقدس بأنها نجسة » . وبكى الأسقف المريض بكاء مرأ ثم قال : « أسألك يا أبى أن تصلى لأجلى » . وتركه على هذه الكلمات وذهب الى كنيسة فى ايبارشيتة على اسم السيدة العذراء والدة الإله . وكانت الكنيسة فى بلدة اتمى ولها كاهن شيخ اسمه فرج . وكان وصول الأثينا مرقوريوس إلى هذه الكنيسة يوم الاثنين . فنادى تلميذه وقال له : « أتركنى وحدى ثلاث أيام . ثم تعال لترى ماذا أصابنى يوم الأربعاء » فتركه التلميذ ومضى . ووقف الأسقف المريض أمام أيقونة السيدة العذراء طوال الاثنين والثلاثاء . وفى يوم الأربعاء غلبه تعب وصومه ودمرعه فمال رأسه إلى الأمام وأستند إلى أيقونة أم الرحمة فى شبه إغماء . وعندها أحس بيد السيدة العذراء تمتد إليه وتمسح جسمه كله . فأفاق فى لحظة تامة وتفرس فى نفسه فإذا بجملده أبيض لا بقعة فيه إطلاقاً . وتهلل قلبه فنادى على الكاهن فرج . وكان فى رنين صوته ما يبين انفعاله فسارع إلى القمص . فرجا منه الأسقف مرقوريوس أن يفحص جسمه بالتدقيق فأطاعه ووجده معافى . فرفع الكاهنان صلاة الشكر للأب السماوى ، وسبحا تسبحة التمجيد للسيدة العذراء فى نشوة وانتصار .

(١) السنكار الأثينى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ج١ ص ٢٣٩ - ٢٤٣ .
مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال الدين سرور ص ٥٨ .

وفى المساء جاء تلميذ الأنبا مرقوريوس ليرى ماذا به حسب الاتفاق . فقال له الأسقف : « لقد تحقن على سيدى ومخلصى الحبيب وشفانى بشفاعة السيدة العذراء أمه الحنون ، لذلك سأبقى هنا ثلاثة أيام أخرى لأرفع آى شكرى وتقجيدى لله العلى . فاتركنى هذه الأيام الثلاثة ، وعد إلى يوم السبت ، وأحضر معك دابة » فأطاعه تلميذه وخرج . وأحضر القمص فرج طعاماً لأسقفه الذى لم يأكل غير قطعة من الخبز وشرب قليلاً من الماء . ثم عاود صلواته ولكن فى بهجة ومديح . وفى يوم السبت عاد التلميذ إلى أسقفه الذى خادر للكنيسة وركب الدابة التى أحضرها له تلميذه وقصد إلى دمرو ثانية . فوصلها صباح الأحد ووجد أن الأنبا زكريا لا يزال فيها فقال له : « لقد تقبل الأب السماوى صلواتك حتى يا أبى » . أجابه الشيخ القديس : « ان إيمانك هو الذى شفاك » . ثم تهلل الخيران معاً وسبحا الله الرحيم . وحين دخل الهيكل قال البابا الاسكندرى للأنبا مرقوريوس : « تقدم اليوم وارفع الذبيحة الإلهية لأن نعمة الله قد تباركتك » . فأدى الأسقف شعائر القداس الإلهى فى بهجة وتهليل ، وسرت فرحته إلى الشعب فشاركه إياها .

على أن عطفه لم ينصب على رجال الكهنوت وحدهم بل شمل الشعب أيضاً إذ كان يكتفى بالقليل من الثوب والملبس ويوزع كل ما يأتیه من مال على المستورين والفقراء . ومن طريف ما حدث له أن أتته امرأة ذات يوم وقدمت له مبلغاً من المال . فقال له الأنبا زكريا : « الرب يقبل عطاياك » وصمت . وانتظرت هى أن يقول شيئاً آخر ولما لم يقل خرجت وهى تشعر بالضجر . فجاء تلميذه يخبره بأمرها . فقال البابا : « امضى وادعها » فلما دخلت إلى حضرتها ثانية أمر تلميذه باحضار ميزان . ثم وضع تقدمتها فى كفة وفى الكفة الاخرى وضع ورقة كتب عليها الرب يقبلها منك » وأمر تلميذه بأن يرفع الميزان . وعندما رفعه رجعت الكفة التى فيها الورقة . وقال لها البابا : « يا ابنتى خلى منهما ما أردت » فخرت على ركبتيها باكياً وأخذت الورقة ثم رجعت منه أن يصلى لأجلها . واتخذت من الورقة قرة لها على الشدائد ووقاية لها ضد حفر القلب .

وهكذا بالخدمة والدعة . وبالمشاركة الوجدانية والصلوات غير المنقطعة .

قضى الأتيا زكريا أيامه . ولقد انعكست محبته على القلوب . فبادله أبنائه
هذه المحبة وأخلصوا له الولاء فرعاهم . وسهر عليهم فى مدى سبع وعشرين
سنة وأحد عشر شهراً أنضم بعدها إلى صفوف الكنيسة المنتصرة ^(١) .



(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأتيا ساويرس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته
إلى الإنجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر - المجلد
الثانى - الجزء الثانى ص ١١١ - ١٥١ ، المنكسار الأثيوين...ترجمة وألمس بودج
ج ١ ص ٢٣٩ - ١٤٣

بولس (الواضح) بن الرجاء

٦٥ - وثمة صورة ساطعة تلمع أمامنا من وراء القرون من هذه الفترة التي صادها السلام والطمأنينة : هي صورة الواضح بن الرجاء . فلقد شابه هذا الرجل شاول الطرسوسي حين وقف شاهداً على رجم استفانوس أول شهيد إذ وقف الواضح شاهداً ومشاركاً في قتل أحد المؤمنين من المسيحيين ، ثم شابهه حينما أصبح بولس إذ آمن بالمسيح ولذلك اختار أن يتخذ لنفسه اسم بولس أيضاً . وتتلخص سيرته في أنه بعدما اشترك في قتل المسيحي ذهب ليبيع . وكان السفر للبيع قديماً شاقاً محفوفاً بالمخاطر إذ كان يضطر الحجاج إلى قطع الصحراء الشاسعة على ظهور الجمال . وحدث عند العودة من الحج أن نزل القوم في ذات مساء ليشرّبوا ويسقوا جمالهم . فضل عنهم الواضح وخاصة لأن الظلام كان قد أسدل أستاره . وفيما هو قلق ومتحير ماذا يعمل لينجو بنفسه من هذا القفر المترامي الذي غطاه الظلام إذا بفارس يرتدى الملابس الرسمية ويمتطي صهوة جواده يقف أمامه ويحاله : « ماذا حدث لك ؟ » فلما أخبره بما هو فيه من مأزق قال له الفارس : « مادمت قد فقدت جملتك وضللت عن القافلة التي كنت معها فاركب خلفي على جوادي » . وتنفس الواضح الصعداء وركب خلف الفارس . ولم يعرف من هو ولا ماذا فعل به ولكنه وجد نفسه بعد دقائق داخل بناء فسيح . وكان البناء هو كنيسة أبي السيفين يهابلون ولو أنه لم يعرفها طبعاً . ولكنه رأى القناديل موقدة ورأى على ضوئها أيقونات القديسين فأدرك أنه داخل كنيسة ما . ونام مطمئناً إلى الصباح . وعندما دخل بواب الكنيسة كمادته لينظفها ورآه ظن أنه لص وكاد يستغيث ولكن الواضح أشار إليه بالسكوت وروى له كل ما أصابه . ولم يصدق البواب فعاد الواضح يسأل عن القديس شفيح الكنيسة التي هو بها فاعلمه أنه أبو السيفين . فرجا منه أن يرى صورته إذا كان ذلك ممكناً . وحينما وقف أمام الأيقونة هتف : « حقاً إن هذا هو الفارس الذي أنقذني من الموت في الصحراء . فهذا لباسه وهذه منطقته وهذا حصانه وهذان سيفاه » وذهل البواب وزعم أن الرجل قد جن . ولكن الواضح طلب إليه أن يأخذه إلى قنص شيخ يفهم الحقائق الروحية فأجابه إلى طلبه . وحينما سمع الرجل الروحاني بما جرى صدقه ولبى طلب الواضح في أن يقرأ الكتاب المقدس وكتب الآباء . وأكب الواضح على القراءة وتفتح

قلبه فرجا من القمص أن يعمده . وتردد القمص في يادى الامر واقترح عليه أن يذهب الى بركة شيهيت كى يكون بعيداً عن أهله ومعارفه . ولكن الواضح ألح عليه قائلاً : « أن الطريق بعيد وقد يفترستى وحش أو أموت بسبب من الأسباب قبل أن أصل إلى الوادى المقدس وأنال نعمة المعمودية » . وعتدها صبغه القمص بالصيغة المقدسة (المعمودية) باسم بولس ثم عاد يطلب اليه أن يذهب الى البركة فلبى طلبه وترك كنيسة أبى السيفين التى ظل مقيماً بها منذ أن أحضره شفيحها اليها .

وصلت القافلة التى كان الواضح أحد أعضائها . وذهب صديق أبى الرجاء ليعلمه أن ابنته ضل عنهم ولم يبقوا له على أثر فظننت العائلة أنه تولى وعملت عليه مناحة .

على أن الرهبان قالوا للواضح بأن معموديته لا تدعيها غير شهادته أمام عارفيه فترك البركة وعاد الى كنيسة أبى السيفين . وراه أحد عارفيه فذهب الى أسرته يقول : « لقد رأيت اليوم شاهاً نصرانياً شديد الشبه بآبائكم » . فذهب اخوته الى منطقة الكنيسة يراقبونه عن بعد فلما رأوه تيقنوا أنه هو فأمسكوا به وأخذوه الى البيت واشتد معه أبوه وأساء معاملته فقبلها فى رضى . واشتكى أمره للخليفة العزيز فلما استوضح الخليفة الحقيقة أمر بتركه حراً وهياً له فرصة للمناظرة الدينية فى قصره أمام المسلمين والقبط . فاستمتع بولس إذ ذاك بالحرية .

على انه لما آل الحكم الى الحاكم بأمر الله عاد أبوه « الواضح » الى التضييق عليه فحبسه واستبد به ومنع عنه الطعام والشراب عدة أيام . ثم أخرجه فوجده فى صحة ونضرة ولم يكن يدرى أن الأتيا مكارى الكبير ظهر له فى الحبس وقواه وأطعمه . وعند ذاك ضاعف استبداده وأخيراً ذهب يشتكى منه الى الحاكم بأمر الله . ولكن شامت المراحم الإلهية أن تكون هذه الشكوى فى فترة من فترات الصفاء . فأمر الحاكم بأن يأتى المشتكون والمشتكى عليه أمامه . فلما مثلوا بين يديه أمرهم أن يتحاجروا أمامه . وبعد أن استمع إلى الطرفين أعجبه كلام الواضح فأمر بتركه وشأنه . فلما أخلى سبيله للمرة الثانية ذهب الى البركة حيث ترهب بدير الأتيا مكارى الكبير . وفى تلك الأثناء تعرف بالأتيا ساويرس أسقف الأشمونين ووضع نفسه تحت خدمته بأن جمع له كل السهر التى وجدها فى الدير . كذلك

وضع كتابين سمي أحدهما « الواضح » لأنه ضمنه توضيحاً صريحاً للعقيدة التي اعتنقها، أما الكتاب الثاني فدعاه « نوادر المفسرين » ^(١) فلما رأى الرهبان ما تحلى به من الفضل والعلم أمسكوا به قسراً وقدموه إلى الأب الطيريك الذي كان يزور البرية آنذاك فرسمه قسراً . فتعرض بهذه الرسامة لغضب الرهبان المقيمين بتلك الجهات وخاف عليه الرهبان من القتل فقالوا به : « لقد شهدت لإيمانك وسط العالم فلا تعرض نفسك للموت الآن بل أمض إلى الريف » ^(٢) وعش هناك » . فمضى إلى بلدة صندقا حيث صار قهما لكنيسة الشهيد ثيودورس يخدمها ليلاً ونهاراً مدة سنتين . واتفق أن جاء شماس من أهل منوف اسمه تيدرا بن مينا إلى هذه الكنيسة فوجد هذا القديس محبباً . ولقد قال له بولس حين رآه : « مطانوة أن لا تفاركني لأنى لم يبق لى غور يومين على هذه الأرض . فمتى أسترده الأب السمارى وديعته فادفتى قبل أن يعلم أحد » . ولما تنبأ هذا الرجل البار بمحور الشماس فى أمره قليلاً اذ كان بعض الفوغاء قد سمعوا بالخبر رغم الحرص الذى أبداه الشماس . فبدأوا يتجمعون حول الكنيسة . وفيها هو يروح ويغدو فى داخلها مصلياً مفكراً انزلت رجله تحت العتبة وإذا به يجد مطمورة حسنة نظيفة فأنزل بها جسد جسد القديس وودم فوقها وأصلح موضع العتبة . ثم فتح باب الكنيسة . فلما دخلها الفوغاء لم يجدوا شيئاً فتركوا الكنيسة لأصحابها فى سلام ^(٣) .



(١) جاء فى دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج١ ص ٣٥ بأنه كتب أربع رسائل لا إثنين . عنوان الرسالة الثالثة هو « هناك المحبوب » . والرابعة سيرته الخاصة . كذلك بنى كنيسة باسم رئيس الملائكة ميخائيل فى رأس الخليج .

(٢) الريف فى نظر الرهبان هو البلاد المصرية كلها ما هذا الصحراء .

(٣) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأب ساريس أسقف الأشمونين نشره مع ترجمته إلى الإنجليزية بسى عبد المسيح وعزيز سوزيال عطية ورومستر - المجلد الثانى الجزء الثانى ص ١٠١ - ١١٣ .

التراخي الموجع

- ٦٦ - التنافس في الإنتاج الفكري والفنى .
 ٦٧ - التداول في امر انتساب اليايا الاسكندري .
 ٦٨ - العودة الى السموية ونفور الشعب من ياباه .
 ٦٩ - فترة من الجوع والفوضى .
 ٧٠ - معاهدة مع امير اطور القسطنطينية
 ٧١ - ولاء القبط لكنيستهم رغم الجفوة بينهم وبين ياباهم .
 ٧٢ - الراحة الكبرى لآلهاشودة الثاني .

٦٦ - وعاد السلام إلى البلاد المصرية . وسار الخليفة الظاهر بن الحاكم بأمر الله على خطة التسامح والألفة ^(١) التي سار عليها جده العزيز بالله . وقد نتج عن هذه الحرية وهذا التسامح أن كثر الإنتاج الفكري والفنى : فتبارى العلماء والأدباء في تأليف الكتب الدينية والأدبية والعلمية وتنافس الشعراء في نظم القصائد ^(٢) . وراجت سوق العلم والأدب واستمتع الشعب بالموسيقى والغناء ^(٣) .

بل أن الظاهر ذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا لأنه منح الذين غيروا دينهم في عهد أبيه الحق في أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم كما سمح باعادة بناء الكنائس المتهدمة ^(٤) .

كذلك اندفع ذور المواهب في الإنتاج الفنى فاستمروا يزينون الخشب وينقشونه ، فبعد أن كانوا يرسمون صور الرسل والقديسين خلال هذه الزينة أصبحوا يستخدمون الأشكال الهندسية والنهائية التي تتخللها الطيور

(١) يقول لنا محمد جمال الدين سرور بأن الخليفة الظاهر كان على النقيض من أبيه الحاكم نحو أهل الذمة ، فلم يكذب بتولى الخلافة حتى حصل على إكتساب عطفهم بأن أصدر بياناً أعلن فيه أنهم أحرار في شعائرهم وعقائدهم وأنه لا إكراه في الدين - راجع كتابه عن « مصر في عصر الدولة الفاطمية » ص ٥٨ .

(٢) « نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين » لعطية مصطفى مشرفة ص ٩٢ - ٩٤ . ويجدر القول هنا بأن أحد أولاد المزمز كان شاعراً .

(٣) بل لقد إستمتعوا بالخيال (أو خيال الظل كما نسميه الآن) فيخرج الناس في بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماجات كما احترق بعضهم التقليد والمحاكاة عن كتاب « مصر في عصر الدولة الفاطمية » لمحمد جمال الدين سرور ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٤) تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٦٢ .

والحيوانات في تزيين منتجائهم . ومن الطريف أنهم هياؤا الفرصة أمام الآتين بعدهم ليعرفوا شيئاً عن معيشتهم إذ قد صوروا الكثير من المناظر التي تبين طريقة حياتهم من صيد وقنص ومن لهر وتسلية . وما يزيد هذه الصور طرافة أنها وجدت داخل الكتاتس^(١) . ومن الأمثلة على مثل هذا التفان باب له أربع مصاريع يحتوي كل منها على ست حشوات مستطيلة منقوشة نقشاً بارزاً من الأشكال النهائية ويتوسط الحشوة حيوانات مختلفة كالآرائب والفزائل والأسد . إلا أن بعض الحشوات يتوسطها شخص جالس القرفصاء يشرب من كأس بيده أو يعزف على آلة موسيقية . وكان هذا الباب أحد أبواب الكنيسة المعلقة^(٢) .

على أن التفان في صناعة الخشب لم يقتصر على مثل هذه الزخارف إذ أن هناك صندوقاً مقسماً من الداخل إلى ستة أجزاء لحفظ أرائى الزيت المقدس وتزين مسطحاته الخارجية نقوش لصلبان وأشخاص . أما خطاؤه فينزلق عليه في مجرى صغير .

٦٧ - وفي وسط هذه الحياة الناعمة انتقل الأنبا زكريا إلى عالم الأرواح . وإذا بعدد من الأراخنة يتنافسون في سبيل اعتلاء السدة المرقسية الجليلة . فلما علم ببيعة بذلك ، جمع بعض المستولين في الكنيسة وقصدوا جميعاً إلى دار الخلافة حيث قابلوا الوزير على بن أحمد وبينوا له حق الشعب في انتخاب راعيه الأعلى . وكان هذا الوزير رجلاً عاقلاً متزناً فقال لبقيرة : « أنت تعلم أن من الأعياء الملقاة على البابا الاسكندري دفع ثلاثة آلاف دينار لخزانة الدولة . ولكننا سنتنازل عن حقنا هذا اكراماً لكم . فاتخذوا الخطوات اللازمة لتحقيق أمنيتكم في انتخاب من ترونه صالحاً لكم . وسبروا بخوف الله » . فكانت كلماته هذه بلسماً لقلوب بقيرة وصعبه . وبعد أن شكروه استأذنوا في الانصراف . ثم أبلغوا الشعب بكل ما جرى . ومن ثم اجتمع الأساقفة مع رؤساء الأديرة والأراخنة ، واستعرضوا أبرز الرهبان الذين يصلحون لمثل هذه الكرامة العليا . وفيما هم يتبادلون الرأي ذكر أحد الحاضرين اسم شنودة الذي بدأ حياة الرهبنة في

(١) مرشد المتحف القبطى لوديع شنوده ص ١٦١ .

(٢) شرحه ص ١٧١ .

الراهبة عشرة من عمره . وبعد أن قضى الستين الطوال فى الدرس والعبادة والتأمل رسم قساً على دير الأنبا مكارى الكبير . فأيدى بعض الأساقفة بينما اعترض عليه البعض الآخر لتقدمه فى السن . وتناول الطرفان ثم انصرفا دون أن يستقر قرارهما نهائياً . وفى رضى الليل تراءى شيخ فى ثياب بيضاء لواحد من الأساقفة وقال له : « ان الراهب الذى سيكون أول من يدخل الكنيسة فى الصباح غداً ويقبل رفات التسعة والأربعين شيخاً هو المختار للخلافة المرقسية » . فلما استعقظ هذا الأسقف أبلغ أخوته الأساقفة بما رأى . فدخل جميعهم الكنيسة . وما كادوا يجلسون فى أماكنهم حتى دخل شنودة وقبل رفات القديسين . فلم يعرث الأساقفة ليتأكدوا من صحة الحلم الذى لم يره غير واحد منهم فقط بل عملوا بموجبه مباشرة فأمسكوا بشنودة وساروا به لساعتهم إلى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية حيث رسموه الخليفة الخامس والستين لكاروز ديارنا المصرية سنة ٧٤٠ هـ (١٠٢٤ م) باسم الأنبا شنودة الثانى ^(١) .

٦٨ - وبعد رسامته بأبام جاء أراخنة الاسكندرية يذكرونه بأن أسلاقه مدينون للاسكندريين بمبلغ ألف دينار سنوياً مقابل الأوقاف الكنسية التى كان الأنبا مهنائيل الثالث (البابا الاسكندرى ال ٥٦) قد اضطر إلى بيعها . فاعتذر لهم الأنبا شنودة الثانى بفداحة المبلغ لا سيما وأنه لا يملك منه شيئاً وأن مطالب الكنيسة العديدة تعطل منه شتى المصروفات . فتفارضوا معه . ورضوا بأن يدفع لهم خمسمائة دينار سنوياً . وما كادوا ينتهون إلى هذا الاتفاق حتى دخل بقرية وبعض أصحابه ورجل من باباهم أن ينهذ السيمونية نهذ التواة . ولا يراعى فى اختيار اللائق للرتب الكهنوتية غير خبرة الرهبان . فلم يوافقهم الأنبا شنودة الثانى على هذا الطلب شفوياً فحسب بل أعطاهم تمهداً كتابياً بذلك . فخرج الجميع من عنده فرحين مستبشرين .

غير أنه لم تمض شهور على هذا الاتفاق الكتابى حتى نقضه البابا الاسكندرى ، ليعسنى له دفع الضريبة المفروضة عليه من الدولة إلى جانب

(١) لم تكن مثل هذه الروايات كافية لأنها لم تظهر إلا لشخص واحد ربما يكون قد أدعاها - هذا من جهة ومن الأخرى تصرف الناحيون بمتضاها من غير بحث ولا تمحيص مع أن الأباء جروا على نصيحة يوحنا المحيىب القائل : « أمتحنوا الأرواح ... » ١ يوحنا ١٤ : ١ .

الخمسمائة دينار التي تعهد بدفعها إلى الاسكندرانيين . وكان السبب المباشر لنقضه عهده هو أن بعضاً من المقربين إليه قالوا له : « هل أنت خير من أسلافك الذين فرضوا الأموال ثمناً لمنح الرتب الكهنوتية ؟ أم ترى أنت أغنى منهم وأقدر على دفع الضرائب المفروضة عليك ؟ » وبهذه الكلمات ومثيلاتها غرره على اتخاذ السيمونية خطة له . وقد أستغارت السيمونية شهوة الغنى في نفس الأنبا شنودة الثاني قهراً بفرض مبالغ بسيطة ثم أخذ يضاعفها على مر السنين . وكلما جمع المال إزداد جشعه . وأخذ يوزعه على أقاربه ومحظوظيه متناسياً مطالب الشعب وأعباء الرعاية . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان الخطب . إلا أن هذا التصرف غير المنتظر قد أزعج القلوب . فبدلاً من أن يلتف القبط حول باباهم ويعطوه ولاهم الخالص كما كان يفعل أجدادهم مع الرعاة الساهرين ، نفروا منه وأعرضوا عنه . وقد تزايد هذا التفور نتيجة لما حدث عند زيارته القاهرة لأول مرة بعد رسامته . وذلك أنه قصد إلى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل . فاجتمع عنده جمهور من الكهنة والشعب لتحيته وأخذ يركبه ، ومن بينهم الأرمن بقبيرة حامل الصليب فالتفت إليه الأنبا شنودة الثاني وقال له : الرب ملك فلنسخط الشعوب »^(١) . فسأله بقبيرة « ماذا تعنى بهذه الآية يا أبى ؟ » أجابه لساعته : « لقد كان مطعمى منذ سنوات أن أكون البابا الاسكندري ولكتكم انتخبتم الأنبا فيلوثيوس فالأنبا ذكرها . وها قد أصبحت أنا الخليفة المرقسى الآن دون أن يكون لأحدكم صوت في الأمر » . وتبادل الأراخنة نظرات الألم الممزوج بالغضب . وأستاذنوا في الخروج وعندها قال بقبيرة : « لقد تروم صاحب المزمور بهذه الآية للتعبير عن أن السيد المسيح ملك وهم إرادة اليهود . ومثل هذا التشبيه غير لائق » . وبهذه الكلمات خرج جميع الأراخنة بلا استثناء فكان خروجهم تعبيراً صحيحاً عما في نفوسهم من خيبة . ولو أن الأنبا شنودة الثاني كان ضمن الرعاة المدركين لعظم مسئوليتهم لسمى إلى تدارك الأمر ، ولحاول أن يستعيد ثقة الشعب ولكنه لم يأبه لهم . ثم تقادى في طغيانه ورسم أسقفاً لأسيوط دون أن يستشير أحداً من أراختها لأنه كان قد قبض منه مبلغاً من المال . فواجه الأسيوطيون هذا التصرف بأن وقفوا في وجه الأسقف ومنعوه من دخول

مدينتهم . ثم بعثوا برسالة إلى الأنبا شنودة الثاني قالوا له فيها : « لقد قال مخلصنا الصالح مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » ^(١) فإن كان - له المجد - قد منعك الكهنوت مجاناً فكيف تستسيغ أن تعطيه لغيرك بالمال ؟ ولقد أعلن الرسل ، وخلفاؤهم من بعدهم ، الحرم على من يبيع الكهنوت أو يشتريه . ظهر أن هذه الرسالة لم تجد صدى في نفس البابا الاسكندري فلم يحاول تصحيح الموقف . وأصر الأسبوطيون على موقفهم . ولما لم يتمكن الأسقف المفروض من أن يصل إلى عاصمة كرسيه ، عاد إلى الأنبا شنودة الثاني ورجا منه أن يعيد له المال الذي أخذه منه ويرده إلى ديره ، أو يحاول التفاهم مع الأسبوطيون ليسمحوا له بالدخول إلى عاصمتهم . على أن البابا الاسكندري أصم أذنيه عن الطلبين ، فلم يجد الأسقف أمامه سهلاً غير العودة إلى ديره . فتزايد نفور الشعب من باباه لهذا التصرف .

٦٩ - وكان هذا الركود الروحي ، وهذا الأسى الذي عم القبط لم يكن كافياً فجاء الفيضان ناقصاً سنتين متواليتين . وكانت النتيجة الطبيعية أن شعت الزراعة وانتشر الجوع . وزاد الطين بلة أن الأشقياء أخذوا يسطرون على الشعب المسكين كما تسطر الذئاب الجائعة على القرى الآمنة . وتمادى هؤلاء الأشقياء في سطوهم فلم يتورعوا عن الاعتداء على قوافل الحجاج . وانتهاز السوربون فرصة اختلال الأمن فثاروا واعتدوا على الحدود المصرية .

٧٠ - وفي سنة ١٠٢٧ م جاء الفيضان وافياً فأعاد الرخاء كما أعاد الاستقرار إلى البلاد . وفي تلك السنة عينها وقع الظاهر معاهدة مع قسطنطين الثامن موادها أن يرسم امبراطور الروم المسجد القائم في القسطنطينية ويطالب المسلمين بالدخول للظاهر في صلواتهم ، وتعهد الخليفة مقابل هذا أن يمنح الامبراطور الحق في ترميم كنيسة القيامة التي كان أبوه الحاكم قد أحرقتها ^(٢) . وهكذا أعيد بناء الكنيسة التي تضم القبر المجد بين جوانبها بعد ثمانى عشرة سنة من إحراقها . وتهلل القبط مع بقية المسيحيين لهذه الفرصة السعيدة وتعاونوا على إعادة بناء الكنيسة التي كانوا يتباركون جميعاً بزيارتها في مختلف المناسبات المجيدة .

(١) متى ١ : ٨ .

(٢) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لاين بول من ١٢٥ - ١٣٦ المخطوط للمقرنزي ج ١ ص ٣٥٥ .

٧١ - ولم يتعرب اليأس إلى قلوب بقيرة وصحبه بل عاودوا الكرة
لعلهم يفلحون في اقتناع باباهم بالعدول عن خطئه . وتقابلوا معه عدة مرات
ليذكروه بأن السيد له المجد قد قال أن الذي يعبد المال لا يقدر أن يعبد
الله ^(١) . غير أنه بما يؤسف له أن جهودهم جميعاً ذهبت أدراج الرياح .
لأن الأتيا شنودة الثاني كان يعدهم بالعدول عن خطة السيمونية ثم لا يلتفت
أن ينسى وعده عند خلو أول كرسي .

وفي تلك الفترة رزح المصريون تحت نير عاملين كليهما مر : فقد امتلأت
نفوس القبط خيبة إذ رأوا باباهم يتعادي في التفاوض عن رغباتهم . وفي
السعي نحو هدف واحد هو اكتناز المال . وفي الوقت عينه أخذ الظاهر يظهر
عن مهام الملك بالانغماس في السهر والعبث ، فأحاط نفسه بالراقصات
والمغنيات وتناسى كل شيء آخر . على أن حكمة الوزراء تلاقت عبث
الظاهر ، أما انزلاق الأتيا شنودة الثاني فلم يكن له من يوقفه . لأن هذا
البابا رفض أن يصغى إلى نصيح الناصحين كما رفض أن يسلم إدارة الكنيسة
لأي شخص . ورغم ما أحس به القبط من ألم وخبية فقد ظلوا على ولائهم
لكنيستهم : يتمسكون بإيمانها ويحضرون الصلوات بانتظام . وقد نبع
ولاؤهم هذا من اعتزازهم بماضيهم ومن اعتبارهم بدم الشهداء وجهاد
المعترفين ، ومن ثقتهم الشامة في مواهب الله . كذلك أدركوا أن ولائهم
يحتم عليهم أن يحافظوا على التراث الذي تسلموه عن الآباء ليسلموه إلى
الآباء فكانوا يشددون عزائم بعضهم بعضاً ويتخلون من مواسمهم وأعيادهم
فرصاً للتساند والأستبشار .

٧٢ - وحدث أن أصيب الأتيا شنودة الثاني بخفقان شديد في قلبه وبألم
في أذنيه وبكحة عنيفة تهز هزاً . وبذل الأطباء قصارى جهدهم من غير
جدوى . فظل المرض على شدته ثلاث سنين كاملة والبابا يشن ويتوجع ،
ويتناول الأدوية لعله يجد فيها الراحة التي فقدتها . وبعد هذه المدة من الألم
وملازمته الفراش وجد الراحة الكبرى إذ قد انتقل إلى دار الخلود سنة
١٠٢٩ م . وقد دامت باباويته أربع عشرة سنة وسبعة شهور ^(٢) .

(١) متى ٦ : ٢٤ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعي الهرموسي عن
النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٥٤ .

خادم أمين

- ٧٣ - « غيرة بيتك أكلتني » (١) - ٨٤ - اشتبك بين الجند السودانيين والجند الترك .
- ٧٤ - الاجتماع على الخطب خريستودولس - ٨٥ - القحط والافلاس والوباء .
- ٧٥ - تشييد الكنائس ورسمات الكهنة - ٨٦ - انهيار في كل نواحي الحياة .
- ٧٦ - اتخذ القاهرة مقرا لرياسة الكرونة المرقسية . - ٨٧ - « غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله » (٢) .
- ٧٧ - عمل المستنصر بالله . - ٨٨ - تبادل الرسائل بين هيري الاسكندرية والطاكية .
- ٧٨ - دعاء اليازوري وزعيته للفق . - ٨٩ - انتقال الانبا خريستودولس الى بيعة الابكار .
- ٧٩ - الاحتفال بالصلوة بالطاكية والنوبة . - ٩٠ - بحجة عن الراهب ييموس .
- ٨٠ - الكاتب الفارسي ناصر الطوسري . - ٩١ - الانبا ميخائيل اسقف تنيس .
- ٨١ - تولد الامراء والشعراء على مصر . - ٩٢ - الشمس الاسكندراني .
- ٨٢ - الزمة مفلجة . - ٩٣ - عدد من القبط في ديوان الخليفة .
- ٧٣ - « غيرة بيتك أكلتني » - هكنا ردد برحنا الرسول كلمات قاده الحبيب ، بقوة هذا التردد وهذه الذكرى للتعاليم الإلهية التي تلقوها أندفع الرسل يعلمون ويهشرون . وكانت حياتهم قدوة مثلى للآلاف من جاموا بعدهم والتهبوا بنورهم . ومن بين هؤلاء الآلاف الذين كرسوا حياتهم للتبشير والتعليم شماس اسكندري اسمه موهوب بن منصور بن مفرج . فقد كتب يقول في مقدمة كتاب سير البطارقة الذي وضعه : « منذ أن عني آباؤنا الأبرار بتدوين سير البهاوات ، والقديسين مبتدئين باللحظة التي وطئت فيها قدما مرقس البشير أرضنا الحبيبة حتى الأنبا شنودة الثاني خليفة السادس والخمسين لنيان المؤمنين ، رأيت أن أنهج على متواليهم وأكمل سير الآباء الذين تعاقبوا على الكرسي المرقسي من بعد الأنبا شنودة . وكان هدفي بنيان المؤمنين ونيان نفسي . فبدأت عملي بأن قصدت الى دير الأنبا مكارى الكبير حيث تقابلت مع الشماس أبي حبيب

(١) برحنا ٢ : ١٧ .

(٢) متى : ١٩ : ٢٦ .

مختاريل بن يدير المنهوى الذى تبادلت الرأى واياه عن غايتى من جمع سير الآباء . وقد زرتنا معاً كل الأديرة القائمة فى تلك المنطقة المقدسة ، وفرحتنا اذ وجدنا سبعاً مائة راهب فيها : أربعاً مائة منهم فى دير الأنبا مكارى الكبير ، ومائة وخمسة وستين فى دير الأنبا يؤنس القصير ، وخمسة وعشرين فى دير الأنبا يؤنس كاسى ، وعشرين فى الهرموس ، وأربعين فى دير الأنبا بيشوى وستين فى السريان ... بينما وجدنا ناسكين عاتشين فى صومعة الأنبا موسى الأسود أحدهما قبلى والآخر حبشى ^(١) . وقد قابلنا هؤلاء الرهبان السبعين مائة ولكننا لم نسمع برؤية المتوحدين والسياح المنتشرين فى أنحاء المنطقة . فأطلعناهم على رغبتنا وفرحتنا اذ وجدنا خمسة وستين سيرة مكتوبة . فعزمت بنعمة الله أن أجمع سيرة الأنبا خريستودولس البابا الاسكندرى السادس والستين وسير من تعاقبوا بعده على السدة الجليلية . وألقيت رجائى على الأب السماوى ليعيننى على الوصول الى بقعته . فكان هذا الشماس الفيروز قد أدرك بقلبه تلك الحقيقة العظمى التى عبر عنها الشعراء أحمد شوقى حين قال :

ما التامى الا اول	بعضى فيتعهد الأخير
الفكر بينهما على	بعد المزار هو السفر

٧٤ - وهذه المقدمة التى أستهل بها موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندراني كتابه ، أخذ يسرد سيرة الأنبا خريستودولس فقال : لما خلت السدة المرقسية بالتحقال الأنبا شتودة الثانى على دكر النعم أجتمع كهنة الاسكندرية وأراختها للتشاور ، وبدأوا يستعرضون أسماء الرهبان الممتازين حسب العادة . فذكر أحد الحاضرين راهباً فاضلاً اسمه خريستودولس كان قد قضى بضع سنين فى دير الهرموس نال خلالها رتبة الكهنوت . ثم ترك الدير وانفرد فى صومعة على شاطئ البحر ليكرس نفسه للتأمل فى الإلهيات ورغم وحدته وبعد عن العالم فإن عيبر قناسته ملأ الأرجاء . فلما جاء اسمه على لسان من ذكره وافق الكل بالاجماع على أنه راهب متفوق جدير بالكرامة العليا . ومن حسن الحظ أن أشيق هذا الراهب كان بين

(١) تقع كل هذه الأديرة فى برية شبهية ، وما يؤسف له أن ديرى الأنبا يؤنس القصير والأنبا موسى الأسود قد خربا ولم يتبقى سوى أطلالهما .

الحاضرين فانتدبهوه ضمن الوفد الذى قروا ايقاده إلى صومعة
 خريستودولس . فلما وصلوا إلى المنطقة وجدوا باب الصومعة مسدوداً .
 فتقدم أشبهته ونادى عليه وأخذ يتحدث إليه فى ثقة وعدوه إلى أن أقنعه
 بفتح باب صومعته . وما كاد يفتحه حتى اندفع الوفد إلى الداخل وحملوا
 خريستودولس رغماً عنه إلى الاسكندرية . ولما سمع الاسكندريون باقتراب
 الوفد من مدينتهم سارعوا إلى استقباله عند مداخلة . ثم ألفوا له موكباً
 رائعاً ، وساروا به وهم يترغفون بالمزامير والألحان الكنسية حتى وصلوا إلى
 الكاتدرائية حيث رسمه الأساقفة الخليفة السادس والستين للقديس مرقس
 سنة ٧٥٧ ش (١٠٣٩ م) .

٧٥ - وقد استهل الأنبا خريستودولس باباويته بتشييد عدد من
 الكنائس الجديدة فى الاسكندرية . وبالتالي برسامة الكهنة والشمامسة
 اللازمين للخدمة فيها . وقد تهلت القلوب جميعاً حين وجدت البابا الجديد
 يتخير الخدام الأمناء الممثلين غيرة وسعية للكنيسة ويزودهم بنصحه
 وبركته ، وإزدادت القلوب فرحاً إذ أعلن هذا البابا الغيور أن الآباء الرجال
 المرسومين للخدمة لا حق لهم فى مال الكنيسة اطلاقاً . ثم كتب الرسائل إلى
 أبنائه يحثهم فيها على التمسك بالصوم والصلاة ومراعاة المراسم الكنسية
 المختلفة ، والمواظبة على حضور القداسات وغيرها من الصلوات المقدسة التى
 رسمها الآباء وختم رسائله بتعظيم الكهنة والشعب من الاستعانة بالحكام
 المدنيين فى علاقتهم ببعضهم البعض .

ولقد وجد هذا البابا الأمين - فى مجواله بين أبنائه - أنهم فى حاجة إلى
 معرفة القوانين الكنسية لأن قوانين المجامع المسكونية والآباء الرسولين كانت
 قد وضعت فى القرون الأربعة الأولى أو ما يتجاوزها بقليل . وبذلك لم يعد
 نسخها . ثم قامت أحداث مختلفة وظروف جديدة لم يتناولها المشرعون
 بالبحث إذ لم تكن قد حدثت أيام أن وضعوا تشريعاتهم . فرأى الأنبا
 خريستودولس أنه - بوصفه الحارس الأمين على الوديعة التى تسلمها -
 مسئول عن توضيح القوانين التى سبق الآباء أن وضعوها ، وعن وضع
 القوانين اللازمة لمقابلة الظروف الجديدة . وقد نشر أول مجموعة لهذه
 القوانين فى الثامن من شهر مسرى المبارك سنة ٧٦٤ ش (أول أغسطس
 سنة ١٠٤٨ م) . ولا تزال هذه القوانين محفوظة بحمد الله ، وتتعلق

بالمواسم الكنسية ووجوب مراعاتها ، وما يجب على الرعية نحو رعاتها ،
ومسك الكهنة نحو رؤسائهم الدينيين ^(١) .

٧٦ - وفي أول زيارة جامعا الأنبا غريستودولس الى القاهرة رأى
ضرورة اتخاذ هذه المدينة مقراً لرياسته بدلاً من الاسكندرية . لأن وجود
الحكام المدنيين فيها - واضطراره الى التشاور معهم فى شتى المناسبات
يرصفه المسئول الأول عن الكرازة المرقسية جعل وجوده فى الاسكندرية أمراً
عسيراً . ولما أستقر رأيه على وجوب الإقامة فى القاهرة رأى أن يجعل من
كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة مقره المختار . على أنه رأى وجوب
المحافظة على خطة أسلافه بإقامة القداس الأول فى كنيسة القديسين
سرجيوس وواخس (الشهيرة بأبى سرجة) . فهر أن الشعب ألح عليه فى
أن يصلى بالمعلقة فنزل على رغبته . ولكنه رأى أن يسترضى كاهن أبى
سرجة بإقامة القداس الثانى فى كنيسة فتهلل الشعب عندما وجد أن الأنبا
غريستودولس يسعى الى ارضاء الجميع بالطرق المشروعة وفى حدود القوانين
الكنسية .

٧٧ - ولقد ساد الشعب شعور بالطمانينة والاستقرار لأن الأب الروحى
والحاكم الزمنى - كلاهما - كانا يعملان على راحة الجميع . فلقد كان
المستنصر بالله قاصراً عند وفاة أبيه الظاهر ، فتولت أمه الرصاية عليه .
وكانت أصلاً جارية سودانية ، فلما أنجبت ولى العهد أصبحت الملكة . على
أنها لم تلبث أن سلمت مقاليد الملك لابنها عندما بلغ سن الرشد . ومن
حسن الحظ أنه كان مسالماً ، عادلاً ، واسع الصدر .

٧٨ - وكان وزير المستنصر رجلاً على جانب عظيم من الدهاء اسمه
يازورى وحدث فى ذلك الحين أن شق التونسيون عصا الطاعة على الخليفة
الفاطمى . فرأى يازورى فى دهائه أن لا يبدد قوى الجيش المصرى فى

(١) هناك أربع نسخ لهذه القوانين : أحدها فى المتحف القبطى ببابلون (مصر القديمة)
وثانيها فى المكتبة الأهلية بباريس ، والثالثة بمكتبة الفاتيكان ، والرابعة فى مكتبة
المتحف البريطانى بلندن - راجع مقال أرسولد هورمستر (بالانجليزية) عن « قوانين
غريستودولس بطريرك الاسكندرية السادس والستين » نشر فى مجلة موزيون المجلد
٤٥ ص ٧١ - ٨٧ .

معاربة التونسيون الشائرين . وكانت في مصر يومئذ قبائل تعرف باسم بني هلال . كانت هذه القبائل موصومة « بالتمرد والعناد » . فرأى يازورى أن ينتقد مصر من يرأى هذه القبائل المخربة بتسليطها على التونسيين وبالفعل أرسلها لإخضاعهم . فضرب عصفورين بحجر واحد لأنه أراح المصريين من شر هذه القبائل وأخمد الثورة التونسية في آن واحد ^(١) .

وفي عهد المستنصر أستمر ازدهار الفنون الجميلة التي شجعها الفاطميون ووزراؤهم . ومن طريف ما يروى عن الوزير يازورى أن اثنين من الفنانين كانا يتفاخران أمامه بأبداعهما في الرسم ابداعا يوهم الناظر أن ما يراه حقيقة واقعة . فطلب اليهما أن يثبتا له ما يدعيان . وكان لهذا الوزير قصر شيد مدخله على هيئة قوس . فأخذ أحد الفنانين ناحية من هذا المدخل ، ونحت فوق قاع أسود راقصة في ثوب أبيض فهدت للناظرين كما لو كانت خارجة من الحائط وأخذ الفنان الثاني الناحية المقابلة ، ونحت على قاع أصفر راقصة في ثوب أحمر ، فهدت للناظرين كما لو كانت داخلية في الحائط . فأعجب الوزير ببراعة الفنانين الاثنين وأجزل لهم العطاء ^(٢) .

٧٩ - وفي هذه الأوانة بعث خليفة مارمرقس برسالة الشركة الى أخيه يوحنا بطريرك أنطاكية . وقد حمل رسالته الأنبا ميخائيل أسقف تهنيس والأنبا غبريال أسقف صا لأنهم كانا يجيدان اللغة اليونانية فقصيا في أنطاكية بضعة أيام لقيا فيها كل مودة وترحاب . وعاد الى مصر يحملان معها أجمل الذكريات .

كذلك حرص الأنبا خريستودولس على الصلة الطيبة التي ترتبط بين الكنيسة المصرية وأهل النوبة . فما أن وصلت رسالته جرجس ملك النوبة يرجو منه فيها رسالة أسقف له لتباحة أسقفهم حتى يادر بأختيار راهب ممتاز ورسده وأرسله لهم في أسرع فرصة . ففرح النوبيون لهذه التلبية السريعة ، وبخاصة لأن الأسقف المتنوع بنى كنيسة فعاجلته المنية قبل تكريسها .

(١) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) الجزء الثاني المبحث الثاني لماستون فيبت ص ١٨٤ .

(٢) مصر : من مينا الى فؤاد الأول (بالفرنسية) للأب دي هينو ص ٢٣٨ .

وكان هذا الملك قد قطع الجزية المفروضة على بلاده لمصر ، فأوصاه البابا الاسكندري بدفعها حرصاً على صلوات المودة بين البلدين على أن البابا - حين بحث للملك التوى بهذه الوصية - أكد له أن هدفه هو حفظ السلام فحسب وهو لا يريد التدخل في شئون الدولة إطلاقاً لأنه يتمثل بخطة آباء الاسكندرية وهي جعل رسالته قاصرة على الدين وترك الأمور السياسية لأصحابها^(١) .

٨ - ولأن ذلك العصر ساد فيه السلام فقد وفد على مصر عدد كبير من السياح والجواريين وبين هؤلاء السياح البارزين الكاتب الفارسي ناصر الخوسرو . فما أن وطئت قدماء أرض مصر ، ووقف على ما فيها من آثار وفنن حتى وصفها وصفاً غاية في الروعة والدقة ، وأن وصفه ليعتبر وثيقة تاريخية مشيقة لأنه يصور القاهرة يوم ذاك تصويراً مسهباً يمكن التاري من أن يعرف ما كانت عليه هذه المدينة الكبيرة من رونق ونظام . فقد قدر ناصر الخوسرو عدد منازلها بعشرين ألفاً ، كما ذكر أن البعض من هذه المنازل كان يتألف من خمسة طوابق أو ستة . وتتخلل المدينة الحدائق والقنوات ليعتزه فيها القاهريون .

وبعد أن وصف المباني والحدائق انتقل الى التحدث عن الفنادق التي كانت من مفاخر القاهرة إذ ذاك ، فقال ان عددها يبلغ المائتين . على أن أدق وصف وأبلغه هو ما أختص به بركة الحبش فقال عنها : « أيا بركة الأحباش ، أن اليوم الذي قضيته فوق سطح مياحك كان أشهد بالحلم الجميل ، ومرت الساعات في بهجة وسرور . فما أجمل زهور الكتان السابحة فوق سطحك : بعضها متجمع متماسك كالفتيات الرقيات الحلمات ، وبعضها منفرد في أنفة واعتزاز »^(٢) . وعلى مقربة من هذه البركة قام دير القديس يوحنا به حدائقه الغناء التي وضع تصميمها الخليفة المعز بنفسه . فكانت الركن المفضل عنده وعتد خلفائه كلما شاموا الاستجمام من عناء الحكم .

ولم تكن الحدائق والقنوات مفردة بالجمال في حكم ناصر الخوسرو ، لأنه

(١) كنيسة الاسكندرية في أفريقيا لزاخر رياض ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين هول ص ١٤٠ .

انتقل بعد ذلك الى الاسهاب فى وصف الاسواق وما تحويه من بدائع الفن لم يرى لها مثيلاً . فى أية مدينة أخرى فالأواني الفخارية دقيقة الصنع رائعة الرسوم الى حد أنه لم يسمع إلا أن يتفرس فيها مأخوذاً بها . كذلك أذهلته رقة النقوش التى يتفنن فيها صانعوا المصابيح النحاسية وزاد هذه النقوش جمالاً أن الزجاج الذى كان يوضع داخلها للاتارة كان ملوناً شتى الألوان . وحين كانت توقد هذه المصابيح كانت الأتوار المنعكسة منها خلال الزخرفة الشبيهة بالدانتلا والألوان العديدة تجعل المرء يشعر بأنه فى فردوس من الجمال .

كذلك رأى ناصر الخوسرو سبع سفن راسية على شاطئ النيل ، كانت من السفن التى استعملها جيش المعز قبل أن يراها الكاتب الفارسى بما يقرب من ثلاثة أرباع القرن ، فقال عنها إن طول الواحدة منها كان مئة وخمسين ذراعاً وعرضها - عند الوسط - سبعين ذراعاً^(١) . وقد تبدو هذه المقاييس صغيرة الآن ، ولكنها كانت كبيرة جداً منذ عشرة قرون .

واسترسل الخوسرو بعد ذلك فى وصف النسيج الذى كان المصريون ينتجون فقل ألوان الكتان من أرق ما رأى ، بل أن النسيج الذى كانوا ينتجون فى تنيس كان ذا ألوان تتغير بتغير ساعات النهار . فكان الناس فى الشرق والغرب يستوردونه لجماله المنقطع النظير . وكانت هناك ألف سفينة مجهزة تروح وتغدو فى هذا المهتاء الذى كانت الحركة فيه يومية . وكانت بعض هذه السفن ملكاً للخليفة والبعض الآخر ملكاً للتجار . وكان الخليفة يدفع للعامل الذين ينتجون له النسيج المطلوب منه عن سعة فكانوا يعملون برضى وسرور . ولم يكن النسيج الرائع بالانتاج الوحيد الذى يصنعه التينيسيون بل كانوا ينتجون السكاكين والمقصات الدقيقة^(٢) . وكان على مقربة من تنيس بلدة واقعة على بحيرة المنزلة ينتجون فيها أنواعاً من الأقمشة الحريرية المزركشة تعرف بالديقى نسبة اليها لأن اسمها ديهق^(٣) .

(١) شرحه ص ١٢١ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... ص ٣٠٢ - ٣٠٤ . ويعقب جاستون فبيت على معاملة الخليفة السمجة بمقارنتها بما كان الأمراء الاقطاعيون يفرضونه من السخرة فى أوربا فى تلك القرون .

(٣) د القاهرة : تاريخها وآثارها ... ، لعبد الرحمن زكى ص ٣٨ والهامش به .

وان دل وصف ناصر الخوسرو للصناعات التي تفتى بها على شيء فإنما يدل على تقدم الصناعة في بلادنا العزيزة في القرون المقروضة بأنها قرون مظلمة . لأن هذه المنتجات صنعها عمال مصريون إذ لم يكن الاستعمار الغربي قد أشاع بيننا ادعاءه بأن بلادنا زراعية فحسب ولا بأنه علمنا الصناعة التي كنا نجهلها .

ولم يكن جمال الابتكار المصري بالشئ الوحيد الذي أذهل ناصر الخوسرو ، بل أذهله أيضاً خصب التربة المصرية . فأهدى اعجابه بالفاكهة المتعددة الأنواع والمحضرات الطازجة . وكانت أسعار هذه الحاجيات محدودة ، فإن قهاسر بائع أن يزيد عليها كان عقابه أن يركب جملأ ويسير جمهور وراءه . فينتقلون من شارع إلى آخر ، بينما هو يرن جرساً ويعلن بنفسه خطاه الذي أرتكبه . وكان الضمير الجماعي في تلك الأيام خير رقيب على التجار . كذلك كان الأمن مستتباً إلى حد أن أصحاب المحال التجارية كانوا لا يحتاجون إلى اغلاقها بالمفاتيح ، بل كانوا يكتفون بربط درفتي الباب بقطعة من الحبل للدلالة على أن المحل مغلق .

٨١ - وانتهى الرحالة الفارسي إلى القول بأن بلاط الخليفة كان مقصد الشعراء والأدباء من كل بلد ، لأنه كان يجزل لهم العطاء . كذلك كان البلاط يهوج بالأمراء والأشراف من المغرب واليمن والنوبة والحبشة ، ومن القوقاز وما يجاوره وأحياناً كان يأتيه ضيوف من التركستان والهند . وكان يحلر لهؤلاء الزوار أن يشاركوا المصريين أعيادهم الخاصة بالتيل ، والتي كان يحتفل بها القبط والمسلمون على السواء . فكان الجميع يخرجون ليلاً في مراكب تسطع منها المشاعل العديدة . وكان الخليفة المستنصر بالله يرأس هذه الاحتفالات بنفسه أسوة بأسلافه^(١) .

(١) تاريخ مصر لستانلى لايڤ پول ص ١٣٩ - ١٤١ . راجع أيضاً مقال دكتور حسن الياسا المنشور بصحيفة الأهرام الصادرة في ٢٤/١/٦٩ عن كتاب ناصر الخوسرو سفر تامة ، الذي نقله إلى العربية عن الفرنسية دكتور يحيى الخشاب وصدر بالقاهرة سنة ١٩٤٥ . بينما يخبرنا دكتور حسن حبشي نقلاً عن ناصر الخوسرو بأنه كان في زمن هذا الرحالة الفارسي « رجل نصراني » وأن الجميع كانوا يتوقعون حدوث مجاعة تعم القطر بأجمعه ، فما كان من هذا القبطي إلا أن تقلم إلى الوزير مخبراً إياه بأن في شونه قدراً من القمح يكفي لتعويض القاهرة ست سنوات » - راجع كتابه « أهل القمة » ص ٢٢٢ .

٨٢ - ثم تعكر صفو السلام فجأة ومن غير مقدمات إذ قد حلا لبعض الدسائس أن يوقع بين البابا الاسكندري وبين الخليفة ، فأدعى أمام يازورى بأن الأتبا خريستودولس قد بنى عشرين كنيسة جديدة فى منطقة دمر (المحلة الكبرى) . ولم يعرث يازورى ليعرف صدق الرواية من يهتانها . بل أمر الدساس لقوره بأن يهدم الكنائس الجديدة ويخلق القديمة مع وضع اختتام الدولة على أبوابها ، وتحديد جزية لفتح كل واحدة منها . وحمل مشيرو الفتنة أمراً كتابياً من الوزير ، وذهبوا الى دمر حيث اقتحموا البيت الذى كان البابا الاسكندري يقيم فيه . وفيما هم داخلون وجدوا على البوابة كلمات « باسم الأب والإبن والروح القدس الإله الواحد أمين » فأخرج أحدهم سيفه وكشطها . فقال له الأتبا خريستودولس فى هدوء تام : « لئن كشطت هذه الكلمات من على الأبواب فلن تستطيع كشطها من قلوبنا » . فدش المعتدى من هنا الرد الرصين ومضى لحال سبيله .

على أن يازورى لم يكتف بما حدث فى دمر بل أمر باغلاق جميع الكنائس فى القطر المصرى ، ولم يلقه الى أن مثل هذا العمل سيفضب المسلمين أنفسهم . فقد ثارت نفوس العقلاء منهم لهذا التعت الذى لا مبرر له . وخلال هذه الفترة قامت فتنة فى الصعيد الأوسط أدت الى الفتك بجميع رهبان دير أباتوب قرب الأشمونين . ولقد أذفع المسلمون العقلاء بدافع نفوسهم الشائرة فقصدوا الى الخليفة المستنصر واحتجوا أمامه بشدة على يازورى . فصدر أمر الخليفة بإقالة وزيره ثم بنفيه الى مدينة تنيس . وأعقب ذلك أن أعيدت كنيسة مارجرجس بخط الحمراء (خارج القاهرة) الى القبط فرجموها على الفور . الا أن العامة تذرروا لهذا الترميم فعاودوا تخريبها ولكن القبط لم يلبثوا أن استرجعوها مرة أخرى وجددوا بنائها فدشنت من جديد . ويبدو خلال هذا المد والجزر أن تزايد استياء المسلمين من يازورى لأن الخليفة لم يلبث أن أمر بأعدامه ^(١) وتولية ناصر الدولة مكانه .

٨٣ - ووضع للجميع أن المستنصر يستهدف العدالة لرهاياه كلهم مما جعل المصريين إذ ذاك يعيشون فى ألفة وتفاهم . كذلك نال بعض القبط

(١) أهل اللمة فى الإسلام ترجمة حسن حبشى ص ٥٧ .

حظوة خاصة في عينيه فعينهم في ديوانه منهم أبو سرور ويونس بن يوسف الأبح الذي كان كاتم سر الخليفة والذي أتاح له منصبه أن يرمم كنيسة أبي سرجة حينما وجدها متهدمة ^(١).

وفي عهد الفاطميين استمتع القبط بالأحتفاء بأعيادهم الدينية بصورة رائعة ما عدا في الفترات القائمة أيام الحاكم بأمر الله ... ومن أبي الأحتفالات الاحفاء بعيد الميلاد فكانوا يوقدون المشاعل والشموع العديدة ويذنون الكنائس . وكانت الشموع بالوان مختلفة وفي أشكال متباينة فمنها ما هو على شكل تمثال ومنها ما هو على شكل عامود أو قبة ومنها ما هو مزخرف أو محفور ولم يضيئوا الكنائس والنازل بها فقط بل كانوا يعلقونها في الأسواق وأمام المحلات . ومن الطريف أن الفاطميين كانوا يوزعون بهذه المناسبة المجيدة الحلاوة القاهرية والسعيد والزلاية والسك المعروف بالهوى . والعيد الثاني كان يشترك الخلفاء الفاطميون مع القبط في الاحتفاء به كان عيد الغطاس . فكان القبط يخرجون من الكنيسة في مواكب رائعة ويذهبون الى النيل حيث يسهر المسلمون معهم على ضفاف نهرهم الخالد . وفي كل من ليلتي الميلاد والغطاس كانوا يسهرون حتى الفجر . وكان شاطئ النيل يسطعان بآلاف الشموع الجميلة والمشاغل المزخرفة . وفي هذه الليلة كان الخلفاء يوزعون النارج والليمون والقصب وسك الهوى . أما في أحد الثمانين (السعف) فكان القبط يخرجون من الكنائس حاملين الشموع والمجامر والصلبان خلف كهنتهم ويسهرون معهم المسلمون أيضاً فيطوفون الشوارع وهم يرتلون . كذلك كان خميس العهد فرصة للتعبير عن البهجة والتآخي فكان الفاطميون يضيئون خمسمائة دينار على شكل خرابيب ويوزعونها على الناس . وكان « يباع في أسواق القاهرة من البيض المصبوغ ألوان ما يتجاوز حد الكثرة فيقامر به العيد والصبيان والفوغاء » . وكان القبط يتبادلون الهدايا من البيض الملون والعدس المصفي وأنواع السمك المختلفة كما يقدمون منها لآخونهم المسلمين ^(٢).

وثمة عيد آخر ليس دينياً بالمعنى الدقيق ولكنه ارتبط بالأعياد الدينية

(١) « الدبر المحرق » للأب غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمي - هامش ص ٦٥ .

(٢) المخطوط للمترجم ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، ٤٥٠ ، ٤٩٤ .

وهو عيد النيروز الذى أطلق عليه الآباء اسم « عيد الشهداء » حينما ربطوا بين السنة المصرية القديمة وبين ما جرى فى عصر دقلديانوس من اضطهاد . وقد رأى الفاطميون أن يشتركوا فى أحياء هذا العيد أيضاً فكان يوم عطلة عامة تغلق فيه الاسواق ويوزع فيه الخليفة الكسوة على رجال الدولة ونسائهم وأولادهم ويصرف حوائج العيد من بيت المال ^(١) .

ولقد سار والى الاسكندرية - حصن الدولة - على خطة الخليفة المستنصر فقامت بينه وبين القبط مودة وصداقة ولم يأذن لهم بالسير فى مواكبهم أيام هذه الأعياد فحسب بل أنه زاد على ذلك أيضاً بأن أمر رجاله وحفظة الأمن فى المدينة أن يشتركوا مع القبط فى هذه المواكب كى يحافظوا عليهم من الرعاع .

وفى هذه الفترة السعيدة ظل الأنبا خريستودولس مقيماً فى دمرو . وكان يرسل للاسكندريين سنوياً ثلاثمائة وخمسين ديناراً من غير أن ينتظر مطالبتهم إياه . فقتنعوا بهذا المبلغ لكونه يصلهم بسهولة وانتظام .

٨٤ - وما يؤسف له أن المستنصر بدأ بعد ذلك ينصرف إلى ملاذ ولهو تاركاً دفة البلاد فى يدى وزيره ناصر الدولة . واتبع الوزير خطة مناهضة الجند السودانيين الذين تناصروهم أم الخليفة . وتشجيع للجند الأتراك . فقامت منافسة عنيفة بين هذين الفريقين وصلت إلى الحرب . وانتصر الأتراك ، واضطروا السودانيين الى أن يلتجئوا إلى الصعيد . ولم يرض السودانيون بالفشل ، فأخذوا يناوشون الأتراك براً وبحراً (على النيل) . وأخذت أم الخليفة تدبر المؤامرات لعلها تعيد إلى مواطنيها نفوذهم ولكن الترك ظلوا قاهضين على زمام الأمور . فأسكرهم فوزهم ، وتشددوا فى المطالبة بزيادة مرتباتهم . وكلما نالوا زيادة طالها بغيرها حتى أفلست الخزينة . وعندها صعد المستنصر إلى واجبه وعزل ناصر الدولة الذى هرب الى الاسكندرية حيث كان الجيش موالياً له . وزحف بهذا الجيش على الدلتا ، بينما كان الصعيد لا يزال تحت سيطرة الجند السودانيين .

٨٥ - وما زاد الطيم بلة أن الفيضان جاء ناقصاً فانتشر الجوع واللقحط . وانتهر أشقياء الناس الفرصة فعاثوا فى البلاد فساداً ونشروا اللعن بين

(١) شرحه ج ١ ص ٤٩٣ .

أهلها . واشتدت وطأة الجوع على القاهرة خاصة لأن الاتصال بينها وبين
الريف كان معتدلاً . واستمر الجوع سبع سنين متتالية حتى لقد روى بعض
المؤرخين أن هناك من الناس من تحولوا الى وحوش ضارية تفترس غيرها
من الناس .

وكانت المعارك التي دارت أولاً بين الأتراك والسودانيين ، وثانياً بين
أتباع ناصر الدولة وأتباع الخليفة قد أضعفت هيبة الحكومة الى حد بعيد ،
كما أضعفها افلاس الخزنة ، فزال الأمن وهم الإضطراب . وضاعف الفوضى
انتشار الوباء الذي كان دائماً نتيجة حتمية للتعطيل . ولما كان الناس يعانون
الجوع والخوف فقد ضعفت مقاومتهم الى حد بعيد ، فمات الآلاف منهم .
وكان الوباء يقضى على عائلات بأسرها ، فلم ينج بيت من برائته .

٨٦ - وفي هذه الفترة تداعت كل الأنظمة والمثل العليا . فضعفت
الحكومة المركزية التي تضمن الأمن ، وتلاشى الفن والعلم والأدب ،
وتدهورت الأخلاق وزال كل ما كان يستهدفه الإنسان من سمو وعذوبة .
ومن أروع الأدلة على الإنحلال الذي ساد إذ ذاك أن المكتبة التي وصفها
المقرئى كأنها أسطورة من نسج الخيال ، والتي كانت تحوى مئة ألف مجلد
إلى جانب آيات الفن في التصوير والمتاحف أصبحت نهياً لكل تاهب ،
وتهددت بأفقه الأثمان ، لعل الدراهم القليلة المدفوعة فيها تسد فائلة
الجوع ولو لبضع ساعات .

٨٧ - على أنه من دواعي فخرنا واعتزازنا أنه حالما استتب الأمن مرة
أخرى عاود المفكرون جهودهم ونجحوا إلى حد أنه حين تولى صلاح الدين
الملك بعد ذلك بما يقرب من قرن وجد في القاهرة مكتبة تحوى مئة وعشرين
ألف مجلداً^(١) أما في هذه الساعات الحالكة ، فلم يوجد للجنح الإنساني
حد . فإن الأشقياء لم يكتفوا بنهب سكان المدن و القرى ، وبالقتل
والسلب ، بل زحفوا على الصحارى وأعتدوا على رهبانها ، فقتلوا كل
راهب عمروا عليه ولم ينج من بطشهم غير الرهبان الذين لجأوا إلى الصعيد
فبدأ للمصريين المعذبين الفرعين أن الله تعالى نفسه قد حجب وجهه عنهم .

(١) أورد ستانلى لايون بول في كتابه « تاريخ مصر في العصور الوسطى »

(بالانجليزية) تفصيلات ما حدث من فظائع خلال هذه الفترة من ١٤٥ - ١٥٠ .

ولكن غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله ، فجاء الفرع من لدنه بصورة غير متوقعة ، هي أن المستنصر حين وجد أن البلاء قد استحكم ، ثاب إلى رشده وبعث بخطاب سري إلى بدر الجمالي وإلى عكا ، وطلب إليه الإسراع إلى نجدته وتولى أمر مصر . وكان بدر هذا أرمئى الأصل بلغ درجة الولاية لأنه انتصر في معركتين قاد فيهما السوريين ضد الأتراك . فقبل طلب المستنصر بشرط واحد هو أن يستصحب معه جنوده السوريين . فرحب الخليفة بهذا الشرط . وصعدا ركب بدر الجمالي البحر بجنوده رغم أن السفر في شهر ديسمبر محفوف بالأخطار . ووصل القاهرة في أوائل فبراير . ولم يكن الأتراك يعرفون ما فعله المستنصر فعلقوا بدر الجمالي بالترحاب . وكان بدر ذا دهاء ، فعين لكل ضابط سوري ضابطاً تركياً يقتله . وفي الصباح التالي دخل السوريون يحمل كل منهم رأس التركي الذي كان منوطاً به . وهكذا قضى بدر على بطش الأتراك في ليلة واحدة . ولشدة الفرع الذي ملأ قلب المستنصر عين بدر الجمالي أميراً للجيوش ووزيراً في آن واحد ولم يتوان بدر في أن يعيد الأمن والنظام إلى البلاد ، والهدوء والاستقرار إلى النفوس . فلم يعد الفرع والمجوع والهول غير ذكرى كابوس - مر وكأنه لم يكن .

٨٨ - وباستتباب الأمن استطاع الأنبا خريستودولس أن يعاد مهامه الراهوية في سكيئة وثقة . ثم بلغه أن بطريكاً جديداً قد أعتلى السدة الأنطاكية فبعث إليه برسالة الشركة صوتاً للعلاقات المتينة القائمة بين الكنيستين الرسولييتين . على أن رسالته اختلفت عما سبقها من رسائل : كان الجزء الأول منها يتضمن العقيدة التي تجمع بين أنطاكية والاسكندرية كما جرى التقليد ، أما الجزء الثاني منها فقد خالف التقليد تماماً إذ قد تضمن شكوى مريرة مما جرى له ولشعبه . تلخص في وصف الأحوال والأوجاع التي جازوها معاً ، ثم قال أنهم اضطروا إلى دفع الجزية ثلث الجزية حتى بلغت قيمة ما اضطروا إلى دفعه مئة ألف دينار . فرد يوحنا رداً يفيض نعمة ومحبته ثم اختتمه بقوله : « ما حاجتنا إلى المال - نحن الذين حسبنا أهلاً لأن تنال كرامة الكهنوت العظمى بنعمة الله ؟ لقد أكل فادينا الحبيب ورسله الطعام الذي كان يمنحه إياهم أهل الخير مع أنه هو رب الحياة . وعاش رسله فقراء لا يملكون شروى نقيير . ولقد روى المؤرخون عن

يرحنا الحبيب أنه كان يكسب عيشه بتنظيف أبراج الحمام في أفسس وبهذه
السحابة العظمى من الشهود ، كيف نستطيع أن نقتنى المال ؟ وكيف
نستطيع أن نشتكى لأن المال الذى كان لنا قد اغتصب ؟ إن كنوزنا يجب
أن تكون في السماء ، وعلينا أن نخدم في دعة وقناعة مستودعين أمورنا
جميعها لدى ذاك الذى دعانا لخدمته والذى وعد أن يعتنى بنا .

٨٩ - وكانت كلمات البطريك الأنطاكي بلساً لقلب البابا الاسكندري ،
فكرس حياته لتقوية عزائم أبنائه وتمزية قلوبهم . على أنه كان قد قارب
النهاية إذ قد أنهكته السنون ، وأضنته الشدائد ، فانتقل إلى بيعة الأبهكار
في كيهك سنة ٧٨٦ ش (ديسمبر ١٠٧٠ م) ، بعد أن رعى الشعب
القبلى تسعاً وعشرين سنة وثمانية شهور . وأقام عليه الأساقفة الشعائر
الجتائزية الخاصة بالباباوات الاسكندريين . ثم دفنوه في كنيسة السيدة
العلواء الشهيرة بالمعلقة . وبعد فترة وجيزة نقلوا جثمانه إلى دير الأنبا
مكارى الكبير بيرة شيهيت ^(١) .



(١) كتاب تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص فتودة الصوامى الهرموسى عن
النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج . ص ٣٦١ - ٣٨٤ .



أيقونة للميلاد المجيد - وهي واحدة من مئة عشرت عليها بعثة الآثار البولندية برئاسة البروفيسور كازيمير ميخالوفسكى^(١) بينما كانوا ينقبون فى منطقة النوبة ليحاولوا استخلاص الآثار من الفيضان الذى سيفمرها بعد الانتهاء من السد العالى . وفى بلدة فراس^(٢) وقف المنقبون مذهولين إذ وجدوا أنفسهم داخل كنيسة قد زينت جدرانها بالأيقونات الملونة التى حفظت الرمال بها، حتى لكأن العمال قد انتهوا من صنعها أمس فقط . وقد بدأت البعثة البولندية تنقيبها على أثر النداء الذى وجهته هيئة اليونسكو إلى العالم لإتقاذ آثار النوبة سنة ١٩٦٠ وعشرت على هذه الكنيسة وغيرها فى فبراير سنة ١٩٦٣ . ومنها كنائس كانت أصلاً معابد فرعونية إذ كانت الأيقونات محاطة بزخارف هيروغليفية أو بصور للالهة القديمة . وقد ذكر خبرها جميع الصحف العالمية من بينها مجلة صنداي تايمز^(٣) فى عددها الصادر فى ١٤ يونيو سنة ١٩٦٣ . وجاء فى هذه المجلة أن الأيقونات بيزنطية وهللرها بأن النوبة ظلت على صلتها ببيزنطية رغم انقطاع هذه

(1) Prof . Kozimierz michałowski .

(2) Faras .

(3) TheSunday Times Magazine July 14 , 1963 pp. 1- 11 .

الصلة بمصر ، وأن بيزنطة هي التي أوصلت المسيحية إلى النوبة ولو أنهم يناقضون أنفسهم في المقال عينه إذ يقولون أن كنيسة مصر هي أيضاً أرسلت بعثة تبشيرية للنوبة . وبدلاً من النقاش في هذا الموضوع أوردنا الصورتين التاليتين : أيقونة للسيد المسيح من النوبة وأخرى تزين القبة الرئيسية لكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة لأن الالتهنين متشابهتان إلى حد بعيد . ومعنى هذا أن الثنائين المصريين هم الذين رسموا هاتين الأيقونتين كما رسموا غيرهما . وأنهم كانوا في ذلك الوقت ما زالوا متأثرين بالفن البيزنطي فجاء إنتاجهم بيزنطياً في تعبيره .

ونلاحظ في أيقونة الميلاد أن الفنان قد رسم في أسفل الركن الشمالي صورة رجل على رأسه تاج ، ويستنتج المؤرخون أنه الأمير الذي تم بناء الكنيسة في عهده .



أيقونة السيد المسيح - وهي واحدة من مئة عثرت عليها البعثة البولندية في بلاد النوبة



كنيسة حارة زويلة - قبة الهيكل الأساسي

لمحة عن الراهب بيسوس

٩ - ولما كان الله تعالى يظهر عجائبه في قديسيه - حال وجودهم بالجسد وحال وجودهم خارج الجسد - فقد تجلت مراحمه بصور شتى في شخص الأنبا خريستودولس نفسه ، وفي الأحداث التي جرت في أيامه ، وفي النعمة التي فاقت على معاصريه . فقد أوضح الله تعالى مجده حين حفظ هنا الياها الاسكندري من بطش الأسود ، وإلى جانب ذلك فقد حدث أن الأنبا إيليا أسقف طموه كان يؤدي شعائر القداس الإلهي يوم عيد الشهيد العظيم مار بقطر بكنيستته في الجزيرة . ولم يكد يصل إلى منتصف الصلوات حتى سطع على أيقونة السيدة العذراء نور يخطف الأبصار . وقد رآه جميع الحاضرين في الكنيسة فتهللت قلوبهم وهتفوا : « حقاً أن سيدتنا البتول هي أم النور » (١) .

أما معاصرو هذا الياها الأمين فكان منهم الراهب بيسوس الذي تنسك بدير الأنبا يونس كامي . وكانت صلة هذا الراهب بالله تعالى متينة عميقة جعلته يتمتع لدى خالته بدالة عظمى . وحدث أن انتشر وباء الجدري فراح ضحيته واحد وعشرون ألف طفل حتى فزعت قلوب الآباء والأمهات من فتك هذا المرض . فبعثوا يرسلهم إلى الراهب بيسوس يطلبون إليه أن يشفع فيهم وفي الشعب المصري المعذب لدى الأب السماوي . فوقف هذا الراهب القديس يصلي طول الليل ، وظل في ضراسته إلى أن انبثق الفجر . وهندها قال للمرسل الموقدين إليه : « عودوا في طعائنة وقولوا للذين أرسلوكم

(١) لقد سعد الناس في عصرنا هذا بتجلى السيدة العذراء فوق قباب الكنيسة التي تحمل اسمها بضاحية الزيتون . وكان أول ظهورها مساء ٢ أبريل سنة ١٩٦٨ في شكل إنساني . ومذاك وهي تتجلى تارة في شكل إنساني وأخرى في شكل نوراني . وأحياناً بسطح نور كالهرق أو كطوق محسن وأخرى يظهر حمام أبيض ساطع كسرب أو كواحدة فقط . وقد شاهد هذا التجلى مئات الآلاف من الناس : مصريون وأجانب . قبط ومسلمون . لأنها ما زالت تتجلى بعد انقضاء سنتين من ظهورها الأول ومن يدرى إلى متى يستمر هذا التجلى العجيب وهذه نعمة عظمى أسبغها الله على المصريين في القرن العشرين إذ قد أعطاهم أولاً الدليل على عنايته وصحته وثباتاً على أن الظواهر الروحية التي ذكرها الناس في عصور مختلفة ما زالت حقيقة واقعة تخطف الأبصار وتملأ القلوب ...

أن سيدنا المسيح تحق علينا، وسيوقع عنا هذا الوفاء بنعمته . فعاد الرسل
لساعتهم . وحين وصلوا إلى مرسلهم وجدوا أن الوفاء قد تلاشى ^(١) .



الأنبا ميخائيل أسقف تنيس

٩١ - ومن بين الرهبان الذين استضافت مصر بنورهم في هذا العصر
الراهب أبو حبيب ميخائيل بن بدير الدمنهورى الذى اندفع بحماسة شهادته
وتوقد روحه إلى الترهيب بدير الأنبا مكارى الكبير بديرية شيهيت . وقد
كان أبوه بناءً ولجاراً وقد اعتنى هو وزوجته بتربية ولدهما تربية روحية
فعالة . وكان خاله ميخا مهندساً ورئيساً للنشازين العاملين في خدمة
الدولة . وبما أن ميخا هذا كان من خدام الدولة فقد تصادق مع بقية
الرشيدى وكان السبب في أن يتعرف ميخائيل ابن اخته على هذا الأرغن
الحامل للصليب . فقامت بينهما صداقة متينة . ثم نال ميخائيل رتبة
الشماسية فأثبت بجهاده المتواصل جدارته بهذه الرتبة الكهنوتية . وحينما
انشغل فكره بتدوين سير باباوات الأسكندرية ترك دير الأنبا مكارى الكبير
وانزوى عند الراهب بيسوس بدير الأنبا يؤنس كامى خمسة عشر يوماً
بصحبة بعض الأراخنة من بينهم بقية . وانشغل الجميع في الكتابة
والمراجعة طول النهار وحتى منتصف الليل فكانوا يتدارسون من الصباح
ويسترون معاً : بعضهم يكتب والبعض الآخر يراجع ثم يقرأون معاً ما
روجع بما يضطرهم إلى الاستمرار في العمل إلى وقت صلاة نصف الليل .
وبهذا الدأب كل يوم وكل ليلة كتبوا لنا سيرة عشر باباوات : من البابا
السادس والخمسين إلى البابا الخامس والستين . كذلك تعاون الشماس
ميخائيل بن بدير مع الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين حينما كان هذا
الأسقف الساهر منشغلاً بكتابة تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية بأن ترجم له
السير الباباوية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية .

ثم انتخبه الأنبا أبرآم بن زريعة ليكون كاتبه ووضع عليه كتابة
« السنوديقا » - أى كتابة الرسالة العقيدية التى كان البابا الاسكندرى
يبحث بها إلى أخيه في الخدمة الرسولية بطريرك الأنطاكي . واستمر

(١) « تاريخ البطاركة » نقله القمص شنودة ... ج ٢ ص ٣٧٥ .

يكتب هذه الرسالة العقيدية تحت رئاسة خمسة من الباباوات المرقسيين .
فلما اعتلى الأنبا خريستودولس الكرسي المرقسي رأى ألا يكتب بهذه
الخدمة من جانب الشماس أبي حبيب ميخائيل بن بدير الدمهورى فرفعه
إلى درجة الأسقفية إذ رسمه أسقفاً على تنيس مع استمراره فى عمله
ككاتب للسنديقا . وبعد أن كتب الرسالة (السنديقا) على لسان الأنبا
خريستودولس انتخبه هذا البابا ليحملها بنفسه إلى أنطاكية بصحبة الأنبا
غريبال القديس أسقف صان الحجر . فلما عاد إلى مصر كتب أخبار الكرسي
الأنطاكي ولو أنه وضعها ضمن سيرة الأنبا زكريا البابا الرابع والستين .

وحدث حينما توسط بقيرة وبعض زملائه من الأراخنة بين الأنبا شنودة
الثانى وبين أهالى الاسكندرية لتسوية الخلاف الذى كان قائماً إذ ذاك حول
الخمسمائة دينار الذى كان على البابا دفعها لأهالى تلك المدينة أن كان أبو
حبيب ميخائيل بن بدير الدمهورى حاضراً معهم . وحينما كتب سيرة هذا
البابا قال ضمن ما قاله عنه : « وكتب أنا البائس ميخائيل غير المستحق أن
أدعى أسقف تنيس وأنا يومئذ شماس ففرحت بهذا الأمر وساعدته عليه
وكان قد جعلنى كاتبه لأن قوماً من أصحابى وصفونى له فأخذنى أكتب
له . » ثم أختتم سيرة هذا البابا بقوله : « وتبع الأب البطريرك وأنا
جالس عنده وأغمضت عينيه بيدي واجتمعنا للصلاة ودفناه فى الكنيسة
الكبرى بدمرو » .

ولا يعرف بالضبط يوم نياحة هذا الأسقف اليقظ إلا أنه يتضح من
المخطوطات الباقية بين أيدينا أنه تنبع فى أواخر أيام الأنبا خريستودولس
إذ قد ورد فى سيرة هذا البابا الجليل أنه رسم القس سيمون من بيعة
القديس مرقس البشير أسقفاً على تنيس باسم الأنبا صموئيل . كما أنه فى
الحديث عن الإحتفاء برسامة الأنبا كيرلس الثانى جاء بأن الأنبا صموئيل
أسقف تنيس كان ضمن الأساقفة الذين حضروا هذا الإحتفال المهييب .
وهكذا حاصر الأنبا ميخائيل ستة من الباباوات . خدم الخمسة الأولين منهم
بوصفه شماساً وكاتباً للسنديقا وخدم الأخير بوصفه أخاً فى الخدمة
الرسولية (١) .

(١) مقال لكامل صالح نخلة عن «الشماس ميخائيل بن بدير الدمهورى» نقله عن كتاب تاريخ
بفازكة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس الأشمونى ونشره فى مجلة «رسالة نهضة الكنائس»
المعد الرابع من السنة الثالثة الصادر فى القاهرة فى أبريل سنة ١٩٤٧ ص ١٣٣-١٣٩ .

٩٢ - واسم الأتيا ميخائيل يكثرن باسم شماس آخر ظل شماساً طيلة حياته لأنه كان ممن عاشوا في العالم فلم يذهب إلى الدير - وهذا الشماس هو موهوب ابن منصور بن مفرج الاسكندراني الذي اشتهى أن يجمع سير الآباء البطارقة ^(١) إذ قال : « اشتهيت أنا الخاطيء البائس أن أجمع سيرهم وأكتبها ليكون ذلك ربحاً لي ولن يقرأها بعدى ، فاستعنت بالله تعالى ذكره وصرت إلى دير القديس أبو مقار بوادي هبيب المقدس فوجدت هناك الشماس أبا حبيب ميخائيل ابن بدير الدمشقي » ^(٢) .

وبعدما تحدث موهوب إلى هذا الشماس اليقظ اتفقا معاً على جمع سير البابوية وتنفيذاً لرغبتها تنقلا في مختلف الأديرة فوجدا في دير السيدة العذراء بنها سيرة اثنين وأربعين من الباباوات ابتداء من مارمرقس كاروز ديارنا إلى الأتيا سيمون وفي دير الشهيد الجليل تادرس باهلاج سيرة أربعة منهم : هم الأربعة الذين تعاقبوا بالعالي من بعد الأتيا سيمون وبذلك اكتملت لدى الباحثين سير ستة وأربعين بابا . أما التسعة الذين جاورا من بعد ذلك (أي من البابا السابع والأربعين إلى البابا الخامس والخمسين) فقد وجدا سيرهم في دير السيدة العذراء بنها أيضاً . ثم وجدا سير الباباوات العشر (من السادس والخمسين إلى الخامس والسعين) في دير الأتيا مكارى الكبير . فجمعوا هذه السير واجتمعا معا وتقلها . ويقول لنا موهوب بأن الأتيا ميخائيل أسقف تيس كتبها إذ طلب إلى راهب من أولاده اسمه لقوط بأن ينقلها له .

ولم يكتف الشماس موهوب بنقل السير التي وجدها بل أدرك أن واجبه يحتم عليه الاستمرار فكتب سيرة الأتيا خريستودولس الذي عاصره . فعلم أن الله لا يدع نفسه بلا شاهد على مدى العصور ^(٣) .

(١) راجع ما جاء عنه في ص ٧٣ .

(٢) تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية للأتيا ساويرس أسقف الأفسرين - المجلد الثاني الجزء الثاني - نشره مع ترجمته الأنجلويزة يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر ص ١٥٩ .
(٣) شرحه ص ١٥٩ - ١٦١ - هنا ولم يبق أي أثر للذين ذكرهما هنا الشماس - وهما دير السيدة العذراء بنها ودير الشهيد تادرس باهلاج . وقد ذكر انجيلي وابت في كتابه « أديرة وادي النطرون » (بالانجليزية) ج ٢ ص ٣٦. نقلاً عن موهوب بن منصور بأن عدد الرهبان في القرن الحادي عشر كان أربعين في دير الأتيا مكارى الكبير، ومئة وخمسة وستون في دير الأتيا يونس القصور ، وخمسة وعشرين في دير الأتيا يونس كلسي، وعشرين في دير البرموس، وأربعين في دير الأتيا يوشى، وستين في دير السريان، واثنين في سفارة الأتيا موسى الأسرد أحدهما قبطي والثاني سرياني .

مشرع حكيم

- ٩٢ - الراهب جورجيجوس يصيح الأتيا
كيرلس الثاني .
- ٩٤ - الانتاج المعمارى اعظم مطلقاً هذا
العصر .
- ٩٥ - النقاء البابا المرقس بالظيفة
المستصر والوزير .
- ٩٦ - فيض الميزون .
- ٩٧ - تبادل رسائل الشركة مع البحر
الانطلي .
- ٩٨ - لترك صيغ للمسؤولية .
- ٩٩ - لالة بين مصر وجيرانها .
- ١٠٠ - ليس احد ترك بيتاً... الا
وبأخذ منة ضعف^(١) .
- ١٠١ - عرض الاتيا كيرلس الثاني على
التعاليم الرسولية .
- ١٠٢ - مزيد من البركات .
- ١٠٣ - نشر القوانين الكنسية .
- ١٠٤ - تكريس كنيسة القيامة بالقس
الشريف .
- ١٠٥ - الاتيا كيرلس الثاني يصل الى
نهاية شوطه .

٩٢ - دخلت السدة المرقسية بانتقال الأتيا خريستودولس إلى مساكن
النور ، فرجد الأساقفة والأراخنة أن الضرورة موضوعة عليهم للمبادرة إلى
دير الأتيا مكارى الكبير بيرة شهيت ليتفاهموا مع رؤساء الأديرة في أمر
من يصلح لأن يخلف القديس مرقس الرسول . وبعد أن قضوا به شهرين دون
أن يصلوا إلى نتيجة انتقلوا إلى دير الأتيا يؤنس كامى إذ كانوا قد سمعوا
عن الشيخ الناسك الجليل بيسوس العائش في هذا الدير . فما أن وصلوه
حتى اتجهوا صوب صومعة بيسوس ، وأمسكوا به ، وأرادوا أن يقتادوه
إلى الأسكندرية قسراً . فأخذ يردد بصوت جهورى : « أنا ابن عبد حقير
فكيف تقيمونى على السدة المرقسية التى لا يستحقها غير حر ؟ » فعرا
وفد الأساقفة والأراخنة شئ من الذهول وصمتوا حيناً . فانتهر الراهب
بيسوس الفرصة ليقول لهم فى تأكيد : « لماذا تجهدون أنفسكم فى البحث
عنم يخلف المتتبع الأتيا خريستودولس ؟ ان الراهب الذى تشدونه موجود
فى دير الأتيا مكارى الكبير . واسمه جورجيجوس . وهذا الراهب مزكى من
الباها الراحل نفسه . » وتأثر الجميع بهذا التصريح الجرى، فعادوا إلى دير الأتيا
مكارى الكبير واقتادوا هذا الراهب إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم

(١) متى ١٩ : ٢٩ .

الدينية ، وبها أعتلى الراهب جورجىوس السدة المرقسية باسم كيرلس الثانى ، فأصبح البابا الاسكندرى السابع والستين سنة ٧٨٦ ش (١٠٧٠م) .

٩٤ - وكانت مصر تنعم إذ ذاك بسلام كله إنتاج . لأن بدر الجمالى لم يلبث أن أقر العدالة والأمن . وكان بعيد النظر ، ثاقب الرأى . وضع نصب عينيه هدفاً واحداً : هو أن يجعل من مصر دولة قوية تنعم بالرخاء . وقد استطاع أن يصل إلى هذا الهدف بسرعة هجينة . وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها هى العمل على تنمية التجارة ، فأقرض المشتغلين بها مبالغ كبيرة تسدد على أقساط طويلة . كذلك مكثهم من الاتجار مع البلاد الأخرى خارج مصر : ثم رأى أن يولى الزداع عنايته أيضاً فتنازل لهم عن ضرائب ثلاث سنين متأخرة عليهم . وفرحوا بهذا الكرم غير المنتظر فضاعوا جهودهم ، ومن ثم تضاعفت محاصيلهم وعاد تشهد العمل فى الحقول والمتاجر والمصانع . وترددت أصداؤه فى الوادى العتيق . وكانت النتيجة الطهيحية للرخاء المادى أن نشط الفكر ، وعاد الناس يكتهون ويبتكرون . فازدهرت العلوم والفنون . على أن أعظم ما أنتجته هذه الفترة هو الفن المعمارى . ذلك لأن بدر الجمالى أراد أن يحصن القاهرة ببناء سور منيع حولها ، فنفذ المهندسون رغبته . وقد جعلوا لهذا السور ثلاث أبواب هى باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة . وقد وضع تصميم هذه الأبواب هذه الأبواب راهب قبطى اسمه يونس^(١) .

٩٥ - وبينما كان الزارع يعمل فى حقله ، والتاجر يشتغل بتجارته ، والصانع يتفانى فى إنتاجه ، كان الناس منصرفين كل إلى أموره فى هدوء . وهكذا وجد الأنبا كيرلس الثانى الفرصة أمامه للقيام بأعبائه الراعية بلا مانع ولا عائق . فما أن تمت رسامته حتى غادر الاسكندرية وقصد إلى القاهرة . وحالما بلغ ضواحيها ذهب إلى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل التى كانت مقامة على جزيرة فى النيل . فسارع الأنبا ياكوبوس أسقف باهلون لاستقباله . وكان قد أبلغ الشيخ أبى الفضل ناظر الأبواب^(٢) بمقدم البابا الاسكندرى . فسارع هذا الشيخ بدوره إلى إرسال حسان أبييض بصحبه عدد

(١) تاريخ مصر فى القرن الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بويل ص ١٥٢ - ونقلًا عن أبى صالح الأرمنى (أو بالأحرى أبى المكارم القبطى) .
(٢) أى رئيس الشرطة .

من حفلة الأمن ورجال القصر إلى كنيسة الملاك ميخائيل . فركب الأنبا كيرلس الثانى الحصان الأبيض وأحاط به الأساقفة والأراخنة والرجال الموفدون من قبل الشيخ أبى الفضل . وصاروا تتبعهم المجمع إلى قصر الخليفة . وقد تقدم هذا المركب الشامسة حاملين الشمع الموقدة والمباخر التى يعصاعد منها البخور الزكى . وما أن وصلوا إلى باب القصر حتى خف مأمون الدولة (أستاذ الخليفة)^(١) لاستقبالهم . ودخل المجمع قاعة الضيافة . ثم دخل البابا المرقسى مع مأمون الدولة إلى قاعة بجانبها حيث كان الخليفة المستنصر وأمه وأخته فى الانتظار . وقد حملت السيدتان زجاجات العطور ، وأخذتا ترشان الضيف الكبير ، وتعطران أرجاء القاعة . ثم قالتا : « تفضل فباركنا وبارك قصرنا » . فاستجاب رجاءهما على الفور بما أفرجهما للضيافة . ثم مشى الأنبا كيرلس الثانى إلى الباب الفاصل بين القاعتين . وطلب إلى الأنبا بطرس أسقف دميرة أن يرفع صلاة شكر لله تعالى ثم يقرأ رسالته الراحوية . وأصغى المستنصر وأمه وأخته فى اهتمام بالغ لهذه الصلاة وهذه الرسالة . ولما انتهى الأسقف ، تبادل الجميع التحية . ثم خرج البابا على رأس موكب فى محلة واكهار . وقصد إلى دار بدر الجمالى الذى ما كاد يلمح المركب الباهى آتياً نحوه حتى خف لاستقباله بكل مظاهر الأبهة والجلال . وتقدم إلى البابا مع كل أفراد أسرته راجياً منه أن يمنحهم بركاته . ثم تلا الأنبا بطرس الرسالة الراحوية مرة أخرى . وكان والى القاهرة ووجوه الشعب حاضرين هذه الزيارة فلما انتهت طلب بدر إلى والى أن يخرج فى معية الأنبا كيرلس الثانى ليوصله إلى الدار البابوية . وأن يلازمه وينفذ كل طلباته . ف شكر البابا الاسكندرى للوزير حسن وفادته ، وانصرف إلى الكنيسة المعلقة التى كان سلفه قد اتخذها مقراً له بعد أن نقل مركز الرئاسة من الاسكندرية الى القاهرة .

٩٦ - وبعد أسابيع قصيرة بدأ الصوم الكبير . فتهج الأنبا كيرلس الثانى منهج أسلافه بأن قصد دير القديس مكارى الكبير لقضاء أيام الصوم فيه لكي يجد فى سكون الصحراء وترايبها إلى الأفق الفرصة اللازمة للتأمل فى مراحل التقدير . وفى هذه الفترة قام البابا الاسكندرى بتأدية الشعائر

(١) كان الأساتذة فى عهد الفاطميين خواص الخليفة وأقرب الناس إليه . وراجع « نظام الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » لعطية مصطفى مشرفة - الطبعة الثانية . ص ٨٩ .

لخاصة بتكريس الميرون . وقد بلغت حرارة صلواته درجة جعلت الميرون يفيض ويسيل من الرعاة التي هو قهيد على المذبح . واهتزت القلوب نشوة حين أبصروا هذه الظاهرة . ومجدوا لله الذي أعطانهم راعياً بهذا الصلاح .

٩٧ - وظل الأنبا كيرلس الثاني في الدير إلى أن احتفى بصلوات عيد القيامة المجيدة . ثم عاد إلى القاهرة حيث وجد رسالة الشركة من مار ديميتريوس بطريرك أنطاكية . ففرح بها وأمر بقراءتها في جميع كنائس مصر . ثم بحث بالرد مباشرة . جدد فيه العهد مع شريكه في الخدمة الرسولية . وأعلن له تحسكه بالايمان الأرثوذكسي الذي يربط بين كنيستيهما .

٩٨ - وما يؤثر عن الأنبا كيرلس الثاني أنه كان قليل العلم عند انتخابه . فلما وجد نفسه بين عشية وضحاها جالساً على السدة المرقسية كرس نفسه للدرس والاطلاع كما فعل الأنبا ديميتريوس الكرام الذي سبقه بسبعة قرون^(١) . ولشدة رغبته في تعريض ما فاته استوعب الكثير من العلوم حتى لقد ترك تراثاً مهنياً يشهد له بالتفوق^(٢) .

٩٩ - وفي تلك الفترة - كثرت المراسلات بين مصر والنوبة والحبشة . كذلك كانت المقابلة الأولى التي تمت بين الأنبا كيرلس الثاني وبين الخليفة المستنصر سبياً في توثيق العلاقات بينهما . فكان الخليفة يستشيره في مختلف الأمور ويدعوه إلى قصره للاكتناس به والاسترشاد بأرائه .

١٠٠ - وكانت المناوشات بين ولاية منطقة أسوان وملوك النوبة لا تهدأ إلا لتعود . على أن بدر الجمالي رأى بثاقب فكره أن مسألة الجيران خير من استعبداتهم . وهكذا استقر السلام بين أهالي المنطقة كلها .

وفي تلك الفترة - حينما اطمانت نفس سلمون ملك النوبة إلى حالة بلاده - رأى أن يتنازل عن العرش لجورجا ابن أخيه لأنه أحسن برغبة قوية في الدخول إلى الدير . واختار دير القديس الأنبا توفير السائح في الوادي الذي يحمل اسمه والذي يقع على الحدود المصرية النوبية . وكان والي

(١) راجع سيرته في الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) «تواتين كيرلس الثاني البابا السليح والستين للاسكندرية» (بالانجليزية) مقال

لاوزولد برومستر نشره في مجلة «موزيون» العدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٧-٢٤٨ .

أسوان إذ ذاك أسمه أسعد الدولة . فجاء بعض رجاله ذات مرة يسألونه : « أتريد أن تأتي إليك مسلمون ملك النوبة ؟ » ورغم السلام السائد الذي أقر دهائمه بدر الجمالى أجاب أسعد الدولة : « إن ذلك ليسعدنى » . فذهبوا خلصة إلى حيث يقيم الملك وأخذوه على غرة وأحضره إلى واليهم . فجاء معهم من غير مقاومة إذ كان قد اختار طواعية ترك أمجاد العالم . وهما له أسعد الدولة حرس شرف ليرافقه إلى القاهرة إذ قد رأى إيفاده إلى الخليفة . وما أن أشرف على المدينة وسمع رجال الحكم بتقديمه حتى سارع بدر الجمالى إلى استقباله بالطبول والدخوف ثم أعد له منزلاً مستكمل الأثاث والأواني وأنزله فيه . وتقبل الملك مسلمون كل مظاهر الحفاوة بدعة وسكون . وقد لاحظ بدر الجمالى أثناء زيارة هذا الملك المسيحي الوديع قوة الصلة التي تربط بينه وبين القبط من ناحية وبينه وبين الأقباط من الناحية الأخرى . ولما كان يسعى إلى تعزيز الروابط بين مصر وجيرانها فقد كاشف البابا كيرلس الثانى وأساقفته وأراخنة شعبه برغبته فى عقد معاهدات مع هذين البلدين لتسهيل طرق التجارة وأمتدادها . وقد أقروا على رغبته وسعوا إلى تحقيقها بأن أخذ البابا كيرلس على عاتقه مفاوضة المستولين فيهما . ولجحت مفاوضاته . فازدادت منزلته ارتفاعاً لدى الخليفة ولدى بدر الجمالى . وشمل التقدير القبط وبالتالى تقلد عدد منهم الوظائف العالية فى دواوين الحكومة . وكانوا فى ذلك العهد قد تمكنوا من اللغة العربية إلى حد أنهم ألفوا فيها مؤلفات تشهد لهم بغزارة المادة . ولم يغفروا بالوظائف فحسب بل فازوا باللقاب التقدير التى كان الخلفاء فى تلك الأيام يطلقونها على من يعرفون فضلهم ومن هذه الألقاب : « الرئيس » . « هبة الله » . « الأمير » . « الأسعد » . « الشيخ » . « نقيب الدولة » . « تاج الدولة » . « فخر الدولة » (١) . وهكذا كانت إقامة الملك مسلمون سبباً فى تعزيز صلات المودة والتقدير بين القبط والمسلمين رغم أنها لم تدم غير سنة انتقل بعدها إلى دار النعيم ودفن بدير الحندق (٢) .

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة روفيلة ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) المعروف الآن بأنها دويس ولم يبق من الدور غير كنيسة باسم هذا القديس وكانت ملاصقة لكنيسة باسم السيدة العذراء ولكنها دُمجت فى مايو ١٩٦٨ لأنه أقيمت كاتدرائية عظمى باسم ماركس شملت الجزء الأكبر من مساحة الأرض وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور تسعة عشر قرناً على استشهاد كايوز النهار المصرية وعودة رفاقه بعد غيبة زادت عن ألف سنة فى مدينة البندقية .

١٠١- ثم وجد الأثبا كيرلس الثانى عدداً من الايبارشيات شاغراً فرأى أن يسير بموجب التعاليم الرسولية وتقاليد الآباء الرسولين فجد فى البحث عن الرهبان الصالحين المحتلئين نعمة ورسومهم على هذه الكراسى . كذلك دأب هذا الراعى الصالح على تعليم الشعب مداومة قراءة الكتاب المقدس له وتفسيره متعاً لهيلة الأفكار . ومن نعمة الأب السماوى أنه نحن على الجميع بفيضان واف كل سنة من سنى باهرته فعم الخير البلاد .

١٠٢ - وكان هناك رجل اسمه يوحنا بن الظالم طفر بأسقفية سخا . اختلف مع البابا وتمكن من أن يضم إليه بعض الأساقفة وجمهوراً من الشعب . وذهب الأساقفة (وكانوا جميعاً من الوجه البحرى) إلى باباهم معربين له عن استيائهم من بعض الرجال المحيطين به ورجائهم فى أن يبعد هؤلاء الرجال . على أنه لم يبعد غير واحد منهم . فعادوا إليه بهاتونته . وكان فى ديوان الخليفة إذ ذاك رجل اسمه أبو زكريا يحيى بن مقارعة شيخاً وقرراً عاقلاً ذا كلمة مسموعة نجح فى مصالحة الجميع ^(١) . على أن أسقف سخا وبعض أنصاره لم يكتفوا بهذه المصالحة فاحتكموا إلى بدر الجمالى الذى صارهم تبجيله للبابا المرقسى . ثم طلب إلى كل من الفريقين أن ينظم القوانين التى يرى ضرورة العمل بموجبها لتكون قاعدة الفصل فى التعامل بين الجميع . وبعد ذلك بأيام دعا بدر الجمالى البابا الاسكندرى وأساقفته إلى قصره ، فلقى دعوته سبعة وأربعون منهم ^(٢) . وكان الوزير يستهدف السلام من دعوته هذه لأنه كلمهم بكلمات كانت كالوحي من الروح القدس إذ قال لهم : « كونوا جميعاً برأى واحد ، وليكن ولاؤكم لكبيركم خالصاً ، وتمسكوا بقول السيد المسيح حين أوصى تلاميذه بأن لا يكتزوا لهم كنوزاً على الأرض ، وإنى استمحيكم هذا فى نصحي هذا لأنى أعرف أنكم حريصون على حفظ الوصايا الإلهية والتقاليد الرسولية . ولكنى رددتها أمامكم للتذكرة فحسب » . ثم تداول الوزير مع الأساقفة فيما يهدفون إليه ووسائل تحقيقه ولما انتهى من مداولاته دعا كتبة ديوانه وأمرهم بكتابة المراسيم التى بها تخول السلطة التنفيذية للأساقفة تنفيذاً لأهدافهم ، فخرجوا

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة ووليلة ص ١٤٧ .

(٢) « قوانين كيرلس الثانى البابا السابع والستين للاسكندرية » (بالانجليزية) مقال لانيولك برومستر نشره فى مجلة «موزيون» العدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٦ حيث يقول أن عدد الأساقفة إذ ذاك كان أربعاً وخمسين .

من عنده شاكرين له أفضاله وذهبوا لساعتهم إلى كنيسة أبى السيفين ببابلون حيث رفعوا صلاة الشكر للأب السامري على ما هيا لهم من فرصة للجهاد . كذلك اشتركوا فى اقامة القداس الإلهى واحتشدت الكنيسة حتى أبوابها بالمصلين الذين تجمعوا لكى يجدوا الله فارح الهم والكرب .

١٠٣ - وانشغل البابا الاسكندرى بعد ذلك بنشر القوانين الكنسية على الشعب ليعرفها ويعمل بها . ويبدو أنه استلهم القوة على الجهاد من الاسم العظيم الذى يحصله - اسم كيرلس عامود الدين الذى أوضح حقيقة الإيمان فى المجمع المسكونى الثالث . فقد تمكن - باجتهاده ومشارته - على تنظيم خلاصة للقوانين الكنسية فى أربع وثلاثين مادة وإذاعتها على الشعب . فسطعت الكنيسة خلاله وتهلل جميع سكان مصر بنوره (١) .

وقد أستهل هذا البابا المعظم قوانينه بقوله : « لما كان من قضاء الله وحكمته غير المدركة تقدمتى إلى هذه الخدمة الجليلة التى لا أستحقها ، فقد انكلت على رحمته تعالى ووثقت بنعمته فى معاونتى على النهوض بأعباء رسالتى مهتلاً إليه أن يكمل نقصى » .

وانتقل - بعد هذه الديباجة - إلى التأمل فى محاولات موسى وأشعياء وأرميا الاعتذار إلى الله تعالى عن عجزهم على القيام بما يأمرهم به لقصورهم وضعفهم ، وكيف أنه تعالى وضع عليهم الضرورة لحمل رسالته (٢) . وأفاض عليهم نعمته فمكّنهم بذلك من تأدية الأمانة التى أئتمنهم عليها . فشجعه هذا على السير فى جهاده ، وأستعان بهذه النعمة الإلهية عينها ، فصاغ القوانين الكنسية إرشاداً لشعبه وتذكيراً لهم بالمبادئ التى دان لها الآباء . وقد وضع أربعاً وثلاثين مادة صاغها كما يلى :

١ - انتهى إلى مسكنتى أن قوماً يلتصقون رشوة لمنح الرتب الكهنوتية . فمن فعل ذلك ، وأخذ رشوة على الموهبة ، أو وعد برشوة لنيلها ، مستعيناً فى ذلك بالمكر والخديعة ، فلا تقبل رياسته الكهنوتية ولا يكون عندكم إلا بمنزلة الوثنى والعشار ، وهو مقطوع محروم منفى من بيعة الله ، هو ومن منحه الرتبة الكهنوتية ، ولقد جاء فى القوانين أنه

(١) الشكسار الأثينى ترجمه إلى الإنجليزية واليس بونج ج ٤ ص ٩٩٥ .

(٢) خر ٣ : ١١ - ١٤ ، أش ٦ : ١ - ١٠ ، ١١ : ١ - ١٠ .

على الرئيس أن يؤدب شعبه ويقومه بالصليب لا بالحرم ، وأن لا يربط ولا يحل من غير حق . فإن هو حرم أو ربط من غير حق ، طلباً للتشفي أو التماساً لإذلال الناس واخضاعهم ، فليكن هو المربوط المحروم من الله وأحكامه .

٢ - أى أسقف أو قس يرفض قبول الخاطئ التائب ، فليقطع . لأنه خالف قول السيد المسيح الذى أعلن أنه يكون فرح فى السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة ^(١) .

٣ - يجب على كل أسقف أن يتفقد جميع البيع والأديرة الواقعة تحت سلطانه ، وأن يحافظ على آلائها ومستفلاتها ورعيها ، ويراعى نظافتها وعمارتها .

٤ - يجب على كل أسقف أن يعرف حال كهنته فى مختلف الكنائس والجهات الخاضعة له ، وأن يفحص أمورهم فى عملهم وفى القداسات التى يقومونها ، وفى قراءة الكتب التى يفرضون على أنفسهم تلاوتها .

٥ - يجب على الأسقف أيضاً أن يتعهد كهنته وشعبه بالتحاليم الإلهية التى تخلصه وتخلصهم من خطاياهم . فكل نفس من أنفس الرعية مطلوبة من راعيها .

ثم بين الأنبا كيرلس الثانى بعد ذلك واجبات الأسقف نحو الفقراء والمعوزين ، ونحو الرهبان الذين يجب أن يقتضوا العمر فى الدير ما لم يطلب إليهم رؤساؤهم تأدية عمل معين خارجه وبعد هذا البيان قال :

١٢ - « يجب أن يحذر الكهنة والعلمانيون الالتجاء إلى غير حكم البيعة . فإن جرى خلاف بين البعض منهم فعليهم أن يحتكموا إلى أسقفهم وينزلوا على حكمه » .

واسترسل البابا الاسكندرى فى قوانينه ، فبين أهمية الصوم ووجوب التمسك به ، كما أوصى الكهنة بالعناية الشاملة فى عقد سر الزيجة ، فلا يعقدونه إلا متى تأكدوا من شرعيته . ثم أوصى الشعب بوجوب احترام الأساقفة ورجال الإكليروس . وأختتم قوانينه بقوله : « يجب على أبناء »

(١) لو ١٥ : ٧ .

المعمودية ترقيير المذابح المقدسة والهيكل الطاهرة وتزينها عن اقتحام كل العلمانيين لها ^(١) . وأخيراً دعا الله جل اسمه أن يوفق الشعب لعمل ما يرضيه ، ويشيت بينهم المحبة الروحية والأخوة المسيحية ، ويغفر ذنوبهم ، ويصفح عن زلاتهم ، ويرحم موتاهم ، وينجي شيوخهم ، ويمنح العفة لشبابهم بشفاعة ذات الشفاعات ومعدن الطهر والبركات السيدة مريم العذراء وجميع الشهداء والقديسين ^(٢) .

١٠٤ - ومن دواعي التهليل الروحي أن كنيسة القيامة بالقدس الشريف - التي كان قد أحرقها الحاكم بأمر الله - قد تم بناؤها في عهد الأنبا كيرلس الثاني . ولما تم تشييدها ، أرسل الأسقف الأنطاكي خطاباً إلى البابا الاسكندري يتبادل وإياه التهنتة ، لأن الأب السماوي أسعدهما بإتمام هذا العمل في أيامهما . ثم رجا فيه أن يتعبد نفراً من أساقفته ليشاركوا معه في إقامة الشعائر الكنسية الخاصة بتكريس أماكن العبادة . فأجاب الأنبا كيرلس الثاني هذا الطلب فوراً ، ووقت مراسيم التكريس في موسم عيد القيامة سنة ٨٠٠ ش - (سنة ١٠٨٤ م) .

ولقد فاضت نعمة الله في تلك الآونة إذ كان بالقدس قبطي من ذوى المكانة في الدولة اسمه منصور العلباني كان قد بنى كنيسة على مقربة من كنيسة القيامة . وكان قد بعث برسالة إلى البابا الاسكندري يرجو منه فيها أن يحضر إلى القدس لتكريسها . ولما كان قد انتدب الأساقفة الذين كلفهم بالاشتراك مع أسقف أنطاكية في تكريس كنيسة القيامة نفسها فقد طلب إليهم أيضاً أن يكرسوا الكنيسة التي بناها منصور العلباني ^(٣) .

١٠٥ - وفي هذه السنة عنها اتعلل الأنبا كيرلس الثاني إلى بيعة

(١) يلاحظ هنا أن هذا البابا المرحوم على القوانين حرم دخول العلمانيين الهيكل فلم يقتصر الحرمان على السيدات كما هو حادث الآن لأن القانون الأصيل في هذا الشأن هو أن لا يدخل الهيكل إلا من وضعت عليهم اليد فقط .

(٢) « قوانين كيرلس الثاني البابا الاسكندري السابع والستين » نشر الأصل العربي مع ترجمته الانجليزية أوسوالد بورمستر في مجلة « موزيون » عدد ٤٩ سنة ١٩٣٦ ص ٢٤٥ - ٢٨٨ .

(٣) تاريخ الأمة القبطية لكامل صالح نخلة وفريد كامل (الحلقة الثانية) ص ١١٨ . قصة الألقاط في الأرض المقدسة لدميتري بندق ص ١٩ . ٢٤ .

الأبكار وقد حدث أنه - خلافاً للعادة - لم يقض فترة الصوم الكبير في دير الأنبا مكاري الكبير بشيهيت بل أكتفى بالذهاب إلى دير الشمع غرب طموه ثم إلى كنيسة الملاك ميخائيل في جزيرة النيل ، ومن هناك عاد إلى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) بعد عيد القيامة المجيدة . ولم تكد أيام المحسين تنتهي حتى بلغ نهاية شوطه فأسلم روحه بين يدي الأب السماري بعد أن قضى أربع عشرة سنة وستة أشهر على السدة المرقسية ^(١) .

ومن الآباء المعاصرين لهذا البابا الأنبا بطرس أسقف البهنسا الذي حضر المجمع وقت انعقاده بدار أمير الجيوش بدير الجمالي وكان من مؤيدي باباه . وقد عنى هذا الأسقف عناية خاصة بصلوات الشعائر الكنسية . فقد لاحظ خلال أسبوع البسغة أن لبعض ساعاتها صلوات وقراءات مطولة في حين أن لبعضها الآخر صلوات وقراءات قليلة . فجمع الكتب المقدسة ودرسها ووضع لكل ساعة من الساعات ما يرافقها من العهدين القديم والجديد ومن صلوات وميامر . وبهذا الوضع رتب ساعات البسغة المقدسة فصارت الساعات معسوية فيما تتضمنه من شعائر . كذلك وضع لكل يوم من أيام أسبوع الآلام عظتين : واحد للصباح وأخرى للمساء كما وضع كتاباً خاصاً بتكريس المعمودية قال فيه : « إذا بنيت بناء جديداً يكون بناؤه في الشرق عن يمين الببئة وتوضع فيه أبقونة بروحنا المصداق وهو يعمد سيدنا له المجد » . وبعد ذلك أورد صلاة التكريس وهي التي يصلي بها الآباء الأساقفة عند تكريس جرن المعمودية إلى الآن ^(٢) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الهرموس الصوامعي ج ٢ ص ٢٨٥-٢٩٥ .
 (٢) عن مقال للقمص ميخائيل بحر خاص بالقيم المنيا في العصر القبطي نشره في مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة المدين السادس والسابع (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢) ص ٢٨ - ٣٩ . ويعلق في هامش ص ٣٩ بقوله : « في الكنائس الأثرية التي بنيت في أول القرن الخامس الميلادي تقع المعمودية على يسار الداخل إلى الببئة . ففي كنيسة الأنبا يوحنا القصير بدير أبي حنس بنيت المعمودية بين الخورس الثاني والثالث إلى الشمال وتطل نحو الغرب . وفي ببة الأنبا بيشوي بدير البرشا تقع المعمودية بحرى باب الكنيسة في الخورس الأول وتطل نحو الغرب أيضاً . وفي هذا الوضع حكمة بالغة . ذلك لأن المعمودية تعيد ولادة المهدد وتعيد خلقه . وبعد مسح بسر الميراث المقدس بعد المعمودية مباشرة ينتقل إلى اليمين إلى الهيكل حيث المذبح الطاهر ليتناول سر الشكر الذي به يتجدد عقلياً مع ينبوع الخلاص نفسه . فبناء المعمودية في بعض الكنائس الجديدة إلى اليمين فيه خطأ يجب أن يصحح .

الأمين فى القليل أمين فى الكثير

١١١ - الخدابة بالمستعلى خليفة بعد أبيه

١١٢ - ثورة فلسطين .

١١٣ - توسط البابا الاسكندري بين مصر

واليوبيا .

١١٤ - فى العجلة النذابة .

١١٥ - سطوة الانفل .

١١٦ - نهاية راع امين .

١٠٦ - بزايا المتوحد العبيس ميخائيل

١٠٧ - وسيلة لقناعه لقبول رئاسة

الكنوت .

١٠٨ - قضاء بضعة ايام بدير الانبا مكاري .

١٠٩ - عصيان الخضوع .

١١٠ - الخليفة المستنصر ووزيره بدر

الجمالى .

١٠٦ - وحتمت أحداث الحياة ، وتعاقب الموت عليها ، أن يجتمع الأساقفة والأراخنة معاً ليفكروا تفكيراً جماعياً فى الراهب الذى يريدونه ليجلس على الكرسي المرقسى . ولما كان للاسكندريين الأولوية إذ ذاك ، اجتمعوا وتشاوروا دون أن يصلوا إلى نتيجة . فقرأوا الذهاب إلى القاهرة ليتفاهموا مع أولى الراى فيها . ولما بلغوها وجدوا بها بعض أساقفة الصعيد ، جاؤا هم أيضاً للتشاور فى أمر الانتخاب . على أن مداولاتهم لم تسفر عن شئ . فرأوا أنه من الأجدى أن يتوجهوا إلى برية شيهيت للتفاوض مع رؤساء الأديرة هناك لعلمهم بظفرون بضائعهم المنشودة . وكان دير الأنبا مكاري الكبير مقصدهم . وبينما هم مجتمعون فيه يستعرضون بعض الرهبان ، إذا بزائر يدخل عليهم صدقة ^(١) . ولما عرف السبب الذى اجتمعوا لأجله أعلمهم بأنه يوجد راهب متوحد حبيس فى صومعة بسنجار ^(٢) اسمه ميخائيل . وقال عنه : « لقد اشتاقت روحه الطاهرة إلى الجهاد الحسن وفقاً للحياة الرهبانية القدسية . ورغب فى أن يتجند للسيد المسيح منذ صباه . فعاش فى هذا الدير الذى أنتم فيه الآن سنوات عديدة ونال رتبة الكهنوت . ثم غادره وقصد إلى مدينة سنجار . فانفرد فى صومعة على مقربة منها » ^(٣) وما كاد الوفد الكنسى يسمع هذا الرصف

(١) لا يقر المؤمنون مبدأ الصدقة لأنهم يرون تدبير العناية الإلهية حتى فيما يبدو للناس صدقة .

(٢) مدينة أبتلعتهما بحيرة الهرلس المحاذية للبحر الأبيض المتوسط .

(٣) الشكسار الأثيوبي ترجمه إلى الإنجليزية وأليس بودج ج ٣ ص ٩٤٤ .

حتى غادر بركة شيهيت لفره وذهب إلى مدينة سنجار حيث سأل أهلها عن الراهب ميخائيل ، فأجابوا أنه واسع الإيمان متبحر في العلم ، يملأ صبر قناسته الأرجاء . فإزداد شوق أعضاء الوفد لرؤية الناسك ميخائيل واستقر رأيهم على انتخابه .

١٠٧ - ولكي يتمكن هذا الوفد من الوصول إلى ضايته انتدب الأنبا سنيوت أسقف القاهرة ، والشماس أبنا غالب بن مرقوريوس ليقابلاه شخصياً . ولما دخل هذان المتدويان صومعة ميخائيل المتوحد أخذوا يسألانه عن الإيمان وعن تعاليم الكنيسة . وقد أبدت أجوبته ما قبل عنه ، وعندها أعلنوا له السبب الذي جاء - هما وزملاؤهما - لأجله . فاعتذر لهما بعدم استحقاقه لهذه الكرامة العظمى وبأنه لم يعد يصلح للحياة في العالم بعد أن قضى السنين الطويلة في الوحدة . على أن الأسقف وشماسه لم يقرأ على هذه الأسباب ثم أكدوا له أنه لم يأت معهما طوعاً فسيحتملاته قسراً ، واستعطفاً لكي لا يضطرهما إلى حمله عنوة . فتأثر ميخائيل بكلماتهم ، وبما أولياه من ثقة ، ونزل على رغبتهما . وخرج لثلاثهم ، واجتمعوا ببقية أعضاء الوفد . ثم قصد الجميع إلى القاهرة . فتلقاهم الأساقفة والشعب بالرحيب والتهليل وسار الجميع إلى الاسكندرية حيث أقيمت مراسيم الاحتفال باقامته البابا الاسكندري الثامن والستين يوم ١٢ بابه سنة ٨٠٠ ش (١٠٨٤ م) باسم الأنبا ميخائيل الرابع .

١٠٨ - وما أن تمت رسامته حتى بادر بالذهاب إلى دير القديس مكاري الكبير للتعبد والتأمل في الإلهيات لكي يستمد من هذه التأملات النعمة الإلهية التي تمكنه من تأدية مهامه الراعوية . وبعد أن قضى في الدير أيام استعرض في نفسه خلالها سير الآباء الأماجد الذين قادوا دفة الكنيسة بحكمة وصلاح عاد إلى القاهرة . واتخذ من كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل القائمة على جزيرة في النيل مقراً له .

١٠٩ - ولقد عكر صفو السنة الأولى لبابوية الأنبا ميخائيل الرابع عصيان بعض أبنائه عليه . على أنه استطاع بحكمته أن يُلطف من حدتهم ويجعلهم يستغفرونه ويقدمون له فروض الولاء . ولكنه لم يكد بهذا بتثبيت السلام بينه وبين أبنائه حتى فوجيء الجميع بانتقال بدر الجمالي إلى دار الخلود . وكان هذا الأرمني الكبير قد خدم مصر بتفان وإخلاص مدى

خمس عشرة سنة . فقد أدرك أنه أن شاء . أن يظل قابضاً على أعتة السلطة
وجب عليه أن يستميل الشعب إلى جانبه . وأن خير وسيلة لاستمالتهم هي
تأمينهم على منافعهم وتجارتهم وزراعتهم وجعلهم يشعرون بالطمأنينة
والاستقرار . لذلك لم يثبت دعائم الإقتصاد فحسب . بل جعل الاتصال
قاعدة الحكم أيضاً فعامل المصريين جميعاً على السواء . ودرج على دراسة
جميع الشكاوى التي تصله بنفسه ليعرف مدى صحتها وليعطي الحق
لصاحبه .

١١ - وقد أحب المصريون هذا الوزير لهذه الخزايا رغم أنه لم يكن من
مواطنيهم . وقد يكون أقوى الأسباب لتعلق القلوب به هو أنه - مع كونه
أرمينياً - خدم مصر خدمة الإبن للحب لأمة الرزوم . وقد توفي هذا الرجل
الأمين عن ثمانين عاماً . وحلى بعرقان الجميل من جميع المصريين .
وخلال الخمس عشرة سنة التي تولى فيها الوزارة استطاع أن يسيطر تماماً
على الخليفة المستنصر الذي كان للذاته المكان الأول من تفكيره . فحسب
بسيطرة وزيره الحازم . وكان من حسن حظ مصر إذ ذاك أن الرجلين اللذين
كانا على رأسها تفاهما وكمل أحدهما الآخر : فالمستنصر يتعم بمجالس الأمن
والسر . ويشعر بالراحة لوجود من يدعم الأمن والسلام في البلاد . ويدبر
الجمالي قوى الشكيمة يرغب في الحكم . على أن الوزير - وإن كان ميالاً
للوجهة والترف - إلا أنه لم يكن قانعاً بمظاهر الحكم . وإنما أراد الحكم
الفعلى . بعكس الذي تنقص الصغناء حين وجد النجدة . وسلم المقاليد إلى
يدى وزيره القوي قانعاً بمظاهر الأبهة والملك . ولأن كلا منهما كمل الثاني .
فقد عاش كلاهما في أمن وثقة متبادلة . فلم تعكر الدساتر صفو
علاقاتهما . ولم يقف أحدهما بالمرصاد للآخر ^(١) . وهذا الصفاء الذي صبغ
الصلات القائمة بين المستنصر ويدر الجمالي انعكس على الحياة العامة .
فعاش المصريون فترة ذاقوا فيها طعم الأمن والأطمئنان وسعدوا بالعمل
والإنتاج .

وشمل الهدوء المنتج الأديرة فازدهرت حتى لقد أقيم ديران لطافتين

(١) مصر : من ميثا إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) - الطبعة الرابعة ص ٢٣٦ -
٢٣٩ . ويقول ستانلى لاين بول أن وزارة يدر الجمالي دامت عشرين سنة - راجع
كتابه « تاريخ مصر في العصور الوسطى » (بالانجليزية) ص ١٥٠ - ١٥٤ .

مختلفتين هم الأحباش والأرمن ، ويغلب الظن على أنهما كانا ضمن القلاى
الملحقة بدير القديس يؤنس القصير .

ومن الأدلة على وجود رهبان من جنسيات غير مصرية فى أديرة شيهيت
فى الفترة ما بين القرن الثانى عشر والقرن الرابع عشر وجود مخطوطتين
بلغات متعددة وبعض أجزاء من الإنجيل تنقسم كل صفحة فيه إلى خمسة
أعمدة : وكل عمود بلغة مختلفة وهى الأرمنية والعربية والقبطية
والسريانية والحشية .

وفى دير السريان لوحة ملوح مستديرة نقشت عليها كتابة باللغتين
اليونانية والنوبية لتخليد ذكرى جرجس ملك النوبة الذى عاش فى القرن
الثانى عشر .

وكان هناك دير يحمل اسم النبى ايليا فى شيهيت اذ ذاك به قلاية تحمل
اسماً قبطياً . ومن المرجح أن الأحباش والنوبين قد عاشوا فى هذا الدير
الذى استضافهم القبط فيه ^(١) .

١١١ - ولقد آلت الوزارة بعد بدر الجمالى الى ابنه شاهنشاه الذى اتخذ
لنفسه لقب « الأفضل » . ولم تقض سبعة أشهر على تسلمه مقاليد الحكم
حتى انتقل الخليفة المستنصر بدوره الى رحمة مولاة . وكان هذا الخليفة قد
أوصى أخته كما أوصى وزيره الأفضل بالمناداة بابنه الصغير خليفة من
بعده . وتنفيذاً لهذه الوصية نادى الأفضل بأبى القاسم أحمد ملكاً على
البلاد باسم المستعلى بالله . ثم بعث برسالة الى أبناء المستنصر الثلاثة
يتنبههم برغبة أبيهم بتنفيذ هذه الرغبة . وثارت ثائرتهم ، فسارعوا الى
القاهرة ودخلوا قصر الخلية ، وقد بدأ غضبهم على وجوعهم وتأملهم الأفضل
بضع ثوان ثم قال فى عدو تام : « قدموا فرض الولاء لسيدنا أمير
المؤمنين ، وأقسموا له بيمين الولاء والطاعة ، لأن هذه وصية أبيكم الخليفة
المستنصر بالله » . ولكن ثلاثهم رفضوا الاذعان وأدعى كل منهم أن أباه
انتخبه شخصياً ليكون خليفة من بعده . ثم خرجوا من القصر غاضبين
حائقين . وترك الابن الأكبر القاهرة وقصد الى الإسكندرية . فلما أصبح

(١) أديرة رادى النطرون (رسالة مارمينا العدد السادس) للدكتور منير شكرى
ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

الصباح ، وعلم الأفضل بسفره ، أرسل وراء رجاله ولكنهم فشلوا في معرفة أين اختبأ ففشلوا أيضاً في القبض عليه . أما الأخوان الآخران فبقيا في القاهرة ، فوضعهما الأفضل تحت رقابة شديدة . ثم أجلس المستعلى على كرسي الخلافة ، وبحث في طلب كبير القضاة وأعيان المدينة . ولما مثلوا بين يديه طالبهم بتقديم فروض الطاعة والولاء للخليفة الجديد الذي لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره . فنزل الكل على رأيه بالاجتماع . وعتدها بحث برسوله إلى الأميرين ، وأبلغهما بما جرى طالباً اليهما أن يحضرا ليضما صوتيهما إلى صوت وجوه الشعب . فرضى الأميران ، وجاءا إلى القصر حيث أعلنتا ولاعهما لأخييهما على رؤوس الأشهاد .

١١٢ - وفي تلك الأثناء جمع نزار - الإبن الأكبر للمستنصر - عدداً من الأنصار والمشايخين وأعلن نفسه خليفة في مدينة الاسكندرية . فآدى هذا التحدى إلى قيام حرب دامت عشرة شهور وانتهت بهزيمة نزار شر هزيمة . فقبض عليه رجال الأفضل وألقوا به في السجن حيث مات بعد ذلك بشهور قليلة . واستتب السلام على أثر ذلك لأن المستعلى أصبح الخليفة بلا منازع ، وسلم مقاليد الحكم إلى الأفضل الذي شابه أباه في نزاهته وعدالته كما شابهه في شهرة الحكم . كذلك ، شابه المستعلى أباه في حب العرف والاسترخاء والاكتفاء بمظاهر الحكم . وهكذا عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي دون أن يطرأ عليها أي تغيير سوى تغيير الأشخاص . واستمر المصريون يتعمرون بالهدوء والاستقرار ، ويسعدون بالانشغال في أعمالهم وهواياتهم . فكانت فرصة عظيمة هيأتها العناية الإلهية للأنبا ميخائيل الرابع ليمارس مهامه الراعوية في ثقة وأمان . وبدأت نعمة الله أيضاً في أن حكم القدس إذ ذاك أسند إلى قبطي نال حظوة خاصة وهو منصور التلحاني ^(١) .

١١٣ - وحدث أن جاء الفيضان ناقصاً منخفضاً إلى حد أزعج المصريين . وكان المستعلى يعرف أن النيل يصل إلى مصر من بلاد الحبشة وأن الأحباش يدينون بالولاء للكرسي المرقسى ، فأرسل مندوباً من عنده إلى البابا المرقسى يرجو منه الذهاب إلى بلاد الحبشة ليقابل ملكها ويتفاوض معه على الوسائل الممكنة اتخاذها لكسب تعلق مياه النيل . وقد

(١) تاريخ أروبا في العصور الوسطى (بالانجليزية) لفيلسوف ترجمة مصطفى زيادة والهاز العربي .

بعث الخليفة مع مندوبه هدية ثمينة ليحصلها البابا الاسكندري إلى العاهل الحبشي . ولقد فرح الأتيا ميخائيل فرحاً عظيماً حين أئتمنه المستعلى على هذه المهمة لأنه أدرك أنها خدمة وطنية مزدوجة : فهي من جهة خدمة لبلاده الأصلية مصر . وهي من الجهة الأخرى خدمة لأولاده بالتبني وهم الأحباش . فقبل رجاء الخليفة وسافر على الفور . وما أن اقترب من مشارف الحبشة ووصلت أنباء اقترابه حتى خف الامبراطور ورجاله إلى استقباله هو ومن معه بكل مظاهر التجلة والاحترام . وحين علم الامبراطور بالسبب الذي حدا بضيفه العظيم أن يحضر إلى بلاده . أمر وجاهه بأن ينظفوا مجرى النيل من كل الأعشاب النامية فيه والتي قد تعيق أنسيابه بقوة . فآدى ذلك إلى ارتفاع منسوب النيل ثلاث أذرع في ليلة واحدة . وقد بقي الأتيا ميخائيل الرابع في الحبشة عدة أسابيع . فحين خلالها في أن يقيم علاقات المودة بين ملك تلك البلاد وبين الخليفة المستعلى . ومن ثم توثقت الصلة بين الدولتين . وكان الأتيا ميخائيل الرابع أول من سافر إلى الأقطار الحبشية من باباوات الاسكندرية ^(١) . رغم أن الصلة الروحية ربطت بين البلدين منذ عهد الأتيا أثناسيوس الرسولي - أي أنه كان قد أنقضى على تلك الصلة ما يزيد على سبعة قرون ونصف تعاقب خلالها سبعة وسعون خليفة لمارمرقس الرسول .

١١٤ - ولم تقض غير مدة وجيزة على عودة الأتيا ميخائيل الرابع إلى مصر حتى وقد رسول من بلاد الحبشة يحمل خطاباً إلى الوزير الأفضل يتضمن رجاء إلى البابا الاسكندري برسامة مطران جديد لتلك البلاد لانتقال مطرائها إلى الأخدار السماوية . فبعث الأفضل برسالة إلى هذا البابا الجليل يرجو منه فيها أن يسارع إلى رسامة مطران في أقرب فرصة بحيث يستطع المطران الجديد أن يسافر إلى الحبشة مع الرسول الملكي عند عودته إلى وطنه . فلبى الأتيا ميخائيل الرابع الرجاء . وبادر برسامة راهب اسمه جرجس من نساك دير الأتيا مكارى الكبير . على أن هذه الرسامة أثبتت صحة المثل القائل : « في العجلة الندامة » لأن المطران الجديد أثبت أنه غير

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٥٢ - ٥٢١ . و يقول المتريزي في « المخطوط » ج ٢ ص ٤٩٦ بأن الخليفة الذي طلب إلى الأتيا ميخائيل بالذهاب إلى الحبشة هو المستنصر .

جدير بالكرامة العظمى التى نالها . فقبض عليه الملك الحبشى ، وأعادته إلى القاهرة فى حراسة جتده . ولما عرف البابا المرقسى حقيقة ما جرى ، جمع مجعاً جرد فيه المطران من كرامته وأنزله إلى رتبة راهب بسيط ، كما أعتقله الأفضل عدة سنوات سمح أنه بعدها بالعودة إلى ديره حيث قضى بقية أيامه . وبعد إصدار الحكم المجمعى بتجريد جرجس ، سعى البابا إلى تخير راهب فاضل ، وانتقاء هذه المرة بهدوء ومن غير تسرع ، فتجسس فى رسامة مطران مدرك لمجد الكرامة التى نالها والمستوليات الجسام الملقاه على هاتق من بلغ هذه المرتبة الكهنوتية العظمى .

١١٥ - وبهذا كان البابا المرقسى والوزير الأفضل يعملان جهدهما لخدمة المصريين ؛ كل فى دائرته ، انتقل الخليفة المستعلى إلى الدار الباقية دون أن يشعر انسان بفقدته . فبادر الأفضل بالمناداة بإبائه الأمر بأحكام الله خليفة - وكان طفلاً فى الخامسة من عمره . ولكى يرضى الأفضل هذا الطفل ، وضع له على سرجه الخاص مقعداً صغيراً ، كان يجلسه عليه حين يجوب المدينة ليتفقد أحوال الرعية . فكانت هذه المظاهر فاتحة لعشرين سنة كان الأفضل الأمر الناهى فيها بلا منازع . فلم ينقصه من مستلزمات الحكم غير اللقب .

١١٦ - ولم تقض غير شهر قليلة على المناداة بالخليفة الأمر حتى تفشى وباء الطاعون فى البلاد . ولما كان الأنبا ميخائيل الرابع راهباً أميناً أخذ ينتقل بين أولاده المنكرين ؛ يواسى هذا ويشجع ذاك دون أن يأبه لما قد يتعرض له من خطر . ولما كان المرض عدواً لكل جسم انسانى بغض النظر عن صاحبه ، فقد دب الطاعون إلى جسم هذا البابا الاسكندرى الرحيم الساهر على أولاده . ففى ذات يوم - أثناء تجهزاته بين المرضى - لاحظ المحيطون به أنه يتأرجح على دابته فصاروا إلى مساندته لئلا يسقط من فوقها وحملوه إلى الدار الباهوية . ولم يمهله المرض غير ساعات قصيرة إذ انتقل فى صبيحة اليوم التالى إلى فردوس النعيم بعد أن خدم القبط خاصة والمصريين عامة مدى تسع سنين وسبعة أشهر^(١) .

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شتودة الصوامعى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموسى ج ٢ ص ٢٩٦ - ٤٠٥ .

الحروب الصليبية

عيسى سبيك رحمة ومحنة فى العاملين عصمة وسلام

• • •

يا حامل الآلام عن هذا الورد كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم رحما وباسمك تقطع الأرحام

• • •

واليوم يهتف بالصليب عصائب هم للإله وروحه ظلام
خلطوا صليبك بالكتاجر والمدي كل أداة للأذى وحماس^(١)

◆ ◆ ◆ ◆ ◆

(١) هذه الأبيات لأحمد شوقي أمير الشعراء مأخوذة عن قصيدته «الأنثى الملهمة» .

(أ) الأتبا مكارى الثانى

- ١١٧- الراهب الثانى مكارى ومسى
ابى الفضل كاتب الوزير
١١٨- تعنت الاسكندر بين ثم رضاهم .
١١٩- رسالة البابا المرقسى التاسع
والستين .
١٢٠- غلام ورياح وزلازل .
١٢١- دايها الدين كم من الآثام تعرف
باسمك^(١) .
١٢٢- حزن على حزن .
١٢٣- نوبة من الشر تطفى على الامر .
١٢٤- اللق يتضاعف .

(ب) مجموعة من الكواكب

- ١٢٥- ملا وراء مخطوطاتنا الضليلة ؟
١٢٦- سطور خلفها مجلدات .

(ج) الأتبا غبريال الثانى

- ١٢٧- ابو العلا شمس وكاتب فى ديوان
الطيفة .
١٢٨- جراحة الاتبا غبريال الثانى
١٢٩- سلسلة من الاغتيالات .
١٣٠- هدام مع الحبشة .
١٣١- مجموعتين من القوانين الكنسية
١٣٢- مرض الاتبا غبريال الثانى
فتفاداه ثم نيابته .

(د) الأتبا ميخائيل الخامس

- ١٣٣- ما زال عن حده القلب الى ضده
١٣٤- الاحتكام الى القرعة الهيكلية .
١٣٥- د تكفيك نعمتى^(٢) .
١٣٦- باباوية الاتبا ميخائيل الخامس
فى عمر الزهور .
١٣٧- ولقة قصيرة .

١١٧ - كان انتقال الأتبا ميخائيل الرابع فى فصل الصيف حين يكون
المصريون عامة متشغلين بحصادهم ومحصولات حقولهم فاكتفى الأساقفة

(١) مع الاعتذار لتمام رولان احدى صحايا الثورة الفرنسية التى قالت يوم ساقوها الى
المقصلة « أيتها الحرية - كم من الآثام تعرف باسمك » .

(٢) ٢ كور ١٢ : ٩ .

والأراخنة إذ ذاك يتبادل رسائل التعزية ، ولكنهم لم يجتمعوا للتشاور معاً إلا في شهر بايه (أكتوبر) . وما أن اجتمعوا حتى اتفقت كلمتهم على إيفاد نقر منهم إلى برية شيهيت ، إلى دير القديس مكارى الكبير ليقابلوا رئيس الدير ، ويعرفوا منه رأيه في خير الرهبان المقيمين بتلك المنطقة المقدسة . وفى المندوبون في الدير أكثر من أسبوعين دون أن يصلوا إلى قرار حاسم ، وفى آخر شهر بايه اجتمعوا معاً كما كانوا يفعلون يومياً منذ وصولهم إلى الدير ، إلا أنهم حين اجتمعوا يومذاك اتفقوا بانسجام روحى عجيب على راهب معين ، وكأنما كان اتفاقهم بروحى من الروح القدس . وكان اجتماعهم على ناسك اسمه مكارى ، يحمل بالوداعة والعلم والإيمان الراسخ ، كما كان فناناً بارعاً ^(١) . وكان هذا الراهب الوديع يقضى أوقات فراغه في رسم الأيقونات وفى تزيين المخطوطات . وفرح المندوبون حين تمهلت أمامهم حقيقة ذلك الراهب الفنان ، ورأوا أن يتداركوا ما فاتهم من الوقت ، فقبضوا عليه لفورهم وخرجوا لساعتهم قاصدين إلى القاهرة . وما كادوا يصلون إلى كنيسة الأنبا قزما التى عند القنطرة ^(٢) حتى أسرع أبو الفضل الكاتب القبطى للوزير الأفضل فأبلغ وزيره بمقدم الركب الآتى من شيهيت ، كما رجا منه أن يصدر أمره إلى والى الاسكندرية ليعفى الراهب المنتخب من دفع الضريبة التى يفرضها ولاية تلك المدينة على كل من يعتلى السدة المرقسية . فقبل الأفضل هذا الرجاء ، كما رأى أن يدعو الراهب مكارى وناخبه لمقابلته قبل سفرهم إلى الاسكندرية . فخرج أبو الفضل فرحاً متهللاً ، وأبلغ قومه بما جرى ، فألف القبط موكباً فخماً حول من أنتخبوه ، وساروا خلفه حاملين الأناجيل والمجامر والشموع ، وامتزجت ألحانهم بالبخور المتصاعد والنور المتلاشى حتى وصلوا إلى دار الأفضل . وقد سار فى موكبهم متولى القاهرة ورجاله . وحالما دخلوا إلى الداخل رفع الراهب مكارى يده بالبركة ، وتفرس فيه الوزير فوجده « عفيفاً حسن الوجه جيد الكلام » ^(٣) وأحس بانعطاف نحوه ، فأكرمه كل الأكرام ثم أمر

(١) دليل المتحف القبطى لمقرس سمكة ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) القنطرة المشار إليها هنا كانت تقع أمام ضاحية قم الخليج جنوب القاهرة وتقع بينها وبين حصن بابلون (مصر عتيقة) ولا أثر لهذه الكنيسة الآن .

(٣) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الهرموسى الصوامى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموسى ج ٢ ص ٤٠٧ .

بكتابة رسالة إلى والى الاسكندرية لابلأغه بأن يقسم كل ما يمكنه من تسهيلات لرئاسة البابا الجديد ، وأن يتجاوز عن الضريبة المفروضة في مثل هذه الظروف . فابتهجت القلوب جميعها لهذا الاكرام وهذه الودة ، وحملوا خطاب الوزير وخرجوا من عنده قاصدين الاسكندرية مباشرة .

١١٨ - على أن التسهيلات التي هيأها لهم الوزير لم تكن كافية لتجعل أراخنة القبط في الاسكندرية يلبثون ؛ فقد تنازل الوالى عن الضريبة المفروضة تنفيذاً لأمر الأفضل . بينما تشدد الأراخنة في مطالبة الراهب مكارى بأن يكتب لهم وثيقة بالمال الذي يجب عليه دفعه لهم أسوة بأسلافه منذ البابا الاسكندرى السادس والحسين . ولكن مكارى رفض أن يرتبط بتعهدات لا يعرف مقدماً إن كان يستطيع أداها أم لا . وبخاصة لأنه كان فقيراً فقراً مدقعاً . وظل هو والاسكندريون في أخذ ورد من أول هاتور حتى الحادى عشر من كيهك . فأدرك الاسكندريون بعد هذه المدة صدق هذا الراهب المختار وصفاء سريرته . وأدركوا أنه كان في امكانه أن يوقع لهم على الصك الذي قدموه إليه ثم يحنث بتعهده كما فعل غيره . وحين أدركوا هاتين الحقيقتين ، سلموا بوجهة نظره .

١١٩ - ولما أطمأن هذا الراهب العفيف إلى رضى الاسكندريين ، قبل أن يضع الأساقفة اليد عليه ، فتحت شعائر الرئاسة في الثانى عشر من كيهك (١٠٩٤ م) باسم مكارى الثانى الخليفة التاسع والستين لكاروز ديارنا الحبيبة . فأقام في الاسكندرية اثنى عشر يوماً بعد رسامته ثم سافر إلى القاهرة حيث قضى ثلاثة أسابيع احتفل في نهايتها بعيد الفطاس المجيد . وفي اليوم التالى لهذا العيد العظيم قصد إلى دير الأنبا مكارى الكبير ، وبقى فيه إلى أن انتهى موسم الصوم الكبير وأسبوع البسخة ، فأدى شعائر عيد القيامة المجيدة بين رهبان هذا الدير وعاد بعد ذلك إلى القاهرة . ولقد أطلق القبط لقب « أبى البهوات » على الأنبا مكارى الكبير منذ هذا العهد لكثرة التساك الذي انتخبوا من بين رهبانه للجلوس على الكرسي المرقسى .

١٢٠ - وحدث بعد عودة الأنبا مكارى الثانى من برية شيهيت بأيام قليلة أن أصيب الناس بلعز شديد لأن ظلام دامساً غطى الأرض فجأة في رائعة النهار ، وفي حلكة الظلام عصفت رياح هوجاء . وما كادت الرياح

تهداً وينتشع الظلام حتى اهتزت الأرض بزلزال مفرع ، وفي الليلة التالية للزلزال انهارت كنيسة الملاك ميخائيل (في جزيرة هلي النيل) ، وأشيع أن الزلزال صدع بنيانها فتداعت . ولو أن عدداً من القبط لم يصدق هذه الرواية ، واتهموا بعض الرعايا بهدمها . ولكن هذه التهمة لم تحقق ، وظل السبب الحقيقي لانهيار الكنيسة مجهولاً حتى الآن . ولما سمع البابا الاسكندري الخبر ذهب لفوره إلى مكان الكنيسة ، وبكى بكاء مرأ حين رأى الانقاض ثم طلب إلى كهنتها أن يستخلصوا الكتب والأواني المقدسة من بين الأطلال ويحملوها إلى الكنيسة المعلقة .

١٢١ - وكأنما كانت غضب الطبيعة ، وتصدع كنيسة رئيس الملائكة نذيراً بالدمار - وقد جاء الدمار في هذه المرة من الغرب . لأن راهباً إيطالياً - اسمه بطرس الناسك - كان قد نجح في استشارة ملوك أوربا وأمرائها إلى حد جعلهم يزعمون أن من واجبه تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين فجمعوا جماعاتهم للحرب ولكنهم لم يكتفوا بمهاجمة فلسطين ، وإنما صرخوا بنادقهم إلى مصر وسوريا وآسيا الصغرى ، بل وهاجموا امبراطور القسطنطينية أيضاً . فلو أن ادعائهم بأنهم لم يقاتلوا إلا لانتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين كان صحيحاً ، فلماذا اعتدوا على المصريين والسوريين وأهالي القسطنطينية ؟ ولو احتجوا بأن حكام مصر وسوريا من المسلمين فما هي حجتهم في مقاتلة امبراطور الروم وهو مسيحي ؟ قد يكون الرد الصحيح على هذه الأسئلة أن الغرب أراد أن يستعمر الشرق بأكمله فتستر بستار الدين ليبرر فعلته . وكان لأساء المدن - كأورشليم وأنطاكية وغيرها - رنين خلاب ، ألهب خيال الأشراف الأوروبيين وملأ قلوبهم حماسة دفعتهم إلى القتال . لعل كل واحد منهم يظهر بشرف الاستيلاء على إحدى هذه المدن العتيقة ويقيم من نفسه والياً عليها .

وكان في الشرق عاهلان يرقبان الزحف الأوربي باهتمام بالغ : هما اليكسيس امبراطور القسطنطينية الذي زعم أنهم قد يدعمون ملكه ، والأفضل (وزير الخليفة الفاطمي) الذي زعم أنهم سيقرونه شر الزحف السلجوقي^(١) . قاصبب العاهلان بخيبة أمل قاصصة - لأن الفرنجة قاتلوا

(١) السلجوقيون قبائل تركمانية تنارية أقامت دولة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر في بلاد فارس وآسيا الصغرى والقوقاز الواقع في الأراضي الروسية (الآن) .

اشباعاً لأطماعهم ورغبة في أن يكونوا أصحاب الحكم المطلق . ولم يقف الأفضل مكتوف اليدين بل بعث بجيشه واحتل فلسطين . ولكن نصره كان قصير الأمد . ذلك لأن هؤلاء الغزاة لم يكونوا على استعداد للتراجع بهذه السرعة . فقد قطعوا الجبال والوهاد ، وتحملوا مشاق السفر رغم بعد المسافات ووعورة الطرق إذ ذاك ليظفروا بغنائم متنوعة أهمها الاستيلاء على مدينة القدس . فكانت مطامعهم تتعارض تماماً مع أهداف الأفضل . ومن العجيب أن أحلام الفرجة بالاستيلاء على القدس تلخصت في أنهم إنما يهدفون إلى تخلصها من أيدي الحكام المسلمين كأنها مدينة مهجورة لا سكان فيها . فلم يخطر ببال أحد الزاحفين ماذا يكون حال أهل القدس ، بل لم يفكروا لحظة في هؤلاء الأهالي ، وحينما سقطت المدينة المقدسة في أيديهم تبخرت من عقولهم كل فكرة سامية وزال من قلوبهم كل شعور نبيل ، بل لقد نسوا تعاليم المخلص الذي وضعوا شارته على دروعهم وصدورهم ! ولم يعمل جود قروا دي بريون (أو غيره من الأشراف) على منع عساكره من النهب والسلب فاندفع الجند إلى الفتك بالشعب الآمن حتى لقد قتلوا في مدينة ملك السلام سبعين ألفاً من الأهالي العزل^(١) . وبأزاء هذا البطش القاسم أدرك الأفضل مدى الخطأ الذي وقع فيه حين زعم أن هؤلاء الغزاة قد يحمونه من السلجوقيين . ولم يكن مسلكهم مع القدسيين بالخيبة الوحيدة التي أصابته ، إذ قد صادفته خيبة أشد مرارة مؤداها أن جند الصليبيين فاجأوا الجيش المصري عند أسوار عسقلان ، ثم أطلقوا عليه رصاصهم رغم راية الهدنة البيضاء ، وأمعنوا في القدر فأشعلوا النيران في غاية قرية من المدينة كان المصريون قد لجأوا إليها . وبأزاء كل هذا الطغيان رأى الأفضل أن يسارع إلى القاهرة حرصاً على البقية الباقية من جند مصر^(٢) . وما أن استقر به المقام حتى انغمس في الترف وفي أحياء المراسم والأعياد بمواكب فخمة وبذخ شبيه بالخيال . فأغرق خيسته في بلية هذه المفاتن . وبهذه المظاهر الخلابية أرغى الأفضل متاراً على ما أصابه من فشل وانكسار . فانسابت الحياة في مجراها الطبيعي . على أنه رغم ما بدا على صفحتها من هدوء فإن التيارات العنيفة كانت تتزاحم في أعماقها .

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأشموندريت ج ٧ ص ٢٦٨ - ٢٦٧ .

(٢) تاريخ مصر في القرون الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ١٦٤ .

واستبد الأسى بالقبط إذ رأوا المعتدين يحملون الصليب على صدورهم . وكان من الطبيعي أن يمسئ المسلمون الظن بالقبط في هادئ الأمر إذ من أين لهم أن يعرفوا عما جرى في خلتيدون وعما جرّه هذا المجمع المشنوم من الهلايا ؟ لذلك شدد الحكام الخناق عليهم وضاعفوا الطلقات . هذا من جانب . أما من الجانب الآخر فإن هؤلاء الذين انتحلوا لأنفسهم لقب الصليبيين « كانوا يعتبرون القبط وغيرهم من مسيحي الشرق مبتدعين متبذرين خارجين عن حظيرة كنيستهم الرومانية ١ » ^(١) وهكذا كانت هذه الحروب الصليبية همّاً وضماً على حاملي الصليب في الشرق . فقد استطاعوا أن يتعايشوا مع مواطنيهم المسلمين في أيام الضيق وأن يتعموا وإياهم في أيام الفرح ولكن القادمين من الغرب وسط صليل السيوف إنما جاءوا للقتل والنهب رغم رمز المحبة والسلام الذي يحملونه على ألبستهم . وصمّ هذا الصليل أذانهم إلى حد أن سيدة كسيحة هي ابنة كاهن اسمه جرجس بن الفضائل اضطرت تحت ضغط تهديداتهم « أن تعطيتهم كل ما تملك لتتقلد الكنيسة التي كانت أمينة عليها » ^(٢) .

وليس ذلك فحسب بل أنهم حين نجحوا في إقامة مملكة لاتينية بالقدس وأحسوا بشئ من الاستقرار فيها « ساء الوئام بين مسيحي الغرب ومسيحي الشرق فيما عدا أقباط مصر (البهاقية) الذين منعوهم من الحج إلى المدينة المقدسة بدعوى أنهم ملحدون . ويصف أحد مؤرخي الأقباط حزنهم لذلك بأنه لم يكن بأقل من حزن المسلمين ، ويتساءل قائلاً : « بأي حق يمنع نصارى الأقباط من الحج إلى القدس أو الاقتراب من المدينة . ان الصليبيين يكرهوننا كما لو كنا ضللتنا عن الإيمان القويم » ^(٣) .

١٢٢ - على أنه قبل أن تدهم القبط هذه الكارثة المزدوجة نعموا

(١) يقول دكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه « الناصر محمد بن قلاوون » ص ١٣ : « في هذه الحروب (الصليبية) التي كان ظاهرها الدين وباطنها الرغبة في السيطرة لم يتحرك من أجلها الأقباط في مصر » . راجع أيضاً كتاب « الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية » للدكتور ولهم سليمان ص ١٥ .

(٢) تاريخ الكنائس الشرقية (بالإنجليزية) للدكتور عزيز سوريال عطية ص ٩٧-٩٨ .

(٣) قصة الأقباط في الأرض المقدسة لديتري زفق ص ٢٠ - ٢١ نقلاً عن المؤرخ الفرنسي رينودو .

هم وبأبائهم الأتيا مكارى بالاستقرار النفسى فى ظل العدالة التى دعمها الأفضل رغم أن قلوبهم كانت مفعمة بالحزن والألم . فلقد كان وجمعهم مضاعفاً : إذ تضامن الحزن على بلادهم التى يبغي الدخيل الاستيلاء عليها مع حزنهم الناتج عن رؤية الصليب على صدور المستعمرين الغاشمين ، نعم أنه الحزن على بلادهم المهتدة وعلى دينهم المقترب عليه . ثم تضاعف حزنهم إذ رفض هؤلاء المستترون خلف الصليب أن يسمحوا لهم بالخروج وزادوا على ذلك بأن هجم برلدين على ميناء القرم وقتك بأهلها فتكاً ذريعاً وأشعل النار فيها . ثم استمر فى زحفه حتى وصل إلى تينيس . ولكن انتصاره انقلب فجأة إلى هزيمة ساحقة : فقد عاجلته المنية وتبدد جنده . ورأى المصريون فى هذا الحادث انتقاماً إلهياً فاكتفوا به ولم يحاولوا الأخذ بالثأر وفضلوا الوقوف موقف الدفاع وبهذه الحطة الرشيدة نجحوا فى حماية بلادهم من الوقوع فى أيدي الغزاة الغادرين ^(١) .

١٢٣ - وفى وسط هذه الحالة - حالة القلق والتوتر التى كانت تسود البلاد - خطر بهال الخليفة الأمر أن يتخلص من وزيره الأفضل ، فبدلاً من أن يقتله ، أوعز إلى ثلاثة من رجاله بقتله .

وكان الأمر قبل أن تتباه هذه النوبة العنيفة من الشر قائماً بمظاهر الملك ، ينعم بالترف والأبهة ، وينتقل من سرايه الإقامة على جزيرة الروضة إلى حديقته الغناء المشهورة بورودها ذات العبير الزكى . وحين يسأم هذا كله يذهب إلى دير نهيا لقضاء بضعة أيام فيه . وكان - كلما ذهب إلى هذا الدير - يمنح رهبانه ألف دينار . أما فى الزيارة الأولى فقد أوقف عليه ثلاثين ليداناً ^(٢) على أن هذا الشاب المعروف المدلل تحول فجأة إلى طاغية غشوم إذ تسلطت عليه شهوة الاستئثار بالحكم .

وكان الأفضل هو الذى أخذ على عاتقه تنفيذ رغبة المستعلى فنادى

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لاين بول ص ١٦٣ - ١٦٥ مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى : المبحث الثانى لجاستون لبييت ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لئسى القصص ص ٥٤٣ ، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روقيلة ص ١٦٨ - ١٦٩ .

بالأمر خليفة وهو بعد فى الخامسة من عمره ، وهو الذى حماه من بطش أخيه الكبير . وأخلص فى خدمته وخدمة البلاد . إلا أن الترف الذى كان يعيش فيه هذا الوزير ملأ قلب الخليفة حسداً إذ أحس بأن وزيره منافس له فى الحكم وفى مظاهر الأبهة أيضاً . فاندفع بعنف هذا الحسد إلى التخلص منه على هذه الصورة المروعة . وانقلب عليه رغم كل هذه الخدمات . ثم أراد أن يغطى فعلته الشنعاء فتظاهر بالحزن عليه وسار فى جنازته . غير أن النفس الأمارة بالسوء قد فضحت هذا التفاق ، لأن الأمر ما كاد يرجع من جنازة وزيره الأمين حتى سطا على جميع ما يملك ، فاستولى عليه ، ونقله إلى دار الخلافة . وقد ذكر المؤرخ جمال الدين أن ما تركه الوزير الأفضل كان يتضمن ست ملايين درهماً من الذهب ، ومائتين وخمسين زكبية مليئة بالدراهم الفضية ، وخمسة وسبعين ألف جبة من الحرير (الساتان) ، وتمثالاً لرجل بالحجم الطبيعى من العنبر لاستعراض القفاطين بواسطته . وبين الأنظمة التى وضعها نظام يقوم على الفروسية ، ويتلخص فى أن من يلتحق به من الشباب يعطى بحصان وسيف ودرع ، ويتدرب على النزال والطاعة . ثم ينال المتفوقون منهم لقب أمير ^(١) .

١٢٤ - وأنه لمن المؤسف حقاً أن يقتل الخليفة وزيره . لأن الأفضل كان قد سعى جهده فى تثبيت دعائم العدالة وفى تهيئة الفرص للعمل المنتج . وقد سعد المصريون جميعاً فى عهده ، فأوجسوا خيفة لمقتله . ويبدو أن الأنبا مكارى الثانى قد حزن حزناً بالغاً لهذه القفلة الشنعاء ، فلم تنقض شهور قليلة حتى لاقى ربه بعد باهاوية دامت سبعا وعشرين سنة وشهراً واحداً . فصلى عليه الأساقفة الصلوات الكنسية الخاصة بالباهاوات ، ثم دفن فى الكنيسة المعلقة ^(٢) .

ويبدو أن الأمر وقتذاك كانت تتناهب نوبة من البطش إذ قد استولى عنوة على بستان لإحدى البيع ، وكان الشيخ صنيعة الملك أبو الفرج بن الشيخ قد اشتراه ووقفه على الكنيسة . وقد كان الشيخ صنيعة الملك يعمل فى

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لاهن بول ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شودة الصوامى الهرموسى عن نسخة مخطوطة بدير الهرموسى ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤١١ .

ديوان الخليفة ثم عزل . ولا يعرف على وجه التحقيق إن كان قد أوقف هذا البستان على البيعة قبل عزله أو بعده . ولم يكتف الأمر بالاستيلاء على هذا البستان بل استولى على بستان آخر ملحق بكنيسة كانت تعرف بكنيسة المرقوتى ^(١) . ومع ذلك فقد كان هذا الخليفة كلما شاء الاستجمام يقصد الى دير نهيا وقضى به أياماً . وكان كل مرة يزور فيها الدير يمنح رهبانه وخدامه ألف دينار في حين أنه منحهم ثلاثين فدانا بلا مال في زيارته الأولى .



(ب) مجموعة من الكواكب

١٢٥ - وما يؤسف له أن المخطوطات القبطية التي لا تزال باقية بين أيدينا ضئيلة للغاية بالنسبة إلى تاريخنا الضخم . وما يزيد الأسف أن عدداً غير قليل من هذه المخطوطات الضئيلة قد وصلنا في شظرات . فيجد الباحث كلمة هنا أو جملة هناك . ثم يقف حائراً بين هذه وتلك إذ لا يجد لهما بقية . فيحسأل عما عساه أن يكون وراء هذه الكلمة وتلك الجملة ولا يجد من يجيب . أو قد يعثر الباحث على اسم من تلك الأسماء البراقة التي تلهب الخيال فيسعى ليدعم خياله بالمعرفة وإذا به يجد السبيل مسدوداً فيضطر إلى الاكتفاء بما يصوره له خياله أو يستشفه قلبه .

وليس من شك في أن عدداً لا يحصى من مخطوطاتنا قد ضاع بين برائن الاستبداد أو اعتداء الجهل . على أن الأمل يحذر البعض منا إلى الظن بأنه قد تكون هناك مخطوطات لا تزال محفوظة في مغاور لم تعثر عليها يد بعد . وبخاصة بعد العثور على مجموعة من المخطوطات بنجع حمادى في صعيد مصر وأخرى قرب البحر الميت بفلسطين ولا يسع الباحث في وقتنا هذا إلا أن يكتفى بالكلمات أو الجمل المتناثرة . أو بمجرد معرفة أسماء بعض الأعلام الذين كان لهم - من غير شك - أبعاد الأثر في المجتمع الذي عاصروه . كذلك لا يسع الباحث إلا أن يدرك أن الحياة

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٨ - ١٦٩ . أهل اللغة في الاسلام ترجمة حسن حبشى ص ١٤٩ .

انسابه انساب النهر الذي يجري أحياناً فوق هضاب وصخور وعرة ، وأحياناً أخرى فوق أرض رخوة ناعمة . هكذا كانت حياة القبط . فقد عرفوا معنى السلام والاستقرار كما عرفوا معنى القلق والفرح ومراجعة الاستعداد . ولئن كانت سجلات المجتمع القبطي غير واقية إلا أن الحقيقة التي لا مرا فيها هي أن وجود الباباوات يستلزم وجود شعب يرهونه . والشعب بالطبع يتألف من رؤساء ومرؤوسين - أو بالأحرى من قوم مختلف المشارب والأمزجة والمهن والحظوظ . ولئن كانت سير الباباوات محفوظة للآن فما ذلك إلا للجلال الذي فاض عن قلوب القبط نحوهم بوصفهم خلفاء للقديس مرقس كاروزهم المحبوب . وإلى جانب هؤلاء الباباوات توجد شخصيات سجل لنا التاريخ أسماهم ، ولكنه لم يحدثنا عنهم إلا في سطور قليلة . على أنه لما كانت قمة الهرم لا تتسامى إلا متى تراصت أجزاءه في تماسك تام ، هكذا لم يكن من الممكن أن تسطح أماننا شخصيات الآباء ومن يليهم في المسئولية من غير أن يكون وراءهم شعب متمسك على الرغم من عدم وجود السجلات التي تبين لنا توارسهم وكيفية معيشتهم ، والقليل الذي وصل إلى أيدينا إن هو إلا صور خاطفة تتلخص فيها مجلدات فهي لذلك جديرة بأن تشعل هممتنا للبحث عنها وتلهب خيالنا لتكملتها .

١٢٦ - ومن السطور التي وصلتنا عن القرن الحادي عشر ما يرسم لنا تراجم عدد من الأراخنة وهم :

سرورجال : متولى الخراج في خلافة المستنصر - اعتاز بالانصاف وسعة الصدر وبعد النظر ، فاكسب بهذه الصفات حظوة خاصة لدى الخليفة الذي وثق به إلى حد أنه كان لا يرفض له طلباً كما أذن له بتجديد كنيسة مارجرس بالقاهرة ^(١) ومن الواجبات التي كانت ملقاة على عاتق سرور تنظيم المراكب يوم الاحتفال بوفاء النيل . إذ كان المستنصر يرأس هذا الاحتفال بنفسه . وقد ظل سرور على ودايته وتواضعه رغم ما أولاه إياه الخليفة من ثقة فأحببه الناس حباً جماً . وقصد إليه كل من له احتياج . فكان يعاونهم جميعاً ، ويقضى لكل حاجاته سواء أكان مسيحياً أم مسلماً أم يهودياً .

(١) أهل القمة في الاسلام ترجمة دكتور حسن حسني ص ١٦٩ .

أبو اليعمن يوسف : الملقب بأمين الأمان - كان أميناً لخزانة الخليفة الذى عهد إليه أن يجمع خراج الدلتا نظراً لأمانته المتناهية ، فزادت مكانته فى أعين مواطنيه . وقد رأى أبو اليعمن هذا أن يعبر عن شكره لله تعالى على ما أولاه من نعم فبنى ديراً متيناً وسط حديقة واسعة من أشجار النخيل على شاطئ النيل بطموه فكانه باختياره هذه البقعة الجميلة يترنم مع الشاعر :

والتخيل منظر مهيب تراج فى جماله القلوب
فوق الضفاف ظلها رهيب صلاً يصف زائنها الترتيب
من كل جوار عظيم القدر
تحسبها مرده طرالا تحت مظلات زهت جمالاً
فى النيل جاءت تهتفى اغتمسلاً سحرها النيل فلن تزال
واقفة هنا بفعل السحر^(١)

وقد أطلق على هذا الدير اسم « أبى السفين »^(٢) - ولم يلبث هذا الدير أن أصبح المكان المختار لتزفة الوزير الأفضل لما امتازت به حديقته من جمال وهندسة ، ولما كان يوحى به النيل من كرم ووفاء .

أبو سعد منصور : هو ابن أبى اليعمن ، كان كاتباً بارعاً جريئاً لا يخشى فى الحق لومة لائم . فعينه الخليفة المستنصر ضمن وزرائه . ولما تمرد الجنود الأتراك ، جمع أبو سعد هذا من بقى من الجند على ولايته للخليفة ، وخطب فيهم خطبة بليغة ثم قادهم فى المعركة ضد المتمردين وانتصر نصراً مبيناً . وكان لجرأته وولائه أبعد الأثر فى نفس الخليفة الذى ازداد حباً له واحتراف بفضلته على حياته .

أبو المليح الملقب بعاماتى : كان واسع الخراء ، ومن يتطرق عليهم قول

(١) من قصيدة « لىالى الصيف فى مصر » للشاعر الياس قياش - أنظر كتاب « مختارات الزهور » طبع فى القاهرة سنة ١٩١٤ م ص ١٣٠ - ١٣٤ .

(٢) واسمه مرقوريوس فيلوتاير (أى صاحب أبوه) ، وهو أحد الآلاف الذين قالوا أكملل الشهادة ولقب بأبى السفين لأنه كان ضابطاً ثم رأى المسيح له المجد يقول له فى حلم « أترك السيف الذى تحتل به الناس وتقلد سبلى - سيف الحق المحيى » .

المزمور « يمد وأعطى المساكين » (١١) . ولأن السخاء كان شيعته فقد أطلق عليه مواطنوه لقب « ماماتى » (١٢) . وحدث فى أيامه أن اجتاحت البلاد مجاعة مفرقة كان الأطفال - إذا ما رأوا أبا المليح خارجاً من بيته - يصرخون فى استعطاف قائلين « ماماتى » . وكان هذا النداء يهز قلبه حتى الأعصاق ، ويدفعه إلى أن يعيظهم بسخاء عجيب .

بقيرة الوشيدى : كان هو أيضاً من الأراخنة الذين شهدوا المجاعة . فكان - خلال السنين العجاف - يقصد إلى الأحياء الفقيرة ليشفق صغار الصناع والعمال . وكان يدخل بيوتهم ليرى بنفسه إلى أى حد من البؤس وصلوا ، ثم يوزع عليهم الملابس والطعام حسب احتياجاتهم وكان ينصرف إلى عمل المحبة هذا خلال النهار ، فإذا ما غربت الشمس انصرف إلى عمل آخر من أعمال المحبة هو البحث عن المرضى والغرباء والمسجونين لكى يقدم ما يحتاجون إليه من خدمات متنوعة وهى السعى للحصول على الإفراج عن المسجونين ومعاونة الغرباء على العودة إلى بلادهم واستحضار الطبيب ثم الأدوية للمرضى . وهكذا كان ينفذ أوامر القادى الحبيب بالفعل بدلاً من أن يكتفى بالتشوق بها .

الشيخ السعيد أبو الفخر المعروف بابن صاعد (٣) : كان كاتب الراتب فى خلافة المحافظ وترقى إلى رئاسة المجلس . ولما توفى تعين مكانه فى الوظيفة الأولى ابنه الشيخ السعيد سديد الملك . أما ابنه الثانى السعيد أبو الهركات فقد انشغل فى خدمة الكنيسة . على أن الوالد وابنيه خدموا الكنائس والأديرة فعمروها وبذلوا فى سبيلها الأموال الكثيرة .

الشيخ الوجيه أبو الحسن الامج : كان كاتب سر الخليفة المحافظ امتاز بالتقوى وتعمير الكنائس .

الأخزم بن زكريا : كان أمير الدواوين فى عصر المحافظ - ذلك لأن هذا

(١) مز ١١٢ : ٩ .

(٢) كلمة كبطية مؤلفة من كلمتين : « ما » وهى صيغة الامر من فعل أعطى و « ماتى » أى « مسرة » - فمعنى الكلمتين معاً « أعطنا مسرة » (أو فرحنا)

(٣) يجب التمييز بين ابن صاعد هذا الذى عمل بمسيحيته وبين الوزير هبة الله ابن صاعد الذى أسلم وأصبح واسع السلطان فاستبد وتجبى وكرهته البلاد - راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣٧ .

الخليفة كغيره من الخلفاء الفاطميين كانوا يرصدون النجوم كما كانوا يقرءون إليهم المنجمين ويستشيرونهم في شتى الأمور . وكان منجم الحافظ قد عين له صفات إن اكتملت في رجل كان من المخلصين له . ولما رأى الحافظ الأخرم بن زكريا رأى فيه الصفات التي عينها له منجمه « فاستدناه إليه وقرئه وآل أمره إلى أن ولاه أمير الدواوين » (١) .

الشيخ المكي أبو البركات : المعروف بابن كتامة الذي كان كاتب الدولة في خلافة الفائز ولم تنسه مكانته الاجتماعية واجهة نحر الكنيسة لأنه بنى كنيسة باسم مارجرجس بأعلى كنيسة مار بقطر ، ثم جدد كنيسة باسم الشهيد مارمينا تقع على مقربة منها ، كما جدد كنيسة الأربعة حيوانات غير المتجسدين ودير نهيا بالجيزة .

الأسعد أبو الطير جرجة بن وهب الشهير بابن المقياط : كان من أكابر القبط في عهد الخليفة العاضد وقد جدد بناء كنيسة يوحنا المعمدان . ثم حدث أن نال إكليل الشهادة ودفن بتلك الكنيسة (٢) . ولقد كان ابن المقياط هذا من عائلة كبيرة ممتازة تفوق فيها أكثر من رجل - وهي عائلة النشو . ومنها أبو الفتوح بن المقياط الذي تقلد رئاسة ديوان الجيش في أيام الملك العادل .

الشيخ صفى الدولة ابن أبي ياسر بن علون الكاتب : بنى كنيسة عظيمة « أبا صوفيا » خلافا للمعتاد بين القبط . وقد قيل أنها أقيمت على مقربة من الأهرام ولكنها تلاشت ولم يبق لها أثر إطلاقاً .

الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأسقف : كان كاتب سر الفضل (وزير الخليفة الأمر) .

المعلم زوين : كان ملتزماً (٣) بمصر في خلافة الحافظ

أبو الطيب : كان كاتب سر ناصر الدولة زعيم الجنود الترك في أيام

(١) المخطوط للمقرئ ج ١ ص ٤٠٦ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل - ص ١٢١ .

(٣) أي المسئول عن جمع الضرائب .

الخليفة المستنصر . فلما عاث الترك فساداً حين أعلنوا تمردهم على الخليفة دخلوا الأديرة ونهبوها . وعثروا خلال عصيانهم على الأتيا خريستودولس في أحد الأديرة فقبضوا عليه وجعلوه رهينة مطالبين بقدية منه . فسارع أبو الطيب إلى تخليده من قبضتهم .

الشيخ لاهزم : كان كاتب ديوان النظر - أي ديوان المراجعة على مختلف الدواوين والأموال . وكان لمن يتولى نظارة هذا الديوان حق العزل والولاية (١) .

الشيخ الرئيس سنيعة الخلافة ابونكري : اشتغل متولياً لديوان التحقيق ثم لديوان النظر على جميع الدواوين في خلافة الحافظ . ثم تنقل بين مختلف الأعمال من صرف ومن استخدام ووصل إلى درجة عظمى في الرئاسة .

الشيخ ابونكري ابن أبي نصر : متولى خراج الأشمونين في خلافة الحافظ أيضاً . وقد جدد دير المحرق وزين قصر الضيافة به . ثم نقل إلى الفيوم فجدد هناك كنيسة الشهيد العظيم أبي السيفين .

الإشيد ابونكري : كان قساً في هذه الفترة عينها على كنيسة السيدة المذراء ومارجرس بحارة الروم فنشط في ترميمها وتزيينها .

أبو الخير الصيرفي : كاتب في ديوان الخليفة وكان رئيساً نهيلاً صرف الكثير من الجهد والمال على عمارة الكنائس والأديرة في منطقة الجيزة .

ابن الابع : كاتب سر الخليفة المستنصر بالله وقد جدد كنيسة أبي سرجة وأبا كير ويوحنا ، وكلتاها بمصر القديمة . وهذا الأرخن الفاضل يحمل نفس الاسم الذي حمله أسقف جرجا بعد ذلك بما يزيد على قرنين .

أبو السعيد الكاتب : كان رئيس ديوان المكاتبات في العصر الفاطمي وقد جدد كنيسة الخمسة وأهمهم بمنيل شيعة (بالجيزة) (٢) .

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمسي القمص ص ٥٢٢ - ٥٢٣ . تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٦٣ - ١٦٨ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزي تادرس ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٦٢ . ٧٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ .

الشيخ لأكرم بن أبي الفضل : رئيس ديوان العاضد لدين الله القاطمى ،
وقد جدد بناء كنيسة أبى يحسن بمصر القديمة بعد حرقها .

ابوزكريا يحيى بن مقار : شيخ عاقل مصموم الكلمة فى ديوان الخليفة أيام
بدر الجمالى ، وكان وقوراً مهابةً لشيخه ولحسن سياسته إذ قد اشتهر
بمعالجة الخلاف الذى كان قد دب بين الأتبا خريستودولس وبين أسقف سخا
كما نجح فى تهدئة خواطر كل الذين اشتركوا فى هذا الخلاف .

الشيخ الفاضل يوحنا بن أبى الفضل : كان عالماً محبوباً وله دالة خاصة على
الأمير شاهنشاه بن بدر الجمالى مما جعله يتخذ كاتم أسرار . وكان مع سمو
مكانته يوجه عنايه خاصة إلى تعمير الكنائس وعلى الأخص كنيسة
مارجرس بمصر القديمة . ويصفه ابن مسعود بأنه كان مواظباً على الصلاة فى
كنيسة مارجرس هذه . أما كاهنها فكان بشير بن البشر الذى كان عالماً
خبيراً شجى الصوت مليح الوجه تام القامه كهلاً فى الرجال . وحدث فى
تلك الفترة أن ماطل البابا فى رسامة أسقف لهابلون (مصر القديمة) فجمع
أبو الفضل الأراخنة فى بيته وتشاوروا معاً ثم انتخبوا يؤنس بن ستهوت
لهذه الكرامة ، وبعد رسامته فى كنيسة أبى سرجه سار الجميع به إلى
كنيسة حارة زويلة ومعهم نائب الوالى وجماعة من رجاله فى موكب حافل
ارتفعت فيه الأناجيل والصلبان والشموع الموقدة .

ابو اليسرى : مصور أصله من مليج له لوحة كبيرة قد رسم عليها صورة
للميلاد الإلهى المجيد وأخرى لعاده فى نهر الأردن . وهذه الأيقونة الكبيرة
موضوعة بأعلى حجاب الهيكل فى كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم .

ابى بقر : كان من المقربين لدى الخليفة الظاهر وبالتالى كان مصموم
الكلمة محفوظ المكانة . ولقد استخدم نفوذه عند الخليفة ليستصدر منه
الأمر برفع الجزية التى كان على البابا الاسكندرى أن يدفعها عقب
رسامته مباشرة .

يوحنا بن زكريا المعروف بـ « سباع » : كان لاهوتياً ضليعاً وضع كتاباً بعنوان «
الجمهرة النفيسة فى علوم الكنيسة » أوضح فيه طقوس الكنيسة وتعاليمها
فى سطوع وإخلاص حتى لقد وصفه المستشرق الألمانى جراف بأنه من كبار
العلماء وبأن كتابه من المؤلفات المسيحية ذات العبارة النصيحة ودقة البحث .

وقد طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٩٠٢ وهو يتضمن التعاليم عن التثليث والتوحيد وخلق الملائكة والعناصر والانسان ، ثم شرح الآيات الجوهرية في سفر التكوين والوظائف الكنسية وممارسة السيد المسيح لها على الأرض فالأسرار المقدسة والبهور والأيقونات والشوربا والمعاني الرمزية لهذه كلها والأعياد الكنسية ^(١) .

♦ ♦ ♦ ♦

(ج) أنبا غبريال الثاني

١٢٧ - لما كانت قصة الإنسان تبدأ بالمهد وتنتهي إلى اللحد ، كان القول بأن التاريخ يعيد نفسه صحيحاً إلى حد بعيد . ذلك لأن المؤرخ كلما تناول سيرة بطل من الأبطال اضطر إلى أن يبدأها وينتهي منها على الوثيرة عينها . وهكذا يتكرر القول بأن السدة المرقسية شغرت بانتقال البابا الجالس عليها إلى الأخدار السعارية واجتماع الأساقفة والأراخنة للتداول فيمن يخلفه . وعلى هذا القياس نرى أن كرسي مارمرقس خلا للمرة التاسعة والستين . وللمرة التاسعة والستين أيضاً اجتمع الأساقفة والأراخنة للتشاور في أمر من يتخبطونه .

وكان لكنيسة القديس مرقوريوس (أبي السيفين) إذ ذاك شماس اسمه أبو العلا بن تريك ، حكيماً ، محباً للجميع ، متضلعا من الأسفار الإلهية والعلوم المدنية ، ساهراً ، صاحياً . وفوق هذا كله فقد كان راسخ العقيدة الأرثوذكسية ، محباً للشعائر الدينية ، مكرماً للصلاة والتأمل . وكان يقضى نهاره في نقل الكتب واقتناء التمام والأرامل والسؤال عن المسجونين . وكان أبو العلا - إلى جانب شماسيته - كاتباً في ديوان الخليفة الأمر . ولكن لما جاءت نياحة الأنبا مكاري الثاني في أعقاب مقتل الأفضل ، ظل الكرسي المرقسي شاغراً مدة من الزمن ^(٢) - لأن الأساقفة والأراخنة لم يجتمعوا بسبب اختلال الأمن . فلما هدأت الحالة نوعاً ما واجتمعوا معاً ، رأوا أن يتقدموا تفسراً منهم للذهاب إلى دير الأنبا مكاري

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزي تادرس ج١ ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٦٢ .
٧٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ .

(٢) يقول بعض المؤرخين أن هذه المدة بلغت ستين .

الكبير في شبهيت قلما وصل المندوبون إلى دير هذا القديس العظيم صاحبهم رهبانه إلى دير الأثيا يؤنس كامى الذى كان يرأسه إذ ذاك ناسك شيخ معروف بقداسته وتقواه اسمه يوسف . وحالما وقعت أعينهم على هذا الراهب أدركوا فى الحال صدق ما سمعوه عنه لأن النعمة الإلهية كانت تضىء على وجهه وتنعكس منه بنور عجيب . وما أن رأهم حتى منحهم بركته ثم قال لهم : « عودوا يا أولادى إلى القاهرة لأن المختار من الله لهذه الكرامة العظمى هو أبو العلا شماس كنيسة القديس مرقوريوس » . فرحوا لهذه الكلمات فرحاً عظيماً ، وزاد فرحهم حين علموا أن هذا الشماس كان يلعب فى طفولته أدوار الكهنة والشمامسة ، فذكروهم عمله هذا بالأثيا أثناسيوس الرسولى وتمنوا على الله أن يكون مثله . وهادوا إلى مصر لقورهم وحملوا أبا العلا إلى الاسكندرية حيث رسمه الأثيا غبريال الثانى سنة ٨٣٨ ش . وكان ترتيبه السبعين بين باباوات الاسكندرية .

١٢٨ - وقد استهل الأثيا غبريال الثانى باباويته بالذهاب إلى دير القديس مكارى الكبير ليقوم بصلاة القداس الإلهى فى هذا الدير محلاً بتقاليد ذلك العهد . وقضى بالدير بضعة أسابيع ثم عاد إلى مقر رياسته بالكنيسة المعلقة ببابلون . وانقضت بضعة أيام جاء بعدها كاهن يرفضب فى أن يكون أسقفاً على اخميم مقابل مبلغ من المال . فتألم البابا شديداً لهذا العرض ولم يوافق على الرسامة . ومن المؤلم أن هذا الكاهن زعم أنه يستطيع الحصول على بغيته إن هو اشتكى الأثيا غبريال إلى ابن الخليفة . فقابلته ، وقدم إليه هذاها ثمينة ، فأرسل ابن الخليفة رسولاً من عنده إلى البابا الاسكندرى ، يطلب إليه رسامة الكاهن الذى لم يرع للكهنة حرمة . فبحث هذا البابا الجريئ الجدير بأن يجلس على السدة المرقسية - بحث برسالة إلى الخليفة نفسه لم يقل فيه غير هذه العبارة : « أن دينى يمنعنى من رسامة كاهن يهوى هذه الكرامة بالمال » . وكانت هذه الرسالة القصيرة سبباً فى أن يحترم الخليفة واهته كاتبها منذ اللحظة التى تسلمها فيها حتى آخر نسمة من حياتهما . وأصدر الأوامر إذ ذاك إلى المصريين جميعاً بوجوب احترام الأوامر الباباوية وتنفيذها بكل دقة وسرعة .

١٢٩ - وحدث أن الخليفة الأمر بدأ يجمع فى شخصه سلطة الخلافة وسلطة الوزارة لأنه - بعد أن قتل الأفضل - عين وزيراً بدلاً منه اسمه

المأمون ، ثم لم يلبث أن قتله . ثم نال راهب قبطى اسمه أبو نجاح حظوة كبيرة فى عينى الخليفة ، فاتخذته مستشاراً له ولو أنه لم يعينه وزيراً . ولكن الأمر رأى بعد شهر قصير أن يتخلص من مستشاره بنفس الطريقة التى تخلص بها من وزيره . على أن رجال بلاطه سئموا هذا الشطط ، فاغتاله أحدهم فى ثورة غضبه^(١) . وتولى الخلافة من بعده ابن عمه الحافظ .

١٣ - وفى تلك الأثناء تقدم ملك الحبشة إلى الأتيا ميخائيل مطران تلك البلاد إذ ذاك ، يرجو منه رسامة أسقف أكثر من العدد المتفق عليه بين كنيسة الاسكندرية والحبشة . على أن الأتيا ميخائيل رد على الملك بقوله انه لا يستطيع أن يخرج على التقاليد إلا بأذن من البابا الاسكندرى . فلم يقتنع الملك بهذا الجواب بل أرسل خطاباً إلى الأتيا فبريال الثانى يتضمن طلبه هذا . ثم تجاوز الحدود فبعث إلى الخليفة الحافظ يستشفع به . فما أن تلقى الحافظ هذه الرسالة حتى بعث برسول من قبله إلى البابا الاسكندرى يطلب إليه أن يحقق رغبة الملك الحبشى . فقال البابا المرقسى : « لو اتنى حققت أمنيته لعجلت بالهجوم الذى تنفصل فيه الكنيسة الحبشية من أمها الكنيسة القبطية التى تعزز بهذه الأمور . ولا شك عندى فى أنه لو تم هذا الانفصال لأدى إلى اضعاف العلاقات بين البلدين » . وقد اقتنع الحافظ بهذا الرد ووافق البابا الاسكندرى على رأيه فى عدم رسامة أسقف جديد .

١٣١ - ثم رأى الأتيا فبريال الثانى أن مسئوليته لا تنحصر فى رعاية شعبه المعاصر له ، بل أنها تمتد لتشمل الأجيال الآتية من بعده ولكى يؤدى هذه المسئولية أصدر مجموعتين من القوانين : تتضمن المجموعة الأولى منهما اثنتين وثلاثين مادة تتعلق الجزء الأول منها بالأساقفة والكهنة وبالمسلك الذى يجب عليهم انتهاجه كرعاة مؤمنين على الشعب المسيحى ، ويختص الجزء الثانى منها بالشعائر الدينية والقرائن الكنسية . أما المجموعة الثانية فتشتمل على قوانين الميراث . وقد وجد الأتيا فبريال الثانى هاتين المجموعتين إلى الكهنة والشعب إذ قال : « فبريال - بنعمة الله وحكمته الفائقة ، وسابق عمله - بطريرك مدينة الاسكندرية العظمى وبابا

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لتاتلى لاين بول من ١٦٦ .
مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى . المبحث الثانى - الجاستون فبهت من ١٩٠ .

الكرامة المرقسية . يكتب إلى جميع الاخوة المظللين بنعمة الله . المختارين . ليباركهم الله . وليراعد القوة لخلصهم ويحميهم . وليكن السلام والنعمة معكم . وليسكتا فيكم . وليفيضوا على بيوتكم من الآن وإلى الأبد آمين » . وبعد أن قدم الأنبا غبريال الثاني السبع لله على نعمائه ، قال : « عندما تأملت الكرامة التي منحتني إياها الله الأب ضابط الكل امتلأت رهبة لمظمتها . وحين أمنت التأمل خيل إلى أنني أسمع صوت موسى العظيم في الأنبياء قائلاً : « أنا ثقيل القم واللسان » ^(١) وإلى أرميا وهو يعتذر بقوله : « أنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد » ^(٢) وتجاوزت مشاعري مع هذين النبيين وهما يهيران عن عجزهما أمام ما يأمرهما به الله القدير إذ أحسست بضغلي وعجزى أمام مجد الكرامة الكهنوتية وما يستتبعها من مسئوليات . وعندما رن في أذني الأمر الإلهي كما رن في آذان هذين النبيين وحتم على الطاعة . فلم يسعني إلا أن أبذل الجهد لتنفيذ أحكام الله . طالباً إليه تعالى أن يستدني بنعمته ويؤازرنى بحكمته ويقوينى لكي أرسى شعبه وأرشد إلى ميناء السلام . ولما حولت على تحقيق وصايا الله تذكرت كلمات سبحانه إلى حزقيال النبي وهي : « إذا لم تتلذذ الشرير . ولا تكلمت انذاراً له من طريقة الرديئة لأحيائه . فذلك الشرير يموت بأثمه . أما دمه فمن يذك أطلبه » ^(٣) ولهذا الأسباب كلها سارعت إلى تدوين هذه القرائين تذكيراً لكم . واستنهاضاً لاهتمامكم . رغم أنى متأكد من أنكم تعرفون غرضي الذي أستهدفه من هذا العمل . وائنى على يقين من أننى - بعنقودي الوصايا الإلهية - أنال وياكم البركة والسلام فكونوا على ثقة من أنكم حين تسمعون كلامى لا تطيعوننى أنا ، وإنما تطيعون الأب السماوى الذى أقامنى لرعايتكم وتطيعون الإبن الحبيب الذى قدم حياته فدية عنكم . وتطيعون الروح القدس الذى يرشدكم ويهديكم إلى طريق الحق والإله الواحد - المثلث الأقانيم - بجزائركم خيراً ويعوض أتعابكم بحسب مراحمة الجزيلة . ثم انتقل إليها المرقسى - بعد هذا الخطاب - إلى تدوين القرائين التى عدّها فى المرتبة الأولى من الأهمية وهى الخاصة بحماية رجال الدين والشعب معاً .

(١) خر ٤ : ١ .

(٢) أر ١ : ٦ .

(٣) حز ٣ : ١٨ .

مبتدئاً بنفسه . فهو نص في المادة الأولى على نهى الهابوات من الالتجاء إلى السيمونية ^(١) .

أما المجموعة الثانية فتهدف إلى تنظيم الارث . وقد استهلها الأتبا غيريال الثاني بقوله « أنه لما كانت المسيحية ديناً يهين الناس للحياة الأبدية ، فقد أغفل الرسل والآباء الأولون أمر الموارث اطفالاً تاماً . ثم مرت الأجيال ، وأدرك بعض الهابوات أن الشعب في حاجة إلى من يرشده في هذه الأمور » . على أنه لما كانت بعض القوانين التي وضعوها لا تصلح إلا للعصور التي وضعت فيها . فقد قرر أن ينقحها ويوحيها مستعيناً بما جاء في الأسفار المقدسة وفي القوانين التي وضعها الآباء الأولون ^(٢) .

على أن الأتبا غيريال اختط طريقاً أدى في النهاية إلى القضاء على اللغة القبطية ذلك أنه لما وجد أن الغالبية من الشعب لم تعد تفهم اللغة القبطية أصدر أمره بقراءة الأناجيل والخطب الكنسية وغيرها من القراءات باللغة العربية بعد قراءتها بالقبطية حتى يتسنى لجمهور المصلين فهم ما يسمعون . وهذا الأمر سليم من حيث العربية لأن المصلين يجب أن يفهموا الشعائر فهماً صحيحاً لكي يستطيعوا تركيز انتباههم على ما يسمعون وإلا تشتت أفكارهم ونقصت قيمة الصلوات التي ترن في مسامعهم دون إدراكهم إياها . على أن الاستعاضة بالعربية عن القبطية في الشعائر نفسها ضاعفت من استهانة القبط بلغتهم الأصلية إذ لم تعد لها أية ضرورة اطلاقاً . وقد أدرك خلفاؤه خطورة هذا الأمر ولكنهم عملوا به ^(٣) . ولكن هل كان في استطاعة الأتبا غيريال وخلفائه أن يستحثوا القبط على دراسة لغتهم كي يفهموا الشعائر الدينية على الأقل ؟ لا نستطيع تقديم الرد القاطع على هذا السؤال . ولكن الذي نستطيعه هو أن الأيام قد أثبتت أن

(١) راجع تفاصيل هذه القوانين في رسالة عن « قوانين الأتبا غيريال بن تريك » - البابا الاسكندري السمين (بالانجليزية) لأوسولد برمستر ، نشرها مع النص العربي في مجلة « أورينتاليا كريستيانا بيروديكا » المطبوعة في رومية سنة ١٩٢٥ ص ٥ - ٤٥ .

(٢) قوانين الموارث « للأتبا غيريال بن تريك » (بالانجليزية) المرجع السابق - ص ٣١٧ - ٣١٥ .

(٣) تاريخ التوبة القبطية لسليمان نسيم - ص ٩٧ . مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة ص ٧٤ - ٧٥ .

الأمر الذى أصدره أدى فى النهاية إلى أن تصبح اللغة القبطية فى حكم اللغات الميتة وبخاصة بعد طغيان الأفكار الدخيلة واللغات الأجنبية على بلادنا . ويا هذا لو يأتى اليوم الذى فيه يتقن الشعب لغة كنيسه ولا يصلى إلا بها ١١ .

١٣٢ - وما أن فرغ الأنبا غبريال الثانى من كتابة هذه القوانين حتى مرض وقارب الموت . وذات ليلة رأى فى حلم جموعاً من الكهنة والرهبان يحملون الأناجيل والمجامر والصلبان ، وسمعهم يقولون له : « ستنال الشفاء من هذا المرض الصعب . ولكننا سنعود إليك بعد سنة من الزمان لتأخذك كى تعيش معنا » . وقد تحققت هذه الكلمات ، إذ أن الأنبا الاسكندرى قد عوفى بعد أيام قلائل من مرضه ، وعاد رعاية شعبه بكل أمانة . ولما استكملت الأرض دورتها حول الشمس تمت الرقيا وانتقل إلى بيعة الأبهكار فى هدوء شامل . وكانت أيام بياضته أربع عشرة سنة وثلاثة شهور^(١) .



(د) أنبا ميخائيل الخامس

١٣٣ - مرت بضعة شهور - بعد نياحة الأنبا غبريال الثانى - ظل الكرسي خلاها شاغراً ، إذ لم يسارع الأساقفة والأراخنة إلى التشاور فى أمر الانتخاب . ومع أن هذه الفترة كانت قصيرة إلا أنها كافية لأن ينتهزها راهب اسمه يونس ابن كدران ليعكر فيها الصفو والهدوء . فقد نسى هذا الراهب مبادئ أساسين من مبادئ الرهبنة هما الطاعة والاتضاع . فخرج من غير إذن رئيسه وأخذ يعلن على الملأ فضائله التى تؤهل له لأن يكون خليفة لكاروز ديارنا الحبيبة . وقد نجح فى أن يقتنع عدداً من الرهبان بتأييده ، فتناصروه وأخذوا يروجون له ، واستطاعوا بدورهم أن يكسبوا عدداً من الأساقفة . وازداد يونس بن كدران غروراً لهذا النجاح ، وحث مناصريه على

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ٢ ص ٤١٢ - ٤١٩ ، الستكار الأثيوبي - ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج ٣ ص ٧٩٨ - ٨٠١ .

متواضعاً عفيفاً مطيعاً فقيراً ، كرس نفسه من اللحظة الأولى لدخول الدير للصلاة والتأمل وخدمة اخوته الرهبان . فأحبوه ، وأولوه ثقتهم ، واعتادوا أن يتجمعوا حوله ليصفخوا إلى تصائحه . فضاغت محبتهم إياه جهوده في سبيل خدمتهم وتعليمهم ، وفاضت عليه النعمة الإلهية وانعكست على وجهه فكسته جمالاً . على أنه كان أمياً رغم كل هذه المزايا . وفرح القبط لوقوع القرعة عليه . وقالوا : « ان الروح القدس الذي اصطفاه سيملحه الحكمة وفيها الكفاية » . وذكروا أنفسهم بأن معظم الرسل الأطهار كانوا عاميين ، ولكنهم هزوا العالم وأثروا على أصحاب التيجان . لأن الحكمة التي منحها إياهم الروح القدس كانت مساوية تفوق كل العلوم الإنسانية . وبهذه الآمال العالية والثقة الراسخة في المعونة الإلهية ، حملوا الراهب ميخائيل ، وساروا به إلى الإسكندرية في مركب فخم أشبه بمراكب القادة المنتصرين وقصدوا إلى الكنيسة المرقسية حيث رسمه الأساقفة البابا الاسكندري الحادي والسبعين باسم ميخائيل الخامس في اليوم الخامس من شهر مسرى المبارك سنة ٨٥٢ ش (٢٩ يوليو ١١٣٦ م) .

١٣٥ - رتقل الأنبا ميخائيل الخامس كرامة البابوية بكل شكر ودعة إذ قد عدها هبة عظمى من رب الالهات . واختار لنفسه سكرتيراً بارعاً في الكتابة لكي يدون له رسائله الفصحية وغيرها من الرسائل التي كان لازماً على البابا المرقسى أن يكتبها . على أن البابا - رغم أميته - كان يعرف كيف يصل إلى القلوب عن طريق مواظبه وإرشاداته . فداوم على تعليم الشعب مذهباً المؤمنين ومجتنباً الزائغين إلى طريق الهر . فالتف الشعب حوله في محبة وولاء ، وتقبلوا إرشاداته بفرح معلنين أعباءهم بمقدرة التي أنستهم جهله . ولم يكتف بالتعليم والعطف على أبنائه ، بل رأى أن واجبه يحتم عليه زيارة الفقراء والمعوزين في بيوتهم لمعرفة حاجتهم بنفسه ، ويعمل على سدها . وكان يوزع المال الذي يأتيه على الفقراء أولاً ، حتى إذا ما استوفوا طلباتهم ووجد أنه لا يزال لديه بعض المال صرفه على بناء الكنائس ^(١) . كذلك ظل الأنبا ميخائيل الخامس محتفظاً بمواضعه وقناعته ، واستمر في نسكه وتقشفه كما لو كان لا يزال هائشاً في الدير .

(١) السنكسار الأثيوبي ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج ■ ص ٧٨ .

ولما ذهب الأنبا ميخائيل إلى القاهرة لأول مرة سارع أراخنة القبط ووجوه المسلمين إلى استقباله فى فرح وتهليل ، ثم ذهبوا معه إلى الكتيبة المعلقة مقر البابوية إذ ذاك .

وقد أبدى الشعب حبه وولاءه الخالص لباباء بالمواظبة على الأصوام والصلوات ، فكانت الكنائس تضيق بمن فيها لكثرة الزحام . وكان الأنبا ميخائيل الخامس يبدى عطفه عليهم وفرحه بهم .

وفى هذا الجو الملى بالهدوء والثقة المتبادلة إزدهرت الأديرة وتضاعف عدد الرهبان .

١٣٦ - وكانت هناك خمس أيارشيات شاغرة عندما تسلم الأنبا ميخائيل الخامس مقاليد الرئاسة . فرأى أن يختار لها خمسة من الرهبان الصالحين . وكان يصوم ويصلى قبل رسامة أحدهم ، ثم يزوده بالنصائح والبركات بعد رسامته .

على أن هذه الأيام السعيدة كانت قصيرة الأمد ، فكانت أشبه بموسم الزهور الصيفية التى تملأ الجو بحبورها مدى شهور قليلة ثم لا تلبث أن تذوى . ذلك أن الأنبا ميخائيل الخامس مرض بعد رسامته بأربع شهور . ولما اشتدت عليه وطأة المرض رأى أن يذهب إلى برية شبيهة أملاً فى أن يكون للهواء الصحراوى الجاف والهدوء الشامل والفضاء الفسيح أثر طيب على صحته وبخاصة لأنه اعتاد الحياة فى هذه البرية . فذهب إلى دير الأنبا مكارى الكبير الكهبر طلياً للاستشفاء . ولكن المرض ظل ملازماً له إلى أن قضى عليه فاستودع روحه يدى الآب السماوى ولم تقض غير تسعة شهور على اعتلاله السدة المرقسية ^(١) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط تملكه القمص شنودة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ٢ ص ٤١٩ - ٤٢١ .

وقفة قصيرة

١٣٧ - الأثبا ميخائيل أسقف دمياط

١٣٧ - وهنا أيضاً نقف حيارى ، نتمعن النظر فيما لدينا من مخطوطات لعلمنا نستشف من خلفها الوقائع التى نريد معرفتها والتى لا نجد حرفاً واحداً عنها . ذلك لأن أحد الأحرار المعاصرين لهذا البابا الذى عبر كالحيال هو الأثبا ميخائيل أسقف دمياط الذى ترك للأكين من بعده مجموعة من التعاليم لا تزال أربع نسخ منها باقية للآن : كلها مخطوطة - اثنتان منها محفوظتان فى مكتبة الباباوية القبطية بالقاهرة ، وواحدة فى المكتبة الأهلية بباريس ، والرابعة بمكتبة الفاتيكان ^(١) . فمن هو هذا المطران ؟ لا نعرف عنه إلا أنه عين معاوناً للأثبا ميخائيل الخامس ، وأنه عاش إلى عهد البابا الاسكندري الـ ٧٣ . أما تعاليمه فتتعلق بممارسة بعض الفرائض الكنسية وتتلخص فيما يلى : الاعتراف السرى ، حلق الرأس بالختان ، البخور ، هدم ابقاء شىء من الأسرار المقدسة من يوم إلى آخر ، رسم علامة الصليب ، زواج الأقارب ، التحفى ^(٢) ، تغطية القربان المقدس بالفول والترمس ^(٣) .

ويجدر بنا هنا أن نذكر تعريفه للاعتراف السرى وهو : «وأما الاعتراف فهو طب روحانى نسبه إلى الروح نسبة الطب الجسدانى إلى الجسد . وكما أن الجسدانى لا يتم إلا بطبيب خبير خير وإلا كان ترك التطبيب خيراً منه من جاهل أو شرير . ثم يقبول المريض واستعماله ما يوصف له ، ثم بإمكان المداواة من جهة الزمان والمكان وإلا فلا فائدة . فكذاك الروحانى ... وكما أنه ليس كل إنسان يحتاج إلى الطب الجسدانى فكذاك الروحانى . وكما أنه ليس كل المحتاجين إليه يحتاجون إليه مستمراً وفى كل مرض فكذاك الروحانى » . وهكذا نجد فى كل عصر جنوداً مجهولين ، يكفهم فخراً أنهم جنوداً أنفسهم لخدمة جيلهم وخدمة الأجيال الآتية من بعدهم .

(١) نشر أولوسولد برمستر هذه التعاليم مع ترجمتها إلى الإنجليزية (نقلاً عن النسخة المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس) فى مجلة « أوروبنتيالبا كريستيانا بيريوديكا » الصادرة فى رومية سنة ١٩٣٦ بعنوان « أقوال ميخائيل مطران دمياط » .

(٢) أى حافى القدمين

(٣) كان بعض عبدة النجوم يندسون بين القبط ليتناولوا من الأسرار المقدسة ، وكانوا يحافون الترمس والفول ، فاستعان الكهنة بهذه القول ليتعرفوا بها على هؤلاء الدخلاء .

مد وجزر

١- الأتبا يؤنس الخامس

- | | |
|--|--|
| ١٤٢- عذيل يقتصب عرش الحبشة | ١٣٨- الشماس الراهب ابن أبي الفتح |
| ١٤٣- قتل واستبداد وقتل في الداخل والخارج | ١٣٩- ابن كثران يعاود تلاميذه |
| ١٤٤- ثورة عارمة فهدوم واستقرار | ١٤٠- الشماسية المرفقة للبابا الاسكندري |
| ١٤٥- نياحة الأتبا يؤنس الخامس | ١٤١- لقاء مريز وحزيبه مقلقة |

١٣٨- وحملت أحداث الحياة على الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا مرة أخرى وكانهم لم يستريحوا بعد من التداول في أمر البابا المرقسي. فلما اجتمعوا اتجهت أنظارهم صوب الرهبان الثلاثة الذين كانوا قد ذكروا أسماهم ساعة أن وقعت القرعة الهيكلية على الأتبا ميخائيل الخامس. على أن واحداً من هؤلاء الثلاثة كان مركز انتباههم. وهو شماس اسمه يؤنس بن أبي الفتح يعيش في دير الأتبا يؤنس كامي^(١). ومن نعمة الله أن اتفاقهم هذه المرة كان اجماعياً، فلم يحتاجوا إلا أن يبعثوا برسولهم إلى البرية لاستحضار هذا الراهب المختار. فذهب المندوبون وعادوا معهم يؤنس الذي رسمه الأساقفة قمصاً إذ كان لا يحمل غير رتبة الشماسية.

١٣٩- والعجيب أن يؤنس بن كثران الذي اشتبهى الباباوية في المرة السابقة عاد يروج لنفسه من جديد وحضر الاجتماع الذي انعقد في كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) فلما رأى الاجماع على انتخاب الشماس ابن أبي الفتح استشاط غضباً ونسى ما تحتمه عليه الرهينة من دعة واحشام، فقصده الخليفة الظاهر ورجا منه أن يعضده ليهلج مرامه. وقد دهش الظاهر لهذا الطلب ورأى فيه خروجاً على المألوف. فأرسل إلى الأساقفة والأراخنة وأطلعهم على أمر هذا الراهب الطامع، ثم قال لهم إن يهدم الأمر لأنهم هم المستولون عن إدارة شئون الكنيسة. وعليه اجتمع الأساقفة وأراخنة الشعب في حضرة القاضي وتناقشوا في الأمر حتى لقد احتدم بينهم

(١) يذكر القمص مصلحيل بحر في كتابه «تاريخ القديس الأتبا ميخائيل القصور» ص ٤٩ أن هذا البابا قضى سني رهبنته في دير الأتبا يؤنس القصور.

التقاش . وفي النهاية أعلن الجميع بأن السنة المرقسية ليست نهياً لكل طامع بل هي جليطة القدر لا يجلس عليها إلا المختار من الله . فمن يسعى إليها يحكم على نفسه بهذا السعى أنه غير مستحق لها . كذلك نصت القوانين الرسولية على تحريم الاستعانة بالسلطان للوصول إلى هذه الكرامة . وقد أهدى القاضي المسلم هذا الهدى وأبلقه للخليفة الذي أهدى بدوره وأصدر أمره بتسهيل السفر للاستكثارية أمام الأساقفة والأراخنة لكي يقوموا برسامة من يريدونه . فبادروا بالسفر وتقابلوا مع كهنة الاستكثارية وأراختها في حضرة القاضي والوالى وغيروها من رجال الحكم . وقد أكد لهم الجميع بأن الخليفة أمرهم بتقديم كل التسهيلات وضمان الأمن والحرية لرسمته من يتخاره الشعب . ففرح القبط بهذا التصريح وحققوا : « يؤنس بن أبى الفتح هو البابا الذى نريده » ... وذهبوا لساعتهم إلى الكنيسة المرقسية حيث وضع الأساقفة عليه اليد فأصبح الخليفة الثانى والسبعين مارمرقس فى الثانى من أيام النسيء سنة ٨٥٤ م (٢٦ أغسطس سنة ١١٣٨ م) باسم يؤنس الخامس .

١٤ - وما أن تمت رسامته حتى ذهب إلى القاهرة ، فتزاحم الشعب حوله وأوصلوه إلى كنيسة القديس مرقوريوس (أبى سيفين) ببابلون حيث اختار أن يقوم .

ولقد كان هذا البابا مرهف الحساسية لم تنسه الكرامة العظمى التى نالها تواضعه لهم كما لم تنسه ما قد ينتاب الناس من آلام وشعور بالخيبة فأخذ يفكر فيما قد يساور يؤنس بن كثران من مرارة لفشله مرتين فى أن ينال البابوية التى سعى إليها بكل قواه . فاستدعاه إلى جانبهِ ورجا منه أن يقبل أسقليد سمنود . ويبدو أن ابن كثران كان قد تعلم الدرس وأدرك ما فى القناعة من هدوء وراحة بال ، فاعتذر للبابا عن قبول الأسقفية وشكر له عطفه كما وعده بأنه سيقضى بقية حياته فى الدير كراهب بسيط . وقد حانظ على هذا الوعد بالفعل .

ولقد دأب الأنبا يؤنس الخامس على تشجيع الناسخين من الرهبان توسيعاً لغرض المطالعة . ومن المخطوطات الباقية للآن مخطوطة رقم ٢٧

محفوظة بدير مارمرقس بالقديس^(١) . تم نسخها في دير القديسة مريم
المجدلية . وقد ورد على غلاف هذه المخطوطة أنها نسخت في عهد الأتيا
يونس الخامس لاستعمال الرهبان المقيمين بدير هذه القديسة^(٢) . ويبدو أن
هذا الدير كان يجمع بين الرهبان القبط والرهبان السريان .

١٤١- وكان المصريون إذ ذاك يعيشون في قلق واضطراب بسبب
التنافس بين الخلفاء ووزرائهم على السلطة . وكثيراً ما أدى هذا التنافس
إلى القتل . ولما كان الله تعالى قد خلق الناس لكي يعيشوا في مجتمع
فقد جعل التعاطف والتعاطب قاعدة أساسية للحياة في مجتمع ، لذلك كان
الشر الذي يفترقه الواحد يؤدي إلى إيذاء الآخرين كما أن الخير الذي يجاهد
في سبيله الأبرار يعم الباقين . ولقد تجلت هذه الحقيقة في تلك الفترة من
تاريخ مصر إذ أن ما قام بين الخلفاء ووزرائهم من صراع انعكس على حياة
الشعب بأكمله . وقد دفع هذا التنافس على السلطة ببعض الوزراء إلى قتل
الخلفاء لعلهم بذلك يكونون الأمرين التاهرين . فكان رد الفعل أن حرص
بعض الخلفاء على سلطانهم حرصاً أدى بهم إلى أن يهبطوا بوزرائهم متى
وجدوهم ذوي نفوذ . ومثل هذا النزاع بين أصحاب العرش وبين الأقوياء من
رجال الدولة أدى بدوره إلى قيام أحزاب بين الجند إذ كان البعض منهم
يناصر الخليفة بينما يناصر البعض الآخر الوزير ونتج عن انشغال الجند
بالتقتال في سبيل هذا الخليفة أو ذلك الوزير اضطراب الأمن وانتشار القلق
والفوضى . وكان للقبط نصيب الأسد من هذا التوتر : فأضاع الموظفون منهم
مراكزهم وصردت أملاك البعض منهم بينما لاقى فريق ثالث الموت^(٣) .

(١) يقال أن هذا الدير مشيد مكان منزل مريم أم مرقس الرسول وكان أصلاً من أملاك
القبط .

(٢) قصة الالتباط في الأرض المقدسة لديتري رزق ص ٢٤ . ومن مخططات هذا العهد
أيضاً عمودان محفوظان بالقاعة الرابعة بالدور الأول من المتحف القبطي . وهذان
العمودان يتوسطان القاعة أحدهما مصلح وحوله كتابة عربية هنا نصها : « عمل باسم
المعلم غبريال عبد المسيح في سنة ١١٣٩ عزه يلدوم ونعمه لا تنقضي ويلوغ ما تهوى
النفوس وتوتضى وسعادة دائمة وفرح مخلد » . أما العمود الثاني فمخزوف بمخطوط
متعرجة في أعلاه ويرسوم نهائية في أسفله - راجع مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة
ص ٩٠ .

(٣) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) ج ٢ المبحث الثاني : « مصر
الاسلامية .. » لجاستون فبيت ص ١٩٢

وقد زاد الطين بلة هجوم الصليبيين على بلبس . لأن عامة الناس لم تدرك الفرق بين الغزاة وبين المسيحيين الوطنيين . لأن الشارة التي كان يحملها هؤلاء الغزاة زوراً وبهتاناً كانت الصليب - والصليب هو أيضاً شارة المسيحيين من المصريين . فكان على هؤلاء المصريين الحاملين للصليب أن يدفعوا ثمن القدر الذي أهداه الصليبيون الأجانب . وفي الوقت عينه كان هؤلاء الأجانب المستترون تحت شارة الصليب يفتكون بجميع المصريين من غير تفرق^(١) . فكان أن القيظ وقعوا بين شقي الرحى .

١٤٢ - وحدث في تلك الآونة العصبية أن اغتصب عرش الحبشة دخیل نفى الملك الشرعى . فوبخه المطران على سوء فعلته . واغتاط القاصب لهذا التوبيخ فبعث إلى العادل وزير مصر برسالة ادعى فيها أن المطران داخله مس في عقله ، وطلب إليه أن يشهر على البابا بعزله ورسامة مطران بدلاً منه . على أن البابا أحس في أعماق نفسه بهتان هذا القول فقال للوزير : « ليس في شريعتنا أن تولى انساناً رتبة من رتب الكهنوت ثم نعزله لغير سبب خطير » . فغضب العادل لهذه الاجابة وأمر بالقاء الأنبا يؤنس الخامس في السجن حيث ظل بضعة شهور ولم يحصل على الافراج إلا بعد مقتل العادل^(٢) .

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخله ووفيلة ص ١٥٨

(٢) هذا ما ورد في معظم كتب التاريخ ، على أن هناك من روى هذه الواقعة بطريقة أخرى . فقد جاء في كتاب لباب الآداب لوضعه أسامه بن منقذ الكتاني ما يأتي : ولقد أذكرني قول الحكيم « إنما سلطان الملك على الأجساد دين القلوب » . أمراً شهدته في مصر سنة ٥٤٧ هـ . وهو أن رسول ملك الحبشة وكتابه وصل إلى الملك العادل أبي الحسن على بن السلار رضي الله عنه يسأله أن يأمر البطرك بمصر أن يعزل بطرك الحبشة وتلك البلاد كلها مردودة إلى نظر بطرك مصر فأمر العادل باحضار البطرك فحضر وأنا عنده قرأت شيخاً نحيفاً مصفراً فأدناه حتى وقف عند باب المجلس فسلم ثم انحرف وجلس على دكة في النار وأخذ إليه يقول له ملك الحبشة قد شكك من البطرك الذي يتولى بلاده وسألني في التقدم اليك بعزله فقال يا مولاي ما وليته حتى اختبرته ورأيت أنه يصلح للناموس الذي هو فيه وما ظهر لي من أمره ما يوجب عزله ولا يسعني في ديني أن أعمل فيه بغير الواجب ولا يجوز لي أن أعزله فاغتاط الملك رحمه الله من قوله وأمر باعتقاله فاعتقل يومين ثم أنفذ إليه وأنا حاضر أيضاً يقول له لا بد من عزل هذا البطرك لأجل سؤال ملك الحبشة في ذلك فقال يا مولاي ما عندي جواب غير ما

١٤٣- وخلال كل هذا الاضطراب والقلق تهدم عدد من الكنائس وسرقت أوانيها . فما انتشعت هذه الغمة كان لا يزال في ديوان الخليفة قبطى واحد اسمه الأسعد صليب أخذ على عاتقه بناء الكنائس المتهدمة وترميم المتداعى منها وشراء الأواني اللازمة لها .

على أن فترة الهدوء كانت قصيرة الأمد لأن الوزير العباسى قتل الخليفة الطاهر ثم زعم أنه يستطيع أن يستمر فعلته هذه بإعلان الفائز بن الطاهر خليفة . وكان الفائز يبلغ الخامسة من عمره فخيّل للعباسى أنه سيحكم مصر إلى أن يبلغ الخليفة سن الرشد على الأقل . ولكن العباس أخطأ التقدير إذ لم يكن فى إمكانه أن يتمكن بمرور الحوادث قبل وقوعها . فادى به خطأه إلى أن يلقى مصرعه بدوره . ذلك أنه حين ظن أن السلطة أصبحت فى يديه أخذ يقتل كل من حسبه منافساً له ، وبعد أن يقتله يصادر أملاكه ويستبد بقومه . ثم زاد على ذلك بأن استولى على كل المحاصيل الزراعية . وبهذا هو يستبد بالمصريين كان يناوش الصليبيين بحرب العصابات . وكان كأس المصري لم يطفح به الكيل إذ زاد عليها ما جرته مناوشات البعارة الصقليين على دمياط وتنيس ورشيد والاسكندرية على الرغم من أن حكومتهم كانت عقدت اتفاقية تجارية مع مصر^(١) .

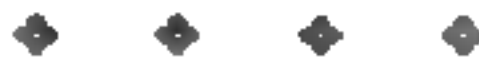
١٤٤- ثم حدث أيضاً أن الوزير العباس قاده فى فيه فجمع حوله ألف جندي فأعملوا جميعهم النهب والسلب والتقتيل فى رجال البلاط ثم ساروا فى شوارع القاهرة فى زهو وخيلاء كأنها الدنيا قد دانت لهم . فثار أهالى القاهرة فى وجههم ثورة هارمة إلى حد أن النساء كن يرمينهم بالحجارة من النوافذ والشرفات . فتهدد فرسانه وهرب العباس من القاهرة قاصداً إلى سوريا ولكنه لقي مصرعه فى الطريق إذ كانت أخوات الخليفة القتيل قد اتهمته علناً أمام الجميع . ثم استنجدن بهد ذلك بالأمير طلائع بن رزق

= قلته لك وحكمك وقدرتك إنما على الجسم الضعيف الذى بين يديك أما دينى فمالك عليه سبيل والله ما أهزله ولو تالنى مكروا . فأقر الملك العادل رحمه الله بإطلاقه واعتلوا إلى ملك الحبشة

(١) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) .. لجاستون فبيوت ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، و تاريخ مصر فى العصور الوسطى « لستاتلى لايون پول ص ١٧١-١٧٤ .

حتولى الأشمونين وأقوى الأمراء بأساً . فجاء إلى القاهرة وتغلب على
فلول جند العباس وأعاد الاستقرار والهدوء إلى المدينة الثائرة .

١٤٥- ويبدو أن كل أعمال العنف هذه قد ملأت قلب الأتيا يؤنس
الخامس حسرة وأسى لأنه كان مرهف الحساسية إلى حد بعيد . وقد طغت
عليه هذه الحسرة فأقضت مضطجعه وأنهكت قواه . فلم يلبث أن استودع
روحه يدي الأب السماوى . وكان حزن الشعب عليه عميقاً زادت الأحداث
المفرعة المسيطرة على البلاد حدة إذ قد أضافت إلى مخاوفهم وقلقهم الحزن
والتوجع . وقد دفنه المؤمنون فى كنيسة أبى سيفين بجوار الأتيا غبريال
سلفه المباشر إلى أن نقلهما الأتيا مرقس الثالث إلى برية شيهيت التى امتزج
أديمها بأجساد القديسين منذ قرون . وقد قاد دفن الكنيسة وسط الأهوال
والمقازع مدة ثمانى عشرة سنة وعشرة شهور .



ب - عالم نادر

١٤٦- راهب مكرس

١٤٧- خلاصة مؤلفاته.

١٤٦ - صحيح أن المشتغلين بالعلم أو الأدب في حاجة ماسة إلى الهدوء ، والطمأنينة ، ولكن سجلات الكنيسة لهذه الفترة قد حفظت لنا اسم رجل من كبار البعثة كما حفظت لنا مؤلفاته لحسن الحظ، ولا ندري - فقد يكون له أكفاء من معاصريه تركوا ثمار أبحاثهم أملاً في أن يجتنيها الأجيال الآتية من بعدهم . ولكن السجلات لم تحفظ مؤلفاتهم ، أو قد يكون السبب في عدم وصولها إلينا هو شهوة التخريب التي تستحوذ أحياناً على الناس فتدفعهم إلى أن يبطشوا ببعضهم البعض أو يحرقوا آثار بعضهم البعض . أما صديقنا الذي لم تمتد يد الحدثان إلى أعماله فهو راهب اسمه سميان ابن كليل بن أبي الفرج - قضى حياته في دير الأنبا يونس القصير . وانصرف إلى البحث والتأمل وإلى دراسة الأسفار الإلهية .

١٤٧- وإحساسه بالمسئولية أراد أن يقدم لاختوته خلاصة لكل أبحاثه ، وتأملاته ، ودراساته ، فوضع تفسيراً لبشارة متى الرسول^(١) . ثم وضع كتاباً أسماه « روضة الفريد وسلوة الوحيد » قال في مقدمته : « حين أدركت نفسي الحقيرة أن نهايتي قد قربت ورحيلتي عن هذا العالم وشيك الحدوث ، قررت وضع كتاب يتضمن اختياراتها وثمار أبحاثها . وإذا ذلك وضعت كل اتكالي على الله فأدركت أنني بلغت الهدف مقدمات . أما هدفي فيتلخص في تعزية الحزين وإرشاد الضال إلى طريق الهر ، وبعد هذه المقدمة القصيرة قسم ابن كليل كتابه إلى اثني عشر فصلاً كالآتي :

(١) الغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها - فهو جل اسمه لم يخلق الإنسان عبثاً وإنما خلقه لغرض نبيل فخلقه منتصباً لكي يرفع عينيه نحو السماء ويقترّب إلى خالقه وينال نعمته وبركاته . ولما كان الإنسان مخلوقاً على صورة الله ومثاله (تكوين ١ : ٢٦-٢٧) وجب عليه أن يسعى نحو الكمال ليكون أهلاً لأن يقترّب من الله ويرث ملكوته .

(١) سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمؤلف سمكة ويسى عبد المسيح رقم ٣٩ . ٣٦ . ٣٧ لاهوت .

(٢) الإيمان بالله - يتمتع الكاتب الانسان الذي يتصف بالشجاعة الأدبية فيعترف بمبادئه دون تردد ، ثم يوضح بعد ذلك الإيمان الأرثوذكسى الذى تتمسك به الكنيسة القبطية .

(٣) التقوى وخوف الله - هنا ينصح الكاتب بوجوب المداومة على قراءة الانجيل وغيره من أسفار الكتاب المقدس ، ثم يصف الحرية التى يتمتع بها كل من يعرف امكانياته بما فيها من قوة وضعف ، ويختتم الفصل بقوله أن الرجل الذى يخاف الله أشبه بواحة زاهرة وسط صحراء قاحلة ، أو كالنجم فى ليلة مظلمة .

(٤) الصلاة - ويعرفها بأنها غذاء القلب والروح الواقى الذى يحصى الانسان من سهام العدو التارية .

(٥) الصوم - إن أول وصية أمر الله الانسان بحفظها هى الصوم إذ قال لآدم « من شجرة معرفة الخير والشر لا تأكل » تلك : ٢ : ١٧ . ويدعم ابن كليل أهمية الصوم بمرده عدداً من الوقائع التى لها فيها الناس من الأخطار المحيقة بهم بقوة الصوم والصلاة . ويختتم حديثه هذا بقوله إن الانسان الذى لا يقرن صومه وصلواته بأعمال الخير لا يدخل ملكوت السموات .

(٦) الصبر - إن هذه الفضيلة لها قيمة عظيمة لأنها الأساس الذى تقوم عليه بقية الفضائل وبها يقتنى الانسان نفسه كما قال رب المجد (لوقا : ٢١ : ١٩) .

(٧) المحبة والعطاء - إن المحبة هى أعظم وصية وبها يكمل التاموس والأنبياء (مت ٢٢ : ٣٧ - ٤٠) . والمحبة الحقيقية تؤدى إلى العمل لأن الانسان الذى يحب أن يخدم أحبائه . أما العطاء فلا يقدم من رضى وفى الخفاء فحسب بل يجب على المعطى أن يستشف حاجات إخوته ويسدها مقدماً حتى يوفر عليهم مذلة السؤال .

(٨) العفاف - إن الانسان الذى يرغب فى أن يتحكم فى نفسه ، حقاً عليه أن يحترس من الخطايا الموصوفة بالصغيرة . فكأس من الخمر قد لا تضر فى حد ذاتها ، ولكنها قد تؤدى إلى الرغبة فى ثانية وثالثة إلى أن يصبح الادمان عادة يصعب التغلب عليه ، فتسيطر الخمر على مدمنها وتجعل منه عبداً ذليلاً . لذلك يجب الاحتراس من الخطايا الصغيرة .

(٩) التواضع والهروب من الغرور - بما أن الله تعالى هو أبو الناس جميعاً كانوا إخوة . ولكل منهم نفس عاقلة ثبينة أمام هذا الأب السماوي الرؤوف وأمام الإبن الكلمة الذى تنازل وتجسد من أجلها . فلا داعى لأن يتشامخ إنسان على آخر مادام رب المجد قد قدم نفسه أسقى قدوة للتواضع.

(١٠) المغفرة - أعطى موسى التاموس القائل عين بعين ، أما السيد المسيح فقد أعطانا تاموس المغفرة إلى أبعد الحدود إذ قال له المجد « أحبوا أعدائكم ، باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيك وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطغنونكم » مت ٥ : ٤٣-٤٥ .

(١١) القناعة - لما كانت حياة الانسان على هذه الأرض عابرة ، وكل أمجادها وأفراحها سراهاً ، وجب على كل من يبغي الكمال أن يدرب نفسه على القناعة . لأن من يرغب فى أمجاد العالم هو عبد لهذه الرغبة ولم يبلغ الحرية بعد .

(١٢) الصيت الحسن - إن هذه الفضيلة لا يلفها إلا من يداوم على قراءة الكتاب المقدس ويعمل بما فيه . ويجب عليه أن يذكر نفسه بأنه يستطيع أن يزرع ما يشاء ولكنه سيحصد بالخزن إن هو لم يزرع بالحكمة . ولما كان للأصدقاء أثر بعيد على الانسان وجب عليه اختيارهم بحرص شديد ومجانبة المستهترين لئلا يصبح مثلهم . كذلك عليه أن يتجنب شرب الخمر لأنه إن شربه فى السر فرائحته ستفضحه وخير ما يتحلى به الانسان هو العلم ، فعلى كل من رام الكمال أن يخترق منه ما استطاع .

هذا ملخص ما قدمه ابن كليل للمؤمنين جميعاً ، ولا يزال كتابه هذا على النسيان إذ قد طبع مرة واحدة ^(١) .

وليس ذلك فحسب بل إن ترجمة هذا المرشد الروحى غير معروفة ، فهو أيضاً جندى من كتيبة الجنود المجهولين .



(١) ورد فى آخر هذه الطبعة ما نصه : تم طبع هذا الكتاب المبارك بالمطبعة الوطنية يوم الخميس ٩ أيار سنة ١٦٠٢ للشهداء - الأظهار وعلى الله حسن الختام . تم

ج - الأنبا مرقس الثالث

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------------------|
| ١٤٨- لطفال لامين في الوادي الامين | ١٥٩- وحنة و. عط القلام والبول |
| ١٤٩- انتخاب البابا الثالث والسبعين | ١٦٠- إرتداد وتخريب |
| ١٥٠- استيلاء نور الدين على دمشق | ١٦١- جهود الطليعة المرقسية |
| ١٥١- محاولات فاشلة | ١٦٢- انتصار صلاح الدين على القلوب |
| ١٥٢- خيانة شاور و غصبة شيركوه | ١٦٣- نهاية الفاطميين بموت العاضد |
| ١٥٣- جالبية مصر تسبب لآلام لابناتها | ١٦٤- بناء القلعة |
| ١٥٤- مقابلة كلهاروغة | ١٦٥- القضاء على الختاميين والانتصار |
| ١٥٥- تحالف شاور مع الفرنجة | السلحق |
| ١٥٦- خيانة مزدوجة | ١٦٦- الإرخاء والطمانينة |
| ١٥٧- انتصار شيركوه وصلاح الدين | ١٦٧- القرار الحق |
| ١٥٨- رسالة بعض الكهنة | |

١٤٨- كانت مصر في ذلك العهد فرسة للوزراء الطامعين في الحكم والخلفاء المستضعفين : فكانت القوى المسيطرة هي الحسد والتعزب والدسائس والشائيات فأضحت شوارع القاهرة أشبه بمهادين القتال منها بطرقات عامة ، لأن رجال الجيش كانوا حزبيين : أحدهما موال للخليفة وثانيهما موال لوزيره . فإذا ما تقابل الحزبان على قارعة الطريق تقاتلا على مرأى من المارة . وقد أدى هذا التعزب إلى الفوضى والاضطراب فانتشر اللصوص وقطاع الطريق في طول البلاد وعرضها ، ولم يعد في الوادي الأمين انسان يشعر بالطمانينة . وقد ضاعف هذا الاضطراب تربع الجيوش الصليبية والتركية بالبلاد المصرية .

١٤٩- وفي وسط هذه الأحوال انتقل الأنبا يونس الخامس إلى الأندلس السمارية . وإدرك الأساقفة والأراخنة أن ما يهيق بالبلاد من ضيق وهناء يستلزم الاسراع في انتخاب الراعي الأعلى للكنيسة لأن الشعب المضطرب سيشعر بالطمانينة إن هو وجد أباً حنوناً يفرح إليه في الملهمات ، كالطفل المذهور لا يشعر بالهنوء إلا إذا ارتقى على صدر أبيه (أو أمه) رغم عدم زوال الخطر . ولقد ألهم الأب السامري المستولين - من أساقفة وأراخنة - إلى الاجماع على الشماس أبي الفرج ابن أبي السعد حتى لا تتفرق كلمتهم

ويضيع الوقت في النقاش حول هذا أو ذاك - وكان أبو الفرج هذا - مع كونه تاجراً يعيش في العالم - ناسكاً متبتلاً معروفاً لدى الجميع بفضلته حتى لقد وصفوه بأنه ذو حمة ومروعة ، عاقل ، ذكي ، حازم يحسن السياسة والتدبير كما أنه جليل مهيب نافذ الكلمة ^(١) . قتمت رسامته سنة ١١٥٧م باسم مرقس الثالث إذ قد اختار له الأساقفة هذا الاسم تيمناً بالكاروز المحبوب الذي أصبح هذا البابا الخليفة الثالث والسبعين في سلسلة خلفائه .

وما أن تمت رسامته حتى غادر الاسكندرية وركب مركباً سارت به فرق النهر الخالد لترسو هنا وهناك فينزل الأنبا مرقس الثالث منها ليتفقد شعبه المضنى ويعزى القلوب الكسيرة ، فكانت رحلة كلها بركة إذ امتلأت القلوب حياء وشعوراً بالاستقرار رغم التآرجح الخارجي .

١٥- وبينما كان الأمراء في مصر يتطاحنون ، فنجح نور الدين في الاستيلاء على دمشق وفي الاستئثار بلقب « حامي حيا الاسلام » . فكان لزاماً عليه - والحالة هذه - أن لا يتحالف مع القوات المصرية الخاضعة للخليفة شيعي ، كما كان لزاماً عليه أن يقاتل الفرنجة (الصليبيين) . وكان هؤلاء يخشون بأسه فلم يجسروا على غزو مصر وهو قريب منهم لئلا يهاجمهم من الخلف على الرغم من أنهم كانوا ، أصحاب القدس وكانوا متلهفين على الاستيلاء على مصر ^(٢) .

١٥١- وكان طلائع بن رزق - وزير مصر يرفض رغبة أكيدة في التحالف مع نور الدين إذ كان متيقناً من أن مثل هذه التحالفات هي أضمن وسيلة للقضاء على الصليبيين . وقد اختار الشاعر أسامة ليكون مندوبه - ومع أن هذا الشاعر كان ذائع الصيت وقد تقدم إلى نور الدين بقصيدة عصماء فقد فشل في مهمته تماماً إذ تكسرت أهباته على أذان صماء . ولم تضع هذه القصيدة فحسب ، بل أن انتصار الجيش المصري على الفرنجة في غزة لم يكن له من أثر إطلاقاً . ولم يياس رزق فجمع مجموعة من قصائده

(١) المخطط للمقريزي ج٢ ص ٤٩٦ . « الكافي في تاريخ مصر الحديث والتقديم »

لميخائيل شارون ج٢ ص ٣٨٦

(٢) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) الستاني لاين بوند ص ١٧٤ .

الحرية وأرسلها هدية إلى نور الدين . وللمرة الثالثة فشل فشلاً ذريعاً .

١٥٢- وفي سنة ١١٦٠ انتقل الفائز (الخليفة الصوري) إلى رحمة مولاه وهو في الحادية عشرة من عمره فتولى ابن عمه العاضد لدين الله الخلافة من بعده . وما أن اعتلى العاضد العرش حتى اغتيل رزيق وأعلن شاور والى الصعيد الحرب على ابن رزيق وانتصر عليه فأقام نفسه والياً على القاهرة . وبعد شهر قليل تغلب ضرغام (وهو وال آخر) على شاور الذي لجأ إلى بلاط نور الدين خوفاً على حياته . وهناك وعد نور الدين بثلاث خراج مصر إن هو ناصره . ونجح المال حيث فشل الشعر والأدب لأن حاكم دمشق الذي رفض كل عروض رزيق رضي بالتعاون مع شاور فأرسل معه جيشاً بقيادة شيركوه والتقى بالجيش المصري عند تل بسطة (بالشرقية) وانتصر عليه فاستعاد شاور السلطة . على أنه حين وصل إلى الحكم خان عهده مع نور الدين فبعث برسوله إلى أمالريك ملك الفرنجة المتولى أمر القدس يستنهضه لمحاربة نور الدين . فزحف أمالريك على مصر لمناصرة شاور واضطر شيركوه إلى العودة إلى سوريا . على أن شيركوه لم يكن بالرجل الذي يرضى بالهزيمة أو يخفض الطرف عن الخيانة فاستغفزه فشله واستشار فيه رغبة جامعة في الاستيلاء على مصر فظل يلح على نور الدين بأن يرسله على رأس حملة ضد الجيش المصري . ولم يفلح شيركوه في هادئ الأمر ، ولكن لما سمع نور الدين بقيام تحالف بين شاور وأمالريك رأى أن الوقت قد حان للهجوم على مصر .

١٥٣- وكان سباق للاستيلاء على الرادى العتيق ، وعادت المأساة التي مثلت مراراً وتكراراً : فقد رابط أمالريك وجيشه في الفسطاط على الضفة الشرقية من النيل بينما رابط شيركوه وجنده عند الجيزة على الضفة الغربية منه . فحق للمصريين أن يقولوا : ما أشبه الليلة بالبارحة - فكم من غزاة وقفوا هذه الوقفة على ضفتي النهر الخالد ! لقد تغير القواد وجنودهم أما الفريسة فهي هي . إنها الأرض المقدسة أرض النيل العريق . فقد كان لاسم مصر (ولا يزال) رنين خلاب طالما تسبب في أن تفيض قلوب أبنائها بالوجع والحسرة . فكم من مرة هنا عليها المغيرون قداسوا بأقداسهم الغليظة هذه الأرض الوادعة وأرووها - رغماً منها - بدم أبنائها وساموهم الخسف والعلاب . وفي تلك الفترات الخالكة سككت في مصرنا الجبهة أصوات المرح

والنشد وحلت محلها العارحات والأثين . وانطوى الشعب على ألمه يتأمل
الباطش الغاصب ويحصل في صمت خمره وقسوته إلى أن يحين ساعة
النجاة . وهذا الصبر الذي امتاز به المصريون مقترناً بإيمانهم الذي لا يتزعزع
في الله تعالى هو سر إنتصارهم المرة بعد المرة على كل من أغاروا عليهم ،
وهو سر عميق لا يدرك كهنه الساكرون .

١٥٤- وأدرك شاور خطورة موقفه فسمى بكل ما لديه من حيلة ودهاء
إلى استماله الفرقة لناصرته . وأدرك الفرقة بدورهم أنه إنما يخطب ودهم
ليحتسب خلفهم فتشددوا في مطالبهم مشترطين عليه أن يعطيهم مائتي
ألف دينار ومائتي ألف أخرى عند انتصارهم . ثم تقدموا بطلب لم يكن في
الحسبان : فقد صافح الملك أماليك مندوبى الخليفة بهذه فطالب بأن يعطى
مندوبوه بمصافحة الخليفة ، ولم يكن هذا الطلب بالأمر الهين لأن الخلفاء
الفاطميين كانوا قد اعتادوا أن يحيطوا أنفسهم بستار من الغموض والحفاء
إلى حد أن هذه المسلمين الذين حظوا برؤياهم كان ضئيلاً - فكيف ومطالبو
المقابلة من الفرقة ؟ وكان طلب أماليك معناه أن العاهل الخفى المتعالى
الذى لم يسمح لغالبية رعاياه بمقابلته سيسمح بأن يظهر أمام أغراب هذه
ديننا ووطننا ، ، ونشلت المحاولات الأولى ولكن أماليك أصر على أن ينال
حقه . ولم يكن شاور في مركز يسمح له بالرفض إذ لم يكن أمامه إلا أن
يختار بين التسليم بهذا المطلب أو الوقوع في يدى نور الدين . فوضع
للفرقة وأشرف بنفسه على ترتيب المقابلة بين الخليفة ومندوبى أماليك
وهما : هيو حاكم قيسرية وجيوفرى فولشر . ، فاقتهما داخل بمرات سرية ،
ومرا خلف أبواب تقطعها الستائر ويقف أمامها الحراس شاهري السلاح ، ثم
وصلا إلى قناء فسيح فى الهواء الطلق تحيط به أروقة ذات أعمدة مرمرية
وسقوف مزخرفة وموشاة بماء الذهب والألوان الرائعة ، بينما كانت أرضها من
الموزايكو البديع الصنع . وحلق الغربان فى كل مظاهر البذخ والجمال وقد
امتلات نفسها ذهولاً إذ لم يعتادوا رؤية هذا اللوق الفنى الرفيع وهذا
الترف المتعاهى . وكانت كل خطوة يخطوونها بها تكشف لهما عن مظاهر
جديدة من آيات الفن والرفاهية ، فهنا فسقيات مرمرية تتغنى حوالها
الطيور من سكان المناطق الحارة والمعتدلة وهى ذات أصوات رخيمة وألوان

آية في التنسيق . وهناك في ركن ثان مجموعة من الحيوانات قد يجتمعها
فنان عبقري أو يصنفها شاعر موهوب أو يعلم بها عقل ذو خيال مرهف ^(١).

١٥٥- وبعد السير من بحر إلى آخر ومن دهلز إلى ثان ومن بحر إلى
بحر وصل المتدبران في النهاية إلى قاعة العرش التي فاق جمالها كل
خيال ^(٢) ، وحظها بمصافحة الخليفة ويتوقيع المعاهدة في حضرته . وعلى
أثر ذلك بدأت المعركة ضد قوات تور الدين التي كانت تحت قيادة شيركوه .
وكانت الموقعة الأولى في منطقة المتيا (في الصعيد الأوسط) . وانتصر
جيش شيركوه ولكن الانتصار لم يكن حاسماً . وفي هذه المعركة ظهر صلاح
الدين للمرة الأولى في تاريخ مصر . وقد أهدى في هذه المعركة الأولى تلك
البسالة التي تميز بها حتى آخر حياته . ولم يتراجع الفرقة بل استمروا
بقاتلون في عناد حتى اضطروا شيركوه إلى الانسحاب إلى سوريا للمرة
الثانية .

١٥٦- وتنافس شاور الصغناء ، ووجد الفرصة سانحة لينكث عهده مرة
أخرى وبخاصة لأن الفرقة بدورهم نكثوا عهدهم . فإنهم لم يكتفوا بما
فرضوه من مال بل طالبوا بمئة ألف دينار علاوة عليه . ثم أصروا على أن
يقيموا من جنودهم حراساً على أبواب القسطنطينية . فلما أعلن شاور رفضه
زحفوا على مصر من جديد ولكنهم كانوا في هذه المرة خصوماً لا حلفاء .
وقاد أماليك الجيش بنفسه وما كاد يدخل بلبيس حتى أضطرب الجرمية إلى

(١) تاريخ مصر في المصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين هول ص. ١٨.

(٢) روى الدكتور عبد الرحمن زكي هذه المقابلة وصفاً تفصيلياً وانتهى منها بقوله :
وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن - الخليفة - وفاق هذا القصر كل ما رأوه من
قبل ... وأدخل المصورون الى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب
والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت
تلمع بها عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة ... وارتفعت الحبال فجأة وانكشفت
الستارة الحمرية الذهبية بسرعة البصر كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل
(السلطان المأمون) لأعين الفرنج المبعوثين . وكان على وجهه هذا الأمير تقارب يخفيه
تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة - راجع كتابه
« القاهرة : تاريخها وآثارها » (من جهر القائد الى الجهرى المورخ) ص ٢٠-٢١.

الخيانة . فقد أعمل رجاله مسيوفهم في رقاب أهلها وأبادوهم عن بكرة أبيهم : فلم يحترقوا سناً ولا جنساً ولم يفرقوا بين مسيحي ومسلم . وراقب شاور ما اقترفوا من فظائع ووجدهم منتصرين على طول الخط ، فأمر بإشعال النار في القسطنطينية كي لا يحتسب الفرنجة فيها ورايط هو وعسكره في القاهرة . وكانت القسطنطينية آهلة بالسكان كما أنها كانت العاصمة مدى ثلاثة قرون . وحين رآها المصريون مشتعلة بالنار امتلأت قلوبهم غيظاً . وتضاعف غيظهم أضعافاً إذ استمرت النار مشتعلة أربعة وخمسين يوماً . وذكرتهم النيران بالخيانة المزدوجة : خيانة شاور وخيانة الفرنجة وأدركوا أن مدينتهم ذهبت ضحية لهذه الخيانة المزدوجة فانضموا بمجموعهم إلى شيركوه . بل إن الخليفة العاضد أدرك معهم هذه الحقيقة المرة فبعث برسوله يستنجد بنور الدين الذي استجاب هذه المرة على الفور ^(١) .

١٥٧ - وأصيب الفرنجة بانكسار مريع عند أسوار دمياط ، وأصاب شيركوه وابن أخيه صلاح الدين سلسلة من الانتصارات ودخلا القسطنطينية بجنودهم فأبادوا شاور ورجاله وقضوا على الحرس السوداني المرافق داخل قصر الخليفة في يومين اثنين فقط ^(٢) .

١٥٨ - وكان حريق القسطنطينية ضربة قاصمة للقبط : فقد كان الكثيرون منهم يعيشون فيها ويمتلكون بيوتهم ، كما كان حصن بابلون يضم أقدم كنائسهم وأعظمها . وما يجدر تسجيله بالاعتزاز هو أن بعض الكهنة رفضوا أن يغادروا المدينة وصمموا على البقاء إلى جانب كنائسهم لعلهم يستطيعون حمايتها أو يوتون داخلها . وقد سجلت مراحم الله في هؤلاء الكهنة البواسل إذ سلّمت ست كنائس من الحريق تماماً ^(٣) .

(١) تاريخ مصر ... لتانلى لابن بول ص ١٨١ - ١٨٢ ، « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) ص ١٩٦ - ١٩٧ ، « تاريخ الأمة المصرية ... » (بالفرنسية) ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٢) « تاريخ الأمة المصرية ... » ص ٢٠١ حيث يشهد باندحار الفرنجة إذ يقول : " Les Francs furent réduits à solliciter une paix que l'on accorda bien Volontiers; ils durent payer une forte indemnité, et évacuer sans délai le territoire Egyptien " وترجمته ما يلي « اضطر الفرنج إلى طلب الصلح الذي قبول بالرضى ، وألزموا بدفع تمويض بالغ وبإخلاء الأراضى المصرية على الفور » .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لنسب القمص ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

وكانت كتيسة السيدة العذراء (المعلقة) ضمن الكنائس الست التي سلمت من الحريق . وكان بها آنذاك مكتبة ثمينة بها الكثير من كنوز الفكر . وحدث أن قام جدال حول موعد عيد القيامة فلجأ العلماء إلى الكتب الموجودة بتلك المكتبة ودرسوها فافتتروا بأن الحساب القبطي هو الحساب الصحيح ^(١) .

١٥٩ - على أن حريق القسطنطين لم يكن غير نذير بشر مستطير إذ قد صبب شيركوه غضبه الذي شعر به نحو الصليبيين على القبط . فلم يجد أمامه من يكفر عن سيئات حاملي الصليب زوراً وبهتاناً غير حاملي الصليب الأمنيين من أهل هذا الرادى الحريق . فاستشهد منهم عدد كبير وأحرقت كنائس كثيرة وتضاعفت الجزية . ورأى بعض قبط الصعيد أن يطلبوا إلى العرب المقهين بينهم حمايتهم ولجنهم الاضطهاد أو الموت مقابل معاملتهم كمبيد . لقد كانت فترة حالكة الظلام مليئة بالأهوال .

ورغم الظلام والأهوال كان هناك وميض من النور - هذا النور الذي استمر يسطع كالمحيط الذهبي المعلن عن وجود الشمس خلف السحب المعكائفة . فقد كان في هذه الفترة أرغن من الأراخنة اسمه الاسعد صليب بن ميخائيل المعروف بابن الايقومانس مشهوداً له بالعلم وصحة العلماء كما كان متعلقاً بالكنيسة في صدق وولاء . فلما انطفأت النيران التي كان شاوور قد أشعلها في القسطنطين قام هذا الأرغن بتجديد كنيسة مارمينا وألحق بها مدرسة ومنتدى يجتمع به رجال العلم والأدب للتباحث والتناظر . وقد كتب رسالة عن أسرار الكنيسة محفوظة الآن بدار الكتب بلتونييراد (في روسيا) وأشار إليها أحد المستشرقين الروس في كتاباته ^(٢) .

١٦٠ - وكان هناك رجل قبطي من أهالي أسبوط اسمه زكريا بن أبي الملوخ بن عمالي متحه الله المقدرة على كتابة الشعر السلس العذب . نبهت بقصيدة من روائعه إلى شيركوه يستعطفه ليخفف الوطأة على القبط .

(١) مرشد المتحف القبطي لوديع شنودة ص ٢٦ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزي تالريس ج ١ ص ٢٧ - ويلاحظ أن مدينة ليننجراد تحول اسمها إلى ستالينجراد ثم إلى موسكو .

ولكن شيركوه كان رجل سيف لا يهزه القلم . فلم يعياً برجاء زكريا رغم أنه في قالب شعري جميل . بل إنه ليبدو أن هذا الاستعطاف أحدث في نفس شيركوه أثراً عكسياً فضاغف تنكيهه بالقبط بدلاً من أن يخفقه . ولم يحتمل زكريا هذه المحنة المتزايدة فخاف عهد آياته بأن أنكر دينه واعتنق الاسلام وفي الحال عينه شيركوه ناظراً للدواوين ^(١) . وقد ساعدته هذه الوظيفة التي استمر يشغلها أثناء حكم صلاح الدين والتي أوروها لإبنه من بعده - ساعدته على أن يكتب كتاباً بعنوان « قوانين الدواوين » صور لنا فيه أواخر الدولة المصرية إذ ذاك . كما ضمنه وصفاً دقيقاً للسفن التي كان يتألف منها الأسطول المصري في ذلك العصر . فأوضح بدقة وصفه مدى اهتمام صلاح الدين بالأسطول كما أوضح عناية الصناع المصريين بإنتاج السفن المطلوبة منهم ^(٢) . وفي الكتاب عينه تحدث عن بعض المنشآت في مختلف البلاد المصرية فلذكر ضمن ما ذكر « دير العسل » من أعمال الأشمونين وكان هذا الدير يقع على ضفة النيل ويشغل مساحة كبيرة . تتوسطه كنيسة باسم مارجرجس تحيط بها قلالي النساك . ولقد غرس الآباء كرمًا في مزرعته كما بنوا إلى جانبها معصرة حجرية لعصر قصب السكر . ولهذا السبب سمى الدير « دير العسل » ^(٣) .

أما ابن ماضي فقد تولى في حلب ^(٤) . على أنه كان هناك من أثر

(١) تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة بوقيلة ص ١٦٠ - ١٦٢ .

(٢) راجع كتاب « الفن الاسلامي في العصر الأيوبي » للدكتور عبد العزيز مرزوق ص ١٣ و ١٩ - ٢٠ .

(٣) إقليم المنيا في العصر القبطي للنصص ميسائيل بحر نشره في مجلة صوت الشهداء السنة السادسة العدد الأول (يناير سنة ١٩٦٤) ص ٢٦ - ويرد الكاتب أيضاً ما جاء في دائرة المعارف القبطية من هذا الدير وهو أنه كان محصناً وبه جرسقان . كذلك نقل عن أبي المكارم حديثه عن أنها سيمون وهو : « كان من رهبان دير العسل ورسم أسقفاً للدير . وكان هابطاً زاهداً مشهوراً بالصلاح فاستفاد منه الرهبان وأقبل الناس على تعاليمه » .

(٤) ذكر الدكتور عبد الرحمن زكي في كتابه « القاهرة » تاريخها وآثارها على ص ١٣٩ هذا الكاتب وقال عنه في هامش الصفحة عينها ما يلي « هو أبو المكارم أسعد بن المذهب المصري القبطي الأصل ... » ، وراجع ترجمته في القريشي ج ٢ ص ١٦٠ . وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية الملكية بإشارة الأمير عمر طوسون - راجعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية سنة ١٩٤٣ .

الموت بل فضل أن يتحمل العذاب على انكار دينه فقد جبن الشاعر زكريا
وتراجع أمام سطر الجند على حرمة الأديرة مع أنه لم يكن من ساكنيها .
ولكن المعتدين على ساكني برية شيهيت اضطعموا بعزيمة الراهب شنوفاً الذي
كانوا قد خطفوه من دير الأنبا مكاري الكبير وهددوه بالقتل إن لم ينكر
دينه . فواجه تهديداتهم ببسالة أجداده وانتهى به الأمر إلى أن نال إكليل
الشهادة كما نالوه .

وفي تلك الفترة الخالكة صدر الأمر بهدم كتفرائية مارمرقس بالاسكندرية
التي كانت تطل وقتذاك على الميناء بحجة أنها ضخمة منيفة قد يعجز فيها
الصلبيون قلعة يحتمون فيها إن هم تمكثوا من دخول المدينة ^(١) .

كذلك قامت حملة تأديبية على النوبة بتخريب واسع النطاق شمل دير
القديس سمعان بأسوان وكنيسة ابريم بالنوبة . وسى أهالي تلك المنطقة
وهلى رأسهم الأسقف القبطى وسبقوا جميعاً إلى سوق النخاسة . وهم
التخريب مدينة قنط أيضاً وتساوت بالأرض فلم تعد لها قائمة مذاك ^(٢) .

١٦١ - ولكن - ما الذى كان يفعله خليفة مارمرقس خلال هذه الظلمة
الخالكة ؟ أنه - حين تأمل شعبه المتوجع المعالم - لم يجد أمامه غير
سبيلين : أولهما الصوم والصلاة وثانيهما تفقد الشعب المذهب . فابتهج
هذين السبيلين معاً واستطاع بهما أن يثبت أولاده على الإيمان ويحصنهم
ضد العذاب .

ولقد استجاب الأب السماوى ضراعة الأنبا مرقس الثالث ونظر إلى
دموعه وإلى أحلامه غير المنقطعة لأنه تعالى لا ينسى نصب المحبة .

(١) كان الأنبا أغاثون (البابا الـ ٣٩) قد بناها سنة ٦٦٢ م إبان الفتح العربى
وكانت بالفعل آية فى الضخامة والفن . ولقد سعى القبط إلى إتقانها وهرطسوا أن
ينفخوا (٢٠٠٠) ألفى دينار فى سبيلها ولكن مساعيهم ذهبت أدراج الرياح .
(٢) حيثما قام علماء الآثار بعملية إنقاذ آثار النوبة قبيل بناء السد العالى عثروا خلال
حفرياتهم على بقايا كنيسة ابريم كما عثروا على عدد من الكنائس بعضها أطلال
وبعضها يكاد يكون سليماً .

راجع أيضاً كتاب عزيز سورمال عطية عن « تاريخ المسيحية الشرقية » (بالانجليزية)
ص ٩٥ .

فانقضى بموته عهد شيركوه بعد شهرين من انتصاراته إذ قد انتقل فجأة إلى الدار الباقية . فانقضى بموته عهد الظلم والظلام وتولى صلاح الدين الوزارة تحت الحكم الصوري للخليفة العاضد .

١٦٢ - وكان صلاح الدين اسماً على مسمى : فقد بدأ معه عهد من الاستقرار والعدالة فأنصف جميع المصريين على السواء . وقد ازدانت عدالته بالكرم والسماحة فأحبه المصريون حباً جماً وأخلصوا له الولاء . وكان انتصاره على القلوب حاسماً . وفي هذه الفترة فاضت موجة الأخوة والرخاء ففسحت التوتير والعوز وانسجم ميزان المجتمع المصري انسجام النيل بما يتناوبه من فيض وانحسار . ولقد عبر القبط عن عرفانهم بالجميل لهذا التغيير بما كتبه في مخطوطات ذلك العصر إذ تقرأ هذه العبارات : « ولم تزل الأمور تتوطأ بصلاة هذا الأب القديس الطاهر أنها مرقس وهو يجاهد على شعبه إلى أن أصلح الله لهم قلب السلطان ففرهم وأدناهم واستخدمهم في دياره وأنعم عليهم فعادوا إلى أرفع مما كانوا عليه .. وصار لهم جاهاً ونفاذ كلمة وهزاً . وأكثروا من الصدقات ولازموا الصلوات فتمت أرزاقهم ووصلحت أمورهم وانشرحت صدورهم وأخذوا الإذن من السلطان بصارة ما هدم من البيع وفتحها لاقامة صلواتهم والدعاء لله بسلامة سلطانهم المحسن إليهم . وعادت الأمور إلى أرقى مما كانت عليه » (١) .

١٦٣ - وفي سبتمبر سنة ١١٧١ انتقل العاضد إلى رحمة مولاة في غفلة وانزوا . فكان موته سبباً من الأسباب العديدة التي دعمت سلطان صلاح الدين الذي تسلم الحكم من غير منازع . وقد رأى أن يدع أقرباء الخليفة الراحل يعيشون في بذخ وترف دون أن يكون لهم رأى أو صوت في سياسة الدولة - أي أنه وضعهم في قفص ذهبي جميل . أما كنوز العاضد فقد وزعها صلاح الدين على المجموعة الجديدة من الرجال الذين انتخبهم لمعاونته في القيام بأعباء الحكم . وكانت مكتبة الفاطميين تحوى إذ ذاك مئة وعشرين ألفاً من المخطوطات وهبها للفقهاء القاضى الفاضل . وفي الوقت عينه رفض صلاح الدين أن يعيش في قصر الفاطميين لأن ما يعويه من مظاهر الأبهة والترف يتضارب مع ما كان يمتاز هو به من بساطة .

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بديره ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

ولقد اتخذ صلاح الدين لنفسه كاتباً خاصاً من عائلة قبطية كريمة هي عائلة شرافى . وكان أبوه من كبار رجال ديوان الخليفة العاضد واسمه أبو المعالى . فلما وثق به صلاح الدين وأمنه على سره منحه لقب الشرف والرئاسة فصار معروفاً باسم الشيخ الرئيس صفى الدولة ابن أبى المعالى . ولقد ظل يخدم صلاح الدين إلى يوم وفاته ^(١) .

١٦٤ - ولقد استطاع صلاح الدين بما حباه الله من مواهب نادرة أن يصبح الزعيم الأول للمسلمين فى الشرق الأوسط فامتد سلطانه من آسيا الصغرى شمالاً إلى ما بين النهرين شرقاً . ورغم هذا السلطان المتزايد فقد ظل محتفظاً بعدائه وتزاحته وبساطة معيشته .

وألقى نظرة النسر حوله فرأى أن يبنى قلعة فوق الرهوة الغربية للجبل المقطم واختار لتنفيذ رغبته مهندسين قبطيين هما أبو منصور وأبو مشكور ليبنياها له ^(٢) . ولما تم بناؤها أصبحت المقر الرسمى للحكومة وأطلق عليها اسم « قصر الجبل » . فكان منظرها يملأ النفس رهبة فيردع كل من تسول له نفسه بأن يتمرد أو يعتدى وقد استمرت القلعة المقر الرسمى لحكام البلاد مدى ستمائة وست وستين سنة - أى إلى سنة ١٨٧٤ م حينما بنى اسماعيل باشا قصر عابدين واتخذهُ مقراً وسار خلفاؤه على نهجه ^(٣) .

١٦٥ - وقد نجح صلاح الدين فى التغلب على جميع أعدائه والمتآمرين عليه فأصبح صاحب الكلمة العليا . وتهلل المصريون لذلك لأنهم كانوا قد رزحوا تحت نير ثقل فترة طويلة فتنسّموا الحرية فى ظل هذا القائد الشاب النزيه وأجمع القبط والمسلمون على الصلاة من أجله . وكانت استجابة الله لهم هذه المرة سريعة إذ قد منحه السلطان من النيل إلى الفرات . وقد ملأ النصر زهواً هذه المرة فارتكب غلطة كانت السبب فى سقوط أسرته فيما

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ١٧٦ .

(٢) فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٦٢ أفتتح برنامج رائع للصوت والضوء حول القلعة التى لا تزال شامخة فوق ربوتها - وهى مبنية على الطراز البيزنطى . راجع أيضاً كتاب « تاريخ مسيحية الشرق » (بالانجليزية) لعزير سوربال عطية ص ٩٥ .

(٣) راجع مقال « القلعة » بقلم الدكتور عبد الرحمن زكى أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة نشر بجريدة الأهرام فى ٢٨ يناير سنة ١٩٦٩ بمناسبة ذكرى مرور ألف سنة على تأسيس القاهرة .

بعد ، وهى أنه أقام من رجال عشيرته حكماً فى كل البلاد التى أخضعها
لسلطانه . وتنادى فى هذا الغرور إلى حد أنه أقام ابنه ملكاً على حلب مع
أنه كان صبياً تجاوز العاشرة بقليل .

١٦٦ - واحترم صلاح الدين والفرنجية الهدنة التى أبرموها معاً ومن ثم
استقرت الأمور وعم الرخاء . ثم جاء الحصاد وافراً ورخصت أسعار الحاجيات
اليومية واتسعت التجارة وسعد الجميع .

١٦٧ - أما الأنبا مرقس الثالث فقد فاض قلبه بالسبح لله الذى أهبل
البؤس نعيماً . ورأى أن يتفقد شعبه فى الرخاء كما تفقده فى الضيق
ليوضح فى هذه الزيارة الراحوية الثانية مدى عناية الأب السماوى بأبناء
على هذه الأرض . وقد لاقاه الشعب بالفرح : سواء أكان من القبط أو من
المسلمين .

كذلك عاد القبط إلى العمل فى دواوين الحكومة إذ قد أقر صلاح الدين
حقوقهم كما أعاد إليهم أملاكهم المصادرة . فازدحموا فى الكنائس ليرفعوا
شكرهم إلى الأب السماوى . وواظبوا على الأصوام والصلوات والصدقة .
وزداد عرفانهم حين جاعهم الإذن باعادة ما تهدم من الكنائس وتهديد عمارة
الأديرة . وهكذا بدأت باباوية الأنبا مرقس الثالث فى جو مكفهر ملبد
بالغوم القاتمة . وانتهت بسماء صافية ساطعة النور . وانعكس هذا البهاء
على وجهه فلمعت أساريره وزادته جاذبية مما زاد حب الشعب فيه . وانتفضت
بضع سنرات كلها صفاء وطمانينة انتقل بعدها البابا المرقسى إلى مساكن
النور . وكان انتقاله فى السادس من طوبة سنة ٨٩٦ ش (١١٨٠ م) وقد
دامت باباويته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر ^(١) .

وقد اختتم كاتب تاريخ البطارقة سيرة هذا الأب البار بكلمات لها دلالتها
وجمال تمبيراتها لذلك ننقلها كما هى : ولم تزل الأمور تتوطأ
بصلوات هذا القديس مرقس البطرك وهو يجاهد على شعبه ورغبته إلى أن
أصلح الله لهم قلب سلطانهم بهركة صلواته فقرهم وأدناهم واستخدمهم فى
ديوانه فى أموال دولته وأنعم عليهم فعادوا إلى أرفع مما كانوا عليه وركبوا

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الأنبا المرقسى عن النسخة
المحفظة بديره ج ٢ ص ٤٣٢ - ٤٤١ .



قلعة صلاح الدين الأيوبي

بنيت لأسباب استراتيجية وظلت مقراً للحكم ٦٦٦ سنة

الخيل والبغال ولبسوا الخفاف والثياب المفرحة وساروا معه فى الغزوات كتاب ديوانه وكتاب أهله وأقاربه وكتاب أجناده وتعلق كل نصرانى بكتاب أمير من أمراء دولته ومن أهله وأقاربه وحفظ كل منهم حرمة كتابه فصار لكلمتهم جمال ومال وجاء ونفاذ كلمة وعز ونقل الله بصبرهم وصلوات بطركهم ورجوعهم إلى الله وطاعتهم لرئيسهم ذلهم إلى عز وإهانتهم إلى كرامة وبغضهم إلى محبة وضعفهم إلى قوة . وأكثروا من الصدقات ولازموا الصلوات وتشبهوا ببعضهم بعض فى المسارعة إلى فعل الخيرات . قنمت أرزاقهم وصحت أجسامهم وكثر بنوهم وبناتهم وخزائنها من خيراتها . وصلت أمورهم وطابت قلوبهم وانشرت صدورهم وعلت كلمتهم عند سلطانهم فتتجزوا التواقيع منه والكتب عنه إلى ولاية الأعمال بجرمة بيعهم وما تشعت من كنايسهم وفتحها لاقامة صلواتهم والدعاء لله بسلامة سلطانهم فرموا ما كان رهي وينوا ما كان هدم ورموا ما كان تشعت وعادت الأمور إلى أرفا ما كانت من السلامة ورخص الأسعار وطيب الثمار وجرى النيل ونزول الأمطار وتبيح هذا القديس أنبا مرقس وقد رضى الله عن شعبه بصلواته وهم محفوظين بصلوات القديس آمين ٥ (١١) .



(١١) بطاركة الكنيسة المصرية لساورس بن المقفع أسقف الأشمونين - المجلد الثالث - الجزء الثانى - قام على نشره دكتور أنطون خاطر ودكتور أزوليد بومستتر - (القاهرة سنة ١٩٧٠) ص ٩٧ - ٩٨ .

« جلال الملك أيام وتمضى ... »^(١)

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| ١٦٨ - قيام دولة جديدة . | ١٧١ - عدالة صلاح الدين تسرى الى |
| ١٦٩ - رسالة الاتييا لائن الصائس | ذريتته |
| ١٧٠ - تفسير مزعج يعطيه تكثير مشرف | ١٧٥ - نهاية المسيحية في الحق الشمس |
| ١٧١ - معارك متتالية فتتخالف واسع | ١٧٦ - الست لونه |
| المسدي . | ١٧٧ - مطران لئس |
| ١٧٢ - الذوق المصري الرليج . | ١٧٨ - مؤرخ له نزعة فكاهية . |
| ١٧٣ - حلة صلاح الدين بالقبط . | ١٧٩ - ضيف منصف . |

١٦٨ - كان شهر سبتمبر سنة ١١٧١ شهراً بعيد المدى في مجرى الحوادث المصرية : فيه انتقل الحكم من أيدي الفاطميين إلى أيدي الأيوبيين وأعظم رجال الدولة الجديدة هو صلاح الدين من غير نزاع وهو الذي دعيت الدولة باسمه إذ كان يدعى يوسف بن أيوب الملقب بالملك الناصر صلاح الدين .

وكان العصر الفاطمي من أعجب العصور ، فقد شهد فيه المصريون أفخم مظاهر الترف كما عرفوا فيه طعم البؤس والجوع ، وسعدوا بالتسامح الذهني الشامل كما كانوا فرسة الاضطهاد والاستبداد . وخلال هذه المتناقضات كان عصرنا ازدهرت فيه العلوم والفنون ، وتزاحم المؤرخون والكتاب والشعراء ورجال القانون والعلماء في قاعات الخلفاء الذين اشتهروا بكرمهم الذي كان مضرب الأمثال . كذلك وفد على مصر عدد غفير قليل من السواح سحرهم جمالها فتركوا للأجيال المتعاقبة وصفاً دقيقاً رائعاً عما شاهدوه . وبما يؤسف له أن القصور الفخمة التي وصفوها قد أصبحت أثراً بعد عين ولكن المساجد لا تزال باقية تشهد لمبدعيها بطول باعهم في الذوق والفن كما تشهد بما استمتعوا به من حرية^(٢) . وليس ذلك فحسب بل أن الصناعات هم أيضاً

(١) من قصيدة لأعبر الشعراء عن توت عنخ آمون ومطلعها « قفى يا أخت يوشع خيرتنا أحاديث القرون الفاربتنا » .

(٢) تاريخ مصر في القرون الوسطى (بالإنجليزية) الستائلى لاين بول ص ١٨٦ - ١٨٩ ، مختصر تاريخ مصر ... لبيستون لبيت ص ١٩٩ - ٢١٤ .

قد برزوا . ولا تزال آثارهم تنطق للآن بعملهم المتواصل واتقانهم وذوقهم ومن أروع منتجات هذا العصر النسيج : فقد أفلح النساجون في تيس (١) . في إنتاج نوع من القماش أطلقوا عليه « بوقلمون » كان لونه يتراوح من ساعة إلى ساعة حتى لكأنه يتبدل ويتشكل . بينما صنع نساجو أسيرط قماشاً من الصوف للعصاة ناعماً خفيفاً إلى حد أن الناس كادوا يظنونهم من الحرير (٢) . وليس ذلك فحسب بل إن العرب استمروا يطلقون على النسيج المصري اسم « القباطي » فلذكر كل من المقرئى وأبى المحاسن أن الحاكم بأمر الله كسا الكعبة بالقباطي في السنة العاشرة من حكمه . وكانت بعض مصانع النسيج تحت الإشراف المباشر من الحكومة وكانت تعرف بالطرازي فكان الإنتاج الذى يصدر عنها مزخرفاً بانتظام وتنسيق كما كان قبطى الأسلوب (٣) .

ولما كانت الحياة مؤثرات وانطباعات فإن اعتياد القبط تصوير حالة من النور تحيط برأس القديس أو الشهيد كان لها أثر في نفس الفنان المسلم الذى أخذ هذه الفكرة الفنية عنهم ولكنه وضعها حول رأس الشخصيات البارزة كالأمير مثلاً ، أو للتعبير عن الفرح في حفلة استقبال .

وثمة فن آخر كان له أهمية كبرى لدى القبط وبخاصة لدى الرهبان منهم ، هو فن تجليد المخطوطات بالجلود ذات الزخارف المضبوطة وقد ازدهر هذا الفن في مختلف العصور .

وتدل بعض جلود المصاحف المحفوظة للآن في دار الكتب - تدل دلالة صريحة على الأثر القبطي : فإحدى هذه الجلود محفورة في أشكال صليبية شبيهة بزخارف تزين قطعة من النسيج القبطي موجودة في فيينا (٤) .

(١) حرب الفرقة هذه المدينة تخريباً شاملاً .

(٢) مختصر تاريخ ص ٢٠٩ .

(٣) « أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة في العصر الفاطمي » لسعاد ماهر ص ٤ و ١٧ .

(٤) « تراث الإسلام » تعريب لجنة الجامعيين لنشر العلم ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ ، دليل للتحف القبطي لمرفس سميكة ج ١ ص ٤٢ ، ٥١ - ٥٢ . وللقوف على المؤثرات المتبادلة في الفنون المختلفة بين القبط والمسلمين راجع كتاب زكى محمد حسن : « الفن الإسلامى في مصر » وكتوز الفاطميين .

وبازدهار كل هذه العلوم والفنون سرت موجة من الهتاء عمت المصريين جميعاً ، فاندفعوا في التعبير عن وجداناتهم وطلبات نفوسهم في رضى وحبور . وكانت الأعياد تتيج أمامهم الفرصة للتشارك في هذا التعبير : فكان قبط مصر ومسلموها يعيدون معاً أعيادهم المختلفة ، ولم ينسوا في ذلك العهد السعيد أن يتشاركوا في العيد الذى يرثونه عن آباءهم القراصة وهو عيد وقاء النيل ^(١) .

وأن الصورة التى خلفها لنا الفاطميون عن الأعياد في عصرهم لهى صورة الانسانية المثلى التى ترتفع فوق الاختلافات كلها ^(٢) على أنه مما يؤسف له أن كل ما هو انساني هو مؤقت مهما بلغ من المجد - فزالت دولة الفاطميين وحلت محلها الدولة الأيوبية .

١٦٩ - وفي فترة الهناء والاستقرار شغرت السدة المرقسية . وتلفت الأساقفة والأراخنة حولهم باحثين عن بجزر بهم انتخابه . ويبدو أن الهدوء النفسى الذى كانوا يستمتعون به كان قد تغفل في أحاسيسهم فاتفقوا برأى واحد على انتخاب شماس متبع لاسمه أبو المجد بن غالب . ولم يكن هذا الشماس متبحراً في العلوم الكنسية فحسب ، بل كان - إلى جانب ذلك - صالحاً تقياً يزدان معياء باهتمامه بطلاقة تكاد لا تفارق شفيعه وبصوت حنون وحديث هلب . كذلك كان ذا ثروة كبيرة إذ « كان في ابتداء أمره تاجراً يتردد على اليمن في البحر ... وكان معه لما استقر في البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء ... » ^(٣) .

وكان أيضاً يملك مصنعاً للسكر وطاحونة للفلال . ولكن ثروته لم تنسه انسانيته ولم تنسه وجوب العبادة وشكر الله تعالى ، فكان سخياً لا يرفض

(١) مختصر تاريخ ... ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر ... جنتون قبيت ص ٢٠٧ .

(٣) المخطط للمقرئ ج ٢ ص ٤٩٦-٤٩٧ . بينما يصفه كاتب تاريخ البطركية بقوله : « ... وكان كاملاً في دينه ودنياه وغير محتاج إلى شيء من أمور الدنيا يصدق صدقات كثيرة ومع اشتغاله بأمور الدنيا ما كان يغفل عن صلوات السواحن الليلية والتهارئة محباً ومجتهداً في ضيافة الغرباء والفتقاد المرضى والمحبوسين ويدفع الجوالى من الفقراء من أهله والمحتاجين من قومه . وكان كثير المودة لكل أحد ويفعل الخير مع كل أحد ... » - تاريخ بطركية الكنيسة المصرية لأسقف الأسمرين - المجلد الثالث ج ٢ - قام على نشره أنطون خاطر وأزودك بومستر ص ٩٩ .

لسائل طلباً ، يبحث عن الغريباء والمسجونين ليقدّم لهم ما يمكنه من مساعدة . وحين استقرت الأنظار على هذا الشماس التاجر المتبتل رأى الأساقفة والأراخنة استصحابه إلى الاسكندرية من غير تسويق حيث رسم البابا الرابع والسبعين للكرسى المرقسى باسم يؤنس السادس سنة ١١٨ م^(١).

١٧ - ولم يكد هذا البابا يتسلم مقاليد الرئاسة حتى بلغه أن مطران الحبشة قد انتقل إلى دار النعيم . ولما أخذ يفكر فى رسالة خليفة له وجد أن مطران فوه قد أصبح بلا ايبارشية لأن الفرقة كانوا قد أفتوا أهالى تلك المدينة عن بكرة أبيهم : فلم يبقوا فيها على نسمة واحدة سواء فى ذلك القبط أو المسلمين ، وأن المطران كان قد اضطر إلى الالتجاء إلى الدبر إذ لم يعد له شعب برهائه . فاستقر رأى الأنبا يؤنس السادس إذ ذاك على إرسال هذا المطران إلى البلاد الحبشية بدلاً من رسالة راهب هنا منه أن الاختبارات والسن ستجعل من المطران المكلوم راعياً مثالياً^(٢) فلما وصل المطران - كيلوس - إلى أكسوم تلقاه الشعب وامبراطوره بالترحاب . على أنه بما يؤسف له أن كيلوس هذا خيب آمال البابا الاسكندرى كما خيب آمال الأحباش . ويبدو أن المحنة التى جازها قد حولت قلبه إلى صخرة صماء بدلاً من أن ترهف مشاعره . فانصرف عن أمور الرعيه إلى الاستمتاع بملاذ الحياة وحدث أن ضاعت آنية ذهبية غالية من أوانى الكنيسة بأكسوم ، واتهم كيلوس حارس المخزن بسرقتها . فأمر بضربه حتى يعترف . فانهال خدامه على المتهم ضرباً ولكمأ إلى أن مات دون أن يتفوه بكلمة . فثار أهل القتييل وقاموا فى جمع غفير يريدون اقتحام المطرانية أخذاً بالثار . وارتاع كيلوس ففر إلى مصر . وحينما رآه الأنبا يؤنس السادس امتلأ ألماً ودهشة رسأله عما حدا به إلى ترك ايبارشيته . وخاف كيلوس أن يعترف بالحقيقة فتمتم بعذر أحسن البابا الاسكندرى بتفاهته . فأبقى فى الدار البابوية ويعدّ يرسل من قبله إلى الحبشة ليستعلم الحقيقة وبعد سنة من الزمان عاد الرسول البابوى ومعه عدد من كبار رجال البلاط وعلى رأسهم

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط ... ج ٢ ص ٤٤١ .

(٢) مما يجدر الإشارة إليه هنا أن القانون الكنسى يمنع نقل مطران من كرسى إلى آخر - إلا أن الأنبا يؤنس السادس رأى أن إرسال كيلوس إلى الحبشة لا يعتبر نقل بالمعنى الصحيح لكون المطران كان قد فقد ايبارشيته وكان هائشاً فى الدبر إذ ذاك . وعلى الرغم من ذلك فقد ثبت عدم صلاحية هذا النقل .

أبو اعتراف الامبراطور . وقد طلب هؤلاء الأقباش إلى الخليفة المرقسى أن يستدعى كيلوس ليشتكروا عليه فى مواجهته .

ولما استمع الأنبا يؤنس السادس إلى الشكوى . دعا مجعاً من الأساقفة ومن أراخنة الشعب وتناقش معهم فيما جرى واعترف كيلوس بأنه مذنب ، فعلاً . وعندها أصدر المجمع حكمه بتجريد من كل رتبة كهنوتيه مع السماح له بأن يعيش فى الدير راهباً بسيطاً . وبهذا الحكم شغرت الايبارشية الحبشية . فتفاوض البابا الاسكندرى مع مجعته عن انتخابه واستقر رأيهم على رسامة راهب اسمه اسحق من دير الأنبا أنطونى .

ورأى المطران الجديد أن العبء الذى وقع عليه ثقیل ، فهو لم يتسلم رعاية شعب حزين على راع ساهر ، متطلع إلى راع يخلفه - بل تسلم رعاية شعب حائق غاضب يجب استعادة ثقته وطمأنينته . فاستصحب معه عدداً من مهرة الصناع والفنانين القبط وحالما استقر به المقام انشغل هؤلاء القبط فى بناء الكنائس الجديدة وتجميل القديمة . وقضى أيامه فى تفقد أبنائه ولياليه فى السهر عليهم . فأحبوه حباً جماً وأخلصوا له الولاء . ومن نعمة الله أن الأنبا اسحق قضى أربعين سنة يرعى الشعب الحبشى دون أن يكل أو تفتقر له عزيمته ^(١) .

١٧١ - ثم نقض الفرنجة عهدهم واعتدوا على قافلة للحجاج فكانت هذه الحياثة فاتحة لسلسلة من المعارك دامت خمس سنوات طلب الفرنجة فى نهايتها الصلح وأبرموا مع صلاح الدين معاهدة فى الرملة (بفلسطين) مؤداها تسليم جميع الأراضى الواقعة غربى الأردن إلى أبهى أصحابها ما عدا شريط ضيق على الشاطئ ما بين صور وبافا . فظل صلاح الدين سيداً بلا منازع من جبال كردستان إلى صحراء ليبيا . وسارع ملك جورجيا وكاثوليكوس الأرمن وسلطان كونيا وامبراطور القسطنطينية نفسه إلى التحالف معه ^(٢) .

١٧٢ - ولم تكن مقدرة صلاح الدين الحربية بالميزة الوحيدة التى رفعت من قدره بين شعوب هذا الشرق العريق ، بل إنه كان أول من فكر

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لاين بول ص ٢٠٨-٢١١ .

في الحاق المدارس بالجوامع كما كان صاحب ذوق فنى . لأنه - حين دانت له فلسطين - أرسل مجموعة من الصناع والفنانين إلى القدس الشريف ليجددوا قبة الصخرة ^(١) بعد أن جددوها زخرفوها بالنقوش الديمة ثم لونوها باللون الفيروزى المصوه بماء الذهب . ولا يزال جمال هذه القبة يتنطق بدقة الفنانين المصريين وحسن ذوقهم الذى توارثوه عن أجدادهم الفراعنة واحتفظوا به فى أعماق نفوسهم يبرزونه كلما سنحت لهم الفرصة .

١٧٣ - ولم يكن تهديد قبة الصخرة بالخدمة الوحيدة التى أداها صلاح الدين للقدس . بل أنه أقام فيها مستشفى وجد فيه المرضى والجرحى من الأهلين والجنود العلاج مجاناً . وعندما زار هذه المدينة المقدسة شخصياً نزل فى دار القسوس المجاور لكنيسة القيامة . ثم رأى أن يعوض القبط عما أصابهم بعدما تبين له اخلاصهم لمنحهم المكان الذى أصبح معروفًا باسم « دير السلطان » نسبة إليه ^(٢) . وليس ذلك فحسب بل أنه رد إليهم كل

(١) يرى التقليد أن هذه الصخرة هى التى رفع إبراهيم ابنه اسحق فوقها - وبعد أجيال أصبحت ضمن هيكل سليمان . كما يرى أيضاً أن سمعان الشيخ الذى تلقى السيد المسيح على يديه فى الهيكل (لو ٢ : ٢٥ - ٣٥) كان يعيش فى المقبرة الواقعة تحت هذه الصخرة انتظاراً لحنى الفادى الذى تنبأ عنه أشعيا . بأنه سيولد من هناء (٧ : ١٤) .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص ٥٤٩ . مذكرة ملكية دير السلطان بالقدس للاكبات الارثوذكس أصدرها الأنبا ماكريوس مطران الكرسي الأورشليمى فى أغسطس سنة ١٩٥٣ وأهداها الأنبا باسيليوس خلفه بمذكرة أصدرها فى مارس سنة ١٩٦١ . وقد جاء على ص ١ من المذكرة الأولى ما نصه : يجدر بنا قبل استعراض الأسانيد التى تثبت ملكية القبط لدير السلطان من أن نتحرى أسباب هذه التسمية إذ لا نسبة بين « الدير » و « السلطان » إلا اذا كانت نسبة الهبة إلى الواهب . والهبة لا تأتى جزافاً بل لابد لها من حافز مثل نفع فى صلة كصلة القرى أو صلة التبعية . وما دام السلطان هنا هو الواهب فلا ريب إن الصلة كان أساسها التبعية أو الرعية « وجاء على ص ٢ ما نصه : ... وهل ننسى من حاربوا فى صفوف جيوش الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى يقول لنا التاريخ عنه أنه لما تم الصلح فى فلسطين عم السرور بين الفريقين ونادى المتأدون أن البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فى الأمن والمسالمة ... وتوجه الملك الى القدس لتفقد أحرارها . وأقام فيها مدة يقطع الناس ويعطيهم « استورا » ويتأهب للسير إلى مصر ... « راجع أيضاً ص ٧٥٥ من المجلد =

الأماكن التي كان الفرنجة قد سلبوها منهم . وكان مسلك صلاح الدين بإزائهم على هذا النحو ناجحاً عن أن عدداً غير قليل من القبط قد وافقه في حملته على الأراضي المقدسة : بعضهم بوصفهم كتبة والبعض الآخر عمالاً وفنانين ^(١) ولم يكتف بذلك بل إنه أعفى الحجاج من الضرائب و « راعى القبط والأقباش ونبهها في أماكنهما لأن القبط كانوا من رعاياه والأقباش من جيرانه » ^(٢) .

ثم حدث أن هاجر عدد كبير من الأرمن وتركوا ضمن ممتلكاتهم كنيسة لهم في القسطنطينية فأنعم بها صلاح الدين على فقيه دمشق . غير أن كاتبة صفي الدولة طلبها منه لقومه فأعطاهم لهم على يده ^(٣) .

وما يجدر ذكره أيضاً أن الفرنجة حينما استولوا على القدس رفضوا السماح للقبط وغيرهم من مسيحي الشرق بأن يسعدوا بزيارة الأماكن المقدسة . فلما استرجعها منهم صلاح الدين فتحها مرة أخرى لهم ^(٤) .

١٧٤ - وما يؤسف له جد الأسف أن الحروب التي اضطر صلاح الدين إلى خوضها سنة بعد سنة قد أثرت على صحته فانتقل إلى دار الخلود بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة . ومن حسن حظ المصريين أن المنصور محمد اتبع سياسة أبيه العزيز عثمان وجده صلاح الدين . بل لقد كان حبه للعدالة قوياً إلى حد أنه كان يعمل جهده على خرسها في قلب ابنه العادل الذي يبدو أنه تأثر إلى حد بعيد بالاسم الذي يحمله . فرأى أن يرفع عن المصريين

= العاشر من دائرة المعارف العثمانية للبيعتاني ، تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٧٨ . قصة الأقباط في الأرض المقدسة لدهيتري وزيق ص ١٢٢ - ٢٤٤ حيث أورد الوثائق والمخططات المتبادلة بين مطارنة الكنيسة القبطية للكرسي الأورشليمي وبين المسؤولين من رجال الدين ورجال الدولة - وكلها تزيد ملكية القبط لديار السلطان .

(١) « قصة الأقباط ... » ص ٢١

(٢) شرحه ص ٢٢ حيث يستشهد بكتاب « خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية لشعاده خوري وبقولا خوري ص ٧٨ - ٨٠ .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص ٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٤) تاريخ القدس لعارف باشا العارف ص ٧٨ - ٧٩ ، قصة الأقباط . ص ٢١ حيث يستشهد بأبي المكارم المؤرخ القبطي الذي كان آخر ما كتبه في سنة ١٢٠٨ .

كل ظلم ويفرح قلوبهم بالانصاف . ومن الطريف أن حسوداً أراد أن يوغر صدر العادل ضد القبط قادعى أمامه أن دير الأثنا مكارى الكبير يحوى كنوزاً ثمينه . وعندها صدر الأمر بانتداب بعض كتبة الديوان للذهاب إلى الدير المذكور والبحث عما فيه من كنوز . فلما قابل المندوبون رئيس الدير عرفوا منه أن الكنوز الموجودة فيه فعلاً هي أواني المذهب والملابس الكهنوتية فأخذوها بعد أن أكدوا لرئيس الدير أن العادل منصف للغاية . وحينما رأى الملك هذه الأشياء أمر بتقييمها وعرف أنها لا تساوى غير ثلاثة آلاف دينار . فأمر بتسليمها إلى الأثنا يؤنس السادس مع الاعتذار له وتوقيع العقاب على الحسود . وحينما حاول بعض دعاة السوء اقناع الملك العادل بمضاعفة الضرائب على القبط كما فعل غيره أجابهم : « إن كان غيرنا قد ظلم فلا داعى لأن نكون ظلمة » .

ومقابل هذه العدالة الفريضة التى ملأت قلوب القبط طمأنينة لمجد أن الفرنجة حينما فاجأوا المصريين بهجومهم على رشيد تقدموا إلى قوه وتحصنوا فيها . وكانت آنذاك أسقفية إذ كان عدد القبط فيها كبيراً . فأعملوا السيف فى الرقاب وقتلوا من قتلوا وسبوا من بقى حياً . ولم ينج من بطشهم إلا من استطاع الهرب . فلما وجد الأسقف نفسه وحيداً إذ لم يبق من شعبه صريخ ابن يرم واحد ذهب إلى البابا المرقسى وأعلمه بما حدث ^(١) (وهو المطران الذى أقيم على الحبشة كما سبق القول) .

ولم يكن بطش الفرنجة بالكارثة الوحيدة التى أصابت المصريين فى تلك الأيام بل لقد أصاب القحط بلادهم فحدث غلاء لم يسمع بمثله من قبل . فرأى عدد من الأقباط أن يهجروا مصر إلى الحبشة ووجدوا من ملكها كل ترحاب . ذلك لأن غالبيتهم كانت من أصحاب الصنائع فانتهاز الملك فرصة مجيئهم وشغلهم فى بناء الكنائس وغيرها من المبانى الضخمة . وقيل أن بين من هجروا رجل من أكابر قومه اسمه فخر الدولة . وجد من الملك ترحيباً خاصاً . ثم عهد إليه الملك بتنظيم مملكته وترتيب الدواوين بها وفقاً للنظام المعمول به فى مصر ^(٢) .

(١) الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية لوليم سلومان ص ١٦ .

(٢) تاريخ الامة القبطية لمعقوب نخلة ووقيلة ص ١٧٨ .

١٧٥ - على أنه لما كان الكمال لله وحده كان كل ما هو انساني يتضمن على الأقل ناحية من النقص . وفى هذا العصر حين سعد المصريون بالعدالة الشاملة أصاب القبط منهم خيبة أمل جارفة : ذلك أن المدين الخمس التي كان البابا الاسكندري يرسم لها مطرانا قد تحول أهلها جميعاً عن دين المسيح ^(١) . قامتلات نفس الأتيا يؤنس السادس حزناً على النفوس التي حشرت بينها وبين قاديتها هوة سحيقة . وقد مهد هذا الحزن للمرض الذي أضعف من قوته فلم يلبث أن انتقل إلى الأمجاد السماوية بعد باهارية دامت ستاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ^(٢) .

كذلك وقع حادث وإن يكن فردياً إلا أنه كان مؤلماً . ويخلص هذا الحادث في أن رجلاً ممن تولوا بعض مناصب الجيش استقال من منصبه رغبة منه في الرهبنة . فعرك العالم وتوحد في صحراء جهال حلوان . وأشييع أنه عثر على كنز من أيام الحاكم بأمر الله لأنه كان ينفق المال الكثير في معارضة الفقراء والهاربين والمستورين من القبط والمسلمين على السواء . فذاع صيته وكثر قاصدوه وبالطبع بلغ صيته مسامع السلطان صلاح الدين الذي رغب في رؤيته فجن به إليه . ولاطفه السلطان محاولاً أن يعرف حقيقة ما أشيع عن الكنز . إلا أن الرجل رفض أن يبيوح بسرره مما أغضب السلطان فشتته وتطاول عليه بالسب ، ولكن الرجل لم يزد إلا سكوتاً . وأشار بعض المحيطين بالسلطان بوجوب قتله خوفاً منهم على ضعف الايمان من المسلمين وتدعم غضب السلطان بهذا الاقتراح فأمر بتعذيب الرجل إلى أن مات ^(٣) .

١٧٦ - وإن سجلات القبط في القرون الوسطى - وإن تكن ضئيلة - إلا أن ما بقى منها يحوى الكثير من المعلومات الشيقة التي تفتح للباحث كوة ينفذ منها إلى رؤية بعض صور الحياة في تلك القرون . ومن هذه المعلومات أن سيدة اسمها ترقه عاصرت الأتيا يؤنس السادس ، وكانت واسعة الثراء فبنت كنيسة أطلقت عليها اسم أبا نوفر السائح . كذلك شيدت

(١) كنيسة الاسكندرية في أفريقيا لزاخر رياض - ص ٦٧ - ٧٠ .

(٢) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بديره ج ٢ ص ٤٤١ - ٤٤٤ .

(٣) أهل الذمة في الاسلام ترجمه إلى العربية دكتور حسن حبشى ص ٢٩ .

ديراً للراهبات أولفت عليه من الأَطيان ما يكفى للاتفاق عليه . ثم صرفت أموالاً طائلة فى نسخ عدد كبير من الكتب الكنسية وهيبتها للراهبات ، لربح نفوسهن فحافظت بذلك على التقليد المصرى الذى جعل من المرأة « حاملة الشعلة » لتضىء الطريق أمام جميع الباحثين عن الحق ^(١) .

١٧٧ - وتقف مرة أخرى لتأمل شخصية جبارة من تلك الشخصيات التى أنجبتها كنيسة العريقة . وهذه الشخصية - رغم اتجاها الروحى الفنى - هى أيضاً ضمن الجنود المجهولين الذين لا نعرف عنهم غير أعمالهم . فعلاً أنه يجدر بنا أن نطلق على كنيسة مصر اسم « كنيسة الجنود المجهولين » وهذا الجندى المجهول الذى نحن بصدده هو الألبا ميخائيل مطران دمياط فى القرن الثانى عشر . فقد كان هذا المطران يدرك أن الراعى الحق هو من يسهر على الرعية ، فلم يسهر على رعيته المعاصرة له فحسب بل سهر أيضاً على الأجيال الآتية من بعده . ذلك أنه كان فناناً كما كان مصرياً صميمياً . وحين تأمل أبنائه وجد أن الكثيرين منهم يجهلون القراءة والكتابة . فأراد أن يوصل لهم بشرى الخلاص باللغة التى يستطيعون قراءتها وهى لغة الفن . فرسم تسعين صورة للبشائر الأربع . والقول بأنها تسعون إنما هو وصف اجمالى فحسب لأن كل صورة من هذه الصور التى ابتدعها خيال الألبا ميخائيل هى مجموعة من المناظر الموضحة للعجيبة أو للمثل أو للحادثة . وذلك لكى يدرك كل من يراها تسلسل الوقائع الواردة فيها بالضبط . فمثلاً حينما أراد أن يوضح مجريات الأمور التى أدت إلى أن يقتل هيرودوس الملك أطفال بيت لحم رسم فى ركن من الصفحة صور للمجوس سائرين خلف النجم الهادى تليها صورتهم وهم واقفون فى القاعة الملكية وقد جلس هيرودوس على العرش بينما انشغل الكهنة والشيوخ فى قراءة النبوات التى تشير إلى مولد الملك المنتظر ، أما الصورة الثالثة فتبين هيرودوس وهو يعطى تعليماته للمجوس ، تتبعها صورة المجوس على الطريق خلف النجم مرة أخرى ، ثم وصولهم بيت لحم وتقديمهم الهدايا ، فعودتهم من طريق آخر ، وفى آخر هذه السلسلة من المناظر صورة جند هيرودوس يخطفون الأطفال من أمهاتهم ويقتلونهم ، ثم مجموعة من أولئك الأمهات الشكالى يهكين ويتساندن إلى شجرة باسقة بينما حمل الجنود

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص ص ٥٤١ .

جثث أطفالهم في مقاطف ليوصلوها إلى هيرودوس. وهذه المجموعة من الصور مرسومة على الطريقة الفرعونية . أي أنها في صف واحد من غير فاصل بين الواحدة والأخرى كما أنها على مستوى واحد من غير مسطحات مختلفة ، بل إن الأشخاص جميعاً واقفون جنباً إلى جنب . ولولا أن هذه الصور مسيحية لظن من يراها أنها من العصر الفرعوني . وهذا الطراز المصرى الصميم لا يتناول التصوير فحسب بل يشمل التلوين أيضاً . وهذه الصور تجتلب القلب قبل أن ترضى العين لبساطتها ودقة تعبيرها . وهي تتخلل سطور البشائر الأربع المكتوبة باللغة القبطية . وقد قضى الآثاء ميخائيل سنتين في اتمام هذه الصور التسعين لأن المخطوط الذى يشتمل عليها يعمل في آخره تاريخ سنة ١١٧٩ - ١١٨١ .

ويعد هذا المخطوط من أعظم المخطوطات أهمية لنسرة البشائر المصورة في كل العالم ، ولأنه يوضح كيف أن مطراناً قبطياً في القرن الثانى عشر ظل محتفظاً في أعماق عقله الباطن بالروح الفرعونية الفنية .

على أنه من المؤلم أن المستعمرين والغزاة كانوا يسطرون على تراثنا الروحى كلما ساحت لهم الفرصة . وهذا المخطوط ضمن مخلفاتنا العظمى المحفوظة الآن بالمكتبة الأهلية بهاريس تحت رقم « مخطوط قبطى ١٣ » ومن الشائع أن الملك لويس التاسع أخذه خلسة حين عاد إلى وطنه بعد أن فشل في حملته الصليبية التى وقع فيها أسيراً في أيدي المصريين سنة ١٢٥٠ م .

كذلك ترك لنا الآثاء ميخائيل عدداً من المواعظ والتفاسير للكتاب المقدس ولا تزال الرسائل التى تبادلها وأباً صالح الأرمنى ^(١) باقية للآن - وتتعلق بشخص لابد أنه كان ذا حيوية يتذبذب بين الأرثوذكسية وبين المناصرين للمجمع الخلقيدونى .

(١) عشر المنقهن منذ سنوات على مخطوطة ضاعت ورقاتها الأولى ، عليها اسم « أبى صالح الارمنى » ، فطنوه مؤلف المخطوطة ولكن علماء الآثار يرجعون أنه لم يكن سوى صاحب المخطوطة ، وأن المؤلف الحقيقى هو أبى المكارم المؤرخ القبطى الذى عاش في القرن الثانى عشر أيضاً .

ورقم هذه المخطفات التي تركها لنا هذا الفنان الذي حظى بمكرامة الأسقفية قاننا نجهل سيرته : فلا توجد اشارة إلى تاريخ ميلاده ولا أين ترهب ولا متى نال الأسقفية « فهو جدير حقاً بالكنيسة التي خدمها »^(١).

١٧٨ - ومرة أخرى نجد الحيرة تستولى علينا . فهناك كاتب ذا نزعة فكاهية اسمه الأسعد بن محامى عاش فى عهد صلاح الدين وكانت له مكانة ممتازة جعلته منافساً لقراقوش وزير هذا الملك الكبير . وقد يدهش البعض من أن قراقوش كان وزيراً بالفعل لأن الكثيرين يتصورون أنه من الشخصيات التي ابتكرها الخيال المصرى . ولكنه كان وزيراً أضفى عليه الخيال العدد الوفير من النوادر والفكاهات . ومن أبرز الذين ساعدوا على نشر هذه النوادر كاتب جيش صلاح الدين واسمه الأسعد بن محامى الذى وضع عنه كتاباً بعنوان « الفاشوش فى حكم قراقوش »^(٢) وقد نال الأسعد بن محامى حظوة لدى السلطان إلى حد أنه منحه رئاسة بيت المال بالاضافة إلى وظيفته الأصلية وهي كاتب الجيش^(٣) .

وهناك رجل آخر سبق كلا من الأسعد وذكرها فى حمل لقب « ماماتى » وعاش فى عصر الخليفة المستعلى . فهل هناك الرجلان من سلالته أم أنه مجرد تشابه فى الأسماء ؟ هل أن هناك فرقاً بسيطاً فى هذا التشابه وهو أن الأول نال لقب « ماماتى »^(٤) لأعماله . وهذان لقبهما . « ابن محامى » هل أية حال لقد أدى كل منهم واجبه نحو الوطن .



(١) ذكر رينودو (الفرنسى) الأتيا ميخائيل هذا وتحدث عن تصويره للبشائر الاربع بهذه الكلمات .

(٢) يصف دكتور عبد العزيز مرزوق هذا الكتاب بكلمة « لطيف » فى كتابه « الفن الاسلامى فى العصر الأيوبي » .

(٣) رينودو ص ٣٦ - ٣٧ .

(٤) وردت سيرته فى نهاية سيرة الأتيا مكارى الأول البابا الاسكندرى التاسع والخمسين بين أراخنة ذلك العصر .

ضيف منصف

١٧٩ - كانت مصر على مر العصور محط الأنظار : فكما جاءها
هيرودوت وغيره في العصور القديمة جاءها ضيوف كثيرون في العصور
الوسطى . ومن أبرز الذين جاءوها في هذه الفترة الطبيب العالم الرحالة
موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الذي ترك لنا وصفاً مسهباً لبلادنا كما
شاهدها حوالي سنة ١٢٠٠م في كتابه « الافادة والاعتبار في الأمور
المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » . وما جاء في هذا الكتاب أن
المصريين « يحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الديار والقناة باقية ،
ويحفرون الكتف ... وأما حماماتهم فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وصفاً
ولا أتم حكماً ولا أحسن منظراً وصغيراً ... يصب فيها ميزابان حار وبارد
وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطا فيه جرى منه
إلى الحوض الكبير ... وفي وسطه (الحمام) بركة مرخمة وعليها أعمدة
وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مزخرف الجدران مبيضها ، مرخم
الأرض بأصناف الرخام مجزج باختلاف ألوانه ، وترخم الداخل يكون أبداً
أحسن من ترخم الخارج ، وهر مع ذلك كثير الضياء مرتفع الأزاج ، جاماته
مختلفة الألوان ضافية الأصباغ ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج
منه ... » ومن طريف ما نقرأ في هذا الكتاب وصف البغدادي لأهم
الأطعمة فقال إن القاهريين يطبخون الدجاج بالسكر ويضيفون إليه الفستق
أو الجوز أو الخشخاش ويسمونه الفستقية أو الجوزية أو الخشخاشية . أما
الحلوى فكثيرة ولهم مهارة في صناعة المربى ^(١) .

وهكذا نجد أن عدداً كبيراً من الضيوف الذين آتوا إلى أبناء مصر قد
شهدوا بمهارتهم ويتقدمهم في مختلف الصناعات .



(١) راجع تفصيلات هذا الوصف في كتاب « القاهرة ... » للدكتور عبد الرحمن زكي
ص ٨٨ - ٩٢ .

مياه معكرة

- ١٨٠ - الانسان والطبيعة مصدر فزع
للمصريين .
- ١٨١ - الحرب الصليبية الصليبية .
- ١٨٢ - أهمية مصر .
- ١٨٣ - سقوط دمياط ونهاية الملك العادل
- ١٨٤ - غرور الفرنجة .
- ١٨٥ - نصر مبین لابناء الفيل .
- ١٨٦ - خلو الكرسي المرقسي عشرين عاماً
- ١٨٧ - استتباب السلام وانتخاب البابا
المرقسي .
- ١٨٨ - رسالة اساقفة ممتازين .
- ١٨٩ - المحافظة على مودة الكنيسة
الانطاكية .
- ١٩٠ - زيارة بزية شيهيت .
- ١٩١ - السمونية .
- ١٩٢ - عنابة البابا الاسكندري بالحشمة
- ١٩٣ - وباء بئله المقيمين في دمشق .
- ١٩٤ - رسالة مطران الكرسي
للاورشليمي .
- ١٩٥ - عقد المجمع المقدس في القاعة .
- ١٩٦ - حرص الملك الكامل على سلامة
شعبه .
- ١٩٧ - عزلة المطارنة .
- ١٩٨ - حرص الانبا كيرلس على
تعاليم الكنيسة .
- ١٩٩ - مطران غزة .
- ٢٠٠ - كتابة الانبا كيرلس الثالث صورة
لعصره .
- ٢٠١ - قيس الحياة بما فيها من جهد .

١٨٠ - حينما انتقل الانبا يؤنس السادس إلى مساكن النور كانت مصر على رأس الامبراطورية المثرامية الأطراف التي أحرزها البطل صلاح الدين ، وكانت عشرينته منفردة بالحكم إذ قد سقط هذا العاهل النزيه في خطأ أوردى في النهاية بأسرته . وهذا الخطأ هو أنه أقام من أولاده وإخوته وأبناء أعمامه حكماً على جميع بلاد هذه الامبراطورية الشاسعة التي استطاع أن يخضعها لسلطانه والتي امتدت من ليبيا إلى بلا العرب . وقد اعترفت جميع هذه البلاد بزعامة مصر ولو أن الزعامة ليست درعاً واقياً ضد المحن والأهوال . فقد جاء الفيضان ناقصاً فنقص المحصول ، وأعقبه فيضان شحيح فانتشرت المجاعة . وكان الطبيب الكبير عهد اللطيف البغدادي في مصر آنذاك ليستمع إلى بعض المحاضرات في الأزهر ، فوصف الأهوال التي شاهدها وصفاً دقيقاً وأوضح كيف أن آلام الجوع والمرض تضاعفت بما أحدثه الأشرار من ذعر واضطراب وكان قسوة الإنسان على أخيه الإنسان لم تكن بكافية فجاءت الصقور والضباع وبنات آوى لتحمل كيل

الأوجاع والمخاوف . وانضمت الأرض نفسها إلى القوى المدمرة المفزعة فتزلزلت زلزلاً أسقط العدد العديد من الهيوت إلى حد أنه دك مدناً بأكملها وازداد الاضطراب إذ بدأ رجال الدولة الأيوبية يتشاجرون على حق الأولوية . على أنه كان بينهم رجل ثاقب البصيرة هو العادل آخر صلاح الدين الذى بذل قصارى جهده فى توحيد الصفوف وجمع الكلمة خوفاً من أن يخرق الفرنجة الهدنة . وبالفعل خرقوها ظناً منهم أنهم قد يصلون إلى هدفهم ، ولكنهم لم يحرزوا أى نصر فمقدوا الهدنة من جديد . وكان العادل سياسياً محتكاً بالفطرة يفضل المفاوضات على القتال فعطى بحليف قوى بأن منح الهندقيين حق التجارة فى الاسكندرية وتسيير سفنهم فى النيل .

١٨١ - وفى سنة ١٢١٢م قرع ابن رنسيوس الثالث (الأسقف الرومانى) طبول الحرب مرة أخرى . على أن رجع صداها لم يكن سوى حملة هزيلة تعرف فى التاريخ باسم « حملة الصبية » لم تكن لها من نتيجة غير ازدهام مصر بالأسرى من الفتيان . وقد استشارت هذه الحملة الناعسة الغضب فهب عدد من الأشراف إلى الميدان وقاموا بمعارك ثلاث فشلت جميعها : أولاها كانت ضد مدينة بيسان بالأردن ، وثانيها ضد الحصن الذى أقامه السلطان العادل فوق جبل طابور ، وثالثتها ضد بوفور . وراقب السلطان العادل هذه المعارك عن كثب ولكنه لم ينزل إلى الميدان .

١٨٢ - وبينما كان الصليبيون يقومون بهذه المحاولات الفاشلة أدركوا حقيقة عظيمة : هى أنهم إن أرادوا النصر فعليهم أن يضرخوا القلب - وأن قلب هذا الشرق هو مصر ، فلو أنهم نجحوا فى اخضاع مصر لسلطانهم لاستطاعوا أن يسيطروا على فلسطين من جديد ولامتد نفوذهم منها إلى جيرانها . فرطدوا العزم على مهاجمتها وقذفوا بقواتهم على دمياط سنة ١٢١٨ م^(١) . وكان هذا الميناء المصرى محاطاً بسور منيع وقلعة منيعة - ومركزه الجغرافى الطبيعى إذ أنه يقع على لسان وسط المياه . وكان الكامل يشارك أباه العادل والسلطنة فاتخذ مكانه على الضفة الشرقية للنيل، بينما

(١) يؤكد هذه الحقيقة جميع من أروخوا للحملات الصليبية فقد جاء فى كتاب « ليرس التاسع فى الشرق الأوسط » لجوزيف نعيم يوسف ص ٢٤ ما نصه : « ساء الاعتقاد بين أهل الغرب أنه لا يمكن امتلاك بيت المقدس والمحافظة على كيان اللاتين بالشرق العربى إلا بالاستيلاء على مصر زعيمة العالم الاسلامى ومركز أمماده ومقله المنيع » .

ورابط الفرنجية على الضفة الغربية - وأعاد التاريخ نفسه إذ ربهضت القوتان المتنازعتان على ضفتي النهر الخالد : تهنى كل منهما الظفر بأرض الفراعنة وانتصر المصريون في بادئ الأمر . ولكن الامدادات المتعاقبة التي ظلت تتوالى على جيش الفرنجية أدت في النهاية إلى سقوط دمياط في أيدي الغزاة .

١٨٣ - وكان سقوط هذا الميناء ضربة قاصمة كسرت قلب الملك العادل فمات حزناً وكماً . وكان قد عرف معنى المجد ، وقضى خسين عاماً في جهاد مستمر : نصفها مع أخيه العظيم صلاح الدين والنصف الثاني بعد أن اعتلى عرش مصر . وقد منحه الله تحقيق معظم أحلامه إذ دانت له امبراطورية أخيه (ماعدا شمال سوريا) . وكانت هتته عالية وشخصيته جذابة فتفتى به الشاعر بهاء الدين زهير . ولما انتقل إلى رحمة مولاه ترك عبء القتال لابنه الكامل الذي ورث عنه مقدرة الحربية ولباقته السياسية .

وفي الفترة التي استولى الصليبيون أثناءها على دمياط لم يسيئوا إلى القبط وبتكروا عليهم حرقهم فحسب بل زادوا على ذلك بأن عيتوا أيضاً مطراناً من رجال كنيسة رومية اللاتينية الغربية عن مصر جنساً وعقيدة . كذلك استباحوا خطف الأطفال من أحضان أمهاتهم ، كما استباحوا القتل بغير مراعاة للجنس أو السن : قالشيوخ كالشبان والنساء كالرجال - من سقط منهم في أيدي هؤلاء المتعجلين الصليب لقي حتفه . ولهذا كله يقول دكتور عبد العزيز مرزوق : « إتنا كنا في حرب ضد الصليبيين أو بهارة أوضع ضد مسيحي أوروبا الذين اتخلوا الصليب شعاراً لهم والدين المسيحي ستاراً استتروا به في اندفاعهم إلى الشرق لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين . في هذه الحرب التي كان ظاهرها الدين وباطنها الدنيا والرغبة في السيطرة لم يتحرك من أجلها الأقباط في مصر ^(١) .

١٨٤ - ولما تسلم الكامل مقاليد الحكم ، بدأ الفريقان يعززان مراكزهما

(١) في كتابه « الناصر محمد بن قلاوون » ص ١٣ - راجع أيضاً « الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ١٥ - ١٦ ، السنكسار الأنثوي ... ترجمة واليس بودج ج ٢ ص ٥١٥ - ٥١٦ .

ويزودان جيوشهما بالامدادات العديدة . وبدا كأن جيوش الفرنجة عرمرما من الصعب القضاء عليها إلى حد أن الكامل بدأ يفاوضهم في الصلح وعرض عليهم أن يعطيهم مملكة القدس ثمناً لمفادرة دمياط . وامتلأ الفرنجة غروراً وخيلاً لهذا العرض ، وازدادوا تيبهاً لشعورهم بأنهم سادة البحر وأن في مقدورهم مضاعفة عددهم وعتادهم . فتوهموا - بهذا التيه - أنهم أصبحوا سادة هذا البلد العريق بالفعل . ودفع بهم هذا الغرور إلى رفض شروط الكامل . وعندما لم يجد أمامه من سبيل غير القتال ، وكان لسان حاله يقول : « إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً » . واتخذ لفرور خطتين حاسمتين : أولاً هدم الحصون المحيطة بأورشليم وغيرها من مدن فلسطين كي لا يتحصن الفرنجة خلفها ، وثانيتهما إقامة المتاريس حول قرية جنوى دمياط لم تلبث أن أصبحت مدينة ذات شأن عظيم هي مدينة المتصورة .

١٨٥ - وقد تهيأت الفرصة أمام الكامل لتنفيذ خطته لأن الفرنجة بدأوا يتشاجرون ويتناصرون كل فريق منهم رئيساً مختلفاً . ولما وجدهم الملك الأيوبي لا يزالون في محزباتهم وانقساماتهم بعث برسلكه إلى أقاربه الحكام في مختلف البلاد ليهيب بهم أن يتعاونوا جميعاً ويضربوا الصفوف في وجه الخصم المشترك . وقد استجابوا بالاجماع لندائهم وسارعوا إلى تدعيم الجيش المصري بجيوشهم . وكان المصريون يقاتلون فوق أرضهم المحيية ومن أجلها ، وكانوا يعرفون طبيعة هذه الأرض التي عاش فيها أجدادهم منذ عصور سحيقة في القدم ضاع التاريخ في متاهاتها . وكان النيل قد بدأ في الارتفاع . ففتحوا الجسور والسدود ، وهياروا الفرصة لنهرهم الخالد للاشتراك معهم في الدفاع عن واديه . فلما انتبه الفرنجة من مشاجراتهم وجدوا أنفسهم محاطين بأراض قد غمرتها المياه ويخضم ساهر خلفها . ولكنهم كانوا قد رفضوا الصلح في صلف فلم يبق أمامهم غير القتال . فلما بدأوا المعركة انتفض عليهم المصريون من كل ركن وكل زاوية . ودارت الدائرة على الفرنجة الذين أدركوا بعد مضي يومين فقط على الحرب أنهم هالكون لا محالة فجاء دورهم للمطالبة بالصلح . ومع أن الكامل كان سيد الموقف فقد رأى أن التسامح خير من التشدد ، وأنه إن تعنت مع خصومه فقد يعاودون القتال للثأر . فلم يشترط عليهم غير الاجلاء التام عن مصر وتسليم دمياط لأهلها

والعهد باحترام السلام مدة ثمانى سنين . وفى أسبوع نفذ الفرنجة مطالب الكامل ورحلوا عن مصر . وتبخرت أحلامهم كالفقاع . وكالزبد الطافى على سطح المياه الذى لا تلبث الأمواج أن تبتلعها . وانتهى الصراع هذه المرة ببقاء النيل فى أيدي أبنائه (١) .

وهذه النهاية أبهجت القبط . « ولما رأى الملك الكامل منهم ذلك ركن إليهم وقرى بهم ورفع مقامهم وعمل على ما فيه راحتهم . يدل على ذلك أن بعض الأمراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم مبالغاً من المال بحجة أنهم تأخروا فى دفع الجزية السنوية . وكان هذا المبلغ هو كل ما يملكه الرهبان فشكره للملك الكامل فنظر فى دعواهم وأمر بإرجاع المال إليهم (٢) .

١٨٦ - وبينما كانت كل هذه العوامل تتصارع لتفوز بالسيطرة على وادى النيل الرحيب كان القبط فى هم وألم . بل أن وجههم كان أضعاف وجمع مواطنيهم إذ لم يكن مجرد التوجع لما يحيق به بلادهم من خطر داهم بل امتلأت نفوسهم حسرة فوق ذلك لأن المعتدين الفاشقين كانوا يحملون على صدورهم وعلى بيارقهم شارة الصليب زوراً وبهتاناً . واستعدت بهم الهواجس إلى حد نسوا معه أن يجتمعوا للتشاور فى أمر انتخاب الخليفة المرقسى . وانصرفوا إلى الصوم ليتشارك الأب الساموى ببلادهم سريعاً ويرفع الغمة عن قلوبهم . وهكذا ظل الكرسى المرقسى شاغراً زهاء عشرين عاماً .

وكان الأتيا يؤنس السادس قد تنبأ قبل نباحته بأن أوجاعاً وضيقاً كثيرة ستحل بالبلاد وبالكنيسة « حتى يقيم لكم المسيح رجلاً يأتى به من حيث لا تعرفون وتكون أيامه هادية وروح الله تكون فيه » (٣) .

وكان الملك الكامل بعد أن اطمأن إلى نتيجة المعارك قد خرج ذات يوم للصيد فمهر القرعة عند ابيار ورأى هناك صومعة مهيى وعندها وقف

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستائلى لاين بولد ص ٢١٧ - ٢٢٤ .

(٢) الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية لوليم سليمان ص ١٦ .

(٣) تاريخ بطاركة ... لسابروس بن المقفع أسقف الأشمونين - المجلد الثالث - الجزء الثانى - قام على نشره وترجمته أنطون خاطر وأرولد بورمستر على نفقة جمعية الآثار القبطية ص ١٢٢ .

ونادى على رجل الله وشكا إليه من وجع فى فؤاده . فحلى الجهمس على زيت وأعطاه له قاتلاً « ادهن به موضع الوجع والله هو الشافى » . فلما أطاع زال وجعه لساعته فقدم له منحة وأصبحت له مكانة فى نفسه .

١٨٧ - وكان فى ديوان الملك الكامل قبطى يلقب بـ **ابن المقياط** كما كان لديه قبطى آخر اسمه **الأسعد بن صدقة** جعله ضامناً لدار التفاح . فلما استتب السلام وبدأ المصريون جميعاً يتنعمون بحرية والهدوء النفسى أدرك القبط القبط أنهم عاشوا سنوات كثيرة من غير راع مسئول عن رئاسة الكنيسة مديراً لأمرها . على أنهم رغم طول المدة التى شغل فيها الكرسي المرقسى اختلفوا فيما بينهم ممن ينتخبون فزكى ابن المقياط الراهب داود بن لقلق وأيده بنفذه فى الديوان السلطانى بينما رأى الأسعد بن صدقة أن حيس ابهار أولى بهذه الكرامة العظيمة . وكان الملك الكامل من مريدى الجهمس إلا أن ابن المقياط أفهمه بأن رجل الله لا يريد من وحدته بديلاً . ولما كان هذا الملك لا يميل إلى فرض سيطرته فى هذه الأمور اقتنع بكلام كاتبه وترك الأمر للقبط ^(١) . وهكذا انتهى الاختلاف إلى التركيز على داود بن لقلق وبخاصة لأن السنوات الطويلة أدت إلى أن يصبح عدد من الابرشيات بغير أساقفة يسوسونها . فقرر المسئولون الإسراع فى انتخاب البابا تعويضاً للوقت ولكى يرسم الأساقفة اللازمين للكنيسة حرصاً على الخلافة الرسولية التى تسلمها الآباء عن مرقس البشير وصروناً للشعب المحتاج إلى الرعاية ليرشدوه ويكونوا مفزعة له ساعة المخاوف والشدائد . وبدأوا يتشاورون فى الموضوع فاقترح بعضهم الراهب داود بن لقلق المترهب بدير القديس بقطر خارج مدينة القيوم والمعروف بسعيه وراء المعرفة وبتفتيشه الكتب بلا فتور . وقد صادف اقتراحهم قبولا ومن ثم ساروا به إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم الروحية التى رفعتها إلى الكرسي المرقسى باسم كيرلس الثالث وجعلت منه البابا الخامس والسبعين فى سلسلة خلفاء كاروز الديار المصرية فى الثانى والعشرين من شهر يؤونه المبارك سنة ٩٤٢ ش (١٦ يونيو سنة ١٢٢٦ م) .

(١) شرحه ص ١٢٣ - ١٢٥ . تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزير سوريال عطية ص ١٩٥ .

وما أن تمت رسامته حتى ذهب لزيارة دير نهيا . وبعد هذه الزيارة قصد إلى قصر الشمع (بمصر العتيقة) فألف له شعبه موكباً فخماً تقدمه الكهنة والشمامسة في صفوف منتظمة : كل صف يتألف من خمسين شخصاً وهم يتروغون بالمدايح والتسابيح . وقد سار معهم نائب والى مصر وسار أمامهم جميعاً حاملو الطبول والأبواق - حتى إذا ما أشرفوا على القاهرة دقوا طبولهم ونفخوا أبواقهم ايلاناً باقتراب الموكب من القاهرة . وما زاد الموكب رونقاً الشموع الموقدة والصلبان المرفوعة على عيدان والأناجيل الملفوفة في الأبروسفاريئات المحمولة على أيدي الكهنة . وهكذا شارك الوالى الشعب القبطى فى احتفائه بالهايا الجديد .

١٨٨ - وكان من الطبيعى أن يستهل الأنبا كيرلس الثالث باهاويته برسامة أساقفة للكراسى الشاغرة ، وقد تخير إذ ذاك المحتازين من الرهبان لهذه الكرامة التى هى خدمة فى أسمى معانيها . وأبرز هؤلاء الآباء الأنبا بولس البوشى أسقف باهلون ، الأنبا خريستودولس أسقف دمياط ، الأنبا يوساب أسقف فوه وكاتب سير باهاوات الاسكندرية ، الأنبا يونس أسقف سمند المعروف بالكبير .

١٨٩ - ثم رأى أن يحافظ على صلوات المودة التى استمرت على مدى الأجيال بين كنيسة والكنيسة الأنطاكية ، فبعث لبطريركها مار أغناطيوس برسالة الشركة - حياً فيها ثم أعلن له عن اغتباطه بوحده الإيمان التى ترتبط بين الكنيستين وعن رغبته فى دوام هذه الوحدة . ثم قال لذلك رأيت أن أستعرض معك الإيمان الذى تتمسك به كنيسة الاسكندرية وأعرف منك إن كانت كنيسة أنطاكية تقره . أما الإيمان الذى تسلمناه من الآباء فهو الذى أعلنه مجمع نيقية المسكونى الأول البالغ هدد آباءه ثلاثمائة وثمانية عشر والذى صادق عليه آباء مجمع القسطنطينية المئة والخمسون المؤلفون للمجمع المسكونى الثانى وآباء مجمع أفسس المائتان وعلى رأسهم كيرلس الكبير فيلسوف المسيحية الذى رأس المجمع المسكونى الثالث . وهذا الإيمان بعينه هو الإيمان الذى جهر به بطل الأرثوذكسية الأنبا ديسقورس فى مجمع خلقيدون اللاتينى اليونانى وبهنا أن نذكر لكم أن سلفكم العظيم البطريرك ساويرس قد جهر بهذا الإيمان بعينه ، وتحمل الثفى فى سبيله ، وقد علمنا هؤلاء الآباء أن الله واحد (وحدانية الله) فى أقانيم

ثلاثة ، وأنه - تعالى - خلق الهبة بحكمته وهو الذى يدير شئوننا وقد منحنا تمام الحرية لأنه لا يستبد بنا . ونحن نتمسك بهذا الإيمان ونلقته أولادنا مقطعين إياهم فى جرن المعمودية ثلاثاً باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد . ونجد إشارة لوحدة الله المثلث الأقانيم فى الأصحاح الأول من سفر التكوين حيث يقول « لنصنع الانسان على صورتنا كشبهنا »^(١) وهذه الآية وردت فى أثرها الآية القائلة : « هوذا الانسان قد صار كواحد منا »^(٢) . وفى الآيتين نجد ضمير المتكلم فى صيغة الجمع . بينما يوجه ابراهيم الحديث إلى الثلاثة الذين قابلهم عند بلوطة عمراً بقوله : « ياسيدى إن كنت قد رجعت نعمة فى عينيك »^(٣) . مخاطباً الثلاثة بصيغة المفرد . وهناك أمثلة عديدة وردت فى أسفار العهد القديم تشير إلى وحدة الثالوث ولكننا نكتفى بما أوردنا . أما العهد الجديد فلا يشير فحسب إلى حقيقة الله الواحد المثلث الأقانيم ولكنه يعلنها صراحة . فعينما اعتمد المخلص من يوحنا المعمدان^(٤) وكان صاعداً من الماء ظهر الروح القدس فى شكل حمامة ورن صوت الآب من السماء قائلاً : « هذا هو ابنى الحبيب » وهذه هى التعاليم التى تسلمها آباؤنا من رب المجد وسلموها إلينا بدورهم . لذلك يجب علينا أن نتمسك بها ونلذذ عنها . ومنها نعرف أن الله الآب قد أرسل ابنه الوحيد ليخلص به بنى آدم ، كما اثبتت منه الروح القدس الناطق فى الأنبياء والمعلم للرسل والتلاميذ مذكراً إياهم بكل ما قاله لهم المخلص^(٥) . وهذا الإيمان بثالوث الأقانيم ووحدة الجوهر المقترن بما تؤمن به من تجسد الكلمة وانبثاق الروح القدس من الآب هو الذى به نتمسك هاتفين مع الألبا ألكسندروس (البابا الاسكندرى الـ ١٩) : يا لعنق السر الذى يفوق الادراك البشرى ، الذى يقف أمامه الملائكة مهتوتين ويرتعد من عظمتة الشياطين ، وتزلزل من رهبته الأرض . هذا السر العجيب هو أن القاضى حركم وظل صامتاً ، والقدير قبض عليه ولم يبد حراكاً ، ورب الحياة ذاق الموت ودفن ليلاً الموت بموته ويقوم الموتى معه ، واليهولى اتخذ جسداً وتحمل فى جسده هذا صنوف العذاب فى صمت دون أن يجازى معذبيه ، وغير المرئى أصبح مرئياً على هذه الأرض . هذا السر العظيم

(٣) تكم ١٨ : ٣ .

(٢) تكم ٣ : ٢٢ .

(١) تكم ١ : ٢٦ .

(٥) يو ١٤ : ٢٦ .

(٤) لو ٣ : ٢٣ .

هو التجسد الإلهي الذي به بدأ رب المجد في صورة العبد ، فهو إذن إله متأنس جمع بين اللاهوت والناسوت بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . لذلك نؤمن بأنه إله حق من إله حق ، وأنه نور من نور ، وهو الابن الأزلي خالق كل الأشياء وصانع العجائب ، وهو في الوقت عينه قد ولد من السيدة العذراء وغا تدريجياً ، وعرف معنى الجوع والشبع والراحة والتعب . وهذه هي التعاليم التي تمسك بها ونعيش بمقتضاها ونصل عن طريقها إلى عرش النعمة ... » .

« واثنا ندعو الله أن يسعدنا بصلواتكم ، ونعرفكم أن عيون أبنائنا متشوقة إلى قراة ردكم وقلوبهم متعطشة إلى معرفة ما سيتضمنه . ونرفع جميعاً المجد والتسبيح لإلهنا - الآب والابن والروح القدس - من الآن وإلى الأبد آمين » ^(١) .

وقد حمل هذه الرسالة البابوية إلى أنطاكية نفر من أساقفة الكرازة المرقسية . فقولوا بكل مظاهر المودة والاحكام . وقد أبدى مار أغناطيوس فرحه لاستلام رسالة الشركة بأن جعلها تقرأ في جميع الكنائس الخاضعة لكرسيه الرسولي . ثم بعث برده مهنئاً فيه أن الكنيسة الأنطاكية تمسك بالإيمان عينه وتعيش بمقتضاه فتهللت قلوب المصريين والأنطاكيين لدرام الألفة التي يدعمها الإيمان المشترك ^(٢) .

١٩ - ثم ذهب الأنبا كيرلس الثالث بعد ذلك إلى برية شيهيت للتعبرك بزيارة دير الأنبا مكارى الكبير عملاً بالتقليد الذي سار عليه أسلافه . وقد قام هناك برسامة عدد من الكهنة والشمامسة . ثم غادر دير هذا القديس الجليل وقضى يومين في كل من أديرة هذه المنطقة المقدسة عاد بعدها إلى القاهرة .

١٩١ - ومن المؤلم أن هذا البابا الضليع في العلوم والقوانين الكنسية

(١) مجلة صهيون عدد ٦ سنة ١٩٤٩ (يونيو) ص ١٦٢ - ١٧٦ نقلًا عن مكاتبات كيرلس بن لقلق - مخطوط رقم ٢٩١ لاهوت محفوظ بمكتبة الدار البطريركية بالقاهرة ص ٤٨ - ٦٠ .

(٢) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامل صالح نخلة وطبعه مطبعة دير السيدة العذراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥١ ص ٢٣ .

قد تناسى فجأة ما يحتمه عليه هذا التبحر وما تقتضيه الكرامة الكهنوتية العليا من وجوب المحافظة على الوديعة التي ائتمن عليها . فاندفع في رسامة الأساقفة وغيرهم من رجال الكهنوت بالسيمونية بدلاً من اختيارهم لفضلهم وصلاتهم . وامتلات القلوب دهشة وأسى ولكن الأكسنة ظلت صامته أملاً في أن يكون الصمت أبلغ من الكلام فيرجع الأنبا كيرلس الثالث عن هذا التصرف الخاطئ . ولكن الصمت لم يجد نفعاً إذا استمر هذا الهايا في سياسته السيمونية . بل لقد أضر بها إذ أخذ يطالب بمبالغ متزايدة كلما سنحت له الفرصة لرسامة أى شخص .

١٩٢ - على أن السيمونية لم تشغل الهايا الاسكندري عن واجباته الراعوية ، فبعث برسالة إلى ملك الحبشة اختتمها ببركته الرسولية ، ورسالة أخرى إلى مطران الحبشة . وهذه الرسالة الثانية لها قيمة عظيمة إذ تبين مدى تبحر الأنبا كيرلس الثالث من العلوم الكنسية ومن ادراكه الواجبات الراعوية . فبعد التحية وطلب البركات الإلهية للشعب الحبشى قال للمطران : « ليحميك الله من شرين هما حب السلطة وحب المال . وليفرح قلبك بشعبك وقلوب أبنائك بك ، لكي تقف معهم أمامه عرش النعمة في يوم الدينونة بوجه ساطع ونفس وادعة وتقول في ملء الثقة « هوذا الأولاد الذين أعطيتنى » . ولهذا الغرض رأيت أن أكتب لك لأذكرك بما أنت عالم - أى لأذكرك بالمواظبة على تعليم شعبك ومحبتهم محبة الأب لأولاده ومعاملتهم برفق وحنان وتواضع ورحمة لأن الرجل الجدير برياسة الناس هو الرجل الذى يحبهم إلى حد الاستعداد للموت عنهم » (١) .

١٩٣ - ولم ينصب اهتمام الأنبا كيرلس الثالث على الأحباش وحدهم إذ قد بعث برسالة إلى أبنائه المقيمين في دمشق أيضاً ، قال لهم فيها : « لتمتلى قلوبكم بسلام الله الذى يفوق كل عقل ، وليبضى عقولكم وبكللكم بالبهجة ، وليحل عليكم ذلك السلام الذى منحه رب المجد لتلاميذه حين قال لهم : سلامى أترك لكم . سلامى أعطيكم » (٢) وليحملكم قسوة وتهليلاً . يا أولادى اذكروا على الدوام أنكم أبناء الله ثم استرسل في خطابه واعظاً

(١) « الهايا كيرلس الثالث » جمعه الشساس كامل صالح نخلة - المرجع السابق

ص ٣٢ - ٣٩ .

(٢) يور ١٤ : ٢٧ .

ومرشداً ومعلماً . فلما وصلت الرسالة الباهرة قرنت في الكتدرائية ليسمعها كل المؤمنين . وقد قدم لها القارئ بهذه الكلمات : « إليكم رسالة نبيلة من القلاية المقدسة العامرة ، فاصغوا إليها بعقول واعية وقلوب صاحبة . فهي رسالة من خليفة مارمرقس لتثيبتكم في الايمان . وقد وصلتنا من قداسه بنعمة الله فانتبهوا لها لتعملوا بما فيها كأطفال مطيعين لتصانح أبيهم . لأنه الوكيل الأمين الذي هيا لنا الطعام الساوى ، لذلك أنعشوا نفوسكم به لتزدادوا رسوخاً في المبادئ المسيحية . والله تعالى يجعلكم عاملين بالكلمة لا سامعين إياها فقط ... » وقد أنهى المؤمنون إلى هذه الرسالة بقلوبهم وبعثوا إلى البابا المرقسى بالرد التالى : « ليحفظ الله كرامة القلاية الأرثوذكسية التى لمعلمنا الموقر وراعينا الساهر ، كرسى القديس مرقس الذى ملأت تعاليحه القلوب لأنها سراج موضوع على منارة ... لقد وصلتنا رسالتكم الكريمة وقولت بما يليق من التبجيل . وحينما قرنت على مسامعنا قرر أبنائكم العمل بما فيها لأنها تهين للوصول إلى السعادة الأبدية ... وأن تلاميذ قلايتكم المباركة يرجون منكم أن تؤازروهم بصلواتكم ليجدوا بواسطتها الرحمة . وهم يطلبون إليكم أن تكتبوا إليهم ثانية وثالثة لكى يمنحهم الله تعالى الحكمة لأنكم كنتم الوسيلة لقيادتهم فى طريق الحق والحياة بما قدمتم لهم من ارشاد فى رسالتكم . وليجعل الله كلمتكم مشرة إلى انقضاء الدهور ^(١) .

١٩٤ - ثم رأى الأنبا كيرلس الثالث أن واجبه لا يقتصر على الكتابة ، كما رأى أن القبط المقيمين فى فلسطين وإلى حدود الفرات فى حاجة إلى راع يسهر عليهم ويعلمهم ويثبت قلوبهم فى الشدة وفى الرخاء . فعزم بنعمة الله أن يرسم لهم أسقفاً . وقد عارضه فريق من أبنائه فى مصر بحجة أن أحداً من أسلاقه لم يسبقه إلى هنا العمل . ولكنه أقنعهم بقوله إنه مادام عدد أبنائه فى الخارج يتزايد باستمرار وهو لا يستطيع افتقادهم لبعد المسافة بينه وبينهم فلا بد من رسالة مطران لهم ليفتقدوهم ويرعى شئونهم . فاختار لهم راهباً ممتازاً ورسمه باسم باسيلئوس وأشار عليه بأن يجعل أورشليم مقر كرسيه ^(٢) .

(١) البابا كيرلس الثالث ... ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) مجلة النهضة المرقسية للأقباط الأرثوذكس بالقس سنة الأولى العدد الخامس (مايو ١٩٥٢) ص ١٥٧ - ١٥٨ .

وبعد ذلك بشهور قليلة حل الصوم الكبير . فقصص مار أغناطيوس بطريرك أنطاكية ومعه البطريرك الأرمني إلى أورشليم لقضاء هذه الفترة المقدسة هناك . وقد استاء كلاهما في بادئ الأمر لوجود المطران القبطي وبخاصة لأن البطريرك الأنطاكي كان حتى ذلك الوقت مسئولاً عن رعاية الأقباط في البلاد المقدسة ، ولم يخفيا استيائهما . وكان الأنبا كيرلس الثالث قد توقع هذا الفضيحة فبعث بخطاب وهدايا نفيسة إلى البطريرك الأرمني الذي رفض كليهما رفضاً باتاً ، وبعث بخطاب إلى مار أغناطيوس الذي قبله بمودة وسرور . وقد قال البابا الاسكندري في خطابه إلى البطريرك الأنطاكي : « كيرلس - عهد يسوع المسيح وخادم الكرسي الجليل الذي للقدس مرقس - يجدد عهد المودة المسيحية مع الأب الوقور والوكيل الأمين والعامل الكامل ... رئيس كهنة السريان القديس أغناطيوس بطريرك المدينة العظيمة أنطاكية وكل الكرازة السريانية ... يا أخى أنكم تعرفون أن الآباء قد قرروا - منذ المصور الأولى - أن تكون أورشليم مستقلة . وليس من شك في أن الروح القدس أوحى إليهم بهذا القرار إذ رأوا بعين الإيمان أورشليم وقد أصبحت محط أنظار المسيحيين جميعاً ، يتلاقى فيها اليوتان والسريان والقبط . وغيرهم . وأنه لا يلبق - في هذه المدينة المقدسة - أن يتسلط شعب على آخر . كذلك تعرفون أن الراعى الحق لا يتسلط على أراض وممتلكات بل هو مرشد للنفوس . وقد حدث في السنوات الأخيرة أن اجتاحت المجاعات مصر مما اضطر بعض القبط إلى هجرة وطنهم للسكنى في فلسطين حيث استقروا ومارسوا تجاراتهم وصناعاتهم . وإذا قولوا بالترحيب والاكرام ورحبت تجاراتهم قرروا الإقامة نهائياً في هذا البلد الشقيق . وهنوا كنائس جديدة لم تكن موجودة من قبل فاحتاجوا إلى رعاية روعيين لأنه لم يكن في استطاعة أحدهم أن يقيم كاهن خارج حدود سلطة البابا المرقسى . وقد وقفت من أبنائى هؤلاء على جليلة الأمر وأدركت أنهم في أشد الحاجة إلى رعاية ، فلم يسعنى - بوصفى المسئول الأول عنهم - أن أصم أذنى عن طلبهم ورسمت لهم مطراناً لكي يرسم لهم الكهنة بدوره حرصاً على سلامتهم الروحية . وليس عملى هذا بغريب ، فأنتم لكم مطران في مصر يرعى الشعب السريانى المقيم بيتنا مع أننا جميعاً أرثوذكس ، وهذا ما يفعله البطريرك الأرمني أيضاً ، كذلك تعرفون يا أخى أن كل راع مسئول عن رعيته أمام الله ، وأنكم لن تحجبوا عن القبط يوم أن يتفقوا

أمام عرش الديان لأنهم ليسوا رعييتكم . ولما كنت مستولاً عنهم فإتني رأيت أن أبرئ ذمتي أمام الباري في هذا الأمر الخطير هاتفاً نحوه تعالى « يا الله أعني واغفر لي أئمتي ... » ولقد اقتنع بطريق أنطاكية بوجهة نظر الأنبا كيرلس الثالث ومد يد الصداقة إليه . ولكي يؤكد هذه الصداقة لشعبه وللشعب القبطي بعث برسالة إلى أبنائه أعلن لهم فيها وحدة الإيمان الذي يربط بين الكرسيين الرسولين : الاسكندرية وأنطاكية ^(١) .

ولقد تمت رسالة باسيليوس مطراناً على أورشليم في مستهل سنة ٩٤٧م (١٢٣١ م) . وملاك يتعاقب المطارنة القبط على هذه المدينة المقدسة وتضمن رعايتهم فلسطين والأردن وسوريا وغيرها من بلاد الشرق الأوسط (أو ما يعبر عنها بكلمة « المشرق ») .

١٩٥ - وهذه الأعمال كلها تبين أن الأنبا كيرلس الثالث كان راعياً صاحباً . ولكنه رغم هذا استمر في سياسة السيمونية . ومن العجيب أن يدعو للمطران المرسوم على الحبشة بأن يحفظه الله من حب المال ولا يدعو لنفسه بذلك ، فحق عليه قول الشاعر :

« يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم »

هل كيف استعاض هذا البابا المدرك لمستوليته تفضيل صاحب المال على صاحب الصلاح والفضل ؟ هذه أسئلة خبرت المؤمنين - وما زالت تجههم - إذ لم يجدوا لها رداً قاطعاً . وقد حاول أصدقاء الأنبا كيرلس الثالث أن يلتسموا له المذرة بحجة أن الضرائب المفروضة عليه من الولاة كانت باهظة . ولكن اعتذارهم هذا واه لأن وسائل جمع المال متعددة . ولم يقتنع ضمير المستولين من القبط بهذا العذر ، وأحسوا بالغيظ يتسرب إلى نفوسهم . فحاول الأساقفة أن يقتنموه بالعدل من هذا الطريق المعوج ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح . وحينما رأوا الغضب الشعبي يتزايد بذلوا قصارى جهدهم في تهدئة الخواطر صوناً للكرامة الباهرة . وعلى ذلك استحسنوا أن يمتدوا مجعاً جرياً على التقاليد القبطية التي قامت منذ العصر الرسولي

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة ص ٨٢ - ٩٠ . قصة الأقباط في الأراضى المقدسة لنيترى رفق ص ٢٨ - ٢٩ .

والتي نحتسب أن يكون الحكم للجماعة لا للفرد . فاتفق هذا المجمع في شهر
توت ٩٤٧ ش في القلعة (التي كان صلاح الدين قد بناها) ، وفي
حضرة الوزير معز الدين . وقد حضر الأراخنة مع الأساقفة كما حضر بعض
المسلمين من أصدقاء الوزير . وبعد التداول في مصلك الأنبا كيرلس الثالث
أصدر المجمع قراراً بتعيين الأنبا يؤنس البوشي أسقف باهلون وأحد أساقفة
الدلتا مستشارين له ومديرين لأموال البطريركية ^(١) .

١٩٦ - وكان صاحب السلطة إذ ذاك السلطان الكامل الذي أطلق حرية
العبادة للمصريين جميعاً ، فسرى الشعور بالاطمئنان إلى قلوبهم . كذلك
أنشأ هيئة من رجال الضبط لحراسة الطرق والموانئ حرصاً على سلامة
المسافرين والتجار . كما عني بحفر القنوات وإقامة الجسور لتحسين حالة
الزراعة في البلاد . وفوق هذا كله فقد بنى مدرسة ضخمة أطلق عليها اسم
« المدرسة الكاملية » وجرباً على تقاليد أسرته جمع حوله عدداً من العلماء
والأدباء يجتمعون به في قصره مساء كل خميس للمناقشة العلمية
والأدبية ^(٢) .

وحدث أن الملك الكامل كان في الاسكندرية . وفي طريق عودته إلى
القاهرة ذهب إلى برية شبهت وزار أديرة الأنبا مكاري الكبير هو وحاشيته
. ورحب بهم الرهبان واستضافوهم عدة أيام بمودة وإكرام . ولقد سر الملك
الكامل من كل ما رأى وأحس . فرغب في أن يكرم الرهبان بدوره ،
وعلى ذلك منحهم ثلاثمائة أردب من القمح والشعير ومائة من الفول ومائة
من الترمس . وفوق ذلك فقد أعطاهم مرسوماً يتضمن إعفاؤهم من كل
ضريبة وأيلولة تركة الراهب بعد وفاته إلى الدير الذي ينتمي إليه ^(٣) .

وفي مثل هذه الفترة من التقدير والاستقرار سادت المودة المعادلة بين
القبط والمسلمين حتى أنهم كانوا يساهمون في حياة المسلمين الاجتماعية .
ومن أروع الأمثلة على هذه المساهمة أن المسلمين في اسنا وأسوان اعتادوا
دعوة القبط في أفراحهم وأعراسهم . فكان القبط يسيرون أمام موكب

(١) « البها كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة - ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٢) تاريخ مصر ... (بالانجليزية) لستانلى لاین بويل ص ٢٣٠ .

(٣) أديرة وادي النطرون (رسالة مارمينا السادسة) للدكتور منير شكرى ص ٢٨٦ .

العروس فى الشوارع والأسواق وهم يوصلونها من بيت أبيها إلى بيت عرسها وفى سيرهم كانوا يفتنون باللغة القبطية الصعيدية ^(١). ولا يستبعد أن هذه الأغاني التى كانوا يترغنون بها كانت تتضمن ألحاناً كنسية .

كذلك أبدى المسلمون تقديرهم العظيم للأطباء النصارى . فكانوا يطلقون على حنين بن اسحق لقب « رأس أطباء عصره » فى حين أن وهبة الله بن تلميذ كان فى رأيهم « أبو قراط عصره وجالينوس دهره » ^(٢) .

١٩٧ - ومن المؤلم جد الألم أن الملك الكامل كان كالنار التى لا تخلف غير الرماد لأن ابنه العادل كان شاباً مستهتراً لا يقدر المسئولية إلى حد أن الشعب ثار عليه واضطره إلى التنازل عن الملك بعد سنتين من ارتقائه . فخلفه أخوه الصالح أيوب . وكانت الستتان اللتان حكم فيهما العادل فترة من القلاقل ، ومع قصرها فقد وجد فيها الأنبا كيرلس الثالث فرصة للخروج على حكم المجمع والعودة إلى سياسته الحاططة وهى السيمونية . فعائبه المطارنة ورجوا منه احترام القوانين الكنسية . ولكنه لم يصغ إليهم ، فثار الشعب ثورة جارفة بقيادة راهب نزيه اسمه بطرس ابن التيمان كان يتمتع بمكانة ممتازة لدى القبط والمسلمين على السواء . فقام بحملة علنية ضد البابا كيرلس متهماً إياه بنقضه عهده . وكانت كلماته ملتهبة فاستثارت الشعب كله كما اهتز لها حكام البلاد حتى أنهم أرادوا أن يحاكموه . ولكن المطارنة أقاموا من أنفسهم سياجاً حوله ورفضوا أن يسمحوا بوقوفه أمام المحاكم المدنيين حرصاً منهم على استقلال الكنيسة ^(٣) . واجتمعوا فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ^(٤) حيث تشاوروا معاً . وبعد التداول قصد الأنبا بولس البوشى إلى باباء ورجا منه الاعتزال فى أحد الأديرة ريثما تهدأ العاصفة فاستمع له وقصد إلى دير الشمع .

١٩٨ - على أن الذى لا مرأى فيه هو أن الأنبا كيرلس الثالث كان

(١) « أهل الذمة فى الاسلام » ترجمه إلى العربية دكتور حسن حبشى ص ١٧٠ .

(٢) شرحه ص ١٨٢ .

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القصص ص ٥٦٠ .

(٤) الكنائس القبطية الأثرية فى مصر لبطر (بالانجليزية) ج ١ ص ٢٨٣ .

شخصية عجيبة ، لأنه رغم نزعته إلى السيمونية ورغم خروجه على حكم المجمع ، قد رأى أن واجبه يحتم عليه تعليم الشعب . فوضع كتاباً عن سر الاعتراف أطلق عليه اسم « المعلم والتلميذ » يتألف من اثنين وعشرين فصلاً في قالب السؤال والجواب ، بين فيه القيمة الروحية للاعتراف بما جعل الكنيسة تضعه ضمن أسرارها .

ولم يكتف الأتبا كيرلس الثالث بهذا الكتاب ولكنه جمع كل ما تبنى له جمعه من القوانين الكنسية الخاصة بالأسرار السبعة إذ لاحظ أن الشعب القبطي كاد أن ينسى قوانين كنيسة وأسرارها . وقد استهل غبطته هذه القوانين بالمقدمة التالية : « باسم الأب والابن والروح القدس : الله الموحد الجوهر المثلث الأقانيم ، مبدع السماوات والأرض . هذه القوانين تستهدف تثبيت المؤمنين لما يجب أن يتبعوه برعاية باپاهم وأساقفتهم وكهنتهم من آباء الكنيسة المصرية . باركهم الله هم وشعبهم وكراسيهم ، وألهمهم العمل بمقتضى هذه القوانين الأبرية حفظاً للإيمان الأرثوذكسى وتقاليده الكنيسة المقدسة . وكل من يخالف هذه القوانين أو يحيد عنها فليكن محروماً من الكنيسة المهامعة مقطوعاً من جسمها بقم الثالث الأقدس : الأب والإبن والروح القدس ، وقم الثلاثمائة وثمانية عشر المجتبعين بنيقية - بطريركا كان أو أسقفاً ، شخصي (أنا) أو أحد أساقفتي . صانا الله جميعاً من هذا المصير آمين ولربنا التسبيح والشكر دائماً » .

« ولقد رأيت أنا كيرلس الحقير بين رؤساء الكهنة ، المدعو بنعمة الله وتزكية السيد المسيح بطريركا للكرسى المرقسى ، أن أروض الواجبات الملقاة على عاتقي وعاتق الأساقفة - شركائى فى الخدمة الرسولية . فإننا جميعاً مسئولون عن التمسك بالعقيدة المقدسة التى تسلمناها من الثلاثمائة والثمانية عشر المجتبعين بنيقية بتأييد الآباء فى مجمعى القسطنطينية وأفسس إذ أنها من وحى الروح القدس . ونحن نعلم عن مسئوليتنا هذه فيما نتلوه من قدامات وشعائر ... وعقيدتنا هذه هى : أن المسيح هو الكلمة المتجسد الذى وحد بين اللاهوت والناسوت وحدة بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ، وأنه أقنوم واحد بمشيئة واحدة . لذلك نستطيع أن نصفه بكل الصفات الإلهية وكل المميزات الانسانية . هذا ملخص عقيدتنا وحجر زاويتها . وكل من حاد عنه أصبح غريباً عن الكنيسة الأرثوذكسية . »

وبعد هذا التمهيد قسم البابا الاسكندري كتابه عن القوانين الكنسية إلى اثني عشر فصلاً عن انتخاب الأساقفة وتكريسهم ورسامة الكهنة ، ثم عن ترتيب الأصوام ، وعما يجب اجراؤه عند محاكمة الكليروس وحقوق الكليروس وواجباته

١٩٩ - ومن النقاط الشيقة في هذا الكتاب ما جاء في الفصل الخامس إذ يتعلق بمطران غزة . فقد استهل الأنبا كيرلس الثالث هذا الفصل بقوله : « إن ترقية مطران غزة ضروري مع توقيع الكهنة الخاضعين لرياسته ، إذ أن التوقيع اعلان منهم بأنهم موافقون على ما قرره الكنيسة الأرثوذكسية ، وهم ملتزمون بقانون إيمانهم ، ويرفض ما لم تقبله مجامعها . فإن لم يقبل مطران غزة وكهنته هذا الوضع القانوني كانوا مقطوعين من جسم الكنيسة » . وإن حديث البابا الاسكندري بهذه الصيغة يثبت لنا أن غزة كان لها أسقف معهود ضمن أساقفة الكرازة المرقسية ^(١) .

٢٠٠ - وانتقل الأنبا كيرلس الثالث بعد ذلك إلى الحديث عن واجبات الأساقفة وصلاتهم ببعضهم البعض . ثم تحدث عن الصيغة المقدسة (المعمودية) ، فالزواج والميراث والوصايا . وكان حديثه عن هذه الموضوعات مفصلاً ، فهو - والحالة هذه - صورة صادقة للعادات التي كانت شائعة وقتذاك . ثم استكمل البابا المرقسي حديثه بالكلام عن الكهنة والشمامسة ، فبين شروط انتخابهم والسلوك المثالي الذي يجب أن يسلكوه ، وصلاتهم ببعضهم البعض وبالأساقفة والشعب .

وفي النهاية لخص الأنبا كيرلس الثالث الغرض من كتاباته بقوله : « لقد جاء هذا الكتاب تلبية لرغبة الشعب وحرصاً عليه . وأن الواجب على كل مؤمن أن يطيع ما جاء فيه . ولا حق لبطريك أو مطران أو كاهن أو

(١) كان مطران الكرسي الأورشليمي يقال له : « مطران غزة » في أول سني الرسامة التي بدأها الأنبا كيرلس الثالث - راجع « تاريخ الكرسي الأورشليمي » للشمامس كامل صالح نخلة في سلسلة مقالات نشرها بمجلة النهضة المرقسية التي كانت تصدر في عهد نيافة الأنبا ياكوبوس (١٩٤٧ - ١٩٥٧) والنقطة المشار إليها وردت في العدد السادس من السنة الأولى الصادر في القدس في يونيو ١٩٥٢ ص ١٨٩ .

علماني أن يعيد عنه لأي سبب . وكل من خالفه تعرض للعقاب . وإثنا
نضرب إلى إلهنا الذي وعد أن يكون معنا إلى الانتضاء وأعلن أنه في
وسط اثنين أو ثلاثة مجتمعين باسمه ، وأعطي رسله السلطان أن يحلوا
ويربطوا ، نسأله أن يعيّننا ويهدي خطواتنا ويثير بصائرنا - جميعاً - رعاة
ورعية . له المجد الدائم من الآن وإلى دهر الداهرين . آمين » (١) .

« نقلت هذه النسخة عن القوانين التي وضعها لنا الرسل المباركون والآباء
الأبرار ، وعن التعليمات التي أذهبت من حين إلى حين بنياتاً للمؤمنين
والله يبارك المطارنة والكهنة والمؤمنين الخاضعين لرياستهم » .

« ولقد وافق إخوتنا المطارنة على هذه النسخة ووقعوا عليها في
العشرين من شهر توت المبارك سنة ٩٥٥ للشهداء الأظهار ، لتحل علينا
بركاتهم بنعمة الله ، والمجد لنا الذي يمنحنا الفهم » .

٢.١ - ولقد دامت بباوية الأتبا كيرلس الثالث سبع سنين وتسعة شهور
أثبت فيها أن الحياة لا تقاس بالدقائق والساعات ، ولا حتى بالشهور
والسنوات . وإنما تقاس بالجهد والعمل . لأنه رغم سياسة السيمونية قد
أنتج في هذه السنوات القصيرة ما لا ينتج غيره في ضعف هذه المدة (٢) .



(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه الشماس كامل صالح نخلة ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٢) « تاريخ البطارقة » مخطوط نقله القمص شتودة الصوامع البراموسى ... ج ٢
ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

حملة الشعلة

(أ) شخصية مغناطيسية

- ٢٠٢ - عصر ملزم .
 ٢٠٣ - يوليس الهرشي ومميزاته .
 ٢٠٤ - رسالته أسقفاً .
 ٢٠٥ - اشتغاله بالتأليف وهو في الدير .
 ٢٠٦ - تصاول يحتاج إلى الإجابة .
 ٢٠٧ - المصير المحتوم أو الحرية .
 ٢٠٨ - تفسير سفر الرؤيا .
 ٢٠٩ - الاهتمام بالمواضيع الدينية .
 ٢١٠ - ميامر خاصة بالأعياد السيدية .
 ٢١١ - جهلنا بسيرته .

٢.٢ - كان السلام مستتباً في القرن الثالث عشر . فاستمتع القبط بما ساد من طمأنينة واستقرار ، واستطاعوا أن يتتجروا في العلوم والفنون . فظهر في هذا القرن عدد غير قليل من العلماء والفتاين الذين وجدوا الفرصة سانحة للتعبير عما في نفوسهم من ملكات . ذلك لأن النفس الآمنة من الخوف والاضطهاد والحرب تستطيع أن تسعى وأن تعبر دون قلق . لذلك استرسل القبط في التعبير عما يحسون من اندفاعات فنية وعلمية وسبروا غور الأبحاث الروحية والفلسفية ^(١) .

٢.٣ - ومن أبرز المفكرين في هذا العصر الأنبا يوليس الهرشي أسقف بابلون الذي ترهب في أحد الأديرة الواقعة بمنطقة الفيوم واشتهر بين الجميع بالعفاف والاخلاص للكنيسة العريقة والتفوق في البحث العلمي . وكان متوقفاً متفانياً في الخدمة ، فصهفت غيرته كتاباته بالقوة حتى أن خطبه كانت تلهب الأفتدة فتفعل فيها فعل السحر كذلك كان راهباً حكيماً

(١) « الأنبا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة ص ١٣ ، أما الأب يعقوب موزر (الهولندي) فيصفه كما يلي : « رجل نزيه ، محب لشعبه ، بعيد عن الأهواء الخزبية ، لا يعرف غير مصلحة الكنيسة ورفع شأنها ، عالم جليل طويل الباع في المعارف الدينية ... كاهن تتقد في قلبه غيرة الرسول يوليس ، مفسر قدير على شرح الأقوال الإلهية والتعلق عليها ، كاشفاً غوامضها ومفصلاً لمشكلاتها ، خطيب ديني مصلح يرفع القلوب النافرة إلى المعالي ويلهبها ، مجادل ماهر ذو ذهن وقاد ، قوى الحجج ، يردده أشبه بالحكمة الحجارة المكساة في جراب داود الفلام عند مبارزته جليات الجبار راجع « صور من تاريخ القبط » مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى - الإسكندرية ١٩٥٠ ص ٢١٣ .

متزناً عرف كيف يصارع نفسه ويخضعها لإرادته . فلما خلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا يزنس السادس كان ضمن المرشحين لها . على أنه أثر أن يتمزل ويترك الميدان لمرصة على كرامته الكهنوتية وعلى هدوئه النفسى اللازم لتعاملاته وصلواته .

ويجهل التاريخ كل شئ عن طفولته وشبابه كما يجهل يوم انتظامه فى سلك الرهبنة . والمتداول بين معاصريه أنه رسم قساً فى الدير الذى ترهب فيه . وفى الفترة التى كانت المشاورات دائرة حول من يستحق أن يكون خليفة لمارمرقس ظل منزوياً فى ديريه مشتغلاً بالعلم والصلاة ، زاهداً فى كل رياسة . فبرهن بمسلكه هذا على حرصه على سلام الكنيسة . وكان صديقاً صدوقاً للراهب داود بن لقلق ، وظل على صداقته بعد ارتقاء صديقه السدة المرقسية . بل إن ولاء لهذا البابا الاسكندرى كان خالصاً إلى حد أنه كان يناصره حتى فى الآونة التى كان الشعب يشور فيها عليه كما كان يقف إلى جانبه لمسدى إليه النصيح ويلود من كرامته بالعمل على تهدئة خواطر الثائرين من الشعب .

٢٠٤ - وكان تقدير الأنبا كيرلس الثالث لصديقه بالغاً دفعه إلى أن يرسمه أسقفاً على باهلون ليكون إلى جانبه . ولقد أدرك الأنبا بولس البوشى عظيم الأمانة التى استودعها إياه باباه ، فجهاد لحفظ كرامة الكهنوت فى كل المناسبات ، كما عكف على تعليم الشعب ورعايته فى تواضع . وقد عرف الشعب فضائله . فلما انعقد المجمع للتداول فيها يوجب اتخاذه بإزاء سيمونية الأنبا كيرلس الثالث ، اختار الأنبا بولس البوشى واحداً من المطرانين المسئولين عن الشئون الادارية فى الكنيسة .

٢٠٥ - ولقد انشغل الأنبا بولس البوشى أيام أن كان راهباً فى الدير بتأليف الكتب ومن حسن الحظ أن كتبه لا تزال جميعها موجودة ، ولو أنها لا تزال مخطوطة مع الأسف الشديد لم يطبع منها واحد لكن بعض هذه الكتب يعالج فيها الموضوعات اللاهوتية : ١ - رسالة عن الأدلة العقلية التى توصل إلى معرفة الإله المتأنس ، وقد استهدف من هذه الرسالة توضيح سر التجسد فقال : « إن هذا السر وإن يكن فوق الإدراك إلا أنه من الممكن أن يلمح العقل قسماً منه عن طريق التأمل والتفكير العميق والمنطق المسلسل » . لذلك جند كل الحجج التى تعلمها عن الآباء ونظمها بشكل

متلقى متتابع تدعيماً للإيمان بتجسد ابن الله من السيدة العذراء . وهذا البحث لا يزال محفوظاً في مكتبة يودليان بجامعة أوكسفورد رقم ٢٨/٥ . وهناك مجموعة من المخطوطات محفوظة بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة بعنوان « مجموعة الأبحاث الدينية » تحوى مقالاً موضوعه « كتاب التجسد » وقد يكون هذا الكتاب ملخصاً للنسخة الأولى . إذ أن المخطوطين مهمتان لم يتناولهما البحث لأن : وهذه المجموعة الموجودة في القاهرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر مما يدل على أنها منقولة عن الأصل . ولو أن ناقلها مجهول . فالتقول بأنها ملخص للمخطوطة المحفوظة بأكسفورد إنما هو مجرد استنتاج . ■ - كتاب عن العلوم الروحية - والنسخة المتضمنة لهذا البحث محفوظة بمكتبة دير السيدة العذراء الشهير بالسريان بوادي النطرون رقم ٣٧ / ■ . وهذه المخطوطة تتألف من ٣٤٧ ورقة . والتاريخ المكتوب عليها هو سنة ١٥٦٧ ش - (١٨٦٠ م) . ومعنى هذا أن القبط هموا بكتابات الأتبا بولس البوشي حتى القرن التاسع عشر - أي بعد انتقاله من هذا العالم بسنة قرون على الرغم من أنه لم يكن لديهم مطبعة حتى ذلك الوقت . أما الآن والمطابع متوفرة لديهم فلا توجد نسخ متداولة من كتابات هذا الأسقف البعثة !

ولم يكتف الأتبا بولس بما وضع من كتب . بل أراد أن يدعم مكانة . الأتبا كيرلس الثالث بأن أزره في السهر على تعليم الشعب وذلك بمعاونته في وضع كتابه : « المعلم والتلميذ » . وكانت مساهمة الأتبا بولس هي أنه جمع كل ما كتبه آباء الكنيسة القبطية من الاعتراف ووضع ملخصاً لها . وقد أوضح هذا الملخص أن الاعتراف بالمخطايا - على من منحهم المسيح له المجد سلطان الحل والربط - إنما هو طب روحي . وأن آباء الاعتراف طيب روحي هدفه إبراء النفوس العلية عما تشكو من أسقام وإعادة الصحة لها . لذلك من الآباء أن يعرف الأب الروحي شخصية المعترف ليقدم له الدواء الذي يفيد شخصياً والذي قد لا يفيد غيره . ولقد صادف هذا الكتاب من الرواج ما جعله ينتشر بين جميع طبقات القبط . كذلك حتى كل دير ينقل نسخة منه والاحتفاظ بها خير الرهبان . وجميع هذه النسخ المتقولة محفوظة في الأديرة . كما أن المكتبة البطريركية تحوى نسخة أيضاً . على أنه رغم وجود نسخ مخطوطة متعددة من هذا الكتاب فلا توجد نسخة مطبوعة إطلاقاً !

٢٠٦ - وهنا يحق لنا أن نتساءل عن السبب في هذا الإهمال - فإن كان القبط لا يزالون يتصرفون بالميل إلى الروحيات كأسلافهم - فلماذا لا يطبعون كتب آباءهم ؟ لقد عثروا بنشر كتب الآباء بولس البويسي حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وتداولوها في وقت لم تكن لهم مطبعة . أما الآن وعندهم المطابع العديدة فإنهم لا يتناقلونها . ومثل هذا الوضع يستدعي التساؤل ... أما أن القبط لا يزالون ذوي نزعة روحية فهذه حقيقة لا شك فيها تبدو لكل من يرقبهم في نواحي نشاطهم المتعددة . فالقوى الداخلية لم تتغير وإنما تفرقت المؤثرات الخارجية . ذلك أن الدعايات التي روج لها الغرب بينهم والتي سرت فيهم سرمان السموم حركتهم عما كتبه آباؤهم ليكتفوا بقراءة الكتب الدخيلة زعماً منهم أنها أحدث عهداً وأقوى منطقاً فهي التي تروى لهاهم . على أنه رغم ما فعلته هذه الدعايات المفرخة المضطلة في بعض الأحيان فإن لجراً جديداً قد انبثق على الكنيسة الحقة ، إذ قد استعبط الوعي القومي واستعبط معه الاعتزاز بتراث الآباء والأجداد وبوجوب المحافظة عليه .

أما كتاب « المعلم والتعليم » التي انشغل بها كيرلس الثالث والآباء بولس البويسي بوضعه فهو مأخوذ عن كتاب « الرؤوس » الذي لا يزال مجهول واضعه . ويبين هذا الكتاب أهمية « المعلم الروحي » أو « مرشد الضمير » الذي يقود تلميذه بعيداً عن الأمواج المتلاطمة والتيارات العنيفة ويصل به إلى ميناء السلام والاستقرار .

٢٠٧ - ومن الموضوعات التي شغلت القبط خاصة والشرقيين عامة موضوع المصير المحتوم والحرية الإنسانية . وكان هذا الموضوع الشغل الشاغل للمفكرين - وعلى وجه التحديد - المفكرين الذين عاشوا ما بين القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر . ولما كان الآباء بولس البويسي مرشداً للنفوس ، فقد رأى أن يدرس هذا الموضوع درساً وافياً من الناحيتين العقلية والوجدانية . ثم وضع كتاباً ضمنه بحثه هنا ، وانتهى فيه إلى أن الله تعالى هو الذي منح الإنسان الحرية ، فحق على الإنسان أن يحصل بهذه الحرية التي هي منحة إلهية متوخياً رضى الله الذي منحه هذا الحق .

٢٠٨ - وإلى جانب هذه المؤلفات اللاهوتية والفلسفية فقد وضع الآباء بولس تفسيراً لسفر الرؤيا فإن هذا السفر كان - ولا يزال - مشيراً للفكر .

فحاول الآباء في مختلف العصور أن يسبروا غور تشبيهاته واستعارته ، وأن يستشفوا المعانى الكامنة خلفها . ومن أقدم المخطوطات التى تعالج هذا الموضوع مخطوطة باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية رقم ٢٨ محفوظة بمتحف بيير بونت مورجان بتيوبورك (ورقمها فى الدليل هو ٥٩١) يرجع أن كاتبها هو الأتبا كيرلس الكبير (البابا الاسكندري الـ ٢٤) . وتدل هذه المخطوطة على مدى اهتمام آباء الكنيسة المصرية بسفر الرؤيا . فالأتبا كيرلس الكبير قد عاش فى القرن الخامس ، بينما عاش الأتبا بولس البوشي فى القرن الثالث عشر ، وخلال القرون الثمانية التى تفصل بين هذين الحبرين فى الزمن لا فى الفكر حاول غيرهما أن يوضح سفر الرؤيا الذى يهدر أنه خلب الباب المفكرين من الآباء على مدى الأجيال . والتفسير الذى قدمه بولس البوشي لهذا السفر الساحر يضمنه فى مرتبة أعظم المفكرين من آباء الكنيسة المصرية . فحافظ بذلك على صيت انكنيسة ومكانتها العلمية فى عصر يصفه المؤرخون ضمن العصور المظلمة .

٢٠٩ - وهناك موضوع آخر لا يزال أرضاً بكرّاً للمشتغلين بالدراسات القبطية ، وهذا الموضوع هو الاهتمام البالغ الذى كان يبديه القبط والمسلمون على السواء بالأمور الدينية . ولعظم عنايتهم بهذه الأمور كانوا يجتمعون معاً ليتناقشوا ويتناظروا . كذلك كتبوا الرسائل العديدة فى الروحيات . وفى هذه الرسائل لمجد المسلم يلقب « بالسائل » لأنه يطرح الأسئلة وإذا لم يقتنع برد من الردود اتخذ منه سؤالاً جديداً . بينما يوصف القبطى « بالمجيب » إذ عليه أن يعطى اجابة صريحة واضحة . ومن الطريف أن المناظرات كانت تقام دائماً بأمر السلطان وفى حضرته . وإلى جانب هذه الاجتماعات الرسمية التى يدعو إليها صاحب الحكم فى مصر ، كانت هناك مدارلات ودية ، إذ كان المتصوفة من المسلمين يسألون إخوتهم القبط عن أسرار إيمانهم ، فيسارع القبط إلى الاجابة عليهم . وإن الاطلاع على ما كتب فى هذه الموضوعات ليشبع النفس إذ يعرف القارئ مدى تعمق القبط فى دراسة دينهم وحسن دفاعهم عنه . ولقد كان بولس البوشي من أبرز « المجيبين » الذين أنجبهم القرن الثالث عشر . وما يروى عن هذا الاسقف أنه دعى ذات يوم هو والأتبا كيرلس الثالث للمناظرة أمام السلطان الكامل بن العادل أيوب . وقد أعجب هذا السلطان بما قاله كل من البابا والأسقف

فقامت بيته وبيتهما صلوات متينة من المودة ولقد استجاب الأتيا بولس البوشي لرغبة الشعب فوضع كتاباً بعنوان « كتاب المناقشات » لا تزال نسخة واحدة منه باقية للآن . ويتضمن هذا الكتاب أبرز الأسئلة التي وجهها إليه المسلمون والأجوبة عليها .

٢١٠ - على أن الأتيا بولس لم يكف بهذه الأبحاث إذ قد وضع ميامر خاصة بالأعياد السيدية ^(١) ومن حسن الحظ أنه يوجد عدد غير قليل من النسخ لكل ميمر ولكنها جميعاً محفوظة في الأديرة . وقد نشر القس منقريوس هوض الله هذه الميامر السيدية في سلسلة مقالات في مجلة تعاليم الكنيسة التي كان يصدرها ثم جمعها كلها في كتاب قائم بذاته . ولكي يرى القارئ كيف أن آباء القرون الوسطى سبروا عمق الروحانيات بنفس الأغوار التي سبرها آباء القرون الأولى ، ولكي يدرك بهذه الرؤيا أن الكنيسة القبطية ألحقت المفكرين الروحانيين في مختلف العصور سواء منها العصور التي يصفها العالم بأنها « عصور ذهبية » أو تلك التي يقولون عنها بأنها « عصور مظلمة » نورد للقارئ بعض سطور من ميمر البشارة (وهو أول عيد سيدي كبير) ثم من ميمر العنصرة (وهو سابع الأعياد السيدية الكبرى وآخرها) . قال بولس البوشي : « تؤمن أن الكلمة مولود من الأب ميلاداً أزلياً لا بدء له ، وقد شاء أن يتجسد من القديسة البتول مريم من بيت داود من سبط يهوذا من ذرع ابراهيم لكيما يستطيع العالم مشاهدته ولكي يخلص الشيد بشبهه ^(٢) ، فأرسل أمامه رئيس ملائكة مقدس للبشارة منذراً بأن المتجسد هو الرب لأنه حيث يكون السيد الملك السماوي هناك يكون خدامه العلويون الروحانيون « تفسير اسم جبرائيل في اللغة العبرانية رجل الله ، وهو سر التجسد لأن الإله متحد بالإنسان بالتجسد العجيب ^(٣) » لما دخل عليها الملاك قال لها افرحي يا ممتلئة نعمة الرب معك . أعطاه الملاك سلاماً من الله معلوماً فرحاً

(١) هي الأعياد الخاصة بالسيد المسيح له المجد كعيد الفطاس مثلاً - راجع ص ١٠٥ - ٥١١ من الجزء الثاني لهذا الكتاب .

(٢) علق جناب القس منقريوس على هذا التعبير بقوله : « أي أن أقنوم الابن اتخذ شكل الإنسان بتجسده لكي يخلص الإنسان بالآلام وهو حامل شكل الإنسان » .

(٣) أي أن معنى اسم جبرائيل « رجل الله » يشير صراحة إلى التجسد الذي جمع بين اللاهوت والناسوت

ليزيل حزن حواء ... » قال لما سمعته اضطربت من كلامه وفكرت قائلة ما هذا السلام ، أعنى أنها لم يكن لها مخاطبة أحد لأنها تربت في الهيكل في ستر وسكون عابدة الله ليلاً ونهاراً . ثم أن الانجيل أظهر فضلها في كونها لما اضطربت من صوت الملاك لم تدع عنها التحفظ الذي ألتقه والسكون الذي تربت فيه . ولم تصرخ ولم تدفع كلامها بالجملة بل فكرت في نفسها لا غير ... » فصرفت أشتواقها للرب . وتناقت للقول الذي أخبرها به الملاك ... وأجابته قائلة هأنذا أمة للرب فليكن لى كقولك ، وعند قولها هذا للتو حل فيها شمس البر . لأنه لم يرد أن يفضب الطبيعة التى أعطاها تغيير الإرادة وسلطة الحرية منذ البدء . حتى طلبت هى ذلك أولاً بشهرة من الله من تلقاء الروح ... » (١)

هذه مقتطفات عابرة من الميمر الخاص بالبشارة أما عن المنتصرة فقد جاء في الميمر ما يلى : « ... وهكذا نؤمن أن الثالوث الأقدس لاهوت واحد لأن الله موجود ناطق حى سرمدا . فإذا قلنا الله فإنما نقول الأب والابن والروح القدس لأن الخواص لا تزيد عن ذلك ولا تنضم أقل من هذا ... وقد شهبوا هذا الانتهاء بنار وحرارة متولدة منها ونور منبعث . فالنار واحدة والخواص ثلاثة لجوهر النار الواحد ... وحيثما يوجد اللهب يوجد معه دائماً الحرارة والنور ، وإن كان القياس ليس هو كالمقاس به فى كل أنحاء وإنما يراد به وجد واحد لا غير . لأنه لو كان القياس لا يخرج عن المقاس بشئ فى كل أنحاء كان إذن هو الشئ نفسه الذى يراد به القياس . فالثالوث يتعالى عن كل التشبيهات لكمال خواصه ... وإن قال قائل لما أثبتتم أن الله متكلم حى والكلمة والحياة قديمان معه فأوجبتم لكل صفة أقنوماً فهو إذن سميع عليم بصير ، فى حالة الأزلية والقدم فأوجبوا لهذه الصفات أقانيم زد عليه قائلين إنما الكلمة والحياة صفتان ذاتيتان وأما جوهرها فهى أفعال صادرة عن الصفات لأنه لا يكون واضح الناموس إلا متكلم ولا يأمر وينهى إلا ناطق ولا سميع عليم إلا حى . فيصد عنه لهذه الصفات وغيرها لاقتعالها منه ... »

(١) علم الآباء منذ العصور الأولى بأن التجسد تم فى اللحظة التى سلمت فيها العذراء تسليماً كاملاً للبشرى الإلهية ودافقت بفرح وشوق روحى على حلول الكلمة المتجسد فى أحشائها : فالتجسد إذن لم يتم غصباً فى الطاهرة مريم بل تحقق برغبتها وحربتها .

وبعد، أن تحدث الأنبيا بولس الهوشى عن عمل الروح فى الأنبيا، أشار إلى ما قيل من أن « الروح القدس الذى كان على ايليا تضاعف دفعتين على أليشع تلميذه »^(١) ثم تسأل : « كيف يفسر ذلك واهلها إلى اليوم الأكبر من اليشع ؟ فاعلم إذن أن الكتاب لم يقل شيئاً باطلاً وإنما تضاعف الروح فى فعل الآيات . ذلك أن ايليا صنع سبع آيات مشهورة وصنع اليشع أربع عشرة آية معلومة . وقد أقام ايليا بصلاته ميتاً واحداً وأقام اليشع اثنين . إلا أن فعل الآيات ليس كما يشاء النبي بل كما يشاء الروح الفاعل فيه »^(٢) .

« ولنختصر الآن فى فعل الأنبيا، وتكلم فى فعل الروح القدس مع الرسل الأطهار وتبين ما هو التفاضل الذى بينهم وبين الأنبيا . فنقول إن أولئك كانوا يتكلمون حين حلول الروح القدس عليهم بما هو مزعج أن يكون ، وأما الرسل فكان الروح حالاً فيهم دائماً مستعراً ، ذلك لأنهم تقلدوا تدبير كل المسكونة بالبشرى الانجيلية والتعليم والتعمير ووضع يد الرئاسة وفعل الآيات » ، « ... والروح القدس هو المتكلم من الأب الآخذ بما تلابن المرشد إلى الحق الناطق فى التاموس والأنبيا والرسل والقديسين جيلاً بعد جيل بلا انقضاء ... هو فصاحة الرسل الأطهار فى البناء بالبشرى ... فقال عنهم خرجت أصواتهم فى كل الأرض وبلغ كلامهم أقطار المسكونة »^(٣) .

« هؤلاء الرسل المصليون فى انظارهم بالخيرات العديدة كما تنبأ أشعيا . قائلاً : ما أجمل أقدام المبشرين بالخيرات . الينابيع الحلوة التى أخبرنا بها موسى أول الأنبيا . قائلاً أنهم لما عبروا بحر سوف نزلوا على اثني عشر عين

(١) ٢ ملوك ٢ : ٩ .

(٢) أورد الأنبيا بولس الهوشى مختلف الآيات المعبرة عن عمل الروح القدس ، واليهكم بعضها : تك ٢: ١-٣ ، ٣: ٦ ، ٢٨: ٤١ ، خر ٢: ٢١-٥ ، عد ٢٩: ١١ ، تث ٩: ٢٤ ، اصم ٦: ١٠ ، ١٤: ١٣-١٦ ، أش ٢: ١١ ، ١٦: ٤٨ ، ٢١: ٥٩ ، ١: ٦١ ، حز ٢٤: ١١ ، ٢٦-٢٥: ٣٦ ، ٤: ٣٧ ، ٢١: ٢٧-٢٨ ، ٤٥: ١٣ ، ميخا ٨: ٣ ، حج ٥: ٢ ، مت ١١: ٢٧ ، ٣: ١٥ ، ١٧: ١٦ ، يو ٦: ٢٧ ، ٤٤ ، ٦: ١٤ ، ١٦ ، ١٥ : ١٦ ، ٥ : ١٣ ، ١٢: ١٧ ، ٨: ٣ ، ١٥: ٩ ، ٢: ١٣ ، رو ٦: ١ ، ٢٣: ٨ ، ١كو ١٠: ١١ ، ٢: ١٢ ، ١٥: ١ ، ١٤: ١-٣ ، ١٥: ٦ ، عب ١٢: ٤ .

(٣) مز ١٩ : ٤ .

ماء وسبعين نخلة ^(١) ، إشارة إلى الاثنى عشر رسولاً والسبعين تلميذاً الذين منهم استقى العالم التعاليم الروحانية ... نجدهم فلاحين لأنهم نقوا أرض قلوبنا وزرعوا فيها الزرع الإلهي . نجدهم سقاة للمسيح الملك لأنهم سقوا نفوسنا من ماء ينبوع الروح القدس . نجدهم كرامين لأنهم تعبوا وعملوا في كرم نفوسنا . نجدهم خاطبين لأنهم خطبوا نفوسنا تقية للختن السماوي المسيح . نجدهم شفعاء عنا عند المسيح . نجدهم الذين أعطوا الحياة للبشر في بشرى الإيمان وصيغة المعمودية ... قد سر الرب الإله أن لا يكون المهشرون باسمه فلاسفة من حكماء هذا العالم لأنهم لو كانوا كذلك لكانت أقوالهم متناقضة بعضها من بعض . كما نجد أقوال الفلاسفة الواحد يهطل قول الآخر ويزدري به ويعظم نفسه ... » .

كذلك قام بعض آباء دير السيدة العذراء الشهير بالسريان (برادي النطرون) بطبع سلسلة من ميامر الآباء ، من بينها المير الذي كتبه هذا الأب الساهر عن القيامة المجيدة ... ولقد قسم الآباء ميعره هذا إلى قسمين : أ- تأملات في القيامة ، ب- شرح حوادثها . أما القسم الأول فيتضمن : ١ - أعطنى فهماً ونطقاً ، ٢ - لأقول ، ٣ - آدم ونسله ماتا موتين ، ٤ - الخلاص ، ٥ - بكر الراقدين ، ٦ - فلنسرع مع هؤلاء فرحين . أما الجزء الثاني فيشمل : ١ - الزلزلة والحجر المختوم ، ٢ - الملاك المخيف المفرح ، ٣ - تدرج معقول ، ٤ - إخوتى ، ٥ - متى أولاً ثم يوحنا ، ٦ - ثم لوقا ومرقس ، ٧ - تلخيص ، ٨ - لماذا أكل المسيح بعد قيامته ، ٩ - حنان الأم ، ١٠ - لمن ظهر الرب أولاً بعد قيامته ؟ ، ١١ - وقدس الرب هذا اليوم المبارك ، ١٢ - ما معنى « استراح الرب » ، فسي السبت ؟ ١٣ - كيف نحفظ هذا اليوم . ١٤ - تصب صومكم ^(٢) .

٢١١ - ورغم هذه المؤلفات كلها فإننا نجهل سيرة هذا الأسقف العظيم جهلاً تاماً ، فهو أيضاً ضمن جمهرة الجنود المجهولين . ولكن ما الذى يهم ؟ ألا يكفي فخراً أنه حمل الشعلة أمام الجميع ؟

(١) خر ١٥ : ٢٧ . ولعل في هذه المقطعات القصيرة ما يستثير القارئ إلى المزيد فيسارع إلى اقتناء هذه الميامر وغيرها في نصها الكامل كي تقتل روحه نشوة من هذه التعاليم الروحية العميقة .

(٢) ميعر القيامة نقلها آباء دير السيدة العذراء الشهير بالسريان باختصار عن المير العاشر (مخطوطة رقم ٢١٤ - ميامر وعظية) تم طبعه بمطبعة الدير في أبريل سنة ١٩٥٦ .



قطعة من الحزف الاسلامى عليها رسم من صلب السيد المسيح
(بنار الآثار العربية رقم ١٣١٧٤)

الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية - وهي
محاضرة أُلقيت في قاعة الجمعية الجغرافية في ١٠ فبراير سنة ١٩٣٧ ونشرت بعد ذلك
في مجلة جمعية محبي الفنون القبطية (الآثار القبطية حالياً) لنفس السنة (المجلد
الثالث) ص ١-١٩ . (من القرن الثالث عشر) .

(ب) صانع السلام

٢١٢ - جندي مجهول آخر

٢١٢ - وثمة أسقف آخر حمل عبء المسئولية مع الأنبا كيرلس الثالث والأنبا بولس الهوشي هو الأنبا يوساب أسقف فوه الملقب بأبن المبارك وهو أيضاً واحد من أولئك الجنود المجهولين - المعروفين لأنه معروف بكتاباتهِ وأسقفيتهِ . ولكن متى ولد ؟ وأين ؟ ومن أبواه ؟ وما هي البيئة التي نشأ وترعرع فيها ؟ هذه الأسئلة وغيرها الكثير لا نعرف الاجابة عنها حتى الآن وإلى متى سيظل مجهولاً ؟ لا نعرف ذلك أيضاً . أما ما نعرفه فهو أنه قضى سنين رهبنته في دير الأنبا يؤنس بيرية شهيداً وأنه كرس نفسه خلالها للتعبد والدراسة والخدمة إخوانه الرهبان فأحبوه وانتخبوه وكيلاً لديرهم ، وأنه كان يشغل هذه الوكالة حينما ذهب الأنبا كيرلس الثالث ليكرس الميرون في دير الأنبا مكارى الكبير . وقد أغضب هذا البابا مجمع الرهبان يومذاك لأنه أضاف إلى القداس جملة لم تكن موجودة في الأصل . فسعى وكيل الدير إلى تهئية خواطهم ونجح في إحلال الصفاء بينهم وبينه . وقد أعجب به الأنبا كيرلس يومذاك وقدره إلى حد أنه رسمه أسقفاً عندما خلا كرسي فوه . وبعد سنوات - لما اجتمع المجمع لينظر في أمر البابا كيرلس الثالث لاتهامه خطة السيمونية - كان الأنبا يوساب ضمن من حضروا المجمع وكان مناصراً للشعب فرجا البابا أن يعدل عن خطته .

كذلك كان الأنبا يوساب ضمن من ساهموا في انتخاب الأنبا أنطاسيوس الثالث .

هذا كل ما نعرفه عن حياة هذا الأسقف الذي كتب سير البطارقة الاسكندريين وغيره من الكتب التي تبحث في تعاليم الكنيسة . ولا تزال مؤلفاته متداولة بين القبط . وأن كتابه عن البطارقة لسفير قدير إلى قومه ينبئهم بمجد تراثهم الكنسي القومى ويستحثهم على السعى ليكونوا جديرين به ^(١) .

(١) « البابا كيرلس الثالث » جمعه كامل صالح نخلة . ص ١١٩ - ١٢٠ .

(ج) قادة الفكر

- ٢١٣- عمل الانسان يساوى اسمه
ويعرفنا بشخصه .
٢١٤- خدام الامناء .
٢١٥- الجهود لحفظ اللغة الطبيعية .
٢١٦- لخرة لربعة .
٢١٧- مؤلف ما بين القرنين الثالث والرابع عشر .

٢١٣ - كان الانبيا يولس البوشي واحداً من المفكرين العديدين الذين ازدان بهم القرن الثالث عشر : أدركوا مسئولياتهم الجسام . فلم يرضوا أن يحفظوا معلوماتهم لأنفسهم بل أرادوا أن ينشروها لفائدة الأجيال الآتية من بعدهم . وقد عالجوا مواضيع متباينة كالنحو والقانون والأدب ، والعلوم واللاهوت . ولكنهم - هم أيضاً - ينتظمون في سلك الجنود المجهولين إذ أن مؤلفاتهم باقية في حين أن تاريخهم مجهول - اللهم إلا بعض شذرات لا تطفى غلة . فيمكن تشبيههم ببوحن المصلدان حيثما أوجب سائله عن اسمه بقوله : أنا صوت صارخ في البرية - أعدوا طريق الرب ^(١) . فهم - لكونهم مجهولون - يعلنون لنا جهاراً أن عمل الانسان ، يكفي ليدلنا على شخصه فالذي يزرع نخلة يهين ثمرها للعديد من الناس فيختمهم بعمله وإن يكن مجهولاً منهم . هكذا الحال مع هؤلاء الخدام الامناء للكنيسة وللبلاد . ويمكن لمن يقرأ كتاباتهم أن يترك خياله العنان فيصورهم كما يشاء له خياله وبذلك يكون تاريخهم رحلة من المغامرة في أقطار الماضي . ولقد أثار هؤلاء المفكرون الطريق أمام رجال القرن الرابع عشر الذين جاهدوا بدورهم فحفظوا الشعلة متقدة .

٢١٤ - ومن حملة الشعلة خلال العصر الأيوبي عدد غير قليل وصلتنا أسماؤهم ولو أنه لم تصلنا سوى لمحات عنهم مع أن الكثير منهم شغل مناصب هامة في الدولة ومن هؤلاء . الشيخ ابن أمين الملك بن المذهب أبو سعيد بوحن الاسكندراني - كان شاعراً رقيق التعبير سلس المعاني . وكان معاصراً للأسعد صليب بن ميخائيل الذي كان بحالة كما كان يعمل بلا هوادة فرمم دير مارمينا بقم الخليج بعد حريق الفسطاط ونسب إلى جانبه مدرسة ومكتبة علمي ، وإلى جانبه وقف أمين الدولة ابن المصوف الذي كان

(١) مت ٣ : ٣ .

أميناً على أموال الحكومة في أيام صلاح الدين كما كان أميناً لكنيسة
فأنفق المال الوفير على تجديد كنيسة الأمير ثيودورس (تادرس) وعلى
ترميم عدد من الأديرة التي وقف عليها بعض الأراضى أيضاً ، الشيخ الثقة
جبريل - كان من كبار القبط واشتهر بتجديد جملة كنائس كان الأكراد قد
خربوها ، والشيخ شرف الرئاسة سعيد بن هبلان ، كان كاتب الجيش في
خلافة العاضد وتولى الكتابة في حكم صلاح الدين . وقد رسم بهمة أبي
السيفين بمصر القديمة وجعلها بناً باذخاً ، الأسعد ابن أبي سعيد الملقب
بشرف الدين أبي المكارم الذي كان من أبرز الكتاب نظاماً ونشراً والمعروف
عنه أنه وضع ما يروى على عشرين مؤلفاً من بينهم كتاب التاريخ الذي
نسب خطأ إلى أبي الصالح الأرمني . وقد ذكر البعض عنه أنه لما توفيت
زوجته تهرب في أحد الأديرة ، أبو اليمن بن البزار اهتم بتجديد الكثير من
البيع والأديرة في منطقة الجيزة ، أبو الفتح ابن الأخص المعروف بالحرفي
الذي كان مصوراً ماهراً زين جدران كنيسة الزهري (التي تلاشت)
بأيقونات لمختلف القديسين ، أبو الفتح الصميدى القس العالم نسخ الكثير
من الكتب ووقفها على الكنائس والأديرة التي ساهم في ترميمها أو
تجديدها أبو الفرج بن ميخائيل كان رئيس الديوان أيام الملك العادل ، أبو
الفضائل بن أبي الليث جدد عدداً من الكنائس والأديرة ووجه عناية خاصة
بترميم المنطرة العجيبة المشيدة في دير يوسنا المعلمان . أبو الفضل بن
فروج أنفق المال الوفير على تجديد الكنائس وتزيينها حتى لقد جعل كنيسة
أبي جرج (مارجرجس) آية في الجمال وعامرة بالمصلين ، أبو الفرج بن أبي
اليمن كان كاتباً لوالى القاهرة أيام الملك العادل وقد وجه عناية خاصة إلى
كنيسة السيدة العذراء التي كانت بجهة العذوية ، وكانت هذه الكنيسة آية
في الجمال تحوى أيقونات بديعة كذلك اهتم بكنيسة أبي قلته ووسمها
وزينها إلى حد أنها أصبحت بطريركية . بل لقد هدم بعض أملاكه المجاورة
لها ليجعل أمامها ساحب فسيحة . أبو مشكور وأبو منصور - وهما
المهندسان اللذان وضعا تصميمات قلعة صلاح الدين وشيذاها كما حفر البئر
الملحقة بها المعروفة بيتر يوسف وقاما ببناء الجسور وحفر الخللجان والترح .
ولقد كافأهما السلطان على ما أديا من خدمات فصرفا المال على ترميم
الكنائس والأديرة ، أبو المتصور بن بولس انشغل برفع شأن مدرسة القاهرة
فازدهرت وتخرج منها الكثير ممن اشتغلوا كتبة في بلاط السلاطين . وكانت

هناك منطقة بالقاهرة تعرف بأرض الحبش بها دير كان أصلاً للنسطوريين فلما تسلمه القبط وجه أبو المنصور هذا عناية خاصة إليه . وقد شاركه في هذه العناية الشيخ المكين أبو الهركات المعروف بأبن كثامة الذي وقف أرضاً واسعة على الدير عينه ، الخطير بن أبي قدامة كان من أبرز العلماء وأرق الشعراء حتى لقد ذكره الأصفهاني وذكر الكثير من شعره ، ومن أجمل ما ذكره الأبيات التي كتبها الخطير في كتمان السر وهي :

وأكتم السر حتى عن اعادته إلى المسير من غير نسيان
وذاك أن لسانى ليس يعلمه سمى بسر الذى قد كان تاجانى

ابن أبي يوسف اشتهر بعلمه وفضله وتقلد المناصب العالية حتى لقد لقب بالشيخ مصطفى الملك وقد اهتم بترميم الأديرة وبناء الكنائس ، الأسعد بن صدقة : كان كاتباً لدار التفاح في عهد الملك العادل ، الشيخ أبو سعيد بن جبرائيل : المعروف بأبن الأعرج كان واسع النفوذ في ديوان السلطان ، الشيخ علم الرياسة ابن الصفر : من أبرز الذين خدموا السلطان الأيوبي وقد أنفق كل ثروته على الكنائس والأديرة ، فلما انتقل إلى دار البقاء دفنه السلطان على نفقته الخاصة ورتب معاشاً لأرملته ، الشيخ السديد أبو الفضائل المعروف بأبن متعانة : كان كاتب الأمير على بن أحمد الكردي وأميناً على خزانته وأمواله وقد جدد بناء كنيسة أبي السيفين والصمارة المقامة إلى جانبها لتصلح أن تكون مقراً بأبواباً كما عمر كنيسة الملاك ميخائيل بمصر القديمة وجدد غيره من كنائس المنطقة ، الشيخ أبو سعيد بن أندونيه : كان مستوفياً بالديوان العادلي الخاص كما كان كاتباً ماهراً ورجلاً خيراً وقد جدد ما تهدم من كنيسة الملاك غبريال بمصر القديمة واشترى الساحة التي أمامها وفتح الطريق الموصل إليها ، الشيخ الأسعد أبو الفرج صليب بن ميخائيل كان صاحب ديوان الملك الصالح القس بطرس السندمنتي الذي ترك لنا كتاباً يبحث في أعماق الروحانيات عنوانه : « التصحيح في آلام السيد المسيح » . وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٥٨٨ ش (١٨٧٢ م) وقد جاء في آخره ما يلي : « تم طبع هذا الكتاب الجليل بأمر هبة السيد الأب كيريو كيرلس الخامس بطريرك الكرازة المرقسية المائة والثاني عشر وبتصحيح سيادة أهبنا الفاضل الأغرماني محب الله فيلوثناس رئيس الكنيسة الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية . (الحمد لله دائماً) » .

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة وبابين . والباب الأول يشتمل على : « مفهوم كتاب التصحيح » وهو عشرة أمور أحدها إيراد النص الانجيلي ، وثانيها حل النص بما يمكن من أقسام التفسير ، وثالثها احضار الأدلة الشرعية الموافقة لاثبات ما ادعى من التفسير ، ورابعها تلخيص جملة الأقسام في قسم واحد ، وخامسها إيراد ما يمكن الخصم إirاده من الأشكال والاعتراضات بما يمكن ردها بالقياس إلى مقدم التأويل ، وسادسها وسابعها تصنيف الخصوم ودحض دعواهم ، وثامنها إثبات الحق اثباتاً لا يشوبه خلل ، وتاسعها ترجيح بعض الأدلة على بعض بالقياس إلى كونه أنسب إلى النص ، وعاشرها إيراد ما يليق إirاده من التهذيب الموافق لمقدم النص والتأويل . أما الباب الثاني فتتضمنه للأول ويبدأ بالحديث عن مخلصنا الحبيب حينما أوصى تلاميذه الثلاثة بأن يصلوا في البستان ثم ابتعد عنهم قليلاً وجثا على ركبتيه وأخذ يصلى - ثم كرر عمله ثلاث مرات وفي كل مرة هاد إلى تلاميذه وجدهم نياماً . وينتهي بالحديث عن عدد المرات التي ظهر فيها رب المجد لتلاميذه بعد قيامته وقبل صعوده ^(١) .



رسالة دكتوراه أمام جامعة ليون

عن القس بطرس السدمنتي

بطرس السدمنتي هو أحد الكتاب والمؤلفين الذين زودوا مكتبتنا الدينية والكنسية في القرن الثالث عشر بالعديد من النفائس وكان راهباً في دير مارجرس بسدمنت الجهل بحافظة القيوم ، وهو واضع كتاب (التصحيح في آلام السود المسيح) . والفضل في معرفتنا بهذا الكتاب يرجع إلى المطبعة التي أحضرها أبر الإصلاح القبطي الأنبا كيرلس الرابع ، فكان بين المخطوطات القليلة التي طبعت بها وما يدعو إلى الأسف أننا ما زلنا نجهل الشيء الكثير من تراث آباءنا والقس بطرس السدمنتي له أربعة عشر مؤلفاً . وهذه المؤلفات مبشرة بين

(١) النسخة التي هيأت لي النعمة الإلهية قراءتها موجودة بمكتبة كنيسة مارمرقس بحدائق شبرا وهذه الكنيسة تابعة لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس .

المكتبة الأهلية بهاريس ومكتبة الفاتيكان ومكتبات بعض
أديرة لبنان . أما الذى عني بالبحث عنها والتنقل بين هذه
المكتبات وهذه البلدان ليخرج تلك الكنوز إلى عالم النور فهو
أحد المستشرقين (الراهب الجزويتى بطرس فان أكبرج) جزاء
الله خيراً .

ولعل مجهوده هذا ، يحفز أبناء الكنيسة القبطية على
البحث عن الحلقات الأخرى فى سلسلة كتاباتها فى هذا القرن
(الثالث عشر) ، وخصوصاً الراهبان الذين قد تسمح ظروفهم
بالاطلاع على مكتبات الأديرة ، ولهم أن يتقدموا بنتيجة
أبحاثهم إلى المعهد العالى للدراسات القبطية ، فنسمع من
رسالات دكتوراه فى ذلك تقدم إليه ، ويتبع ذلك طبع هذه
الرسالات فنقرأ عن كنوز كثيرة فى تراثنا الروحى ، هى غذاء
دسم للنفوس ، لا يعلم جيلنا المتعطش إلى الروحانيات شيئاً
عنها ، وهى كتب يجد فى بطونها حياة .

دكتور منير شكرى

عن جريدة وطنى الصادرة فى يوم الأحد الموافق ٢٦ يناير سنة ١٩٦٩ .

بطرس بن الشعبان الراهب - وكان يلقب بالشيخ السنى . تهرب وهاش
بكنيسة السيدة العذراء بالمعلقة (بمصر القديمة) . وقد اشتغل بالكتابة
وكان أستاذاً لأولاد العسال^(١) ، أبو البشر يوحنا الذى اشتغل بالكتابة هو
أيضاً وكان رئيساً على بيت أولاد العسال . أبو المعالى ابن شرافى من كبار
رجال الحكومة فى أيام الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وسليل عائلة
نبغ عدد من رجالها . وقد اتخذ صلاح الدين ابن أبى المعالى كاتب سر له
وأمنه على أسرار وقدره حتى أنه منحه لقب الرياسة والشرف فصار معروفاً
باسم الشيخ الرئيس صفى الدولة ابن أبى المعالى^(٢) أبو الخير الطيب الذى
كان كاهناً وطبيباً معاً . ثم عين كاتب سر للأمير القاضى الفاضل وزير

(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٤٥، ٥٩ .

٦٠، ٦٥، ٦٩، ٧٤ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية ، لعقوب نخلة ووفيلة ص ١٨٣ - ١٨٦ .

السلطان عثمان صلاح الدين . وقد كتب هذا العلامة الذي جمع بين كرامة الكهنتوت والطب وخدمة الدولة عدداً من المؤلفات منها « تنوير العقول » و « خلاصة معتقد الملة المسيحية » و « الرد على طائفتى الاسلام واليهودية من موضوعاتهم وأصول مذاهبهم » و « رسالة البيان الأظهر في رد من يقول بالقضاء والقدر »^(١) .

وفي هذه السطور القصيرة تتلخص حياة رجل كان من غير شك ذا شأن عظيم في عصره إذ قد خدم في ميادين اللاهوت والعلم والسياسة . في حين أن غيره ممن خدموا تتلخص حياتهم في سطر واحد . ومن يدري كم من الخدام الأمناء لم يذكرهم التاريخ حتى بهذا السطر الواحد ؟

٢١٥ - كذلك بدأت المجهودات في سبيل المحافظة على اللغة القبطية ابتداء من القرن العاشر ولكنها كانت وقتذاك مجهودات فردية لم يتردد صداها ولم يتجاوبها الترديد . لأن اللغة كانت حتى ذلك القرن لا تزال متداولة ولم تكن العربية قد حلت محلها ، كما لم يكن ليدور في خلد أحد أن التداول باللغة القبطية سينتهي بعد قرون قصيرة . على أن اللغة العربية أخذت تتسرب إلى الأوساط القبطية تدريجياً حتى كادت تفرقها . وعند ذاك خشى المفكرون أن تضيع نهائياً . فأخذ عدد من أراخنة القرن الثالث عشر يفكرون في وضع المعاجم والكتب الخاصة بقواعدها . وكانوا في تلك الفترة يكتبون العربية بالحروف القبطية إذ قد بدأوا يحلون بها محلها . والكتب التي وضعها هؤلاء الأراخنة تعرف بالمقدمات . أما معاجمهم فاسمها « السلام » . ومع أنه قد انقضت سبعة قرون منذ أن ظهرت هذه المقدمات والسلام إلا أنها ما زالت المرجع الذي يعتمد عليه المشتغلون باللغة القبطية وينراستها حتى الآن .

أما كتب القواعد التي وصلت إلينا عن رجال القرن الثالث عشر فهي :

١ - « مقدمة » للأببا يؤنس السمندى - وكان في طليعة الأساقفة الذين رسمهم الأتيا كيرلس الثالث .

٢ - « مقدمة » لابن كاتب قبصر الذي نال أبوه لقب « الأمير علم

(١) دائرة المعارف القبطية - لومزى تادوس - ج ١ ص ٧٤ .

الدين» لما كان يتمتع به من نفوذ سياسى . أما عنوان المقدمة التى وضعها فهو « التبصرة » إذ كانت تتضمن تفسيراً تفصيلياً لقواعد اللغة القبطية . وتوجد نسخ عديدة من هذه المقدمة . وأقدم هذه النسخ موجوده فى مختلف المكتبات الأوروبية كالمكتبة الأهلية بهاريس - ولقد صاغ ابن كاتب قيصر اللغة القبطية التى كتب بها فى قالب صحيح نصيح يبين للقارئ أنه متبحر فى كل من القبطية والعربية .

ولم يكتف ابن كاتب قيصر بالكتابة عن اللغة القبطية بل وجه انتباهه أيضاً نحو العلوم الدينية فوضع تفسيراً لانهيل متى ، أعمال الرسل ، رسائل پولس ، الكاثوليكون (أى رسائل بقية الرسل) ، ثم سفر الرؤيا .

كذلك توجد بدار الكتب (بالقاهرة) نسخة من الترجمة العربية للبشائر الأربعة وهى مخطوطة ومقيدة تحت رقم ٩٧ لاهوت كتب عليها : « أنها منقولة من نسخة الرئيس الفاضل ابن كاتب قيصر » (١) .

٣ - الأسعد أبو الفرج بن الصال - وهو أحد أربعة إخوة (٢) - أنجبوا العدد الوفير من الكتب العربية . ولا تزال ميامرهم تقرأ فى المواسم والأعياد . وقد وضع أبو الفرج « مقدمة » ثم ألهم قلب صديقه الراهب القليوبى ليكتب هو أيضاً . وكان القليوبى هذا أبناً لكاهن وحفيداً لكاهن . فلم يكتف بكتابة « مقدمة » عن اللغة القبطية بل ترجم المزامير أيضاً من القبطية إلى العربية ونشرها باللغتين ، كذلك شجع أولاد الصال الكثير من الكتاب ، ومن الأدلة على هذا التشجيع نسخة محفوظة بمكتبة المتحف القبطى تتضمن البشائر الأربعة باللغة القبطية ، تزين أول كل بشارة رسوم هندسية رائعة ملونة بلاء الذهب . وقد جاء فى آخر هذه النسخة عبارات قبطية وترجمتها هى « كتبه الناسخ الراهب القس غبريال فى بيت

(١) كتاب تفسير رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى لابن كاتب قيصر - عنى بمراجعته ووضع حواشيه القمص أرمانىوس حشى شتا البرمارى المترهب بندير السيدة العلواء الشهير بالصريان ، نشرته جمعية المحبة القبطية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ - المقدمة .

(٢) كتب دكتور جراف المستشرق الألمانى مقالاً ضافياً عن هؤلاء الاخوة نشره فى « أوريونتاليا روما » سنة ١٩٣٢ ج ١ نيف ١ ، ٢ ، ٣ .

الأرخن المكرم الأمجد ابن العسال الذي أقام به عشر سنوات في سوريا وبابلون - وقف على الكنيسة المعلقة ^(١) .

٤ - كتاب يتضمن نقداً وتكملة للكتب السالفة كلها وضعه أسقف دمياط الذي كان ضمن من حضروا المجمع المقدس للنظر في أمر الأتيا كيرلس الثالث .

٥ - الأتيا أثناسيوس أسقف قوص ^(٢) الذي جاء من بعدهم مباشرة ورأى أن يحلوا حلهم في سبيل الاحتفاظ باللغة القبطية فوضع «مقدمة» باللهجتين البهيرية والصعيدية جعل عنوانها « قلادة التحرير في علم التفسير » ، على أنه لا كان رجل دين فإتته وجه اهتماماً خاصاً نحو التعاليم الكنسية ، فوضع كتاباً عن الأحوال الشخصية وآخر عن تقديس الميرون . ومن الشيق أن كتابه هذا غير قاصر على الشعائر الدينية ، إذ قد تضمن وصفاً تفصيلياً للرحلة من القاهرة إلى وادي النطرون لأنه كان قد اشترك مع باباء في تأدية هذه الشعائر بدير الأتيا مكارى الكبير عملاً بالتقاليد الكنسية القديمة . ومن حسن الحظ أن كتابه لا يزال موجوداً وهو محفوظ بالمكتبة البهارية القبطية بالقاهرة ^(٣) .

٦ - وقد عاصر الأتيا أثناسيوس أسقف قوص مؤلف واسع المعرفة عميق التفكير والبحث هو أبو شاكز بن الراهب أبو الكرم بطرس بن المهذب شماس كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة . كتب كتاباً مستفيضاً بعنوان « الشفا في كشف ما استتر من لاهوت سيدنا المسيح وما اختفى » . ونظرة - ولو عابرة - تكفي للدلالة على عمق أبحاث هذا الشماس ومدى تأملاته . فلقد قسم كتابه هذا إلى ثلاثة أصول : الأصل الأول يتضمن نبرات الأنبياء ، الفاتحة من بولس الرسول ، رؤى ثمانية : الأولى رؤيا أشعيا ، النبي ، الثانية رؤيا حزقيال النبي ، الثالثة رؤيا دانيال النبي ، الرابعة رؤيا إبراهيم الخليل ، الخامسة رؤيا يعقوب ، السادسة رؤيا موسى النبي في

(١) دليل المتحف القبطي لمقرس سمكة ج ١ ص ٤٢ - ٤٣ . وراجع أيضاً « مرشد المتحف القبطي » لوديع شنودة ص ٨١ حيث أورد النص القبطي تليه ترجمته .

(٢) كان هذا الأسقف ابناً لقسيس غرب قمولة ، وقد ترهب قبل رسامته أسقفاً بدير الشهيد مار بقطر السحرواني - أنظر دائرة المعارف القبطية لرمزي تادرس ج ١ ص ٩٥ .

(٣) مخطوط رقم ١٠٦ طقس .

حوريب . السابعة رؤيا شعب إسرائيل على الجبل ، 'الثامنة رؤيا موسى
 كلم الله عند أخذ الأرواح الجواهر المكتوبة بأصبع الله، النتيجة تصريح الأنبياء
 بأن الله يظهر بين الناس ومشي علاقته ، وتبوتهم بحقيقة أزلية لاهوت
 سيدنا المسيح وحقيقة بشريته . ثمراتها تسع وعشرون ثمرة ، عدد فصولها
 مائة وستة وخمسون فصلاً : الأصل الثاني يتضمن الأقوال الانجيلية ،
 الفاتحة من الانجيل المقدس، الرؤى خمسة : الأولى التجلى، الثانية العباد ،
 الثالثة المشى على المياه ، الرابعة الصلب ، الخامسة القيامة ، السادسة
 اظهار ألوهية المسيح وحقيقة بشريته المتحدة بلاهوته ، ثمراتها ستة عشر
 ثمرة ، فصولها ستة وتسعون فصلاً؛ الأصل الثالث يتضمن الأقوال الرسولية،
 الحواريون الأطهار وتلاميذ ربنا يسوع المسيح له المجد ، الفاتحة قول الرسول
 بولس الرؤى خمسة : الأولى الصعود ، الثانية انتخاب سيدنا لشاول ،
 الثالثة صعود بولس إلى السماء الثالثة ، الرابعة رؤيا اسطفانوس، الخامسة
 شهادة يوحنا والنتيجة حقيقة ألوهية سيدنا المسيح وحقيقة بشرته ،
 ثمراتها ست عشرة ثمرة ، فصولها مائة وتسعة وثلاثون فصلاً ، الخاتمة
 الأولى اثبات حدوث القديم فى المحدث ، أربعة فصول . الثانية الاستدلال
 على سبب التجسد وهو اثنا عشر دليلاً وأيضاً شرح الزمزم الرابع
 والأربعين . وقد مهد أبو شاعر لكتابه بمقدمة فى سر التوحيد والتثليث .

ونورد هنا بعض ما جاء فى الكتاب للدلالة على عمق الروحيات التى
 سبها هذا الفكر الروحاني . فمثلاً قال : « ... ومن أشعيا النبى -
 هوذا يتزل من سمائه على سحابة مسرعة فيدخل إلى مصر ويضرب أوثنان
 مصر ... هذه النبوة تمت على مصر ومقطوع الأوثان بدخول سيدنا المسيح
 إلى أرض مصر مع مريم أمه ويوسف فأبطل الأوثان منها » ... « صلاة
 حبيب النبى على مجىء مسيح الله - يارب سمعت صوتك فخفت . تأملت
 أعمالك فبهت ... التفسير اليهود يظنون أن هذه النبوة تدل على خلاصهم
 من بابل لكننا تدل على أحوال المسيح سيدنا وعلى هلاكهم بعدد من ملوك
 الروم والدليل على ذلك قول النبى لأن الله قد أنبأنى وأرأى يوم النصر
 الذى يقبل على الشعب ...وقول النبى سمعت صوتك فخفت أشار إلى
 صوت المسيح سيدنا على عود الصليب ، وقوله تأملت أعمالك فبهت أشار
 إلى تدبيرات الصلب والآلام والموت والقيامة والصعود التى تفوق كل عقل

وتدبير ... وقوله يعلمونك فيما بين حيواتين دل على رفعتة على عود الصليب بين اللصين . فبقوله يا رب اعترف بلاهوته الأزلى وقوله بين حيواتين اعترف ببشريته المتحدة به وقول داود ^(١) ارتجت الشعوب وهزت الأمم بالأباطيل - نبوة على شعب اليهود والأمم الذين قاموا على سيدنا المسيح وقاوموه لأنه الرب ومسيحه : فهو الرب من حيث هو الإله كلمة الله وهو مسيحه من حيث مسح ^(٢) لاهوته لناسوته ... وقوله أنت ابنتى أنا اليوم ولدتك دل بهذا على أزلية الوالد لأن يوم الرب ليس له ابتداء ولا انتهاء ... ، ، وقول ملاخى ها أنذا أرسل ملاكى ويسهل الطريق أمامى ويفتحه يأتى إلى هيكلك الرب - أنظر وتأمل أن النبى لما فرغ من ذكر الرسول وتسهيل الطريق أمامه ذكر مجئ ملك العهد الجديد الذى هو سيدنا المسيح ، ، لأشعياء النبى فى ظهور المعمودية ^(٣) ... وحسن ها أنذا صانع مغوثة جديدة تظهر ولا تعلموها ... ويكرمنى وحش الصحراء - أشار بالمغوثة الجديدة إلى المعمودية وبالوحش إلى الأمم الخارجة ... ^(٤) .

هذه أمثلة قليلة جداً من هذا الكتاب الروحى العظيم . ومع ضخامة الجهد الذى بذله أبو شاكرو فإننا نجهل كل ما يتعلق بحياته . كذلك وضع كتاباً عن حساب الأبطى أوضح فيه القواعد التى قامت عليها مواعيد الأعياد القبطية والتاريخ المسيحى . وله - عدا هذين الكتابين - كتاب التاريخ ويشتمل على تاريخ الأباء الأولين والقضاة والملوك وميلاد السيد المسيح وخراب أورشليم ، وتاريخ الخلفاء الراشدين وبنى أمية والعباسيين والفاطميين والأيوبيين ، ثم تاريخ بطاركة الاسكندرية من مارمرقس إلى البطريرك السادس والسبعين. وتوجد نسخة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان

(١) المزمور الثانى .

(٢) المعنى هنا من المسحة المقدسة التى كانت تستعمل قديماً لمسح الملوك والأنبياء والكهنة ثم تحولت فى العهد الجديد إلى مسحة لها صلواتها وشعائرها .

(٣) الإصحاح الثانى عشر .

(٤) هذا الكتاب طبع على نفقة القصر جرجى بطرانية بنى سوف والراهب بدير القديس أبو يحنس كامل الشهير بالسريان - طبع بمطبعة روميس بالفجالة بمصر فى أيام الأنبا إيساك مطران كرسى البهنسا وبنى سوف وبابوية الأنبا كيرلس الخامس . ومع أن هذه المطبعة قد نقلت فإن أحداً لم يعد لها مع الأسف لأن هذا الكتاب ثمين للغاية يوضح الكثير من النبوات الخاصة برب المجد .

مع ترجمتها اللاتينية . وقد نشر المستشرق الفرنسي شاميا النص العربى
الأصلى مع ترجمته اللاتينية ^(١) . وله أيضاً كتاب فى قواعد اللغة
القطبية قال فى التمهيد له أنه استقاه من أربعة وعشرين مصدراً من بينها
مصدران هما « مقدمة » أسقف سخا وأخرى لابن الرجال . وما يؤسف له
جد الأسف أن التاريخ يجهل كل شئ عن هذين المؤلفين كما يجهل من هو
ابن الراهب هذا . على أنه يوجد بالمتحف القطبى كتاب مخطوط يتضمن
أعمال الرسل والرسائل فى نهرين : عربى وقبطى ، والصفحة الأولى من كل
رسالة مزينة برسوم هندسية ومعالجة بماء الذهب . وفى أول الكتاب هذه
العبارة : « اهتم به شاكر بن الراهب ، كتبه غوريال الراهب ... » والجزء
الأول لهذا الكتاب - وهو البشائر الأربعة - محفوظ بمكتبة المعهد
الكاثوليكي بهاريس ^(٢) .

٢١٦ - أما المعاجم فقد ظهر منها فى ذلك العصر مخطوطان أولهما
للأبنا يونس الذى سبق ذكره فى الحديث عن المقدمات ، وثانيهما لأبى اسحق
بن العسال بعنوان : « السلم المقفى والذهب المصفى » أتبع فيه خطة منظمة
بأن راعى تسلسل الحروف الأبجدية كما راعى مع هذا التسلسل تقارب
التطقى اللفظى ، فمثلاً وضع كلمات ناديت (ALEUT) ، والهاوية
(ALEUT) دودة (ALEUT) وضعاً متتالياً .

وأبو اسحق هو واحد من ثلاثة أخوة هم أبناء فخر الدولة أبى الفضل ابن
أبى اليسر يوحنا العسال ، ويقف بعدهم رابعهم وهو حفيد لهذا الرجل
الكبير . وقد تفوق الجميع فى الخدمة والكتابة ومازالت مؤلفاتهم للآن تحفاً
رائعة . والأخوة الثلاثة هم : الشيخ الرئيس مؤمن الدولة أبو اسحق ،
الشيخ الحكيم الأسعد أبو الفرج هبة الله ، الشيخ الصفى أبو الفضائل
الأسجد . أما الحفيد فهو أبو شاكر بن أبى الفرج أى أنه ابن للأخ الأوسط
بين الثلاثة . والألقاب المقترنة بأسمائهم إنما هى مما أضفاها عليهم السلاطين
الأيوبيون تقديراً لخدماتهم الممتازة . ولا نعرف بالضبط ما هى الوظيفة
التي كان يشغلها كل من الأخوين الكبيرين ولكن أصغرهم كان كاتب

(١) دائرة المعارف القطبية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣٤ .

(٢) دائرة المعارف القطبية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣٤ .

ديوان الجيش كما أنه اختير ليكون كاتب سر للمجمع الاكليسيكي الذي انعقد للنظر في موقف البابا كيرلس الثالث (بن لقلق) . وقد تمكن الجميع من اللغة العربية إلى حد أن كتاباتهم ما زالت تهز القلوب حتى الآن . كذلك برعوا في القبطية والسريانية واليونانية وتبحروا في الرياضة والفلك والتاريخ والطبيعة والتركيبات الكيميائية . إلا أنهم تفوقوا فوق هذا كله في العلوم الدينية العقيدية والقوانين الشرعية .

أما مؤلفاتهم الباقية بين أيدينا فهي :

أولاً - للمؤلفين أبي إسحق : مجموع أصول الدين ومسموع محصول اليقين ، التبصرة المختصرة في اللغة القبطية ، آداب الكنيسة ، خطب الأعياد السيدية ، مقدمة في رسائل بولس - هذه إلى جانب المعجم المذكور في اللغة القبطية .

ثانياً - للإسعد أبي الفرج : مقدمة في اللغة القبطية ، مقابلة بين ترجمات الأناجيل الأربعة ، رسالة عن مقدمة رسائل بولس التي كتبها أخوه ، كتاب عن الحساب الأبقطي يشتغل على بعض القواعد الفلكية والتاريخية وجدول للبطاركة ، أرجوزة في هذا الحساب ، رسائل عن الأنفس بعد مفارقتها للأجساد .

ثالثاً - للصفي أبي الفضائل : الصنائع في الرد على النصائح ، نهج السبيل في الرد على من قدح في الانجيل ، المجموع الصفري وهو موسوعة قانونية ، الكتاب الأوسط لفصول مختصرة عن التوحيد والتثليث ، حواشي متنوعة على مناظرات الشيخ عيسى الوداق العالم المسلم مع الشيخ يحيى ابن عدى العالم اللاهوتي السرياني وأجوبة قاطعة على اعتراضات الشيخ عبد الله الناشئ والامام فخر الدين بن الخطيب ، فصول في العماد والزواج والوصية والميراث ، نبذة عن الأوقاف ، كفاية المبتدئين في علم القوانين - وقد ضاع هذا الكتاب إذ لم يعثر عليه للآن .

رابعاً - لأبي شاكز بن أبي الفرج : مختصر في الأبقطيات تاريخه سنة ١٠٥٣ ش . وهناك كتاب روي يختص بتفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي كتبه أحد الإخوة . وهذا التفسير حلقة ضمن السلسلة غير المنقطعة لما كتبه

القبط عن هذا السفر الملىء بالضموض والذي استثار عقول المفكرين والسامعين نحو معرفة كنه الأسفار الإلهية في مختلف العصور .

ومع أن العديد من كتاباتهم محفوظة في مختلف المكتبات الأوروبية ، ومع أن المستشرق الألماني جراف قد كتب عنهم وذكر مؤلفاتهم كما كتب عنهم المستشرق الفرنسي مالون إلا أن سيرتهم ومؤلفاتهم ما زالت أرضاً بكرأ يجدر بالباحثين القبط الساعين إلى التعرف على تراثهم الروحي أن يبدأوا بتفليحها ^(١) .

ومن الكتب التي عشر عليها المستشرقون كتاب عنوانه : « قصة عجائب رئيس الملائكة ميخائيل في أرض فلسطين » ، وهو يتضمن أربع عشرة أعجوبة لهذا الملك العظيم بالإضافة إلى ثلاثة عشر مقالاً تسرد أحدها سيرة القديس تكلا هيمانوت كبير قديسي أثيوبيا بينما تسرد المقالات الأخرى قصصاً لمختلف القديسين . وقد نشر هذا الكتاب كرتشنوفسكى المستشرق الروسى سنة ١٩٠٩ . ويغلب الظن على أنه من مؤلفات ابن الراهب ولو أن البعض يرجع أنه لأحد أولاد العسال ^(٢) .

٢١٧ - وما يحز في النفس أن هذه المؤلفات جميعها لم تقو على حفظ اللغة القبطية ، فقد طفت عليها اللغة العربية حتى لم تعد تسمع في غير طقوس الكنيسة . ومنذ القرن التاسع عشر زحف على مصر رهط من الأجانب الذين فتحوا المدارس واستتروا وراء العلم ليلوغ الغرض المذهبي الذي هجروا بلادهم من أجله . فكان من أبرز آثار هذه المدارس تحول بعض

(١) « مدرسة لعلماء من القبط » (بالفرنسية) لأكسيس مالون - البحث الثاني - طبع بمطبعة سان جوزيف ببيروت سنة ١٩٠٧ ص ٢١٢ - ٢١٥ ، تاريخ الأمة القبطية لمعقوب نخلة رومية ص ١٨٥ ، تاريخ المسيحية الشرقية (بالانجليزية) لعزير سورمال عطية ص ٩٩ ، تاريخ الأمة القبطية - الحلقة الثانية - لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١٢٤ - ١٢٨ ، دائرة المعارف ... ص ٥٣ ، ٦١ ، ٧٤ . كذلك جاء في كتاب ترياق العقول في علم الأصول ص ٥١ ما يلى : « السيد الفاضل عرف بابن العسال سبط الأب المكرم الحسن الشيخوخة الأب بطرس المعروف بالسمنتى وتبين لنا هذه الجملة أن القس بطرس السمنتى كان معلماً لأولاد العسال .
(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تافرس ج ١ ص ٧٤ .

القبط عن عقيدتهم وتراثهم الفكرى المصرى العريق إلى ما بثه فى نفوسهم أصحاب تلك المدارس من ثقافة غريبة باعدت بينهم وبين بيتهم الروحية .

ومما زاد الطين بلة أن بعض رجال الدين - نزولاً على رغبة أبنائهم الذين استقوا علومهم فى تلك المدارس الأجنبية - أصبحوا يؤدون معظم الشعائر الدينية باللغة العربية بدلاً من القبطية . فلم يعد ما بقى منها غير صدى خافت ■ كانت عليه .

على أنه رغم هذه العوامل الهدامة ، فقد أخذ بعض المفكرين فى هذا العصر يشعرون بضرورة احياء تراث الآباء روحياً ولفوياً . ومن أقوى الوسائل التى تذرهم بها الكلية الاكليريكية والمعهد العالى للدراسات القبطية . وهذه الجهود - وإن تبدو ضئيلة الآن - تبشر بانشقاق فجر جديد : فجر شبيه بفجر القيامة المجيدة .

والى جانب هؤلاء الكتاب نقرأ عن أراخنة كانوا ذوى مكانة ممتازة فى عصرهم منهم : أبو المكارم بن أبى الطيب جد العلامة بن المكين الذى كان يمتلك المزارع الواسعة وله فيها خلايا النحل ، تزوج من أخت سمعان ابن كليل وأنجب منها ثلاثة أولاد هم النجيب أبو الفضل والعميد أبو الياس وأبو المكارم الكاتب المعروف . وقد عاصرهم المعلم يوحنا الشهير بأبى المصرى الذى كان رئيساً على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة فصرف الكثير من المال على نسخ الكتب ووقفها على هذه الكنيسة ^(١) .



(١) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٧٤ .

(د) زعيم روحى

٢١٨- اخوان متباينان

٢١٩- مؤلفات ابن المكين

٢١٨ - كان جرجس بن العميد الملقب بابن المكين من أرخنة الفكر كما كان أخاً لرئيس فى العالم : فقد كان يتولاً بحاشية بيتما كان أخوه الأسعد ابراهيم كاتب الجيوش فى عهد الملك العادل . وقد كان قلب ابن المكين ملتجئاً بحب الكنيسة فترك الجاه العالمى ليعيش فى دير الأنبا يؤنس القصير بطرة (جنوبى القاهرة) حيث كرس نفسه للبحث والدراسة والصلاة والتأمل فى عظام الله . وقد تطلع فى القبطية والعربية واليونانية والمنطق والفلك والتاريخ ، كما أثبت جدارته فى التقوى والتقشف والمحبة . فألهمه رئيس الدير الاسكيم المقدس . وقد راقب ابن المكين شعبه فرجد هالبعته تائهة فى ظلمة الجهل ، ورأى أن يعتادك هذا الجهل قدر امكانه فانشغل بالكتابة فى العقيدة الأرثوذكسية مبيناً أنها هى العقيدة التى زاد عنها الشهداء بدمائهم والمعتزليون بالامهم والآباء بكل جهودهم الفكرية والروحية .

٢١٩ - وابن المكين شبيه بعدد كبير من أمثاله الذين حملوا الشعلة فى كونه جندي مجهول - ولا نعرف عن سيرته إلا الأمر الضئيل . ولكنه ترك لنا أربعة مؤلفات لها قيمتها هى :

١ - « المستفاد من بديهة الاجتهاد » الذى امتدح فيه المجدين الكادحين .

٢ - تاريخ مدنى عنوانه « المجموع المبارك » ويقع فى جزئين ترجم الجزء الثانى منه إلى الفرنسية ^(١) .

٣ - بعد أن فرغ من وضع كتابه التاريخى وجد أن المؤرخ المعروف - الطبرى - قد انتقل إلى دار البقاء من غير أن يكمل كتابه فأخذ على عاتقه تكملته .

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة رواية ص ١٨٦ . ويقول عزيز سوريال عطية فى كتابه « تاريخ المسيحية الشرقية » (بالانجليزية) ص ٩٦ بأنه ترجم إلى عدة لغات مختلفة منذ القرن السابع عشر كما كان مرجعاً موثقاً به إستند إليه القريزى .

٤ - أما كتابه الرابع فعنوانه « مختصر البيان في تحقيق الإيمان الموسوم بالحوى » ويقع في جزئين أيضاً ، وقد قال في مقدمته : « لما كانت هناك أهوية فاسدة لاتوافق قواعد البيئة الأرثوذكسية وهنائها في حقيقة التجسد المجد ... وهو بما كان الآباء النجباء حمد البيئة الأرثوذكسية المؤيدون باليد النيرة قد اجتهدوا وجاهدوا في محو أثره من أذهان المؤمنين وأزالوا ذكره من السنة الأرثوذكسية كمثل مقالة أريوس الملحد الذى كان يعتقد أن يسوع المسيح ابن الله مخلوق من حيث حقيقة ، ومقدونيوس القائل بأن روح القدس مخلوق كسائر المخلوقات وأوطاخى القائل بأن الجسد المأخوذ من مريم العذراء ليس كأجسادنا الأدمية بل مخالفاً في جوهره ... ثم تبليت الآراء في الاعتقادات . فلما اجتمع بين بعض من يجب على حقه .. فأطلعنى على ما عنده من الحيرة والتقسيم ... واستعفيت من الكلام لعلمى بتقصيرى وضعفى ... فلما كلفنى اتباع عرضه وبغيته . وبعد أن ظهر لى أن طاعته إياه تزيد مرضه وتزيد صحته أطعته طاعة المستفيد الرابع ... قدمت له فتات موائد السادات ... » ^(١) وهكذا ارتضى أن يكتب في العليقة مستلهماً الآباء مستعيناً بمؤازرة الروح القدس .



(١) « مختصر البيان .. » لابن المكين طبعه القمص بطرس عبد الملك خادم الكنيسة المرقسية الكبرى (البطريركية) بالقاهرة سنة ١٩٠٦ من ٣ - ٩ .

الفصل الثالث *

ويحتوى على :

- * ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر .
- * ما ينبغى فهمه من قول الرسول (أم ليس للفاخورى سلطان على الطين رو ٩ : ٢١)

(١) ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر

نقول أنه من أمس الضرورات وأشدّها احتياجاً الكلام فى هذه المسألة وتحقيقتها لأن الكلام من أبناء البيعة والأمم الخارجة كثيراً ما يقع فيها البحث لتحقيقتها وخصوصاً هذه المسألة . ولأن هذه القضية من القضايا العويصة فيجب أن نذكر حلها من جهتي النقل والعقل لأن القضايا إذا تحققت من هاتين الوجهتين كانت من الأمور المتينة فى الطرف الأقصى .

رأى الخارجين عن معتقدنا :

أنهم يرون أن كل شئ بما يقع فى الوجود ويظهر من خير وشر هو من عند الله تعالى . وهذا الكلام يلزم منه أن الهارى عز وجل هو حلة الشرور أبعداً . ويلزم من هنا أيضاً عدة شفاعات منهم أن إرساله الأنبياء وتكليفهم بالتبشير عبث لا ضرورة له ولا فائدة فيه . وذلك أن الهارى سبحانه يعلم المطيع الصالح قبل إرساله النبى له أنه مطيع صالح ومن أهل الطاعة فقول النبى له وأمره بالصالح لا فائدة فيه ولا يجرى له نفعاً ، لأنه لو قال له لا تعمل صالحاً لا يمكنه أن لا يعمل صالحاً لأن المخرج من المقدور غير مستطاع لأن المقدور لا بد من وقوعه حتماً . وكذلك قوله للطالح .

* صفحة ١٤١ من كتاب ومختصر البيان فى تحقيق البيان الموسوم بالخوارى ، لابن المكين - نسخة ورية وهى بنشره القمص تادئوس شحات رئيس الدير المحرق وقواء باسبلى الأستاذ بالكلية الأكاديمية (باكورة إنتاج دار النشر القبطية بشبرا)

ومن نعمة الله أن أطاع ابن المكين ^(١) رغبته ورغبة أصدقائه لأن الكتاب الذي تركه لنا عن الإيمان يشهد بتعمقه في فهم حقيقة هذا الإيمان الأرثوذكسي كما يشهد بجدارته في أن يحمل الشعلة التي حملها علماء المدرسة الاسكندرية في العصور الأولى ^(٢) . ونظرة واحدة الى الموضوعات التي عالجها تبين هذه الحقيقة ولو أن من يطالع الكتاب يزداد اقتناعاً - لأن العنوان وإن دل على الموضوع إلا أنه مقتضب بحكم الضرورة . فبعد المقدمة عالج ابن المكين الموضوعات الآتية في الجزء الأول من كتابه : الباب الأول - الفصل الأول : ١ - الكلام على الاجتهاد في طلب علم الشريعة المسيحية وأنه من الفروض الواجبة ، ٢ - الرد على من يتناول قول الرسول . وعندما ظنوا أنهم حكماء صاروا جهلاء (رو ١ : ٢٢) تأويلاً ردياً ، ٣ - القول على أن العالم هو الذي يمكنه في الحقيقة إقامة الموتى ، ٤ - الرد على من يعتذر كون سيدنا اختار رسلاً جهالاً ، ٥ - الخاتمة .

الفصل الثاني : ١ - ما يجب فهمه من قول المزمور « أنا قلت في قهيري أن كل إنسان كاذب » ، ٢ - وجوب إقامة المعلمين في البيعة المسيحية وما يجب عليهم ، وتحقيق أن الأصهار ليست بمحدودة ولا مقدرة بالدليل الثقلي .

الفصل الثالث : ١ - ما يجب اعتقاده من القول بالقضاء والقدر ، ويتضمن فوائد أخرى ، ٢ - ما ينبغي فهمه من قول الرسول « أم ليس للفاحري سلطان على الطين » رو ٩ : ١٢ . وبقيت هذا الفصل .

الباب الثاني - الفصل الأول : ١ - ما ينبغي أن نعتقد في الرقائق الحادثة بالمؤمنين صالحة كانت أو طالحة ، ٢ - الكلام على واقعة دأود النبي مع شمعى الذي سبه وما فيها من التأويل وحله وغير ذلك .

الفصل الثاني : ١ - ما ينبغي فهمه من قول الرسول بولس « أن قبل ما تأتي الشريعة كانت الخطيئة ممتعة وكنت أنا حي . ولما جاءت الشريعة

(١) عما يجتر ذكره أن ابن المكين هذا هو ابن أخت سمعان بن كليل الذي وردت لمحة عنه على ص ٤٩ - فيكون هو وخاله ضمن حملة الشعلة المشاهير .

(٢) تاريخ القديس الأنبا يحنس القصير للقمص ميصائيل بحر ص ٦٣ - ٦٦ .

عاشت الخطيئة وموت أنا « رو ٧ : ٩ . وفيه ما ينبغي فهمه من قول متى الرسول « ادخلوا من الباب الضيق الخ » مت ٧ : ١٣ . ومن قوله أيضاً « ما أكثر المدعويين وأقل المنتخبين » مت ١٦ : ٢ . ١٤ : ٢٢ . ٢ - ما ينبغي فهمه من قول بطرس الرسول « إن كل أمة تعمل البر فهي مقبولة قدام الله » أع ١ : ٣٥ . ٣ - قول لوقا البشير « قليلون هم الذين يجدون الحياة » لو ١٣ : ٢٤ . الفصل الثالث : ١ - لِمَ أتت الشريعة النقلية أولاً لبني اسرائيل خاصة دون غيرهم من الموجودين في وقتهم ؟ ولِمَ لم تعم الناس جميعاً عند ظهورها ؛ ولِمَ أهمل الناس بغير شريعة نقلية إلى أيام موسى ؟ ولِمَ ظهر التجسد المجيد من أمة اسرائيل دون غيرها ؟ ٢ - الرد على من هكت أهل الشريعة الكتابية بقولهم « أن تأخير الخير والجهود الذي هو الشريعة من وقت إلى آخر قدح في حق الجواد » الرد على من يعتقد أن الشريعة المسيحية يصح عليها النسخ والتبديل والتغيير في الأناجيل . وفيه ما يتعلق بنسخ الشريعة الموسوية بالشريعة المسيحية .

الباب الثالث - الفصل الأول : ١ - سرد ذكر صليب رب المجد وكونه كان ضروري الوقوع وفيها يترقب عليه من النعم والفوائد الجزيلة . وفيه بأن تسليحه كان ارادياً اختيارياً . وفيه أن الشريعة المسيحية لا تقبل النسخ ولا التغيير ، ٢ - ان التعريف والتبديل مستحيل في الأناجيل .

الفصل الثاني : ١ - لِمَ أرسل سيدنا تلاميذه بعد قيامته ليكرزوا بدعوته قال لهم « امضوا وتلمذوا كل الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس » مت ٢٨ : ١٩ . و لِمَ يقل في جملة أمره لهم بهذا التعليم (الإله الواحد) ؟ ٢ - لِمَ سمي سيدنا له المجد « كلمة الله وابن الله » من قم الأنبياء قبل ظهوره وبعد ظهوره ؟ ٣ - ظهر الروح القدس على التلاميذ في عليّة صهيون ظاهراً للحس شبه السنة نارية و لِمَ يظهر فيما بعد على المؤمنين عند العماد كذلك ؟ ٤ - هل يجوز أن يقسم الله بغير ذاته تعالى أم لا يجوز ؟

الفصل الثالث : القول على الذين وقعوا في منقطة الجهود وواقفوا الخارجين عن الإيمان على رأيهم واصطلاحهم - كيف ينبغي أن نفهم قول

ربنا له المجد » من أنكرنى قدام الناس ... الخ « مت ١٠: ٣٣ . ما ينبغي عليهم فى كيف يكون التنصل من هذه الواقعة - ما هو دواؤهم وكيف يتمكن الطبيب فى استعمال الدواء معهم .

على أن المؤمنين الآن فى حاجة إلى الاطلاع على ما كتبه هذا الراهب العلامة توضيحاً للعقيدة الأرثوذكسية لذلك نقتطف ما يلى :

« لأن كل ما له لحم و عظم فهو فى جملة المركبات . وكل مركب فهو كائن بعد إن لم يكن . وكل ما اندرج تحت الكيتونة فهو محدث لا محالة . والرسول لوقا قد صرح فى بشارته قائلاً : « وأما الصبى فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة » فأطلق عليه اسم الصبا فى وقت واسم الولادة الزمنية فى وقت آخر ليس إلا لتحقيق صحة القول بأن ناسوته ينمو ويتزايد فى أقطاره الثلاثة وينشأ تدريجياً . ليعلمنا أنه بعد اتحاده بالأزلى لم يتغير جوهره . بل كان واحد من الأزلى والزمنى حافظ لجوهره وخاصته . فهو واحد من أزلى وزمنى ، مات بانسانيته بقوة لاهوته . فهو فاعل فى ذاته بذاته ... ففيه الإله الكلمة المعبر عنه بالابن الأزلى وفيه الابن الزمنى المأخوذ من الطبيعة المريمية . فهو واحد متقوم من اثنين . فاعل بوجه ومنفعل بوجه آخر . وهذا الأمر قد حققه وأظهره فى أقواله وأفعاله . فمنها قوله تعالى لليهود . انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه وقد شهد البشير أنه إنما عنى به هيكل جسده فإن كان الذى اتخذه من السر المريمى وهو جسده المجد قد صار بالاتحاد الأزلى أزلياً وتغير عن حقيقته فما هو الذى ينقض ؟ وما هو الذى يقيمه بعد موته ؟ ... » .

« ... وليس يردع المخالفين للأصول المسيحية إلا قولنا بأن المفهوم من اسم يسوع المسيح أنه الكلمة الأزلى ظهر متحداً بإنسان زمنى مخلوق محدث . حتى إذا قالوا : إن الهكم صلب ومات ، نقول - نعم الأمر كذلك . ولكنه صلب ومات بما له من الجوهر المحدث المخلوق . ولهذا نقول إنه جوهر من جوهرين أزلى وزمنى . صار منهما حقيقة واحدة ... وله ولادتان : ولادة أزلية من الأب قبل كل الدهور ، وولادة زمنية كائنة بعد أن لم تكن . وظهر قبحاها بولادته الزمنية . وتصرف بيتنا تصرف الإله المتأنس . ولذلك تلا الرسول هذا الكلام بقوله وحل بيتنا ورأينا مجده .

« أى أنه اتحد بجسد مخلوق من الأحشاء المريمية وحل بيتنا به . وظهر لنا منه ظهوراً ورأينا منه مجده الذى حقق لنا به أن ابن الله تعالى وابن البشر وأنه إله العالمين وديانهم يوم الدين ... » .

« ... فيسوع المسيح تعالى أقتوم واحد صار عن أقتومين : أزلى خالق وزمنى مخلوق . ففيه الولادة الأزلية والولادة الزمنية . فلذلك قال علماء الهيئة المسيحية أن اسم يسوع المسيح له المجد يتضمن جوهرين من جوهرين . أحد الجوهرين هو الذى لا يقبل الأعراض ولا يشغل حيزاً . والآخر هو الجوهر الزمنى المحدث الذى يقبل الأعراض ويشغل حيزاً . ولهذا كان جوهره الزمنى المحدث هو الذى يصح عليه الصلب والموت والقيامة من القبر ... ^(١) » .



(١) مختصر البيان ... ص ١٠ . ٣١ . ٣٢ . ٣٨ - ٣٩ .



أيقونة للسيدة العذراء

موجودة عن يمين الداخل الى الكنيسة الشيدة على اسمها . الشهيرة بالكنيسة
و المعلقة . لكونها مبنية فوق أحد أبراج حصن بابلون (مصر العتيقة) .

وهذه الأيقونة رمز رائع لوحدة التاريخ التي تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذا
الكتاب لان صورة السيدة العذراء والى يسارها ابنها الإلهي من انتاج القرن التاسع ،
في حين أن يوحنا المعمدان الراكع يقبل احدى قدمي المخلص من انتاج القرن الحادى
عشر . ويحيط بالأيقونة اطار من الخشب المحفور والملون من انتاج القرن الثالث عشر .
ولا يستطيع أى شخص أن يدرك هذه الفوارق الزمنية من مجرد النظر إلى الأيقونة -
إلا الاختصاصيون بالطبع . والأيقونة بأطارها تزلف وحدة متجانسة منسجمة بتلاشى الزمن
أمام تجانسها وانسجامها .

القرعة الهيكلية

٢٢٠- تجاوب الامعاء

٢٢٢- تكريس الميزون .

٢٢١- الاستقرار اخيرا

٢٢٤- هزين البابا الاسكندري فالتقاله الى

٢٢٢- العودة الى القيم الروحية .

١- لا النعيم .

٢٢. - في سنة ٩٥٢ م خلت السدة المرقسية بانتقال الاتها كيرلس الثالث إلى الأخدار السماوية . وكان السأم مخيماً على القلوب من أثر السيمونية التي كان البابا الراحل قد قمادى فيها . فاتفق الاكليروس والشعب فيما بينهم على أن يرجئوا التشاور في موضوع انتخاب الخليفة المرقسى إلى أن تهدأ النفوس مما أصابها من قنوط . وعلى ذلك ظلت السدة المرقسية خالية سبع سنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوماً . ولم بعد ذلك أحد يتحدث في أمر اقامة بطريرك لا كبير ولا صغير ولا من عظماء الأمة ولا من عامة الشعب ولا سرا ولا جهراً^(١) . ولقد رأى الملكيون^(٢) الفرصة مواتية فقصدوا إلى السلطان نجم الدين أبى الفتح أيوب الذى اشتهر بالتسامح الدينى وطلبوا إليه أن يأذن لهم بأن يقبضوا من بينهم بطريركاً . فأذن لهم متجاوزاً عن مطالبتهم بأداء المال المفروض في مثل هذه الحالات . فاختاروا راهباً طيباً يلقب بالحكيم المصرى ورسومه باسم غريغوريوس الأول معتبرين إياه خليفة لمارمقس . وكأنما كانت هذه الرسامة ناقوساً أيقظ القبط فنبههم إلى وجوب الاسراع في انتخاب البابا الاسكندري الشرعى . على أن الأراخنة حينما انتبهوا لهذا الأمر الخطير اجتمعوا للتشاور وحدهم في كنيسة الاتها شتودة ببابلون (مصر القديمة) . وقد رأس هذا الاجتماع ابن صاعد وزير السلطان المعز أيبك (الذى خلف نجم الدين) وابن صاعد هذا كان ابن أخت الراهب ابن التعمان (الذى كان قد تزهم الثائرين على الاتها كيرلس الثالث) ، وكان سياسياً

(١) تاريخ البطارقة للآتها يوساب أسقف غره ص ١٦٠ . ١٦١ .

(٢) نسبة إلى الملك مرقسياتوس الذى رأس الجلسة الأولى لمجمع خلقيدون المشنوم سنة ٤٥١ م . وقد أطلق المصريون هذه التسمية على مشايخ خلقيدون الذين ردوا عليهم بتسميتهم « يعاقبه » .

ذا دهاء فأصدر قراراً بأن يدفع التجار والصيادلة وغيرهم من رجال المهن والشروات ضريبة سنوية محددة للدولة ^(١) وفى هذا الاجتماع رأى الأراخنة أن أسهل وسيلة يستفيدون بها فى اختيارهم هى الاحكام إلى القرعة الهيكلية حسماً لما قد يحدث من نزاع وبخاصة لأنهم لم يستشيروا الأساقفة مع أن الأتيا خريستودولس الملقب بابن الدهيرى أسقف دمياط كان موجوداً بالقاهرة إذ ذاك . وقد نفذ الأراخنة رأيهم بسرعة فأسفرت عن فوز الراهب ابن كليل المصرى المترهب بدير الأتيا أنطونى .

غير أن الأخبار ما لبثت أن وصلت مسامع الأتيا خريستودولس الذى ثار لمجانبة الأراخنة التقليد الكنسى القبطى الذى يتبعه على « وجوب انتخاب البابا من سينودس - الأساقفة وجماعة الأكليروس والشعب كسرة الروح القدس » فلما سمع الأراخنة بعودة أسقف دمياط اجتمعوا بالراهب ابن التعمان وبالوزير ابن صاعد وبأرغن اسمه الشيخ الحكيم الرشيد بن خليفة واتفقوا معهم على الاستنجد بالأتيا يوساب أسقف قوه ورجائه بأن يوافقهم إلى القاهرة ويصحبته أسقف دمنهور عميد الأساقفة وأسقف سمند أو من رسمهم البابا كيرلس الثالث . ولقد استجاب الأتيا يوساب لرغبتهم بسرعة واهتمام . وكان بعض العريان المقيمين فى مديرية البحيرة ثائرين على الأهالى فى تلك الأونة مما أحدث اختلالاً فى الأمن . على أن الأتيا يوساب نجح فى توصيل رسالته إلى شريكه فى الخدمة الرسولية بدمنهور رغم هذه القلاقل كما نجح فى توصيلها إلى أسقف سمند . ومن الطريف أن الأتيا يوساب قد جاء من قوه إلى القاهرة فى مركب صغير عن طريق النيل . وقد وصل الأساقفة الثلاثة سالمين .

٢٢١ - وفى تلك الأثناء وصل إلى القاهرة من دمشق راهب مصرى اسمه غبريال كان صديقاً للأمجديين العسال كما كان معلماً لابنه فخر الدولة . وقد رغب الأمجد فى إكرام معلم ولده إلى حد أنه لم يتراجع عن محاولة استغلال منصبه لتجليس الراهب غبريال على السدة المرقسية بدلاً من الراهب ابن كليل المصرى الذى أنجحته القرعة الهيكلية بعد أن - يضيفوا اسم

(١) المخطوط للمقرئى ج ٣ ص ٢٨٦ . تاريخ مصر الحديث لزياد ج ٢ ص ١٠ .
تاريخ المطاركة لأسقف قوه ص ١٦٤ .

الراهب غبريال إلى من يقترحون عليهم . إلا أن الأتيا يرساب استطاع أن يتفاهم بسرعة ولباقة مع الأتيا خريستودولس بن الدهيرى ومع أسقفى دمنهور وسمنود فقرروا جميعاً أنه مآدامت القرعة الهيكلية قد أجريت فلا يلىق إعادتها ثانية . وكان هنالك أرغن اسمه مخلص بن أندونه جاء مع جماعة من أصحابه وتفاهم مع الأساقفة واستطاع أن يوفق بين مؤيدى الراهب ابن كليل المصرى ومؤيدى الراهب غبريال إلى حد أن الجميع اتفقوا على تقديم الأول .

ونتيجة لهذا الاتفاق السليم قام الأساقفة برسمامة ابن كليل المصرى قسماً بكنيسة السيدة العذراء (المعلقة) فى احتفال يفوق عن الوصف إذ قد ازدهمت الكنيسة بجماهير الشعب من باب الهيكل حتى سلالم الباب الكبر . وبعد هذا الاحتفال الرائع استعصحب الأساقفة هذا القمص المكرم إلى الإسكندرية . وما أن بلغوا مشارف المدينة العظيمة حتى خرج الجميع لاستقبالهم وألفوا موكباً فخماً سار فى الشوارع حتى وصل الكنيسة المرقسية حيث تمت المراسيم الدينية المهيبة التى جعلت من ابن كليل المصرى البابا الإسكندرى السادس والسبعين باسم أنثاسيوس الثالث سنة ١٢٤٢ م .

٢٢٢- وحالما تمت رسمامة قام بتكريس عدد من الهياكل ورسمامة الكهنة اللازمين لخدمتها فى الشفر الاسكندرى . وبعد ذلك ذهب لزيارة أديرة وادى النطرون ليعسد روحه ببركة القديسين الذين ترددت أنفاسهم فى تلك المنطقة المقدسة .

ولما عاد من هذه الزيارة المباركة ليهامر مهام كرامته الكهنوتية العظمى امتلأت القلوب هدوء لأن البابا قضى على السيمونية تماماً ، فلم يلتفت إلا إلى ما يتميز به المرشحون للكهنة من روحانية وفضل . كذلك وضع جميع الذين كانوا قد نالوا هذه الكرامة بالسيمونية تحت رقابته الخاصة وطالبهم بأن يقدموا له شخصياً تقارير عن كل ما هو حادث فى كنائسهم وعن أعمالهم من أسبوع لأسبوع . فساد الاستقرار كل مرافق الكنيسة حتى لقد شمل فروعها الممتدة شرقاً لأن هذا البابا الساهر الأمين نهج فى الحصول على تعهد من السلطان الظاهر بيبرس على حماية المقدسات التابعة له فى القدس الشريف وغيرها من مدن البلاد المقدسة (١) .

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لتفرى بردى ج ٧ ص ١٩٤ .

٢٢٣- وفي أثناء تفقده للكنائس لاحظ الأنبا أثناسيوس حاجتها إلى مزيد من الميرون . فدعا الأساقفة لكي يذهبوا في صحبته إلى دير الأنبا مكارى الكبير ويشاركوا معه في إقامة الشعائر المقدسة اللازمة لعمل الميرون . وقد لبي دعوته اثنا عشر أسقفاً وذهبوا جميعاً إلى برية شيهيت حيث قضوا بضعة أيام أدوا في أثنائها الشعائر المقدسة في فرح وروح شامل . وقد زاد هذا الفرح وجودهم في دير الأنبا مكارى أبى برية شيهيت الذى فاضت محبته على الجميع حتى وهو يعد في الجسد - فكم بالحرى تغمرهم هذه المحبة بعد أن سما فوق الجسد .

٢٢٤ - وساد السلام البلاد المصرية وجاراتها فترة من الزمن استقرت خلالها القلوب ، ولكن السلام لم يحل إلا لبضع سنوات قصيرة تهدد من بعدها . ذلك لأن ابن صاعد القبطى الأصل استمر قابضاً على زمام الأمور لأنه أنكر المسيح . ولما كان مثل هؤلاء الجاحدين أكثر الناس تعسفاً فقد استبد هذا الوزير بالشعب عامة وبالقبط خاصة ففرض عليهم المحالى (وهى جزية معينة) وتشدد في جبايتها . كذلك استثار الرعاع في كل من مصر وسوريا . وعلى الرغم من أن هذا الوزير كان قد تنكر لدين المسيح وللمؤمنين بالمسيح فإن الرعاع في ثودتهم أضرموا النار في عدد من الكنائس وقتلوا الكثير من القبط . بل إنه استفز عوام دمشق فغضبوا كنيسة على اسم السيدة العذراء ونهبوا كل ما فيها ثم أضرموا فيها النيران . فطفئ الحزن على قلب الأنبا أثناسيوس الثالث حينما رأى كل ما أصاب الناس من شر على يدي هذا الجاحد ، واستبد به الحزن إلى أن انتقل إلى بيعة الأبهكار . فاحتفل بدفنه الاحتفال المهيب الذى يقام لخلفاء مارمرقس في كنيسة أبى السيفين ببابلون (مصر القديمة) بعد أن قاد دفنة الكنيسة إحدى عشرة سنة وشهراً واحداً وثمانية عشر يوماً . ومع قصر هذه المدة - نسبياً - فإنه عاصر خمسة من حكام مصر هم : شجرة الدر وموسى الأشرف وخليل والملك المعز والمنصور والمظفر والظاهر بيبرس^(١) .

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمع الشماس كامل صالح نخلة ، طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان سنة ١٩٥٢ ص ٦ - ١٥ .

فترة كلها فوضى

أ - تغير الدولة

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------------|
| ٢٢٥ - نهاية الحكم الأيوبي والمخلفات | ٢٢٧ - اضطراب في الخبشة . |
| الروحية عنه . | ٢٢٨ - التعامل مع النوبة . |
| ٢٢٦ - الفوضى تتسرب الى كيفية انتخاب | ٢٢٩ - تصرف شاذ . |
| البابا المرقس . | ٢٣٠ - الأثر الفكري الروهي على |
| | الاهلث |

٢٢٥ - شهدت السنوات الأخيرة من بابوية الأنبا أثناسيوس الثالث أحداثاً جسيمة انتهت بانتقال الحكم من أيدي الأيوبيين إلى أيدي الماليك . وأول من أفسح المجال للماليك هو صلاح الدين بالذات : فقد أراد أن يحيط نفسه بحاشية تكون طوع بديه وتقف سداً منيعاً في وجه أية ثورة قد تقوم ضده . فاهتاج عدداً من الشباب الأقرباء الأغراب وجعل منهم حرسه الخاص . ولما كان شراء الأيوبيين لهؤلاء الماليك مئبراً فقد أخذ عددهم يتزايد على مر السنين ويتزايد معه سلطانهم إلى أن أصبحوا هم أصحاب السلطة الحقيقية رغم وجود السلاطين الأيوبيين ^(١) . فكانوا يعزلون السلطان الذي يفضرون عليه ويقيمون مكانه من يرضون عنه . ولم يكتفوا بالعزل في بعض الأحيان بل كانوا يذهبون إلى حد قتل السلطان الغاضبين عليه .

ولقد كان الأيوبيون في غالبيتهم على جانب كبير من العدالة والعمل على خير الرعية رغم أصابهم بشهرة الحكم . ولقد عمل الملك الكامل على راحة القبط فأذن لهم باصلاح الكنائس المتصدعة وبناء كنائس جديدة ، فلم يصلحوا ولم يبنوا فقط بل زينوا الكنائس بما يلائمهم من الفنون - وهناك عدد من الأيقونات يرجع أنها رسمت في هذه الفترة الآمنة - تنطق كلها

(١) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) ج ٢ المبحث الثاني : « مصر الإسلامية ... » لجاستون فبيت ص ٢٢٨ - ٢٥٥ .



أيقونة السيدة العذراء العجائبية

بكنيستها الأثرية الكبرى بحارة زويلة من القرن الثالث عشر الميلادي

بالدقة وعمق الروحانية . ومن أهدعها تلك الأيقونة الفريدة في إخراجها وفي عظمتها إذ تمثل يسى أبا داود الملك وقد تفرعت منه شجرة والسيدة العذراء جالسة في وسطها تحمل على ذراعيها المباركتين الطفل الألهى . وهذه الشجرة ترمز إلى شجرة الحياة ، ويحيط بها ست عشر نبياً يسلك كل منهم بكتاب متضمناً للنهضة التي نطق بها عن مجسد الابن الكلمة من العذراء القديسة مريم ، ولا تزال هذه الأيقونة تزين المقصورة القبلية الشرقية الملاصقة لهيكل كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ^(١) .

ثم أن هناك أيقونة ضمن عدد غير قليل من الأيقونات التي تزين كنيسة مارمينا بدم الخليج - هذه الأيقونة تمثل شخصين متشابهين إلى حد بعيد حتى لكانهما توأمان . فكل منهما واقف في مواجهة الناظر إليه وفي عينيه نظرة متأملة بعيدة ، ونصفه الأعلى عار بهنما تغطي حقويه منطقة من وير الإهبل . ولحيته البيضاء الطويلة تكاد تصل إلى قدميه ، وشعر رأسه وشواربه طويل ناصع البياض ، وهو يحمل صليبا في يده اليسرى بينما ارتفعت يمينه بالبركة . وخلفه نخلة واحدة تحمل بلعاً أصفر . هذان الصنوان هما أبو نفر السايح والأبنا برسوم العريان ^(٢) .

والتشابه الهادى في الأيقونات قد يعمد بعض المعاصرين تقصيراً من الفنان أو تفاضياً منه عن واقعية الشكل . ولكن الذى يجب أن نذكره هنا هو أن الأيقونة ليست صورة فتوغرافية ولا تصويراً واقعياً مادياً من نموذج جسمى محدد بل هى مستوحاة من الروح للتعبير عن الحقائق الروحية ومن اللازمية ويجب أن تصدر عن بصيرة روحية وتفهم روحى متمازج مع مصدره الذى يعلو على الماديات المحدودة . وإلى جانب هذا كله فالأيقونة يجب أن تترابط مع محيطها العضوى للبناء الروحى الذى تؤلف جزء منه فلا كيان لها إلا داخل إطار العقيدة والعبادة حتى متى وضعت فى بيت خاص . لذلك فالخطوة الأولى اللازمة لتفهمنا الأيقونة هى تفهمنا للوقائع

(١) عن نشرة أصدرها متري خريستو ناظر كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة خاصة بهذه الكنيسة الأثرية فى أول ثوت سنة ١٦٦٦ ش (١١ سبتمبر سنة ١٩٤٩) القاهرة

(٢) « الكنائس القبطية القديمة فى مصر » (بالانجليزية) لألفريد بيلر ج. ١

الروحية التي يصدر عنها القداس الإلهي . وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تكون الأيقونة مجرد نقل حرفي للوقائع العالمية المادية لأنها تسعى إلى تجسيد الأفكار وتستهدف توصيل صورة للنظام الإلهي المقصود من العالم - أي أنها صورة للأشياء كما هي في حالتها الحقيقية الأصيلة « في عيني الله » وليست صورة لهذه الأشياء كما تبدو لنا من وجهة نظرنا المحدودة . ثم أن الأيقونة محاولة لتذكير الإنسان بمعنى كرامته الحققة وما يمكن أن يكونه فتذكره بأنه ساكن في الأبدية وشريك للحياة الملائكية إلى جانب كونه مخلوق من هذه الأرض محدود بالزمن . فالفنان لكي يصل إلى رسم أيقونة يعناها الصحيح عليه أن يرفع رؤيته من الأرضيات إلى السماويات بالمدى الذي يصبح فيه قادراً عقلياً أن يستضيف الشكل الذي سينقله وإلى أن « يعيش » هذا الشكل في أعماقه بجهوده الداخلية الخاصة ^(١) .

وكل من الأيقونة والصليب لا يستهدف توجيه خيالنا أثناء صلواتنا فقط بل أن الأيقونة والصليب هما في واقع الأمر مركز مادي ينبعث منه نشاط وتستقر فيه قوة إلهية توحد نفسها مع الفن الإنساني . وعلى هذا النحو أيضاً فرسم علامة الصليب والماء المقدس وكلمات الأسفار الإلهية المقررة أثناء الشعائر المقدسة والترنم الكهنوتي وزخارف الكنيسة والبخور والشموع الموقدة - كلها هي رموز بالمعنى الواقعي للكلمة : إنها إشارات مادية لوجود العالم الروحي وحضوره أمامنا ^(٢) .

ومن أهدع الأمثلة على هذا التصوير للأفكار اللازمية اللامادية أيقونة للقديس يوحنا الحبيب بمارمينا أيضاً . فهذا البشير يتمشى وحده وعيناه متمدتان إلى الأمام في تأمل عميق ، وقد أمسك في يسراه الجيل مفتوحاً وفي يمينه ريشة للكتابة وجسمه مائل قليلاً لأن الساق اليسرى مثناه قليلاً

(١) « فن الأيقونة » (بالإنجليزية) لفيليب شيرارد - مقال نشره في كتاب « السر والصورة » الذي أصدرته جمعية سانت ألбан وسانت مرجيوس الروسية في لندن سنة ١٩٦٧ - ص ٥٧ - ٦٧ .

(٢) لوسكى ■ روحانية اللاهوت في الكنيسة الشرقية » (بالإنجليزية) ص ١٨٩ .

عند الركبة ، والقدم على شكل التأهب للمسير إذ أن طرفها الأمامي مازال مرتكناً على صخرة منخفضة خلفها . والعينان الواسعتان تنظرتهما البعيدة القور تعبران عن حقيقة الأيقونة - فهما عينا رجل استرقفته أفكاره وذكرياته فبدأ كأنه يفوض في أعماق روحه حيث يجد الروح الإلهي^(١) .

وثمة أيقونة أخرى بلغت هذا التعبير الروحي الجميل هي صورة للقديس قلته بكنيسة أبي السيفين بمصر القديمة . فقد كان هذا القديس طبيباً معروفاً . وهو واقف ممسكاً بيمينه عصا صغيرة يشير بها إلى صندوق مرفوع الغطاء مقسم داخله إلى ستة أقسام يحوى كل منها نوعاً من العقار الطبي . وعن اليمين وكأته في الهواء صليب دقيق الصنع مذهب اللون ، وعن اليسار عصا للرعاية . فالكثير من البطارقة اشتهر بمهارته الطبية^(٢) .

ومما يحسن ذكره أن هناك طشتاً من النحاس المكفت^(٣) بالفضة يرجع إلى عهد الملك الصالح . وهذا الطشت محفوظ بمتحف فرير للفن بواشنطن ، وهو آية من آيات الفن : فهو مزين بزخارف متباينة منسجمة رغم تباينها تشتمل على كتابات كوفية ونباتات تنتهي بعض فروعها برؤوس آدمية والبعض الآخر برؤوس حيوانية ومناظر تمثل لعبة البولو . على أن أهم ما يلفت النظر في هذه الزخارف المناظر المأخوذة عن المسيحية أهمها البشارة ، العذراء والطفل ، الهروب إلى مصر ، ابراء الأبرص ، الدخول إلى اورشليم ، العشاء الرباني .

(١) الكنائس القبطية القديمة في مصر (بالانجليزية) لألفريد بطلر ج ١ ص ٥٧ - ٥٨
(٢) شرحه ج ١ ص ٨١ ولقد ذكر أبو المكارم أن الذي رسم أيقونات الأعياد السيدة الكبرى بكنيسة السيدة العذراء بحارة الروم هو الرسام أبو اليسرى من ملبيج . كذلك ذكر في كتابه عن الديارات والكنائس أنه كان يجهل الطير حتى القرن الثاني عشر ثلاث كنائس اثنتان فيها باسم السيدة العذراء والثالثة باسم أنها مكارى الكبير صاحب الدير المعروف الكائن في بركة شيهيت .

(٣) أن فن التكفيت يتلخص في حفر الزخارف على سطح الاتاء حفرًا عميقاً ثم ملء الجزء المحفور بالذهب أو الفضة أو غيرها من المعادن .

ويتساءل البعض : ترى هل صنع هذا الطشت صناعاً قبط أم أن صناعاً مسلمين رسموا المناظر المسيحية لاهدائه إلى أمير مسيحي ممن يتعاملون مع مصر . إن كتابة اسم الملك الصالح عليه تدل على أنه صنع لاستعماله في مصر في قصر الملك الصالح نفسه أو في قصر أحد الأمراء . لأن العادة التي كان معمولاً بها وقتذاك في المنتجات المصنوعة للهدية هي أن تكتب عليها ورقة عليها العبارة التالية « بركة لصاحبه » ولا ينقش اسم السلطان عليها . فأغلب الظن أن هذا الطشت أنتجه صانع قبطي ليستعمله الملك الصالح أو أحد أمرائه ^(١) .

وفي الواقع أن القبط سعدوا بما نالوه من انصاف فاستجابوا لشقة الملك الكامل بهم وحديه عليهم بأن أخلصوا له الولاء في رضى وطمانينة ^(٢) . وما يؤثر عنه أن طبيبه الخاص كان قبطياً اسمه علم الدين أبو النصر جرجس بن أبي حليقة ، سأل أثناء مرضه ذات يوم : كيف نوم السلطان ؟ فأجابه منشداً بيتاً من الشعر :

يا خليلي خبراني بصدق كيف طعم الكرى فإنني نسيت ^(٣)

ويوصف هذا الطبيب بأنه « كان متفتناً في العلم والأدب ، حسن المعاملة ، لطيف المناوأة رؤوفاً بالمرضى ومحباً للفعل الخير » . وكان الملك الكامل قد رآه وهو صبي ولمح الذكاء في عينيه فقال لأبيه : « ولدك هذا ذكي فلا تعلمه الجندية لأن الجنود عندنا كثير وأنتم بيت مبارك فعلمه الطب » . وابتهج أبوه بهذه الملاحظة الصادرة عن الملك فعلم ابنه الطب فعلاً . وقد خدم أبو حليقة الملك الكامل فالملك الصالح فهم الدين أيوب فالملك المعظم وأخيراً خدم الظاهر ركن الدين بيبرس الذي أكرمه وأجزل له العطاء . وبعد هذه الخدمة الطويلة اعتزل مهنة الطب لكي يخلو إلى العبادة والانصراف إلى الروحانيات . وخلال جهاده في سبيل المحافظة على الأجسام سليمة كتب مقالتين أحدهما عن « ضرورة الموت » وثانيتهما عن « حفظ

(١) الفن الاسلامي في العصر الأيوبي لعبد العزيز مرزوق ص ٨٧ - ٩٠ .

(٢) « تاريخ الأمة القبطية » لمعقوب نخلة رويلة ص ١٧٥ - ١٨٣ .

(٣) المخطوط للمعقريزي ج ٢ ص ٣٨٨ .

الصحة » . كما كتب كتابين : الأول عن الأدوية المفردة سماه « المختار في الألف عقار » والثاني عن الأمراض وأسبابها وعلاجاتها ومعارفها بالأدوية المفردة والمركبة » (١) .

ويبدو أن وصف السلطان الكامل لعائلة هذا الطبيب « بالبيت المبارك » كان تعبيراً صادقاً لأن ابن علم الدين ابن النصر جرجس كان طبيباً هو أيضاً بدوره مشهوداً له بأنه « أحاط » بعلوم الحكمة وقد بلغ منزلة كبرى عند الظاهر بيبرس وكان اسمه مهذب الدين وقد وضع كتاباً في الطب . أما أخوه موفق الدين أبو الخير فقد برع في صناعة الكحل حتى لقد صنف للملك الصالح نجم الدين أيوب كتاباً في الكحل . كذلك بلغ أخوه الأصغر مصاف العلماء الحاذقين في الطب (٢) .

على أن فن الرسم لم يكن بالفن الوحيد الذي لاقى عناية كبرى من المصريين - قبطاً ومسلمين - في العهد الأيوبي بل إن فن العمارة الذي لا يزال البعض من متجانيه باقياً للآن يشهد بأن البناء المصري كان محفوظاً حتى ذاك بهرأته القديمة . ومن أبرع الأدلة على هذه البراعة تلك السلسلة المتناسكة من الأبنية ذات القباب الرشيقة المزخرفة زخرفاً مبتكراً يعرف بالمقرنص لا مثيل له في أي فن سابق على العصر الأيوبي .

والى جانب هذه الفنون المختلفة برز فن التجارة - فقد كان التجارون في العصر الأيوبي يزخرفون متاجرتهم بمشوات محفورة عليها زخارف نباتية رائعة من بينها عناقيد العنب وآيات بالحظ الكوفي والحظ النسخ وبالتلوين والحفر والتطعيم . والقطع الخشبية الباقية من هذا العصر « تتجلى فيها الدقة في الحفر والرقعة في الزخرفة والروعة في الخط » (٣) .

وثمة فن آخر برع فيه المصريون في ظل الأيوبيين هو التفنن في صناعة الأواني الزجاجية . ذلك أنهم كانوا يعنون عناية كبرى بالعطور الزكية وبالعلوم الكيماوية فكانوا في حاجة إلى القنود الزجاجية . ومع أن صناعة

(١) تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي لعبد الرحمن زكي ص ٤٤ .

(٢) شرحه ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ص ٥٠ .

الزجاج في مصر كانت سابقة على العصر الأيوبي إلا أن زخرفته بالذهب ظهرت في العصر الفاطمي بينما برع فنانون الأيوبيين في ترصيعه بالمهتاء . وقد قمشى فن الخزف جنباً إلى جنب مع فن الزجاج وامتاز بالرقعة والجمال والحيوية ^(١) .

ولقد برع هؤلاء اللغتين والمفكرين في العصر الأيوبي نتيجة لاستقرارهم النفسي . فلما دالت دولة الأيوبيين أحسوا جميعاً بالأسى يندب إلى نفوسهم متساملين مما عساه أن يكون نصيبهم في ظل الدولة الجديدة : دولة المماليك الذين لا يعرفون غير الحرب والنزال والاستتثار بالحكم والتعزب الحرير . ذلك لأن المماليك كانوا الوسيلة التي استعان بها كل سلطان شاء أن يقضى على منافسيه . يضاف إلى ذلك أنهم كانوا عبيداً في قصور الحكام كما كانوا في الوقت عينه من بلاد مختلفة وتزعجات متباينة . صحيح أن غالبيتهم كانت من الجراكمة والتركمان وبكراد ولكن كان بينهم الصقليون والأسبان . بل إن بعض الأسرى من الصليبيين الوافدين من الشمال الأقصى (كالبلاد الإسكندرية) ضموا إلى هؤلاء المماليك . وهذا التباين الشاسع بين الجنسيات سبب كاف لشيوع الاضطرابات فكيف يكون الحال إذا أضيف إليه أن بعض هؤلاء الناس كانوا من المقامرين الذين باعوا أهل والوطن بينما البعض الآخر سقط في الأسر أو بيع رغماً عنه فامتلات نفسه مرارة وحقدًا ؟ لقد أقضوا مضجع التاريخ نفسه ؛ ويبدو لنا هؤلاء المماليك أشخاصاً أشبه بأبطال الأساطير ؛ فقد كان الرضى والحقد والجرائم الشنعاء والنزعة الروحانية تمتزج فيهم امتزاجاً غريباً . فهم عبيد لا صلة بهذه الأرض الطيبة وليس هناك من حمة يرعونها للأهل والوطن ومع ذلك فقد أقاموا من مصر امبراطورية منرامية الأطراف ونوا روائع المساجد والمدارس والمستشفيات ما لم يبنه سيرةم ا

وكان تورانشاه آخر الأيوبيين لأن المماليك تأمروا عليه وقتلوه . ولم يلبثوا أن قتلوا ابنه فأرملته شجر الدر وهذه الاغتيالات الثلاثة استهلوا حكمهم ولكنهم سرعان ما اغتالوا قطر الذي كانوا قد أولوه السلطنة

(١) شرحه ص ١٦ - ١٧ و ٢١ و ٢٦ و ٢٨ - ٢٩ و ٥٠ و ١٠٦ - ١٠٨ .

واختاروا يبيرس مكانه . على أن هذه الوسيلة لم تكن فى الاستهلال فقط بل استمرت الوسيلة الوحيدة المستعاضة لدى المماليك طيلة مدة حكمهم إلا أنها فى بداية الأمر كانت التعبير عن تصميم المماليك على تصفية الحكم الأيوبي والقبض على زمام السلطة « وهنا يثور على الفور السؤال الهام : وأين كان الشعب المصرى من ذلك كله ؟ الواقع إنه لم يكن غائياً عن كل ما يجرى . ولكن وجوده كان يتخذ أشكالاً متعددة تتفق وطبيعة الشعب نفسه . وصراع القوى الذى يحدث ، وامكانيات التحرك المتاحة ^(١) » .

وأول المماليك وأقواهم سطوة هو الظاهر يبيرس الذى أقام دولة المماليك البحرين ^(٢) . وقد وصفه أحد الكتاب بقوله أنه « شاهه يوليوس قبصر فى شجاعته ونبرون فى خبثه وحقده ومع ذلك فقد كان عاقلاً عفيفاً عادلاً أحسن معاملة رعاياه حتى لقد شملت عدالته المسلمين والقبط على السواء ^(٣) . بينما نقرأ أيضاً أنه كان « من القبط رجل اسمه التاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة وهو يؤمئذ فى خدمة الأمير يبيرس وقد احتوى على عقله واستولى على جميع أموره . كما هى عادة ملوك مصر وأمراتها » ^(٤) .

٢٢٦ - على أنه فى فترة انتقال الحكم من أيدي الأيوبيين إلى أيدي

(١) عن مقال للدكتور ولهم سليمان بعنوان « القاهرة فى مصر المملوكية » نشر فى مجلة الطلبة « العدد الثانى - السنة الخامسة - فبراير سنة ١٩٦٩ ص ٤٨ .

(٢) كان الصالح أيوب قد بنى للمماليك ثكنات على البحر « النيل » ومن هنا كانت تسميتهم بالبحريين على أن هناك من يقول بأن هذه التسمية ترجع الى كونهم جاءوا من وراء البحار - « راجع تاريخ مصر الإسلامية : العصران الأيوبي والمملوكى » للدكتور جمال الدين الشبال ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤن بولد ص ٢٦٣ .

(٤) « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة رونيلة ص ٢١٦ . المخطوط للمقرئى ج ١ ص ٦٩ - ويلاحظ القارىء أن تطور اللغة لا يمتد الى استعمال ألفاظ جديدة فقط بل يشمل التعبير فى معنى اللفظ أيضاً ، فالمقرئى استعمل كلمة « يعانى » بمعنى « يمارس » خلافاً للمعنى الشائع الآن لكلمة « يعانى »

المماليك رأى المصريون جميعاً (قبط ومسلمون) أن القتل والغدر كانا الوسيلة التي وصلت بها الدولة الجديدة إلى الحكم . فامتلات القلوب صخاونا .

وفى وسط هذا الضيق الجاثم على صدور المصريين تبادل الأنا يؤنس السابع والأنا غبريال الثالث السدة المرقسية بطريقة غير مألوفة وغير لائقة . فقد حدث فى سنة ١٢٦١ م - وهى السنة التى انتقل فيها الأنا أثناسيوس الثالث إلى الأخدار الصمارة - أن كان الشعب بقدر راهبين تقديراً متساوياً : أحدهما يؤنس السكرى وثانيهما غبريال ابن اخت الأنا بطرس أسقف طنيدى وتساوت الأصوات التى نالها كل منهما لرأى المستولون أن يلجأوا للقرعة الهيكلية . وعلى ذلك اجتمعوا فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) حيث أقاموا صلاة القداس ثم سحبوا القرعة فووقت على الراهب يؤنس السكرى . على أن الخصام وب ديبه بين الفريقين لأن أنصار الراهب غبريال لم تعجبهم النتيجة مع أنهم كانوا موافقين على مبدأ الاحتكام إلى القرعة الهيكلية فأخذوا يجنون السعى لتجليس مرشحهم على الكرسي البابوى . ولكن أنصار يؤنس كانوا أقوى نفوذاً إذ كان بينهم عدد من كبار رجال الدولة فنجحوا فى رسامة مرشحهم خليفة للقدس مرقس فى الثامن من شهر طوبى المبارك سنة ٩٨٧ ش باسم يؤنس السابع .

٢٢٧ - وفى تلك الأثناء استطاع « يكونو أمك » ملك الحبشة أن يستعيد العرش السليمانى من أسرة مفتصبة له . فأرسل إلى مصر - عن طريق صاحب اليمن - يرجو من البابا الاسكندرى أن يرسم لهم مطراناً . إلا أن الظاهر ببيرس لم يأذن للرسول الآتى من اليمن بحمل رسالة الملك الحبشى بالدخول إلى مصر . ولما كان يكونو أمك فى حاجة إلى مطران يسعده ملكاً لىدين له الشعب بالولاء ، أرسل إلى بطريرك أنطاكية يرجو منه رسامة مطران لبلاد - فتم له ما أراد وبذلك حدثت جفوة بين مصر والحبشة . وكان هذه الجفوة لم تكن كافية لأن تقلق القلوب فقد أراد السلطان الظاهر ببيرس أن يحرق القبط كلهم ، إلا أنه كان هناك من تشفع فيهم من مواطنيهم فلم يتفد السلطان رغبته التخريبية واكتفى بأن أخذ منهم خمسين

ألف ديتار (١).

٢٢٨ - ثم حدث أن تأخر داود ملك النوبة عن دفع البقط (٢) . فرأى
بيبرس بدهائه أن يهدد لنفسه السبيل قبل مقابلته . وعلى ذلك سعى إلى
استمالة شيكندا ابن أخى الملك داود ونجح فعلاً فى ضمه إلى صفوفه .
ثم حارب بيبرس داود وانتصر عليه وقتله . وعندها أقام شيكندا ملكاً
على النوبة . ومن حسن حظ بيبرس أن شيكندا الذى خان عمه حفظ
العهد الذى أخذه على نفسه بعد توليه الملك وهو أنه أقسم بأن يؤدى البقط
من جديد كما أقسم بأن يدفع سنوياً نصف دخله لمصر مرفقاً به ثلاثة فيلة
وثلاث زرافات وخمسة غور ومئة هجين وأربعمائة ثور (٣) .

كذلك نجح بيبرس فى ضم السودان إلى مصر كما استولى أسطوله على
قبرص . بل أنه قبيل وفاته كان سلطانه ممتداً من ساحل الفرات إلى جنوب
بلاد العرب مشتملاً شلال النيل الرابع (٤) .

٢٢٩ - وقد تولى الأنبا يؤنس السابع مهام باهوته مدة ست سنوات
وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً . وكان الفريق الآخر قد تمكن بعدها بما بذل
من جهود من خلق الأنبا يؤنس وتجهيز مرشعهم باسم الأنبا غبريال الثالث
الذى لم يمتح له الجلوس على السدة المرقسية غير سنتين وشهرين انزوى
الأنبا يؤنس خلالها فى دير . ولما كانت نياحة الأنبا غبريال الثالث سابقة
على نياحة الأنبا يؤنس السابع فقد عهد المؤرخون الكتنيون فى سلسلة
البهارات الاسكندرئين السابع والسبعين ووضعوا الانبا يؤنس من بعده فى
هذه السلسلة .

(١) المخطوط للمقرئى ج ١١ ص ٣٠٢ طبعه روفاتيل عبيد - القاهرة سنة ١٨٩٠ . قصة
الأنباط فى الأرض المقدسة لديمتري رزق ص ٣٠ .

(٢) البقط هو العدد المعين من العبيد الذى كان مفروضاً عليه أن يقدمه لمصر سنوياً .

(٣) تاريخ مصر فى المصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤ بول ص ٢٦٢ -
٢٧٥ موجز تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى الفتح العثمانى (بالفرنسية)
لجاستون فييت ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٤) القاهرة ... للدكتور عبد الرحمن زكى ص ١٠٥ .

ورغم قصر المدة التي قضاها الأتيا غيريال على الكرسي المرقسي فإنه قام بتكريس الميرون المقدس .

٢٣ - على أن المطران الأنطاكي الذي كان قد رسم بناء على رغبة يكونو أملك كان محباً للعال . وفي الوقت عينه كان الشعب الحبشي على ولائه للهايا المرقسي فكان يتطلع إلى مطران مرسوم منه . فكانت النتيجة أن ثار الأحباش على المطران الأنطاكي ثورة جعلت يجيبها سيون بن يكونو أملك يرسل إلى الأتيا يؤنس السامع رسالة قال له فيها : « أتوسل للبترك - بطرك الاسكندرية - أبو يحنس ... اسمع كلامي واقض حاجتي واهب لي مطران جيد صالح يعلمني كل شيء جيد ... وهؤلاء السريان المطارنة الذين هتدنا من غير مصر بغضناهم ... ولأجل محبتنا في بطريكية مصر ما خلياتهم ... وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك . سير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح . واذكر مرقس (الرسول) لا تخلينا بخطيتنا ... ولا تخلي هؤلاء السريان في بلادنا ونخرجهم إذا قلت أطردهم ، وإن قلت خلوهم خلياتهم ، وإن أنكرت علينا بسببهم فاعلم لنا هذا الذنب حتى لا تبقى علينا خطية واغفر لكل من هتدنا وتكون بركتك علينا في الحياة وفي الموت » . كلام آخر « السلام لك بامتصور . اسمع ياسلطان مصر نصرك الله أعط البترك الدستور يبعث لي أسقفاً فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقس وإلى اليوم . والرسم الذي لك والتقدمة أنا اغطيه إذا سيرت لي أسقفاً . وإذا سيرته أنا انتضى منه عن رسمك ومهما قال فعلته ^(١) .

ولقد وهب يكونو أملك للكنيسة ثلث إيرادات الدولة للصرف منها على احتياجاتها ^(٢) . وكانت اللغة العربية قد أصبحت لسان القبط المتداول بينهم والذي يكتبون به آدابهم وعلومهم فبدأ في مصر مذاك أدب مسيحي عربي وكان الأحباش يستقون معلوماتهم الدينية والأدبية من إخوانهم القبط . ولما

(١) « قصة الأقباط في الأرض المقدسة » لبيترى رزق هاشم ص ٣١ - ٣٢ ويذكر المؤلف أن يجيياحيون أرسل أيضاً خطاباً منفرداً إلى السلطان . وما تجدر الإشارة إليه بساطة التعبير والألفاظ الهادية في كلمات الخطاب الخالي من كل تنميق .

(٢) كنيسة الاسكندرية في أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص ٩٥ .

كان يكونو أملك صاحياً قوياً حث شعبه على طلب العلم فسرت في بلاده حيوية نهبت من مصر . ذلك لأنه قامت وقتذاك حركة واسعة النطاق لترجمة ما كتبه الآباء المصريون إلى اللغة الأمهرية أولاً . وقد بدأت هذه الحركة في القرن الثالث عشر الذي نحن بصده . فكما أن الأحباش أخذوا ما كتبه الآباء الأهلون بالقبطية كذلك أخذوا ما كتبوه ابتداء من هذه الفترة بالعربية . وابتداء من القرن الرابع عشر لم يكتب المترجمون بنقل كتب الآباء إلى الأمهرية بل ترجموها إلى المعزية التي ذاعت عن خلالها أغلب الكتب اللاهوتية والكنسية . وقد رأس حركة الترجمة في النصف الأول من القرن الرابع عشر المطران القبطي . وقد عبر الأحباش عن تقديرهم لمجهوداته بأن أطلقوا عليه لقب « الأب تراجوامانا » . وقد بدأ بمراجعة الترجمة الموجودة باللغة الحبشية القديمة للكتاب المقدس ومقارنتها بالنص العربي . ثم نشر طبعة جديدة لهذا الكتاب الذي هو قاعدة التعاليم الروحية لدى المسيحيين جميعاً . كذلك ترجمت قوانين الرسل (الرسولية) والقصص الخاصة بآدم وحواء وأعمال الرسل ، ثم الليتورجيات (القداسات) والميامر وسير القديسين والشهداء والسنكسار ، تبعها ميامر أخرى وهجائب السيدة العذراء ، وهجائب مارجرجس الذي من اللد وسيرته .

ومن نعمة الله أن تمت هذه الترجمات وانتشرت لأن هناك كتباً كثيرة ضاعت في الأصل (القبطي أو العربي) ولكنها بقيت في الترجمة الحبشية مما يضاعف قيمتها طبعاً . ومن أشهر الكتب التي ضاعت كتاب التاريخ الذي وضعه يؤنس النيقبوسى وترجمه شماس قبطي وزميل حبشى له ، فقد جاء في ختامه : « لقد عنيت أنا الحفير بين الناس والشماس غبريال الابن الروحى ليؤنس القصير بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الحبشية القديمة بمنتهى الدقة ، وقد أدينا هذه الترجمة نزولاً على إرادة الملكة مريم سنا وأثناسيوس قائد الجيش الحبشى » (١) .

وهناك كتابان في التاريخ أولهما كتبه جرجس بن العميد الملقب بابن المكين وثانيهما وضعه أبو شاكز بن الراهب أبو الكرم بطرس بن المذهب

(١) قصة الكنيسة القبطية . الكتاب الثانى ص ٢٨٤ - ٢٨٨ .

شماس كنيسة المعلقة . وكلاهما عن تاريخ العالم بصفة عامة وعن تاريخ مصر بالتفصيل والتدقيق . وقد ترجم كلاهما أيضاً ^(١) .

والكتب وإن كانت أعظم ما تقدمته الكنيسة القبطية لأبنائها من الأحباش أن هناك تقدمات أخرى إلى جانبها . ومن بين الأعمال المعمارية الضخمة سلسلة من الكنائس شيدت في حكم الملك لاليالا (في أوائل القرن الثالث عشر) . والمخطوطات الباقية من هذا العهد تصل بنا إلى أن بنائهم كانوا من القبط . فالمخطوطة المعروفة بمخطوطة رافراي تقول بأن الملك التقى لاليالا أمر باستحضار أربع مائة أو خمسمائة عامل من أورشليم ومن الأسكندرية وتشمل هذه المخطوطة على صفحة عجيبة مكتوبة بثلاث لغات هي القبطية والعربية والهجزية . وكاتب هذه الصفحة رجل اسمه سيدي مستقل الذي يبدو أنه المهندس والبنائي لهذه الكنائس . والنصف الأول من اسمه عربي في حين أن النصف الثاني هو الكلمة الأمهرية لكلمة « صليب » فمن الواضح أنه كان قبطياً اتخذ اسماً أمهرياً حين ذهب إلى الحبشة . والعجيب أن أهل المنطقة إذا ما سئلوا عن بني هذه الكنائس يجيبون بأنهم « أشخاص بيض » ساعدتهم الملائكة فكان هؤلاء البيض يثرون في النهار بينما يبنى الملائكة في الليل . ومن المعروف أنه في العصر الذي شيدت فيه كنائس لاليالا كان القبط يعانون الاضطهاد فتزع بعض منهم إلى الحبشة واستوطنوها كذلك يرى الاخصائيون أن هذه الكنائس المنحوتة في الصخر لا يمكن أن تكون من عمل بنائين محليين ، ولها نظائر في البلاد المصرية سواء منها ما شيد في عهد القراعتة أو خلال القرون الوسطى فالمصريون من عهود قديمة بنوا معابدهم منحوتة في الصخر ، وهم جيران الأحباش ، وليسوا جيراناً فقط بل هم جيران مترابطون ، والتاريخ ينهنا عن الأعمال المعمارية التي قام بها الصناع والفنانون القبط في تونس وفي فلسطين وفي غيرها من بلاد هذا الشرق القديم . فمن الطبيعي أن يتجه الأحباش بأبصارهم إلى المصريين ، ومن الطبيعي أيضاً أن يلبي المصريون طلب إخوتهم الأحباش . خصوصاً إذا تذكرنا أنه في تلك العصور لم تكن أوروبا

(١) ترجمات من العربية إلى الأدب الاتيموى (بالانجليزية) مقال للدكتور مراد كامل نشره في مجلة جمعية الآثار القبطية العدد السابع (سنة ١٩٤١) ص ٦١ - ٧١ .

(وبالتالي أمريكا) لها وجود في القارة الأفريقية . فلم يكن غير الأفريقيين مع بعضهم البعض . فإذا ما تأملنا كل هذه الروائع وصلنا إلى أن القبط لا محالة هم الذين قاموا ببناء كنائس لالهبالا (١) .

ولما انتقل الأنبا غبريال إلى بيعة الأبهكار أعيد الأنبا يؤنس السابع إلى السيدة المرقسية . ومن أرق ما قيل عن انسان تلك الكلمات التي وصف بها هذا البابا الاسكندري وهي : « كان رجلا جليل القدر وقورا واسع العلم والمعرفة . فلما استقر به المنصب دبر الأمور فأحسن التدبير وعمل على إزالة الوحشة من بين الأحزاب وبالح في التلطف مع الخزم فغاز ونجح ومالت إليه القلوب واتحدت على صحبته الخواطر . فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه » (٢) .

على أن الحالة السياسية إذ ذاك كانت عصبية بسبب ما ساد مصر من الفتن والفتائل . وكان الدافع لهذه الفتن فداحة الضرائب المتزايدة والعشدة في فرض ملابس خاصة على القبط وترك العامة يتهاجمون عليهم بلا رادع (٣) . فبذل الأنبا يؤنس جهودا عنيفة في سبيل شعبه إذ قد رآه أن يجد الكثيرين منهم يخوون فيجعلون المسيح .

ولقد ظلت مدة رئاسته . عدا السنين الست الأولى . اثنين وعشرين سنة وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما انتقل بعدها إلى الأخدار السمارية فامتلات القلوب حزنا لفقده إذ قد أحسن الجميع بما يشبه لوحة اليتيم لأنهم كانوا قد وجدوا في هذا الراعي الأمين أباً واساهم في شئانهم ونكباتهم وعرف أن يسكب الهدوء والطمأنينة على نفوسهم (٤) .

(١) كنائس لالهبالا الضخمة (بالانجليزية) مقال للويس فيندلاي نشره في مجلة الآثار القبطية العدد التاسع سنة ١٩٤٣ ص ٢١ - ٢٣ . كنيسة الاسكندرية في أفريقيا لظاهر رياض ص ٩٨ - ٩٩ - وقد سبقت الإشارة إلى هذه الروائع المصاروية في ص ٥٦ .

(٢) الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث « لمخاتيل شاروهم » ج ٢ ص ٤٩٥ .

(٣) المخطط للمقريري ج ٤ ص ٤٠٧ - ٤٠٤ (طبعة أهلية) .

(٤) تاريخ بطاركة الاسكندرية . المجلد الثانية . جمعه الشساس كامل صالح نخلة طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص ١٦ - ٢٢ .

ب - الأنبا برسوم العريان

٢٣١- الأنبا برسوم ومعلم الأطفال .

٢٣٢- الاضطراب الناتج عن الحروب .

٢٣٣- الضيق يعقبه الفرج .

٢٣٤- الوجيه بفضل .

٢٣٥- زهد برسوم العريان .

٢٣٦ - كان تورانشاه آخر الملوك الأيوبيين . وكان الشرق الأوسط في عهده وعهد أبيه الملك الصالح يسوده الاضطراب الناشء عن الحروب الصليبية ولما كانت الحروب التي قام بها الصليبيون لم تنته بانتصار حاسم فقد ظلت نيرانها تصلى الشرق فترة طويلة .

وفي سنة ١٢٦٠ م انتصر الملك الصالح على الصليبيين انتصاراً أتاح له أن يسيطر على المنطقة الواقعة من غزة جنوباً إلى القدس شمالاً ، فحفزه هذا الانتصار على الزحف نحو حمص ولكنه اضطر إلى البقاء في دمشق لمرضه . وبينما هو هناك بلغه أن املاكات جديدة في طريقها إلى الشرق ، وأن خمسين ألفاً من الجنود الفرنسيين بقيادة ملكهم لويس التاسع يزحفون على دمياط . فغضب الملك الصالح مرضه وبدأ يستعد للمعركة . ولم يلبث أن وصل إلى دمياط وقام بتحصين المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم مدينة المنصورة للنصر الذي تم فيها على لويس التاسع غير أن المشية عاجلت الملك الصالح قبل أن يصطدم فتولى ابنه تورانشاه - المعركة . وبعد جزر ومد انتصر المصريون انتصاراً ساحقاً وأسروا الملك لويس التاسع والضابط الذي يليه في القيادة وهو السنيور دي جوانفيل وسجنوهما في دار بن لقمان ثم اضطروا الفرنسيين إلى دفع فدية عن ملكهم مقدارها مئة ألف جنيه^(١) . وإلى الاجلاء تماماً عن الأراضي المصرية بلا قيد ولا شرط . وكان هذا النصر المبين نهاية الحروب الصليبية في مصر .

وفي فترة المفارقات مع الجيوش المغيرة تأمر الماليك البحريون على الملك تورانشاه وقتلوه بالاتفاق مع زوجته شجر الدر . فأخفت خسر مقتله

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين برون ص ٢٣٩ .

وأتمت المفاوضات وبعد انسحاب الفرنسيين أعلنت الثبا وتولت الملك بنفسها .

٢٣٢ - وبين الرجال الذين ائتمنهم شجر الدر على خدمتها قبطى اسمه الوجيه مفضل الذى اتخذه كاتماً لأسرارها (سكرتيراً) وكان الوجيه مفضل وزوجته يتقيان الله ويحفظان وصاياه ، فكانا يوزعان المال الوفير على المعوزين والمسجونين . وكان لهما ولد وحيد اسمه برسوم .

٢٣٣ - ولما بلغ برسوم سن الشباب فقد والده . ولاحظ أن خاله طامع فى الثروة التى خلفها له فتنازل له عنها وعاش فى مغارة خارج القسطنطين مدة خمس سنين قضاها فى النسل والعبادة . ولتشفه لم يستتر بغير منطقة من جلد الماعز حول عقبيه فأطلق عليه مواطنوه لقب « العريان » ثم ترك المغارة وقصد إلى كنيسة القديس مرقوريوس (المعروف بأبى السيفين) لأن بها حجرة مربعة أشبه بالمغارة واقعة عن شمال الداخل إلى الكنيسة وهى منخفضة عن سطح الكنيسة يصلها الزائر بهبوط خمسة عشر درجة . وحينما دخلها الأتبا برسوم لأول مرة وجد بها ثعباناً ضخماً . فرسم بعلامة الصليب المقدس وهتف مع دأرد النبى : « على الأقمى رملك الحيات تطأ وتسحق الأسد والتنين ... الرب نورى وخلصى من أخاف » ^(١) ولبد الثعبان فى ركنه فى سكون تام وعندها وجه القديس إليه الخطاب قائلاً : « من الآن تكف عن إيذاء الناس وتخضع لى للسلطان الذى منحه إياى رى عليك » وقد خضع الثعبان له بالفعل وعاش مع القديس فى المغارة عيتها عشرين سنة . ولقد أقيم مذبح فى هذه المغارة بعد حياة الأتبا برسوم ، وتقام عليه شعائر القديس الإلهى مرة فى السنة فى يوم ذكرى نياحة القديس . ويحضر هنا القديس المرضى والمقعدون وكل من يكون لدغه ثعبان أو عقرب . ويتال العدد الكبير منهم الشفاء ببركة شفاعته وجل الله الذى استطاع أن يقهر طبيعة الثعبان حتى وهو بعد فى الجسد .

٢٣٤ - ولقد ذاع صيت برسوم العريان فى كل الأرجاء فقصد إليه المصريون - قبطاً ومسلمين - لينالوا بركته وليسترشدوا بحكمته الروحية

(١) مزمور ٩٠ فى الأجيحة (٩١ / ١٣ فى الكتاب المقدس) ، ٢٦ لى الأجيحة

(١: ٢٧ فى الكتاب المقدس)

فى أمورهم الخاصة . ومن بين الذين جاؤا إلى المقارة طلباً لتصحح وتوجيهاته معلم أطفال اسمه مكين . وكان هذا المعلم قد ستم مهنة التدريس لما فيها من عناء ولا يتعرض له القائم بها من مضايقات تأتيه من أولياء الأمور أكثر مما تأتيه من تلاميذه . ولما ستمها فكر فى أن يستبدلها بمهنة أخرى . ولكنه قرر أن يستشير القديس قبل أن يتخذ رغبته فعلاً . فلما وصل إليه وجلس بين يديه تفرس فيه القديس فى هدوء واهتمام وابتدأ بالحديث قائلاً : « حضورك فى هذه الساعة من قبل الله » وشعر مكين بشيء من الدهشة وتعلقت عيناه بوجه القديس الذى استطرد يقول : « انسان يبحث أن يبنى كنيسة مثل هذه البيعة التى للشهيد العظيم أبى السيفين - ترى كم من المال والجهد ينفى عليه أن يصرف فى هذا السبيل ؟ » أجابه مكين : « لا ياسيدى الأب - أنها تحتاج إلى مال كثير ولا يستطيع أن ينهض واحد بمفرده بإقامتها » . فكرر الأنبا برسوم العريان السؤال عينه على مكين مرتين أخرتين وهو يجهجه نفس الأجابة . وبعد ذلك قال له القديس : « إذا حفظ طفلك « أجىوس » التى تفسرها قدوس الله إلى آخرها وسبح بها وبغيرها من الألحان الكنسية فى البيعة المقدسة كان معلمه عند السيد المسيح أبر وأكثر قبولاً ممن يصرف الأموال الجزيلة على صارة الكتانس . لأن صناعة التعليم والمداومة على تلاوة كتب الله وأغاني الروح أفضل من سائر الصنائع » . ولقد تعزى قلب المعلم مكين بهذه الكلمات . فنهض وضرب « المطانوة » ^(١) للأنبا برسوم العريان ثم عاد إلى تدريسه هانىء النفس ^(٢) .

٢٣٥ - ثم اشتعلت إذ ذاك فتنة أثارها بين الرصاص مغربى كان ماراً بمصر فى طريقه إلى الحج . وتبع عن هذه الفتنة أن قبض الوالى على عدد كبير من القبط ممن بينهم برسوم العريان الذى ما أن وجد نفسه داخل

(١) المطانوة كلمة يونانية الأصل . قبطية بالاستعمال ومعناها الاستغفار مع الاتعاء حتى تقس الجهة الارض .

(٢) عن الكتاب المقدس من أخبار السادات الآباء القديسين مخطوط رقم ٥١ تاريخ محفوظ بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة ص ١٥٧ .

السجن حتى أخذ يضرع إلى الله لكي يرفع عن شعبه ما حل بهم من
بلاء . فاستجاب الأب السماوى إذ صدر الأمر بالافراج عنه وعمن معه من
المسجونين القبط ، كما صدر أمر بالكف عن مضايقة القبط ، وتأمينهم على
أعمالهم .

ولما خرج القديس من السجن قصد إلى دير شهران حيث عاش فوق
سطحه مداوماً على نسكه وتأملاته واستشفاعه فى شعبه . ثم انتقل إلى
بهيمة الأهكار فى الستين من عمره .

وقد بنى القبط كنيسة على اسم الأنبا برسوم العريان فى المعصرة -
حوالى منتصف الطريق بين القاهرة وحلوان . ولا تزال هذه الكنيسة قائمة
حتى الآن يذهب إليها مئات الزائرين فى أيام تذكار هذا القديس (١) .

ومن الملاحظ أن هذا القديس يذكر اسمه على المذبح المقدس وقت رفع
اللبينة مع زميل له هو القديس روس الملقب « تيجى » وهما لم ينالا أى
رتبة كنسية ولا كهلا القدس الرهبانى ولا نالا الشهادة . ولكن سيرة
حياتهما وزهدهما الشديد وحبهما للتجرد من مظاهر الدين والدنيا معاً
أهلهما لدى الكنيسة الواعية اليقظة لينالا كرامة كأعظم القديسين .



وبمناسبة تذكار نياحة القديس أنبا برسوم العريان كتبت مرثا منصور مقالا
عنه فى جريدة « وطنى » الصادرة فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٧٠ نقتطف
منها الأعجوبة التالية :

وقد ظهر على يدى هذا القديس عجائب كثيرة نذكر منها فقط : كان
كاتب قد أراد السفر إلى جهة معينة فقصده دير القديس لكى يأخذ منه
البركة فلما رآه القديس صرخ فى وجهه قائلاً له : « الأحسن لك أن تعود
إلى منزلك ولا تسافر قبل أن تطفأ النار التى بلغ عجاجها أطراف السماء

(١) الشكسار الأثيرى ... ترجمة والمى بودج ج ٤ ص ١٢٨٢ - ١٢٨٦ .

وهذا لا يكلفك أكثر من ألفى جنيه « فلما سمع الرجل ذلك قبل يديه وقال له استعطفك بالله أن تخبرنى عن كيفية حصول هذا الحريق وفى أى مكان ، فقال له : أذهب إلى الباب الشرقى فبعد بيتاً . اطرق بابه وأدخل سريعاً فوجد النار تلتهب فأسرع باطفاؤها ثم سافر بعد ذلك أينما تريد . فلما توجد الرجل إلى ذلك البيت تذكر أنه بيت أحد أصدقائه الذى هبته وصياً على أهله قبل وفاته وقد نهب جميع ماله ، فلما طرق الباب ودخل وجد النساء عراة الجسد يهكين لما حل بهن من الجوع والفقر فقال لهن « لماذا أنتن بهذه الحالة السيئة ؟ » فأجابته احداهن وقالت له « لماذا تسأل وأنت أدري منا بحاجة . ألم نعوسل إليك مرات كثيرة أن تعطينا شيئاً نقتات به فلم تقبل ! وأخذت كل أموالنا التى أئتمنتك عليها فقيدنا وهانحن الآن لنا ثلاثة أيام لم نتذوق فيها الطعام وصرنا نتضرع إلى أب الأيتام أن يجازيك عما جنت يداك . » فهكى الرجل كثيراً وندم وطلب منهم الصنيع عنه وأعطاهم ألفى جنيه وعرفهن أنه مستعد لقضاء كل مصالحهن مادام حياً ثم رجع إلى القديس وأخبره بما حصل فقال له القديس الآن قد أخذت لهيباً كان دخانه صاعداً إلى السماء نحو كرسى الحق ، فاذهب كما تريد ولتكن نعمة الرب معك مادام قد وقع غضبه منك .



ج - التفكك الأليم

٢٣٦- الاستقراء فرسامة البلبا التاسع

٢٣٩- تكريس الميزون -

والسبعين .

٢٤٠- انتقال الالبيا لثيودوسيوس إلى

٢٣٧- خيبة أمل قاسية .

مساكن النور .

٢٣٨- ضيقات متنوعة .

٢٤١- تطورات في وجهات النظر .

٢٣٦ - وهدأت العاصفة السياسية التي كانت قد اجتاحت مصر : ذلك لأن بيبس رغم المعارك التي خاضها على حدود مصر وفي البلاد السورية قد استطاع أن يقر الأمن في البلاد . فهو قد بسط العدالة من جانب ، ومن الجانب الآخر حفظ التوازن في الإدارات المدنية وعهد لعدد من القبط بهذه الإدارات^(١) .

ثم قام بزيارة مفاجئة لمديرية الغربية ووصل إلى دمياط فالاسكندرية . ثم سافر في طريق الصحراء وقضى بعضاً من الوقت في أديرة وادي النطرون حيث بادل الألباء الكرم والخودة^(٢) .

كذلك أنشأ بيبس مركزاً للاسعاف في خيمة جمع فيها شتى العقاقير وعهد بها إلى عدد من الأطباء والجراحين^(٣) . ثم أنشأ بربداً منتظماً بين القاهرة ودمشق إذ أقام مراكز على مسافات متساوية ، وفي كل مركز جهاد منظمة وفرسان مدربون وفيه أيضاً الحمام الزاجل المهياً لحمل الرسائل ، وكان البريد يتم مرتين أسبوعياً من القاهرة إلى دمشق وبالعكس . وإلى جانب كل مركز للبريد أقيم خان به عدد من الغرف تتوسطه نافورة إلى جانبها بئر لكي يجد الناس والخيول والحمام مكاناً للأكل والراحة . وكان المقيمون في مراكز البريد لا يقدمون الخيول والحمام مكاناً للأكل والراحة . وكان المقيمون في أنه يعمل فعلاً في هذه المهنة^(٤) .

(١) « تاريخ الأمة المصرية ... » المبحث الثاني لماستون فبيت ص ٢٩٩ .

(٢) شرحه ص ٤١٥

(٣) شرحه ص ٤١٦

(٤) شرحه ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

على أنه لما كانت شيمة الممالك الغدر والتحاسد فإن الظاهر يهيم رغم بطولته وانتصاراته المتوالية على قلوب الصليبيين وعلى المغول ، ورغم المعاهدات التي أبرمها مع امبراطور القسطنطينية وغيره من الحكام المسيحيين لتأمين حدود بلاده - رغم هذا كله فقد مات مأسوفاً . وموته انتقلت السلطنة بعد أقل من ثلاث سنين إلى قلاوون ^(١) .

وتنفس المصريون الصعداء حينما استتب السلام . على أن الأتيا يؤنس السابح لم ينعم بهذا الهدوء إذ قد انتقل إلى العالم الهائى قبل استقراره . وانقضت خمسة عشر شهراً دون أن يفكر أولو الأمر فى حاجة الكنيسة إلى الراعى الأول . وبعد هذه المدة اجتمع الاساقفة وتشاوروا معاً من غير أن يرسلوا فى طلب الأراخنة للتشاور معهم خلافاً لما تقتضى به التقاليد . واستقر رأيهم على الراهب عبد المسيح ابن المكين من دير أبى غانا ^(٢) . فرسمه البابا المرقسى التاسع والسبعين باسم ثيودوسيوس الثانى سنة ١٢٨٦ م .

٢٣٧ - على أن الأساقفة أصابهم غيبة أمل قاسية لأن الشخص الذى أولوه ثقتهم - متقاضين فى ذلك من رغبة الشعب - كان محباً للمال فتهج منهج السيمونية كما رفض أن يصفى إلى نصيح الناصحين وافسد الشعور

(١) شرحه ص ٤٢٦ . تاريخ مصر الاسلامية : العصران الأيوبي والمملوكى للدكتور جمال الدين الشبال ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

(٢) أحد الأديرة التى لم يعد لها أثر وكان فى وسطه أبنية عديدة وحديقة وبرج منيع ، ولم يبق من هذا كله غير سور مربع تتناهى جدرانه . أما الكنيسة لبقية إلى اليوم ، وهى مقسمة إلى ثلاث أسواق يفصل بينها اثنا عشر عاموداً ، والسوق الوسطى تنتهى بحنية على شكل نصف دائرة . ولها معبدان هما كجتها على شكل هارضى الصليب . أما المعبدان القائمان على جانبي الحنية على خط واحد والقباب التى تعلو جناحي الصليب والمداخل المبنى على جانب الكنيسة فكل ذلك من الطراز القبطى . وقد أكثر المصور الذى نقش هذه الكنيسة الأثرية الجميلة - من رسم علامة الصليب فى كل نواحيها . وهذه الرسوم أعجب ما يرى فى الكنيسة وهى ناصعة الألوان منظمة على طرائق شتى بصناعة بالغة حد الإتقان والاحكام . أنظر دائرة المعارف اللبكية ومضى تادروس ج ١ ص ٦٠ .

بالخيبة إلى حد الثورة الجامعة مما جعل بعض الأساقفة يمتنعون من ذكر اسم
الأنبا ثيودوروسيوس الثانى فى القداسات وغيرها من الصلوات الكنسية .
وفى هذا المسلك أيضاً شذ هؤلاء الأباء عن التقليد الكنسى الذى يقضى
بالصلاة من أجل البابا الاسكندرى . ولكنهم لم يلبثوا أن استعادوا هدوئهم
النفسى فعادوا الصلاة من أجل باباهم .

وفى تلك الفترة بعث بجيهاسيون ملك الحبشة إلى السلطان محمد بن
قلاوون برسالة يخبره فيها بأنه يعامل المسلمين فى بلاده بكل تسامح
ويطالبه - مقابل هذه المعاملة - وأن يهدى التسامح الدهنى مع القبط لكى
تدعم بذلك علاقات الود والألفة بين البلدين .

أما داود ملك النوبة فلم يجد للكتابة نفعا فصار على نصيح الشاعر
القائل بأن « السيف أصلق أنباء من الكتب » بأن غزا الصعيد بجيشه .
واستنجد السلطان بالبابا المرقسى الذى يادر بالكتابة إلى ملك النوبة
يطمئنه إلى حالة القبط فى مصر ويرجو منه سحب قواته . إلا أن الملك
النوبى لم يسحب جيشه فعلاً إلا حينما وصله تعهد من السلطان بحسن
معاملة القبط .

٢٣٨ - ولكن متاعب أخرى كانت بالمرصاد إذ قد جاء الفيضان ناقصاً
للفاية فتضايل الحصاد وارتفعت الأسعار ارتفاعاً لم يسبق له مثيل فمات
مئات من الناس جوعاً . وعندها ارتفعت القلوب إلى الله تعالى وكأن لسان
حالها قد استبقى ذلك البيت الشعرى الذى قاله أمير الشعراء مخاطباً
المخلوق :

ففى أى وجود غير جودك أطعم ولأى باب غير بابك أقسرح
سدت على مناهيى ومسالكى إلا إليك فما عساي أصنع

وترددت هذه الابتهالات وتجاورتها الأصداء فاستجاب لها الأب السماوى
برحمته إذ قد جاء الفيضان التالى وافياً ، وبدا كأن ميزان الحياة سيستعيد
استقامته . ولكن قبل أن يتركز على عاموده فعلاً صدر أمر من السلطان
محمد بن قلاوون بعمل سجلات لكل الأراضى الموقوفة على الكنائس والأديرة
واحضارها إلى « ديوان الأحباس »^(١) فلما تم تسجيلها اتضح أنها تبلغ

(١) أى ديوان الأوقاف .

خمسة وعشرين ألفاً من الأفدنة فتقرر فى الحال توزيعها على الأمراء .
(الماليك) بالاضافة إلى اقطاعاتهم . وكان الكيل لم يطفح بهذا الاستيلاء .
إذ قد خرج والى القاهرة مع حاجب القصر ناحية شبرا الخيام وهما كنيسة
كانت هناك ^(١) .

٢٣٩ - ثم وجد البابا الاسكندرى أن كمية المبرون لم تعد كافية لحاجات
الكنائس فدعا الأساقفة لكي يشتركوا معه فى اقامة الصلوات الخاصة
بتكريسه . وقد لبى دعوته سبعة من أساقفة الصعيد وخمسة من الدلتا
 واجتمعوا معه فى كنيسة أبى السيفين ببابلون حيث بدىء بالشعائر المقدسة
يوم اثنين البسخة وقت يوم خميس العهد .

٢٤٠ - وبعد أن قاد الأنبا ثيودوسيوس الثانى دفة الكنيسة مدى خمس
سنوات وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً إنتقل إلى الدار الباقية ^(٢)

٢٤١ - من العجب أنه رغم التنافس العنيف بين الأمراء الماليك فقد
تمكنوا من الانتصار على أعداء مصر الخارجين بمهارة فائقة ورجع ذلك إلى
أنهم كانوا قد اعتادوا عيشة المخاطر والإدراك بأن الواحد منهم إن لم يكن
أكلاً فسيكون مأكولاً . كذلك كان جلدهم على القتال والتجاذب إلى المكر
والخدعة من مميزاتهم التى هبات لهم الانتصار . ولقد انتصر الجيش المصرى
بقيادة الماليك على التتار (المغول) أربع مرات أولاً بقيادة بيهرس ثم
بقيادة قلاوون وفرح الشعب بهذه الانتصارات المتتالية فرحاً عظيماً وحيث
أعلن نبأ الانتصار الأخير أضيئت الأنوار وخرج الناس إلى الشوارع وعلى
النيل يغنون ويقرعون الطبول حتى ساعات متأخرة من الليل . بل لقد بالغ
المصريون فى التعبير عن فرحهم مهالفة قصوى ولم يوقفهم غير هزة أرضية
عنيفة اجتاحت البلاد من الاسكندرية حتى حدود النوبة .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الانتصارات أن اتسع نفوذ مصر وخطبت
الشعوب ودها فقامت بينها وبينهم اتفاقات تجارية عديدة، وجاء إلى القاهرة

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة ، طبع بدير
السيدة العذراء الشهير بالمرمان سنة ١٩٥٧ ص ٢٣ - ٢٤ .

سفراء من أسبانيا ضرباً إلى الهند شرقاً ، ومن ثم عم الرخاء . ومن نعم الله أن رواج التجارة دعمته الزراعة أيضاً . ونتج عن هذا كله أن قامت في مصر امبراطورية واسعة النفوذ والثراء ازدهرت فيها مختلف الفنون والصناعات . وأكبر شاهد على ذلك تلك المخلقات الفنية المتبقية لنا من هذا العصر ؟ أليسوا هم أبناء مصر الذين حذقوا الصناعة وابتكروا الفن منذ عهد سحيقة ؟ فبناء المساجد سلالة بناء الكنائس وبناء المعابد الفرعونية - جميعهم أبناء مصر الذين شادوا أمجادها وأحبوها وتقاتلوا فيها فرفضوا في سبيلها بكل ما أصابهم من عذاب وتنكيل منتظرين يوم الفرج من الرب الرؤوف الذي وإن أمهل فهو تعالى لا يهمل .

ولقد حدث إذ ذاك تطور عجيب في وجهات النظر لدى كل من الفرنجة والمصريين : فلقد خمدت عند الفرنجة النعرة الصليبية الداعية إلى الحرب لتخليص قبر المسيح له المجد من أيدي المسلمين وحلت محلها الرغبة في التجارة والكسب المادي فتسابقوا إلى عقد المحالفات مع السلطان قلاوون ، كذلك رأى حكام مصر (بيبرس أولاً وقلاوون ثانياً) أن المفاوضات والمحالفات أجدي وأنفع من الحرب وبخاصة لأن آخر جندي صليبي قد غادر الشرق نهائياً . وبهذا التطور الجديد حل عهد من الرخاء في مصر واعترف الأوروبيون بسلطانها كما اعترفت به شعوب الشرق حتى الهند ^(١) .

غير أنه كانت هناك نفعة من النشاز : هي التnfمة الصادرة عن العلاقة بالنوبة . ذلك أنه حدث (كما حدث مراراً وتكراراً من قبل) أن امتنع النوبيون من دفع الضريبة المقرضة عليهم . ومع أن قلاوون لم ينجح في الانتصار انتصاراً حاسماً عليهم إلا أنه خرب بلادهم تخريباً واسعاً واستولى على الكثير من الأسرى الذين باعهم كالعبيد كما أخذ الكثير من الأسلاب والقنائم ^(٢) .

(١) تاريخ الأمة المصرية - المبحث الثاني « مصر الإسلامية ... » (بالفرنسية) لجاستون فبيت ص ٤٥٢-٤٥٦ ، تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايون بول ص ٢٦٢ - ٢٧٥ .

(٢) « تاريخ الأمة » (شرحه) ص ٤٥٧ .

النار في الهشيم

أ - الأنبا يؤنس الثامن

٢٤٥ - الترابط بين البابا والاساقفة

والشعب

٢٤٦ - الحصاد المسيحى بين القلوب

٢٤٢ - رفع الراهب يؤنس بن قيس الى

الباباوية .

٢٤٣ - انفصال معاودة الاتحاد .

٢٤٤ - اضطهاد وزلازل وفيضات ناقص

٢٤٢ - ومن نعمة الله أن اتفقت كلمة الأساقفة والأراخنة هذه المرة إذ قد أجمعوا على انتخاب الراهب يؤنس بن قديس رئيس دير شهران ^(١) الذى كان كامل رأى صائب الفكر حسن التدبير محبوباً معظماً ^(٢) . ولقد نشأ هذا الراهب فى منية خصب ^(٣) بالمنيا ثم ترك بيت أبيه وهو بعد يافع ليعيش فى الدير . وهناك قضى أيامه فى نسك ودعة مكرساً نفسه لخدمة اخوته الرهبان . فأحبوه وانتخبوه رئيساً لهم . فضاعف هذا الانتخاب حبه لهم ورعايته إياهم . فلما شغرت السدة المرقسية زكوه للناخبين واتحدت أصوات الجميع . ومن ثم أصبح البابا الثمانين فى سلسلة خلفاء مارمرقس الرسول باسم يؤنس الثامن وقت رسامته فى ١٤ فبراير سنة ١٢٩٢ .

٢٤٣ - وفى هذه الفترة أرسل ليندانجل امبراطور الحبشة إلى ايمانويل الثانى ملك البرتغال يستنجد به ضد الامام أحمد إبراهيم صاحب اليمن الذى

(١) هو الدير المعروف الآن بدير الأنبا برسوم العريان .

(٢) الكافى ... ج ٢ ص ٨٠ .

(٣) روى الشيخ المؤمن أبو المكارم فى كتابه عن الديورة والكتانس أن ابن خصب اسم رجل من أغنياء القبط أنشأ البلدة المسماة منية ابن خصب وبنى بها الدور والقصور وسكن فيها مع جماعة من أهله وأتباعه - راجع دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ٣٤ ، ويقول القمص ميخائيل بحر أنه كان بها أربع عشرة كنيسة : أشهرها اثنتان باسم السيدة العذراء واثنتان باسم الملك ميخائيل وواحدة باسم مارجرىس ومرتوريوس وأبى قيس - راجع مقاله « اقليم المنيا فى العصر القوطى » نشره فى مجلة صوت الشهداء - السنة السادسة العدد الأول (يناير سنة ١٩٦٤) ص ٢٧ .

كان قد ثار هو وقومه على الأحباش ، وتقدمت جيوش المحتلين إلى حد أن الامبراطور اضطر إلى الهرب والتقل من بلد إلى آخر في أطراف امبراطوريته . وقد تعهد لينادفجل لملك البرتغال أن ينضم إلى الكنيسة الكاثوليكية ويقطع علاقاته بمصر إن هو أسعفه . فقبل ايمانويل الثاني استغاثه الامبراطور الحبشى الذى طرد المطران المصرى تهيداً للاتضمام إلى مذهب الملك البرتغالى . على أن الشعب الحبشى غضب غضبة جامعة بأزاء تصرف امبراطوره ورفض أن يتفصل عن كنيسة مارمرقس التى يعدها الكنيسة الأم . وكان من نتائج هذه الثورة الشعبية أن الامبراطور جلاوديوس ابن لينادفجل طرد بعثة الرهبان الكاثوليك حالاً أعتلى العرش وبعث برسول عاجل إلى البابا الاسكندري يستعطفه ليرسم لهم مطراناً ويعيد العلاقات إلى ما كانت عليه من قبل . وقد فرح الأتبا يونس الثامن بهذا الطلب وبأدر بإرسال الأتبا سلامة الثانى إلى الحبشة ، فبدأ عصر انتعاش أدبى لا يزال الأحباش يستمتعون بشماره حتى الآن ^(١) .

٢٤٤ - وحدث فى السنة الأولى لهابوية الأتبا يونس الثامن أن مر مغربى بمصر فى طريقه إلى أداء فريضة الحج . وفيما هو سائر فى أحد شوارع القاهرة رأى رجلاً وجيهاً مرتدياً الحرير المزركش ومغطياً سهوة جواد رشيق فسأل عمن يكون ، ولما علم أنه قبطى غضب غضبة حمقاء أدت إلى استشارة الدهماء ليحرقوا الكتائس . وقد بلغ بهم الهياج مبلغاً جعلهم يتجهون نحو بابلون يقصد اضطهاد القبط المقيمين هناك فأصبح من المجازفة لأى قبطى أن يظهر فى الشوارع بل إن التعرض للخطر بلغ البابا نفسه فاضطر إلى البقاء داخل مقره . ولقد استمر هنا القليان الشعبى مدة سنتين بلا انقطاع لأن الأمراء أنفسهم عجزوا عن قمعه مع أن المغربى الذى استشاره كان قد غادر مصر . ولما وجد القبط أن العزاء والطمانينة لا يمكن الحصول عليهما من الناس الجهلوا نحو مصدر العزاء والطمانينة راجين إياه تعالى أن يتداركهم بمراحمه . وفى تلك الفترة ورغم الخطر سعى بعض القبط لدى الأمراء ليضمنوا لهم الوصول إلى الكتائس للصلاة فيها لأن القوغاء كانوا

(١) السياسة الفاشية فى أثيوبيا - مقال للدكتور زاهر رياض نشره فى مجلة نهضة أفريقيا العدد الثالث عشر (يناير سنة ١٩٥٩) ص ٢٤ - ٢٥ .

يسدون عليهم الطرق إليها فأصبحت مغلقة . ونتيجة لهذه الوساطة قبل
الأمراء فتح كنيسة واحدة . على أنهم لم يستطيعوا حراسة الشعب الذاهب
إلى الكنيسة بما اضطروهم إلى إعادة اغلاقها . فظلت الكنائس مغلقة خلال
السنتين اللتين استمر فيهما الغليان الشعبى .

ووصلت أنباء هذه الضائقة إلى مسامع امبراطور القسطنطينية كما بلغت
ملك أراجون (باسبانيا) وكانت مصر إذ ذاك تتبادل التجارة مع هاتين
الدولتين وغيرهما من الدول المسيحية . وكانت تجارتها رائجة وفيرة الريح .
فرأى الامبراطور القسطنطينى والملك الأرجوانى أن يتوسطا فى الأمر ولو
أن وساطتهما كانت منصبة على رعاياهم المقيمين فى مصر . ولقد أرسل
ملك أرجوان الهدايا النفسية للسلطان وللأمراء الا أن الاستجابة للهدايا
للموساطة كانت هزيلة للغاية إذ لم يصدر الأمر إلا بفتح كنيستين : إحداها
كنيسة القديس نيقولا للروم وثانيتهما كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة
للقبط . ذلك لأن المسولين فى البلاد رأوا أنه من عدم اللياقة أن يؤمنوا
الروم للذهاب إلى الكنيسة ولا يمنحوا هذا الأمان للقبط الذين هم من
رعاياهم ^(١) . ولهذا السبب أصبحت كنيسة العذراء بحارة زويلة المقر
الهابوى ، واستمرت كذلك نحو قرن من الزمان .

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة وطبعه بدير
السيدة العذراء الشهير بالسريان ص ٣٠ . تاريخ الامة ... المبحث الثانى د مصر
الإسلامية د جاستون قبيث ص ٤٧٣ . المخطوط للمقريزى ج ٢ ص ٢٩٩ حيث يقول
ما نصه : ... فقام المفسى فى هدم الكنائس فلم يكتف قاضى القضاة تقي الدين محمد
بن دقيق العيد من ذلك وكتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس إلا ما استجد
بناؤه فغلقت هذه كنائس بالقاهرة ومصر مدة أيام فسمى بعض أعيان النصارى فى فتح
كنيسة حتى فتحها فتارت العامة ووقفوا للنائب (عن السلطان) والأمراء فنودى فى
القاهرة ومصر أن يلبس النصارى بأجمعهم العمام الزرق . ومن ثم يفعل ذلك نهب ماله
وحل دمه ومنعوا جميعاً من الخدمة فى ديار السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا
فتسلط القوغاء عليهم وتتهوهم فمن رأوه يغير الزى الذى رسم ضروب . فبحث ملك
برشلونة هدية جليلة زائدة عن عادته هم بها جميع أبواب الوظائف من الأمراء مع ما
خص به السلطان وكتب يسأله فى فتح الكنائس فاتفق الرأى على فتح كنيسة حارة
زويلة لليحاقبه (القبط) وفتح كنيسة البندقيين (الروم) من القاهرة راجع أيضاً
الكالى ... ج ٢ ص ٥٠٨ .

ولم يكتف السلطان بهذه القسوة بل فرض ديناراً على كل قبطى
بالإضافة إلى الجزية المفروضة وإلى ما كان يؤخذ منهم والمسلمين سواء
بصراء . كذلك استمع إلى تحريض الجاشنكير ببهرس فعمل بقوله وهو إبعاد
القبط من دواوين الحكومة واضطراهم إلى لبس العمائم الزرقاء ومنعهم من
ركوب الخيل وغيرها من الدواب . بل لقد غالى السلطان فى إصدار أوامره
المستفاه من تحريض ببهرس فقال بأن من قتل قبطياً فله ماله ! وعلى الرغم
من هذا كله فإن العامة ظلت ساخطة على ببهرس وتعالى صيحاتهم فى
الشوارع والأزقة وهم يصرخون « لا نريد المطفر »^(١) وخلال هذه الفترة
الحالكة اضطر القبط إلى الانزواء داخل بيوتهم وعدم الخروج إلا للضرورة
القصى .

ولقد حدث زلزال عظيم فى تلك الآونة - فكأنما شامت الطبيعة أن تعبر
عن مشاركتها القبط بهذه الحركة المزعجة !

على أن الواقع أن ببهرس لم يكن وحده فى تحريض السلطان على القبط
بل كان معه جمهرة من المماليك الذين خشوا على نفوذهم من تأثير القبط
إذ رأوه ينفى انصافهم ويحميهم من بطش الفوغاء ... وترجع رغبته فى
انصافهم أنه كان يقدر مهارتهم الفنية وولاهم له ، كما أنه كان واثقاً بأنه
لن يكون منهم من يناقضه فى الحكم^(٢) .

٢٤٥ - وامتلاً قلب الأتيا يؤنس الشامن حسرة ، ولم يسهه إلا أن
ينتقل للسكنى بجوار كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ليسهل عليه
تأدية الشعائر الدينية دون اعتراض ولا مقاومة . وعلى الرغم من الوجوم
الذى خيم على النفوس فإن البابا الاسكندرى ظل محتفظاً بالصلة المتينة
بينه وبين أساقفته وشعبه ، ثم وجد أن الكنائس فى حاجة إلى الميرون
فبادر إلى دعوة الأساقفة للاشتراك معه فى تأدية الشعائر المقدسة الخاصة
بتكريسه . وقد لى دعوته ثمانية عشر أسقفاً وذهبوا معه إلى دير الأتيا

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية ... لكامل صالح نخلة ص ٢٩ - ٣٥ .

(٢) تاريخ دولة المماليك فى مصر للسيد وليم سوير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن
ص ٨٤ .

مكارى الكبير حيث كرسوا الميرون فى يوم الاثنين من أسبوع البسفة
المقدسة سنة ١٠١٣ ش -

٢٤٦ - ثم انشغل الأمراء فى حروب خارجية عديدة وانشغل معهم
الشعب . وكان لهذا الانشغال أثره فى تخفيف حدة الهياج الذى كان قد
أشعله المغربى فتناسى الشعب ما حدث وتشاغل بأحداث أخرى مما أدى إلى
أن تفتح الكتانس تدريجياً وفى هدوء فسعد القبط من جديد بإقامة
شعائهم المقدسة داخلها . ثم حدث أيضاً أن سلسلة من الفيضانات
المنخفضة والمصاد الشحيح كان لها أثر واضح فى تلهين القلوب فعاد
الأتيا يؤنس إلى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) يهابلون وهو مطحن
الغنص . وعاود الاستقرار قلوب القبط فكاتبوا يزعمون الكتانس شكراً
وتسبيحاً له .

ومن الشيق أن البابا الاسكندرى وجد نفسه مضطراً إلى تكريس الميرون
مرة أخرى - لأن مثل هذه الحاجة ليست سوى دليل على تزايد عدد الذين
يتألون بركة هذا السر المقدس . وقد رأى الأتيا يؤنس الثامن أن يؤدى
الشعائر المقدسة الخاصة به فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) . وقد
اشترك معه هذه المرة خمسة وعشرون أسقفاً أحدهم أسقف كولما بالنوبة الذى
كان قد رسمه هذا البابا بنفسه ^(١) .

وكان تكريس الميرون للمرة الثانية آخر خدمة أداها الأتيا يؤنس الثامن إذ
قد انتقل بعدها إلى مساكن النور . وكان مدة بابويته عشرين سنة وثلاثة
أشهر وخمسة عشر يوماً .

ولقد عاش فى تلك الفترة مؤرخ ذو مواهب ممتازة اسمه ابن أبى الفضائل
وضع كتاباً بعنوان « التهج السديد والدر الفرد فيما بعد تاريخ ابن
العميد » وقد هلق فى كتابه هذا على « المجموع المبارك » الذى وضعه
ابن العميد ثم بدأ تاريخه حيث انتهى سلفه وتدرج فى الكتابة من عصر
الظاهر بيبرس إلى عصر محمد بن قلاوون مسجلاً تراجم السلاطين أيضاً
بالإضافة إلى التاريخ العام ^(٢) .

(١) تاريخ البطركية - الحلقة الثانية لكامل صالح نخلة ص ٢٦ - ٢٥ .

(٢) عصر سلاطين المماليك وتواجه العلى والأدى لمحمود رفق سليم ج ٣ ص ١١٧ =

ب - ما أجمل الدين والعلم إذا اجتماعا

٢٤٧ - خدام أمين للدولة يكرس مواهبه لله

٢٤٧ - عاش في أيام الملك المظفر - بيبرس الدوبدار - رجل اسمه الشيخ الأجل شمس الرياسة ابن الشيخ الأكمل الأسعد المسمى بأبي الهركات . اشتغل هذا الرجل كاتباً للملك حتى وهو بعد أمير وأخلص له الولاء . إذ قد هاونه على تأليف كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً مع أنه معروف في أوروبا هو كتاب « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » . ويظن بعض الناس أنه كان طبيباً أيضاً لما بدا في كتاباته من دقة عن العقاقير والعطور . على أن علم هذا الرجل وخدماته للعالم لتتضائل أمام خدماته الروحية إذ لم يلبث أن ترك الخدمة في ديوان الملك ليثالث كرامة الكهنوت ويصبح كاهناً لكنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة باسم « ابن كبر » .

ولم تقتصر خدماته الكهنوتية على ما أداه من خدمات روحية لأولاده الذين عاشوا تحت رعايته بل امتدت لتشمل الأجيال اللاحقة من بعده . فقد وضع حداً غير قليل من الكتب التي مازالت تعتبر مراجع أساسية للمباحثين

« ويعلق المؤرخ نفسه على تزايد عدد المؤرخين في العصر المملوكي بقوله : « في عصر الماليك يمكن القول أن فكرة الكتابة المستقلة عن مصر وقاهرتها قد اختصرت وبدأت على المؤرخين المصريين أغراض هذا الحب الخالد الذي تثيره مصر دائماً في قلوب أبنائها بدرجاً رائعة حتى لكأنهم ألوا على أنفسهم أن ينقلوا تاريخهم من يد النسيان » . أنظر ص ١٠٧ - ١٠٨ من نفس الكتاب . وقد ترجع استشارة هذا الحب الخالد إلى الحالة النفسية التي سادت الشعب إذ ذاك . وفي ذلك يقول الدكتور ولهم سليمان نقلاً عن الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مايلي : « أن الذي خاف من كمد المصريين في هذا القرن احساسهم بالخطر لئلا ينزع من الحكماء هم الماليك ... فان الحقيقة المرة التي كان يصعب على المصريين أن يتناسوها في سهولة هي أن الماليك أغراب عن البلاد وأهلها وأنهم جميعاً كانوا رقيقاً في يوم ما . وأنهم حكموا مصر وأهلها بوصفهم استقراطية معالية فصلتها فجوة واسعة عن أهل البلاد وأنهم استعبدوا على أرض البلاد وثرواتها ... » راجع مجلة الطلبة عدد فبراير سنة ١٩٦٩ : مقال الدكتور ولهم سليمان عن القاهرة في عصر المملوكية ص ٥٧ .

وأول ما كتب هو كتاب عن المبرون وصف فيه المواد التي يتألف منها وكيفية طبعه ^(١) بدقة متناهية . ثم وضع كتاباً أسماه « جلاء العقول في علم الأصول الملقب بكشف الأسرار الخفية في أسباب المسيحية » . ويتضمن هذا الكتاب ثمانية عشر فصلاً في وحدانية الله وتثليث أقانيمه وتجسد ابنه الإلهي . وتوجد نسخة من هذا الكتاب مكتوبة سنة ١٢٢٣ م محفوظة بمكتبة الفاتيكان ، كما أن هناك نسختين أخريين من عهد المؤلف أحدهما في دمشق . وثمة كتاب ثالث عنوانه « مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة » يوضح العقيدة المسيحية وأخبار الرسل والتلاميذ وقوانين البيعة والمجامع . ومن هذا الكتاب نسخة في مكتبة الفاتيكان تاريخها سنة ١٢٢٣ أيضاً . ونسخة في مكتبة برلين موصوفة وصفاً واسعاً ، وثالثة في المكتبة الأهلية بباريس . وإلى جانب هذه الكتب الجامعة فقد وضع رسالتين في الردود على المسلمين واليهود ، ورسالة عنوانها « البيان الأظهر في الرد على من يقول بالقضاء والقدر » . وهذه الرسالة تبين استمرار الاهتمام بموضوع الحرية الإنسانية مقابل من ينادون بالقضاء والقدر . وقد استهدف الآباء من كتاباتهم في هذا الموضوع توضيح المسئولية الملقاة على الإنسان مما يعمل فهو بلا عذر في إقرار الشر ولا يستطيع تبرير أخطائه بحجة أنه « قسمة ونصيب » كذلك وضع كتاباً ضمنه خطبه في مواقف مشهورة ومواقف خطيرة .

على أن ابن كبر لم يكتف بالكتابة في الموضوعات الروحية والأدبية فقط بل وجه اهتمامه إلى اللغة القبطية فوضع فيها معجماً مفصلاً أسماه « السلم الكبير » وهناك خمس من هذا الكتاب معروف مكانها هي : نسخة بدير الأنبا أنطونيوس بالصحراء الشرقية ، نسخة محفوظة بمكتبة الكاتدرائية المرقسية بالاسكندرية ، نسخة في كنيسة برما (قرب طنطا) وتحتوى على :

- ١ - مقدمة السلم المعروف بالسحنودي
- ٢ - مقدمة الشيخ العالم ابن كاتب قيصر وتسمى « التبصرة » .
- ٣ - مقدمة الوجيه القليوبين وتسمى « الكفاية » .

(١) هذا هو التعبير الكنى لمزج المواد المختلفة التي يتألف منها المبرون أثناء الشعائر الدينية التي تتم خلال عملية المزج .

٤ - مقدمة الشيخ الأسعد أبي الفرج بن العسال .

٥ - مقدمة الشيخ الأجل الثقة ابن الدهيرى (الذى صار مطراناً لدمياط باسم خريستوذولس) ، نسخة بمكتبة جرجس فيلوثاوس عوض الخاصة ، نسخة مطبوعة فى رومية سنة ١٣٦١ ش . ولقد قسم ابن كهر هذا المعجم إلى ثلاثين فصلاً كل منها لموضوع معين : ففصل يختص بأسماء الله تعالى وصفاته ، وآخر يختص بالأمور العائلية والمنزلية ، وثالث بالاصطلاحات الجغرافية ... إلى غير ذلك وقد ذيل هذا المعجم بكشف ضاف لجميع الكلمات العبرية التى اقتبسها القبط من أسفار العهد القديم وأدخلوها ضمن لغتهم القبطية . كذلك وضع ابن كهر قائمة بأسماء المدن والقرى المصرية ^(١)

ويبرز تواضع هذا الكاهن العلامة من كتابته إذ قد قال فى مقدمة كتابه « مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة » ما يلى : « على أننى لست من العارفين بهذه الوظيفة ولا من القاطنين ببعض حقوقها الشريفة ، لكننى جمعت ذلك من الكتب المقبولة والفرائد المنقولة ، والعرف المتداول فى عصرنا والوضع المستعمل فى مصرنا ، بحسب ما انتهت إليه القدرة واستوت عليه الفكرة ، مستعيناً بأبى الأنوار ومنير البصائر والأبصار ، وأنا أتضرع إلى كل من تأمله أن يسد خلله ويتدارك زلله ، ويصلح ما لعله وقع فيه من السهو والتقصير واعترضه التقديم والتأخير ، فليس يخلو من ذلك الماهر الفاضل والعالم والعامل والمحصل الكامل ، فكيف من هو عرى من هذه الخلل ، خلى من حلى العلم ملئء بالخطأ والزلل ... » ^(٢) .

وابن كهر عرف أن يحمل الشعلة بجرأة فى عصر طفت عليه ظلمات الأحقاد والقسوة فحلات القلوب جبناً وتخاذلاً - فهو بحق بطل روحانى ينتظم فى سلسلة الآباء الذين استعذبوا الجهاد . فحق لنا أن نهتف أكباراً له

(١) « ابن كهر » لجرجس فيلوثاوس عوض (المطبعة المصرية الأهلية) القاهرة سنة ١٩٣٠ .

(٢) « ابن كهر » لجرجس فيلوثاوس عوض (المطبعة المصرية الأهلية) القاهرة سنة ١٩٣٠ .

بذلك الهيت الشعرى الجميل وتقول :

أن الذى جعل الحقيقة علقماً لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً^(١)

ولقد ذكر أبو البركات بانه حين صدر الأمر بافلاق الكتانس بمناسبة
الاضطهادات التى وقعت على القبط ظلت الكتانس القائمة فى أديرة بركة
أبى مقار (الاتبا مكارى) مفتوحة فأصبحت قلعة الكتيسة القبطية ومنارة
تتجه إليها الأبصار^(٢).



(١) من قصيدة لأحمد شوقى أمير الشعراء عن العلم والتعليم مطلعها :

كفى للمعلم وله التجهيلاً كاد المعلم أن يكون رسولا

(٢) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) لاهلوت وايت ج ٢ ص ٣٩٤ .

ج - الأنبا يونس التاسع

٢٤٨ - انتخاب البابا الاسكندري

٢٤٩ - تخريب وانتقام

الحادي والثمانين

٢٥٠ - امتداد الذهب

٢٤٨ - لم يبق الكرسي المرقسي شاغراً غير شهر واحد ، اجتمع بعده الأساقفة والأراخنة للتداول في أمر الانتخاب ، واتفقوا بنعمة الأب السماوي هلي راهب متوحّد اسمه يونس النقادى . فأقيمت حفلة الرسامة في هدوء وألفة في اليوم الأول من شهر بايه سنة ١٠٢٨ ش (١٣١٢) في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة وقد احتفظ راسمونه باسمه فأصبح الأنبا يونس التاسع الخليفة المرقسي الحادى والثمانين

٢٤٩ - وكانت بابهوته ملهته بالأحداث والمتاعب لأن أحد العامة استشار الفوغاء ضد القبط فدمروا عدداً من الكنائس في القاهرة ومن المولم أن عمل التخريب أمتد إلى الدلتا والصعيد . وكان كريم الدين ناهر ديوان السلطان يقيم وقتئذ في الاسكندرية فما أن بلغه أخبار التعدير حتى سارع إلى القاهرة وقد وجد السلطان محمد بن قلاوون في حدة الغضب على أولئك الفوغاء وكان يرغب في معاقبتهم . ولكن الأمراء المماليك هدأوا من حدة ثورته بادعائهم أن هذا التخريب بأمر الله ^(١) .

(١) يقدم الدكتور ولیم سلیمان تعليلاً لهذه الواقعة فيقول : « ولقد حدث في عهد الناصر أن قامت فتنة دينية ، تبادل فيها المسلمون والمسيحيون هدم الكنائس والمساجد وحرقها . ولم يحدث هذا في القاهرة وحسب بل حدث في مختلف أنحاء البلاد في يوم واحد من لوص إلى البحيرة إلى الاسكندرية . واشتد غضب الناصر ، واتخذ اجراءات عنيفة لقمع الفتنة . وكان الأمراء يدافعون عن المخربين . ويبدو أن الفتنة كلها كانت من الأمراء أضافاً للتأييد الشعبي الذى أحبط به الناصر . ويتأكد ذلك من أن الأمراء كانوا موزعين في أنحاء البلاد ، بحيث أصبح تنفيذ الفتنة في يوم واحد أمراً ممسوراً . لأن توزيع الاقطاع جعل للأمير الواحد نفوذاً في أماكن متعددة . وينسب المتريزى إلى الأقباط بحكم خبرتهم أنهم هم الذين قاموا بهذا التوزيع لكل اقطاع وليس من الغريب أن ينقم الأمراء على الأقباط خاصة ، وأن يستغلوا الفرصة لضرب التجمع الشعبى الذى كان سند الناصر في مواجهتهم ولقد رأينا من قبل أن الأمراء اشتد سخطهم على العامة ، وبدأوا يتدنسون الأمر فيما بينهم . ولقد دهش المتريزى من توافق حدوث التخريب في اقلهم مصر كله ، ونسب ذلك إلى أن المصريين يتحدثون بالأشياء قبل كونها ويخبرون بما يكون وينتفون بالأمور المستقبلية ولهم في هذا الباب أخبار مشهورة -

ولم يكتف المماليك بتهدة السلطان كي لا يوقع العقاب على المذنبين ، كما لم يكتفوا بما هدم من الكنائس بل طعموا في أوقاف القبط التي كانت تبلغ إذ ذاك خمسة وعشرين ألفاً من الأقدنة اقتسمها ثلاثة منهم فيما بينهم هم الأمير شيخو والأمير صرغتمش والأمير طاز . ثم أمعنوا بعد ذلك في اضطهادهم للقبط فحولوا عدداً كبيراً من الكنائس في الوجهين القبلي والبحري إلى جوامع .

ولم يمض على هذا الحادث غير شهر حتى اندلعت النار في ضاحية من ضواحي القاهرة . وكان اندلاعها في يوم عاصف فامتدت اللهب إلى عدة ضواحي مما اضطر أربعة وعشرين مملوكاً إلى أن ينضموا إلى البحارة وغيرهم لاختاد النيران . وقد اتهم بعضهم القبط باضرار هذه النار انتقاماً منهم لما تهدم من الكنائس . وقبض رجال الأمن على ثلاثة من القبط اعترفوا بأنهم أشعلوها فعلاً . فأتقده غضب السلطان وأراد أن ينزل بهم أشد العقوبات . فمهر أن كريم الدين ناظر الديوان السلطاني أعلن بأن المستول الوحيد عن القبط هو البابا المرقسي . فاستدعاه إلى القصر ليلاً يحيط به الجند لحمايته من الرعاع . فلما تقابلا قدم كريم الدين إلى قداسته الثلاثة المقهورين عليهم لاضرامهم النار فاعترفوا للمرة الثانية بجرمهم . وحين سمع البابا يؤنس التاسع هذا الاعتراف بكى بكاء مرّاً وقال : « ان المسيحية تأمرنا بالمحبة والتسامح ، وما فعله هؤلاء مضاد لتعاليمنا تماماً . فليسوا سوى رعاع تصرفوا تصرفاً انتقامياً مقابل رعاع المسلمين . فالمسيحية براء من هذا العمل » وأدرك كريم الدين صدق البابا الاسكندري واخلاصه فأمر رجاله بمرافقته إلى المقر البابوي كما قدم له حصاناً أبيضاً ليركبه عند عودته (١) .

(١) يعلق جاستون فيهت على هذه الواقعة بقوله ما نصه :

Les Chrétiens n'ignorent pas l'attitude du sultan , l'envoi de la troupe , executé sansdelai , avait arrêté l'ementé ... En admettant que , sous le coupde l'exasperations , les coptes aient voulu user de représailles , ils l'auraient fait séance tenante . Quoiqu'il en soit , un moi plustard , les incendies eclaiéret ... dans les mosquées ... on serait bien tenté de soupçonner , dans =

٢٥٠ - على أن هذه المقابلة - وإن دلت على ما كان من صفاء بين البهايا
وكرهم الدين - لم تضع حداً للاضطرابات التي ظلت مستمرة بضع شهور .
ورغم قصر هذه المدة فقد تهدم خلالها العدد العديد من الكنائس واستشهد
مئات الناس .

وقد طغى الحزن والتوجع على قلب الأتيا يؤنس التاسع إذ لم يكن في
استطاعته أن يذهب إلى دير الأتيا مكارى الكبير لتكريس الميرون ، ولا أن
يقوم برحلة راعوية لتفقد شعبه الجريح ، لأن تهور القوفاء بلغ حداً جعل
الظهور في الأماكن العامة خطراً على رجل من رجال الدين المسيحي مهما
بلغت منزلته . فلم يستطع أسقف ولا كاهن أن يخرج من مقره إلا بعد
مغيب الشمس . فاعتصموا في بيوتهم وكنائسهم وانصرفوا بكليتهم إلى
الضراعة مركزين جهودهم على الصوم والصلاة التي بهما يستطيع الإنسان
أن يخرج الشياطين وأن ينقل الجبال . فلما هدأت العاصفة أخيراً كانت صحة
الأتيا يؤنس التاسع قد ساءت إلى حد أنه لم يحش طويلاً لينعم بالسلام

= cette vengeance a retardement , l'action de musulmans
provocateurs, desireux de faire pression sur le sultan .

وترجمته ما يلي : « أن المسيحيين لم يكونوا يجهلون موقف السلطان . فارسل
الجند بغير توان أوقف المصادمة ... ولو سلمنا بأن القبط تحت ضغط حنقهم أرادوا أن
يأخطوا بالشار لكاتوا فعلوا ذلك على الفور . ومهما يكن الأمر فقد اندلعت النيران بعد
شهر ... في الجوامع . وأغلب الظن أن هذا الانتقام المتأخر كان عمل المسلمين المهيجين
الراغبين في الضغط على السلطان » راجع كتاب « تاريخ الأمة المصرية (بالفرنسية)
- المجلد الرابع من الفتح العربى إلى الفتح التركى - الفصل الخامس عشر الخاص بحمد
بن قلاوون ص ٤٨٦ . ونرى في تدليل ولهم سليمان على أن الماليك هم المحرضون
تصويراً أقرب إلى الاحتمال من زعم جاستون فيبت من أن المسلمين المهيجين هم النافعون
إليه . على أن هناك من يرى أن شدة التعذيب التي وقعت على القبط هي التي دفعت
بهم إلى القول بأنهم هم الناعلون - أنظر تاريخ دولة الماليك في مصر للسير ولیم مور
ترجمة محمود عابدين وسليم حسن - ص ٨٤ أما كتاب « سلسلة تاريخ البهاوات
بطاركة الكرسي الاسكندري » فقد جاء فيه « ولكن الله أظهر براعة قبط مصر من هذه
التهمة الباطلة إذ قد ثبت أن التسيبيين في الحريق هم الرهبان الملكيون (الخلقيدونيون)
القيصون في دير البخل بجهة المعصرة على جبل المقطم » ص ٤٤ - ٤٥ .

الذى تضرع من أجله . لطارت روحه نحو ذلك العالم الفياض بالنور حيث السلام الدائم بعد أن تحمل مسئولية الكنيسة ست سنين وخمسة أشهر^(١) .

(١) تاريخ البطارقة - الحلقة الثانية - جمعه الشماس كامل صالح نخلة ، طبع بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان ص ٣٦ - ١٥٠ أما الحوادث الأليمة التى وقعت فقد ذكرها المقرئى وغيره من المؤرخين المسلمين النصليين . فقد جاء فى كتاب « أهل الذمة فى الإسلام » الذى ترجمه دكتور حسن حبشى الى العربية سنة ١٩٦٧ على ص ٦٧ ما نصه : « فى ٩ ربيع الثانى سنة ٧٢١ عم تخريب الكنائس بدرجة مروعة » ويعطينا المقرئى صور مفصلة لتلك الحوادث نقتطف منها ما يلى « ... فخلقت هذه كنائس بمصر والقاهرة منذ أيام نسطور بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها فثارت العامة ... ومنعوا (القبط) جميعاً من الخدمة فى ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا فتسلطت الفوضىاء عليهم وتتهمهم ... ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة ... واتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة وهو راكب ليل ومهراز ويقبأ اسكندري طرح على رأسه . ولداه طرادون يمنعون الناس من مزاحمته وخلفه هذه هبة بفتاب سرية على أكاديش قاهرة فشق ذلك على جماعة المسلمين وأنزلوه عن فرسه وقصدوا قتله قد اجتمع عالم كبير ثم خلوا عنه ... فتسلطت العامة عليهم وتتهموا آثامهم وأخلوهم فى الطرقات وقطعوا ما عليهم من الثياب وأوجعوهم ضرباً ولم يتركهم حتى يسلموا وصاروا يضرمون لهم النار ليقتلهم فيها ... ورسم السلطان (محمد بن قلاوون) بركوب والى القاهرة فلم تتحمل العامة وموت بسرعة فخرت كنيسة بجوار قناطر السباع ... ودير فيها بالجيزة وكنيسة بناحية بولاق الدكروى ... ونهبوا حواصل ما خربوه من ذلك وكانت كثيرة وأخلوا أخشابها ورخامها ... ومن أسلم منهم لا يمكن من العبور الى بيته ولا من معاشرته أهله الا أن يسلموا وأن من أسلم منهم يلزمه المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس والجمع وإن مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته إن كان له وارث والا فهى لبيت المال ... واختتم المقرئى وصفه لما اسماه « يوم الهول للنصارى » بتلك الكلمات : « وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاوله هلك فيها من الأتلس وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرتة » من كتاب « الخطط » ج ٢ ص ٤٩٨ - ٥٠٠ ، ٥١٧ .

ولنعد الى كتاب الدكتور حسن حبشى السابق ذكره لنقرأ ما يقوله على ص ٧٨ : « حينذاك صدر الأمر (من السلطان قلاوون) بأن يلبس النصارى العمام الزرقاء ، وحرم عليهم ركوب الخيل والبهال، أما من يركب منهم حمارة فيركبه مقلوباً ، ولا يدخل نصراني حملاً الا وفى عنقه جرس ... والا يستعمل الأمراء كتاباً من النصارى وطرد منهم من »

د - نور وظلال

٢٥١- الزلزال يثقل رحيله .

٢٥١- انتخاب نفسك متوحد .

٢٥٥- الصعيد بسطوروس .

٢٥٢- فترة من السلام .

٢٥٢- مدوجزر .

٢٥١ - لم تبق السنة المرقسية شاذرة غير شهر وأحد عشر يوماً لأن القلوب كانت متألقة فاجتمع الآباء والأبناء (الأساقفة والأراخنة) في الدار البابوية ليتشاوروا معاً مرتكين إلى مؤازرة الروح القدس . فكان أن اتفقت كلمتهم على أن الرجل الذي ينشدونه هو الناسك بنيامين المتوحد بهيل طرة . وكان بنيامين هنا من بلدة ديمقراط بأعلى الصعيد . وبدأ حياة العزلة في الصحراء القريبة من بلده . ولكن اضطراب قلبه بالخلوة مع الله دفعه إلى ترك الصعيد والاتجاه إلى مغارة قرب طرة فلما أنه أن المسافة البعيدة التي تفصل بينه وبين أهله وعارفه ستتمكته من التوحد الذي يبتغيه . وكان إلى جانب ذلك تهله وتشفه مصوراً ماهراً ، إلا أن

= كان في خدمة السلطان الذي كتب إلى سائر الأعيان بأمرها بتصل جميع المباشرين المسيحيين ، وقام المسلمون بعدة هجمات على النصارى حتى اضطروهم إلى عدم الخروج في الشوارع . وأسلم الكثيرون منهم ، ثم ذكر بعد ذلك أن الكنائس التي دُمت في « يوم الهول » بلغ عددها تسعة وخمسين كنيسة . ويستطرد الحديث بعد ذلك على ص ١١٩ فيقول : « ... وكانت جنازة زوجة أبي النصر ابن إسرائيل النصراني سنة ١٠٣ هـ سبباً في أعمال الفتنة وحدث الاضطراب إذ خرج النعش في رابطة النهار وأمامه الصليبان والمشاغل والقصور والرهبان يصلون ، والنساء يبكين ويبتعن ، مما انزعج له خاطر أحد المسلمين فتناول حجراً وقذف به النعش على الرغم من إحاطة غلمان الأمير به وقيامهم على حراسته ، فما كان من أحدهم إلا وأن هز المسلم بعد ميقه فاضطرب الناس وهاجروا وكثر القتل في المسلمين والنصارى على السواء . فقرر أبو نصر إلى بيت مناصح (الأمير الملوكي) وظلت الفتنة مشتعلة الأوزار حتى سلموه إلى الثوار حيث أخذوه إلى قصر الخليفة فبقي سجينه فترة من الزمن ، ثم أطلقوا سراحه ففرح النصارى . وظاهر هذه القصة أن العلاقات بين مناصح وبين تابعه كانت علاقات مودة إذ كان حاميه الطبيعي ولم يخيب له رجاء » .

راجع أيضاً « تاريخ الأمة المصرية » ... ص ٥٥٥ .

النور لابد أن يسطع . ومتى سطع فلا يمكن تغطيته . لهذا شاعت فضائل بنيامين الناسك رغم اشتهاه العزلة . وما تجدر الإشارة إليه أن الأنبا برسوم العريان حين رآه تنبأ له بأنه سيجلس على كرسي مارمرقس . فحدث بعد نياحة الأنبا يونس التاسع أن اتفقت كلمة الجميع على اختياره وتمت رسامته في الخامس عشر من شهر بشنس سنة ١٠٢٥ ش باسم بنيامين الثاني فأصبح البابا الاسكندري الثاني والثمانين .

٢٥٢ - على أنه لم يكد يتسلم مهام رئاسته الراعوية حتى هبت ثورة عارمة أثارها الوالى شرف الدين بن التاج . وفى هذه الثورة خرب عدد من الكنائس والأديرة وذاق الرهبان والراهبات أقسى التعذيب . بل أن الأساقفة أنفسهم أصيبوا بالتنكيل رغم كرامتهم الكهنوتية . على أن المراحم الإلهية شامت أن تفتقد الآباء والأبناء فلم تدم ولاية شرف الدين غير سنة واحدة وافته المنية بعدها ، وزادت رحمة الله ومنحاً فى تنصيب وال جديد كان حليماً منصفاً شديد العطف على الشعب سواء فى ذلك المسلم والقبطى . وفى هذا الهدوء الذى جاء بعد العاصفة وجه الأنبا بنيامين عنايته إلى إعادة بناء الكنائس المنهارة وتجديد أديرة برية شيهبت التى كانت قد تخرت وأقمرت من الرهبان . ذلك لأن الهدوء عندما أغاروا عليها قتلوا كل من فيها من الرهبان ولم يتج من قتلهم غير الذين تمكنوا من الهرب . وقد بدأ البابا بنيامين عمله بتجديد دير الأنبا يشوى الذى كان الخراب قد فعل فعله فيه أكثر من بقية الأديرة . فأنفق عليه من ماله الخاص . وبعد أن جددته جمع فيه عدداً من الرهبان لاعادة تعميره .

٢٥٣ - وفى السنة الثالثة لبابويته وجد أن ما تبقى من الميرون لا يفي بحاجة الكنائس فبادر إلى دعوة الأساقفة للاجتماع به فى دير الأنبا مكارى وليشتركوا معه فى إقامة الشعائر الخاصة « بطيخة » الميرون . وقد لبي دعوته عشرون أسقفاً . ولما كان اجتماعهم معاً أثناء الصوم الأربعينى المقدس (الكبير) فقد وجدوا الفرصة مواتية ليستعيدوا ذكريات رهبنتهم ويعيشوا فى تأمل وخشوع وفى ألفة روحية تليق بالصوم الذى حافظت عليه الكنيسة منذ أن صامه فاديهما الحبيب^(١) . وكانت هذه الخلوة نعمة سماوية هيأها لهم الأب السماوى ليستعدوا بما نالوه من قوة روحية لملاقاة

(١) لو ٤ : ١ - ٣ .

الأحداث التي ستقابلهم . ذلك أنهم ما كادوا يبلغون ايبارشياتهم حتى هبت عاصفة الاضطهاد من جديد ^(١) .

ووصلت أخبار التضييق والتعذيب إلى مسامع امبراطور الحبشة فكتب خطاباً إلى والى مصر يطالبه بحسن معاملة القبط مقابل حسن معاملته للمسلمين الخاضعين لسلطاته . وكان قبل ذلك أن تعارن سلطان عدن مع تجمار الرقيق المسلمين فبذل الامبراطور الحبشى جهداً كبيراً فى القضاء على هذه التجارة المهيئة للكرامة الانسانية . فكتب صاحب اليمن خطاباً استفزازياً لوالى مصر زعم فيه بأن عاهل الحبشة إنما يحاربهم حرباً دينية مستهدفاً إبادة المسلمين . فكان خطاب امبراطور اثيوبيا ذا هدفين : أولهما التشفع فى القبط وثانيهما توضيح حقيقة موقفه من تجمار الرقيق وبسط حالة المسلمين فى بلاده وكيف أنهم يعيشون فى سلام يزاولون أعمالهم المختلفة دون أن يتعرض لهم أحد حتى أصبح بينهم عدد من الأغنياء . وقد بنوا المساجد والمدارس وهم فى أمن واستقرار . وقد نجح الامبراطور فى الوصول إلى هدفه إذ قد هدأ الاضطهاد فى مصر كما استقر السلام فى اثيوبيا استقراراً شمل عهود الأباطرة الثلاثة الذين تولوا العرش من بعده ^(٢) كذلك استطاع القبط فى ظل الهدوء أن يعيدوا ما تهدم من كنائسهم .

(١) ولقد قسا السلطان قلاوون قسوة جعلته ذات مرة يدفن نصرانياً حياً لتزوجه من امرأة مسلحة ويأمر فى الوقت عينه بجدع أنف المرأة - راجع « تاريخ دولة المماليك فى مصر » ترجمه عن الانجليزية إلى العربية محمود هاشمى وسليم حسن ص ٦٠ . على أنه مما يجدر ذكره أنه على الرغم مما ساد عصر السلطان قلاوون من ظلم واستبداد بالقبط فقد استطاع هذا السلطان أن يجعل من مصر امبراطورية مترامية الأطراف . وكانت القصور التى عاش فيها هو وأمراؤه آية فى الفن والترف فقد كانت ... من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر موزرة من داخلها بالرخام والنصوص الذهبية المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات وسقوفها كلها ملهبة قد موهت باللازورد . والنور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القهرسى الملون كقطع الجواهر المتلفة فى العقود . وجميع الأراضي قد فرشت بالرخام المنقول اليها من أقطار الأرض وتشرف الدور السلطانية من بعضها على بساتين وأشجار وساحات للحيوانات الهديمة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن راجع المخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢١٠ . مختصر « تاريخ مصر ... » لجاستون فبيت ص ٤٩٩ .

(٢) موجز تاريخ بطارقة الاسكندرية جمعه يعقوب جرجس وأشرف عليه زاهر رياض هاشم ص ٦٠ .

ومقابل هذا المد والجزر في حياة الكنيسة كانت الحياة المدنية المصرية في ازدهار : فقد وصلت المنسوجات المصرية إلى الهند كما أن أسماك دمياط كانت تصدر إلى سوريا وآسيا الصغرى . بل أن المراكب الراسية في ميناء بولاق أبحر الحصاد كانت تزيد على الألف ^(١) . كذلك امتلأت الأسواق بالسلع المختلفة . أما وصف الخانات فيبين مدى اللوق الفني المصرى : فقد كان الخان واسعاً وجدرانها من الرخام المزخرف بالموزايكو ، وكان بناء مربعاً يحيط بحديقة داخلية جميلة التنسيق . أما غرف الخان فكانت تفتح على هذه الحديقة وكانت أشبه بغرف الرهبان ^(٢) .

٢٥٤ - على أن استمرار السلام لم يكن من حظ القبط الذين عاشوا في ذلك العصر . لأن السلام والخصام كانا يتعاقبان بلا انقطاع . لهذا السبب ساد القلق على القلوب . وقد لاحظ الأتيا بنيامين ما يساور شعبه من حيرة واضطهاد فبذل جهده في تهدئته . ولكن يصل إلى هذا الهدف قام برحلة راعوية في أنحاء البلاد المصرية . فحسرت الطمانينة إلى القلوب مكتسحة ما فيها من مخاوف . وكما كانت الزيارات الراعوية قديماً سبباً في تثبيت الإيمان وفي ملء النفوس سكينه هكذا كانت زيارة البابا المرقسى إذ ذاك لأن لقاء الأب بأولاده من شأنه أن يلرح قلوب الأبناء بأبيهم والأب بأولاده . وخلال هذه الزيارة الراعوية داوم البابا المرقسى على الضراعة إلى رب الكنيسة ليتداركها بمراحمه ويجعل السلام يحل محل الخصام .

على أن باباويته لم تدم غير إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر . فامتلاً الشعب حزناً لفقده راعياً صاحباً عطوفاً . وقد أقيمت الشعائر الجنائزية على جثمانه الطاهر في دير شهران حيث دفن باحتفال مهيب ^(٣) .



(١) تاريخ مصر ... (بالفرنسية) لجاستون فيهت ص ٤٩٨ .

(٢) تاريخ الأمة المصرية ... (بالفرنسية) لجاستون فيهت ص ٤٩٢ .

(٣) سلسلة تاريخ الباباوات . الحلقة الثانية - جمعه كامل صالح نخلة ص ٥ - ٥٢ .

الشهيد بسطوروس

٢٥٥ - وفي فترة القلق والاضطراب التي نحن بصددھا نال إكليل الشهادة عدد من الناس غالبیهم مجهولة . ولكن من بین المعروفین من شهداء هذا العصر رجل اسمه بسطوروس ^(١) فقد حدث أن جمعت أمه الإيمان المسيحي ولكن بسطوروس ظل مع أبیه علی ولائهما للمخلص . وبعد ستین طریقة قام رجل قاس واشتكى بسطوروس إلى الوالی بحجة أن من كان أحد والديه مسلماً يجب أن يكون هو أيضاً مسلماً . فاستدعاه الوالی وحاول استمالة إلى انكار إيمانه فلم يفلح . فأمر بتكبيله والقائه فی السجن . وبينما هو مسجون جاءت حمامة بيضاء ووقفت علی رأسه . وسمع حارس السجن بالأمر فأبلغ الوالی به . وعندها استحضره الوالی أمامه وهدده بالحرق إن هو أصر علی التمسك بإيمانه . فقال له بسطوروس : « أفعل بی ما شئت فسلطانك علی جسدی فقط » . فأخرجوه إلى ساحة عامة حيث سمحوا لمن يشاء أن يضربه ويشتمه . فتحمل كل ما أذيق من عذاب بصبر وهدوء . وفي النهاية قطعوا رأسه بالسيف . وهكذا نال إكليل الشهادة . وقد شاء الله تعالى أن يكرم شهيدہ فجرت آیات وهجائب عن طريق جسده الذي ذاق أشكال العذاب . ^(٢)



(١) المعنى الحرفي لكلمة بسطوروس هو « الصليب »

(٢) السنكسار الأثيوبي ... ترجمة واليس بودج ج ١ ص ٨٤٢ .

الهدوء بعد العاصفة

- ٢٥٦ - السير الى الامام رغم الضيقات .
 ٢٥٧ - القسوة ضد الى نبش القبور
 ٢٥٨ - الالتقاء في دير الانبا مكاري الكبير .
 ٢٥٩ - اندلاع النار من جديد .
 ٢٦٠ - الكتب العديدة ضد القبط .
 ٢٦١ - جهود ولتراند .
 ٢٦٢ - السلطان يقر السلام .
 ٢٦٣ - اسقف ملنج .

٢٥٦ - كانت القلوب في اضطراب حينما انتقل البابا الاسكندري من دار الظلم والظلم إلى دار النور والاتصاف . لذلك ظل الكرسي المرقسي شاغراً سنة تنقصها أربعة أيام إذ لم يكن في وسع الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا معاً للتداول والتشاور . على أنهم استجمعوا شتات أفكارهم ورأوا أن المؤمن الذي يلتقي همه على ربه يجب أن يسير في حياته مؤدياً واجبه حاملاً مسئوليته رغم كل ضيق . فاجتمع الأراخنة والأساقفة بالكنيسة التي أصبحت المقر البابوي وهي كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ودعوا الآباء والأساقفة ليجتمعوا معهم كي يتشاوروا وياهم في أمر من يتولى رعايتهم .

وكان بين من استعرضوا من الرهبان ناسك وديع ورجع يتميز بالتقوى والعلم اسمه بطرس ، بدأ حياته الرهبانية في دير الانبا مكاري الكبير بيرية شيهيت ثم اختير رئيساً لرهبان دير شهران الذي ذاع صيته بذيوع فضائل الانبا بروسو العريان . فلما تناقش المجتمعون في ما امتاز به بطرس من الخصال استقر رأيهم بالاجماع على انتخابه . وبهذا الانتخاب الاجماعي أصبح بطرس الخامس البابا المرقسي الثالث والثمانين سنة ١٢٣٢م ش^(١) .

٢٥٧ - وقد حدث في بداية بابويته أن بعض المسلمين في الريف اشتكوا رجلاً إلى القاضي يدعى أنه قبطي مع أن جده كان مسلماً . واستمع القاضي إلى المشتكين وأصدر حكمه بوجوب اعتناق هذا القبطي الدين الإسلامي . ولكنه رفض أن يخضع لهذا الحكم . وعند ذاك أمر القاضي بالقائه في السجن . وفي الليلة الأولى من سجنه ذهب القبط

(١) أي ١٢٤٠ ميلادية غربية .

فى جنح الظلام وأخرجوه منه . وحين رأى المسلمون هذه الجرأة قوروا اعدام كل من يستطيعون القبض عليه من الأقباط الذين حاولوا بدورهم أن يهربوا . إلا أن عدداً كبيراً منهم نال إكليل الشهادة بعد أن ذاق العذابات الأليمة . ويبدو أن الدم المهرق زاد المعتدين رغبة فى الشر فاعتدوا على الكنيسة وسرقوا ما بها من ذخائر وهدموها . ثم شهدوا مسجداً مقابل المكان الذى كانت الكنيسة مشيدة عليه . وكلما اقتربوا اثماً إزدادوا قسوة بعد ذلك بالتنكيل بالأحياء بل نيشوا القبور وأخرجوا الجثث وأحرقوها . وكان من الطبيعى أن ترتبك الأمور فرفع الحاكم تقريراً إلى السلطان محمد بن قلاوون (فى مدة حكمه الثالث) شكاً فيه من سوء تصرف القاضى واستشارته الجماهير . فكان هذا التقرير حافزاً للقبض ليتقدموا هم أيضاً بالشكرى مطالبين بإعادة بناء كنيستهم . وعندها أمر السلطان باستقدام القاضى إليه لمحاكمته . فأحتج بعض المسلمين قائلين بأنه من العيب محاكمة قاض مسلم لأنه اضطهد القبط . على أن السلطان لم يعبا باحتجاجهم وحكم بعزل القاضى فبدأت فترة من السلام^(١) .

٢٥٨ - ومن مراحم الله أن فترات السلام كانت فى ذلك القرن العصبى فرصاً مواتية . وهنا العجب - لأن القرن الرابع عشر كان يفيض بالضيقات والاضطهادات العنيفة . ومع ذلك فإن الآباء كانوا يجدون الحاجة ماسة لعمل الميرون دليلاً على أن صمود الكنيسة أمام الضيق لم يكن مستمراً فحسب بل كان مثمرأ أيضاً . وقد تمت الشعائر المقدسة فى دير الأنبا مكارى الكبير بيرية شهيت كالمعتاد . وقد لبى الدعوة الباهوية اثنا عشر أسقفاً والتفوا جميعاً فى رحاب أبى برية شهيت حيث استمتعوا بالخلوة مع الله فى هدوء نفسى شامل وبخاصة لأن الشعائر المقدسة اقيمت أثناء الصوم الأربعينى المقدس . واشترك بعض الكهنة مع البابا والأساقفة منهم الأسعد فرج الله بن القس الأكرم كاهن كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) ومعه الشيخ المعلم يوحنا ابن شقيق الأنبا يؤنس (البابا المتنبح) . ثم انه لما احتفى الجميع بعيد القيامة المجيد عادوا إلى كراسيهم يحمل كل منهم ما يحتاج إليه من الميرون المقدس .

(١) سلسلة تاريخ ... الحلقة الثانية لكامل صالح نخلة ص ٥٥ .

٢٥٩ - على أنهم ما كادوا يستقرون في إماراتهم حتى اندلعت نيران الاضطهاد مرة أخرى . فقام القوغاء بهدم بيوت القبط القائمة أمام مساكن المسلمين ، واستمروا الاعتداء فأخلوا بتعقب القبط في الطرق ويحرقون لهم ثيابهم ويضربونهم ، ومن وجدوه راكباً دابة أتزلوه عنها عنوة ، بل أنهم ذهبوا إلى حد أنهم كانوا يلقون عليهم أحياناً اللهب المشتعلة ، فأدت كل هذه الاعتداءات المستمرة إلى اعتصام القبط بيوتهم والامتناع من الظهور في الشوارع حتى لقد خيل للراى أنهم انقرضوا تماماً ^(١) .

٢٦٠ - وفي هذه الساعات العصيبة لم ينصب الضيق على الأشخاص فحسب بل ظهرت إلى جانبه كتب عديدة ضد القبط ^(٢) أبرزها « منهاج الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب » وبعد أن أعلن المؤلف سخطه على القبط أورد الأدلة التي قدمها الماليك تبريراً لاستخدامهم في دواوينهم إذ يقولون « لكن الضرورات تبيح المحظورات ولولا ضرورتهم ما قدمناهم ولكن للحاجة إليهم استكتابناهم » . والراى أن مبعضى النفوذ كانوا يتخفون من الأثر النفسى البعيد الذى كان للكاتب القبطى على الأمير الذى يعمل في ديوانه . فقد كان كاتب المنهاج أيضاً : « ولقد الأمير مع ذلك يقوض إليه أمره ويطلعه على سره ويرجع إلى قوله في إقطاعه وخدمته وحاشيته حتى أن عدو الله تكون حرمة عند حاشية الأمير والفلاحين أكثر من حرمة الأمير : يقبلون يده ويقفون على رأسه إذا جلس لا يخالفه الأمير فيما يقول ولا يفعل إلا ما يشير به ^(٣) . وهذه الكلمات وغيرها تبين أن مهارة القبط كانت المبرر الوحيد لاستخدامهم إذ يستمر كاتب المنهاج فيقول : « فمن الواضح للخبير الجاهل أن هؤلاء يكونون للأموال أكثر استخراجاً ويكون

(١) أهل النعمة في الإسلام » ترجمه عن الانجليزية دكتور حسن حبشى ص ٧٨ .

(٢) ومنها « الكلمات المهمة في مباحثات أهل النعمة » للأستاذ : النعمة في استعمال أهل النعمة - دار الكتب مخطوط رقم ١٦٩٣ .

(٣) البيروقراطية القبطية في عصر الماليك (بالانجليزية) لريتشاردز . ألقاها في أحاديث ألفتها القاهرة ص ٨ .

الانقطاع بمهارتهم أكثر خراجاً ^(١) . وليس ذلك فحسب بل ان مهارتهم الادارية قد دعمتها مهارتهم في الطب والعمارة .

٢٦١ - ومن المبحر ان استمرار الضغط والتضييق قد جعل عدداً كبيراً من أسيان القبط يتكبرون لدينهم ويتحولون عته إلى الإسلام . وفي هذا يقول النويري « ولما منعوا من الاستخدام بالديار المصرية أسلم جماعة كبيرة من أعيانهم لأجل مناصبهم فاستمروا بعد إسلامهم على ما كانوا عليه » ^(٢) ولهذا السبب كان القبط المعتنقون للإسلام موضع احتقار المسلمين وتشككهم إلى حد أنه صدر الأمر بعدم استخدام القبطي حتى بعد إشهاره الإسلام لأنه على حد قول المقرئى إنما أسلم طمعاً في الاحتفاظ بوظيفته وجاهه . بل أن المسلمين اتهموهم بأنهم أسلموا في الظاهر فقط وأنهم استمروا على حياتهم المسيحية في بيوتهم ^(٣) .

(١) البيروقراطية القبطية ... ص ٧ . ويقول هذا الكتاب نفسه بأنه يمكن اعتبار الهياج على القبط بأعمال العنف ضدهم أمراض مرض اجتماعي وتنفس عن المودة ضد حكومة عربية متعالية . لأن مثل هذه الأعمال كانت تشكل خطراً على نظام الحكم القائم قد يردى به في نهاية الأمر . وكانت الحكومة تتخذ خطوات حاسمة للقضاء على الفوضى والاضطراب حرصاً على سلامتها كما كانت أحياناً تطلق العنان للغوغاء ليعبرها عن ضيقهم النفسي ضد القبط بدلاً من التعبير عنه ضدها . إلا أنه في كثير من الأحيان كانت الحواطر تهدأ لمجرد فصل الموظفين البازين وبعد الهدوء يعاد استخدامهم . أما تفرى بردى - وهو من الكتاب المتزئين وكان على صلة بالحكام المالكيين - فإنه رقم معارضته في اطلاق كلمة « قاضي » على القبطي الذي أسلم حديثاً هرباً من الاضطهاد قد أقر بالحاجة اليهم لخدماتهم إذ قال :

« أنا لا ألوم الحكام لخرقية هؤلاء الرجال لأنهم محتاجون اليهم بسبب معرفتهم لكل أمور الإدارة - راجع « البيروقراطية القبطية » ... ص ٧ حيث يورد الكاتب أقوال بردى نقلاً عن كتابه النجوم الزاهرة ، كما يستشهد بكتاب السلوك للسخاوي » .

(٢) البيروقراطية القبطية ... ص ١٥ .

(٣) يقول المقرئى عن أسرة بنى مكاتى الذين أسلموا سنة ١٢٧٩ في سياق حديثه ... ويقاء نسايتهم على التصراعية واستخفاف رجالهم بكتاب الله ورسوله ... المخطط ج ٢ ص ٥١١ . كذلك ظلت السجلات الحكومية تضيف كلمة « القبطي » بعد اسم من أسلم حتى بعد الجيل الثالث والرابع من إسلامهم .

٢٦٢ - إلا أن المثل القائل بأن التاريخ يعيد نفسه لا يمر من حقيقة واقعية من تسلسل الحوادث في بلادنا فحسب وإنما هو يؤكد لنا استمرار رهاية الله ومراحده . وقد بدت هذه الحقيقة في تلك الحقبة إذ قد تغلبت في النهاية رغبة السلطان قلاوون في استقرار الأمن وفي تهريب العدالة مرة أخرى . فحل الهدوء محل الاستبداد وبدأ القبط يتنفسون في شيء من الحرية من جديد .

وما أن اطمأن البابا المرقسي على شعبه وأحست نفسه بالسكينة حتى انتقل إلى عالم النور والعدالة المستقرة ^(١) .

ولقد ساند الأنبا بطرس الخامس في صلواته سميح أسقف القيس المعروف بأنبا بطرس المسكين . فلقد اشتهر هذا الراعي بكونه رجل صلاة إذ كان مداوماً عليها ضارِعاً إلى الأب السماوي أن يترفق بشعبه المظلوم . ولقد استجيبت صلواته إذ عاش ليرى السلام والأمن مستقرين ^(٢) .



(١) سلسلة تاريخ لكامل صالح نقله .

(٢) عن مجلة « صوت الشهداء » السنة الرابعة العدد الثاني فبراير سنة ١٩٦٢ مقال للقمص ميهائيل بحر عن « إقليم المنيا في العصر القبطي » ص ٣٨ .

الأنبا بطرس الملقب بالجميل أسقف مليج

٢٦٣ - و تقف كما سبق أن وقفنا مراراً أمام جندى مجهول ضمن العدد
العديد من الجنود المجهولين الذين ذادوا عن كنيستنا المحبوبة . وهذا
الجندي المجهول هو الأنبا بطرس ... ومن العجيب أن الأساقفة يكوّنون جزءاً
كبيراً من مثات المجهولين الذين لا نعرف أسمائهم أو غير أعمالهم . وكل ما
نعرفه عن الجندي الذي نحن بصددده هو أنه كان أسقفاً على كرسي مليج في
بابوية الأنبا بطرس الخامس إذ كان ضمن الأساقفة الذين اشتركوا معه في
تأدية شعائر الميرون المقدس . وقد كان يلقب بالجميل ، ولا نعرف إن كان
هذا اللقب لقب عائلته أو أنه أطلق عليه شخصياً . وسواء أكان جميلاً في
شكله أم لا فإن الذي نعرفه هو أنه كان جميلاً في عمله . فقد وضع ثلاثة
كتب استهدف منها كلها غاية واحدة هي إثبات صحة العقيدة الأرثوذكسية
وتوضيح غوامضها وهذه الكتب هي :

- ١ - كتاب البيان : وضعه في خمسة فصول رداً منه على جمال الدين
بن محمد المصري ليثبت له حقيقة الدين المسيحي .
- ٢ - كتاب في بدع الطوائف : قدم فيه الأدلة على العقيدة
الأرثوذكسية مقابل التعاليم المخايرة لها .
- ٣ - كتاب الاشراف الذي رد به على الأرمن .

وبما يوسف له أن هذه الكتب لم تطبع على الرغم من أن الحاجة إلى
استيعاب حقائق العقيدة الأرثوذكسية حاجة ماسة للغاية في عصرنا
الحالي .

ومن المتواتر أيضاً أنه تم سير الشهادا - والقديسين الواجب اضافتها إلى
المتكسار (١) .



(١) سلسلة تاريخ الحلقة الثانية ص ٦٧ نقلاً عن المخطوطات العربية ص ٦٢ .

الظلم يرفع رأسه من جديد

١ - الأتيا مرقس الرابع

- ٢٦٤ - الاجتماع على الراهب غبريال .
- ٢٦٥ - مساهمة السلطان لصالح انجليزى .
- ٢٦٦ - يازة الشبيه بالسراقيم .
- ٢٦٧ - حانت لم يكن فى الحصان .
- ٢٦٨ - صوت نيز .
- ٢٦٩ - تعسف شامل .
- ٢٧٠ - التجيز يمتد الى الجاهدين .
- ٢٧١ - طلع السلطان .
- ٢٧٢ - انذار من ملك النوبة .
- ٢٧٣ - انتقال البابا الاسكندري الى دار النعيم .

٢٦٤ - انقضى شهر وسبعة وعشرون يوماً على انتقال الأتيا بطرس الخامس إلى دار الخلد . ثم رأى الأساقفة والأراخنة وجوب الهدء فى التشاور لانتخاب راعيهم الأول وبخاصة لأن فترة الهدوء . كانت لا تزال سائدة . وحينما اجتمعوا تذكروا انهم التقوا براهب من دير شهران يوم أن اجتمعوا لعمل الميرون فى دير الأتيا مكارى الكبير تلبية لدعوة البابا المتنيح . وهذا الراهب كان ابن كاهن كنيسة السيدة العذراء المعروفة بالمعلقة واسمه الأسعد فرج الله ابن القس الأكرم . وحين تذكروه تذكروا أيضاً أنه حين ترهب اتخذ اسم الملاك المبشر اسماً له فأصبح الراهب غبريال . وحين استشارت الذاكرة هذه الصورة التى للراهب غبريال لما كان بينهم وأوه الشخص الذى ينشدونه فأجمعوا على انتخابه . وبذلك أصبح الأتيا مرقس الرابع البابا الاسكندري الرابع والثمانين سنة ١٣٤٢ م ش^(١) . وقد تمت رسامته فى أواخر أيام الناصر محمد بن قلاوون - وهى الأيام التى استقر فيها السلام .

٢٦٥ - ومن الطريف أنه جاء إلى مصر فى تلك الفترة سائح انجليزى أسعد الحظ بمقابلة السلطان وفيما الاثنان يتسامران قال السلطان لضيفه بأن هناك اعتقاداً سائداً بين المسلمين بأن التتارى قد خسروا مصر وسوريا بسبب معاصيهم وابتعادهم عن الله، وأنه سيأتى وقت يتوبون فيه ويعودون

(١) أرسنة ١٣٥ ميلادية غربية

بنية خالصة إلى طاعة الله والعمل بوصاياه . وعند ذلك سيسودون على أرض مصر كلها (١) .

٢٦٦ - وفي تلك الحقبة عاش في أثيوبيا رجل اسمه يارد حياه الله مواهب عظيمة وبصفه السنكسار الأثيوبي بأنه شاعر وكاتب مزامير ومرتل شبيه بالسيراقيم وكان يارد هذا من عائلة كاهن معروف اسمه جدعون - كاهن كنيسة السيدة العذراء والدة الإله في أكسوم التي كانت أول كنيسة شيدت في البلاد الحبشية . وقد تولى الكاهن جدعون أمر تعليم يارد دينياً . ولكن التلميذ كان كسولاً فضربه معلمه . وعند ذلك هرب خارج المدينة وأقام تحت شجرة باسقة . وذات يوم رأى دودة تحاول أن تتسلق الشجرة فتسقط وتعاود التسلق . فلما تكرر سقوطها ومعاودتها السعى اتخذ منها يارد عبرة فعاد إلى معلمه وقال له : « اغفر لي يا أبى وافعل بي ما يحلو لك » ولما كان معلمه رجلاً روحانياً فقد قبله فرحاً وصلى بحرارة إلى الأب السماوى ليفتح بصيرته . فاستجاب الله ضراسته إذ قد استطاع يارد أن يتعلم ما لفته إياه معلمه في فترة قصيرة . ولم يكن الأثيوبيون حتى ذلك الوقت يصلون شعائهم بألحان مسرعة معدة موزونة بل كانوا يرددونها بأصوات هامسة . لكن الله هباً ليارد سبيل المعرفة بأن اختطفه إلى اورشليم السمائية كما فعل يبرلس قديماً . وهناك تعلم ألحان الأربعة والعشرين قسمياً المحيطين بالعرش . فلما عاد إلى نفسه تذكر تلك الرويا الجليلة فذهب إلى كنيسة السيدة العذراء بأكسوم وبدأ يرتل بصوت عال قائلاً : « هللويا للأب . هللويا للأبن . هللويا للروح القدس » وقد جعل من هللويا الأولى الأساس الذى رتب عليه ألحان الصلوات اليومية ودعاها « ألحان صهيون » وجعل من هللويا الثانية الوسيلة للتعبير عن بناء هيكل الرب ودعاها « لحن العلياء » ومنها نظم الألحان التى تقال في الأصوام وفي الأحزان . أما هللويا الثالثة فاستخدمها لوضع ألحان الأعياد العظمى . وحين كان يارد يرتل هذه الألحان كان الناس يتزاحمون عليه لأن صوته كان ملائكياً في عذوبته . وحدث ذات يوم أن جلس الملك

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لئسى القمص ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .

جبرامسكال يصفى إليه فاهتز نشره لانغامه وفى نشوته وشروده النفسى غرس سيفه فى قلم يارد دون أن يدري . وكان يارد بدوره مأخوذاً بالألحان التى ينشدتها إلى حد أنه لم يحس بالسيف المقروس فى قدمه . فلما انتهى من ترثمه التفت إليه الملك مذهوراً عما فعله به وقال له : « اطلب منى ما شئت تعرضاً عن هذا الدم الذى سال منك بسببى وأنا غير واع » . قال له يارد : « عدنى أنك تقضى لى طلبى مهما يكن » فوعده . وعندها طلب إليه أن يسمح له بالتعرض فحزن الملك ولكنه لم يستطع أن يعراجع من وعده . وقد تأسف الجميع لمغادرته مدينتهم ولكنهم تعزوا بالألحان التى علمهم إياها . من ثم ذهب يارد أولاً إلى كنيسة العلراء . والدة الإله باكسوم حيث صلى بحرارة متزايدة . وبعد أن أنهى من الصلاة ذهب جنوباً إلى الصحراء وهناك قضى بقية عمره فى الزهد والتعبد ^(١) .

٢٦٧ - وحدث حادث لم يكن فى الحسبان أدى بدوره إلى معاودة اضطهاد القبط . وهذا الحادث يتلخص فى أن حكومة أراجوان (بأسبانيا) أرسلت وفداً إلى السلطان ترجو منه أن يصدر الأمر بفتح بعض الكنائس الخاصة بالملكين ويفك أسر أسباني محتجز فى بلادنا . وقد وافق السلطان على الطلبين . إلا أنه حينما كان وفد الوساطة هائداً إلى الاسكندرية ليهجر منها إلى بلاده رأى السلطان أن يجعله يدفع فدية عن الأسير الذى أطلقه وإلا أعاده إلى الأمير . فلم يكتب الوفد الأسباني برفض طلب السلطان بل حملوا رسله قسراً إلى أسبانيا . فأوغر هذا العمل صدور المستوليين فى مصر ضد القبط وعادوا البطش بهم مع أنه لا ذنب لهم إطلاقاً . وهذا الغضب كان بالطبع نتيجة لكون الأسبان مسيحيين فهم فى نظر المسلمين مشاركين للقبط فى إيمانهم . لهذا السبب وحده حرّض الأمراء الماليك الشعب على مضاعفة بطشهم بالقبط كما حملوا السلطان على اخراجهم من الوظائف الحكومية ^(٢) . فأثبت هذا الحادث صدق المثل الشائع : « كل هم فى البلد ييجى على قلبى ويسند » .

(١) السنكسار الاثيوبي ... ترجمة واليس بودج ج ٢ ص ٨٧٥ - ٨٧٧ .

(٢) تاريخ دولة الماليك .. ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ٧٤ . الماليك فى مصر لأنور زقلمة ص ٧٠ .

٢٦٨ - ثم مات الناصر محمد بن قلاوون فخلفه على عرش السلطنة ابنه الملك الصالح الثاني الذي كانت أفعاله أبعد ما تكون عن اسمه وفي بداية حكمه انتشر الطاعون بشكل مزعج فأهلك الآلاف من الناس . وبينما هذا الوباء يحصد المئات يومياً جاء إلى القاهرة رجل قبلى من الريف وأخذ يتنقل في الشوارع منيراً الناس بالويل إن لم يتوبوا عن شرورهم . وعندها قبض عليه وسبق إلى قاضى الأسلام . فوقف أمام القاضى وأعلن في شجاعة تامة بأنه إنما جاء ليبرخ القبط المجاهدين ويهيب بهم أن يعودوا إلى دين آباءهم . فهدده القاضى بالتعذيب فلم يرهب التهديد وأعلن أنه ليس مستعداً لأن يتحمل صنوف العذاب التى يمكن أن تكال له فقط بل أنه على أتم استعداد لأن يلقى الموت أيضاً . فاستشارت شجاعته غضب القاضى والمحيطين به ومن ثم صدر الأمر بتعذيبه . واستمر التعذيب أسبوعاً كاملاً . فتحمله الرجل الهاسل بصبر وهناء . إلا أن بسالته وصبره لم يشفعا فيه أمام جلاديه إذ قد صدر الأمر بقتله . فقطعوا رأسه ثم أحرقوا جثته . وهكذا نال إكليل الشهادة على أننا لا نعرف اسم هذا الشهيد الصبور ولا البلد الذى كان يعيش فيه قبل مجيئه إلى القاهرة . فهو بدوره جندي مجهول .

وكأنما كانت هذه الحادثة الشرارة التى أوقدت نار الاضطهاد من جديد وأول شرارة التهمت كنيسة بناحية شبرا إذ قد خرج والى القاهرة إلى هناك وأمر بهدم الكنيسة أمام عينيه .

٢٦٩ - ولم ينصب تمصف الملك الصالح على القبط الأرقياء لمسيحياتهم فقط بل شمل المارقين منهم أيضاً . ذلك أنه كان قد استوزر الصاحب علاء الدين ابن زهور من عائلة زنبور التى أسلم جميع أفرادها . على أن أحد رجال البلاط تقدم إلى الملك يتهم وزيره بأن أسلامه فى المظهر فقط أما فى الواقع فهو ما زال على دينه ، فاشتد غضب الملك على ابن زهور إلى حد أنه لم يكتف بتعذيبه وحده بل أنزل العذاب بكل أفراد عائلته وبجميع خدمه إلى أن أرشدوه إلى مكان مال وزيره فاستولى عليه وبعد أن أذيق ابن زهور مختلف العذابات صدر الأمر بتنفيه إلى قوص .

ثم امتد التمسك إلى الأموال فصودرت أوقاف القبط وهدم عدد كبير من كنائسهم وبعض من أديرتهم . وكانت إحدى هذه الكنائس تلك التي هدمها والى القاهرة بشيرا الخيمة . وكانت تضم أنبوية بداخلها أصبح لشهيد . وكان يحتفل فيها سنوياً بصلوات تسبق الفيضان استعطافاً لله لأن يجعل الفيضان رافياً . وبعد الصلوات يحملون الأنبوية الحاوية لأصبح الشهيد إلى ضفاف النهر الخالد حيث يتربصون بصلوات أخرى . فلما أصبحت الكنيسة أنقاضاً حمل الوالى أصبح الشهيد بأنبويته إلى الملك الذي أمر بحرقها فى الميدان الرئيسى وذر رمادها فى النيل . وملاك أطلت الصلوات الاحتفالية التى كانت تقام سنوياً بملك الضاحية .

ولقد اتفق ذات يوم أن مر قبطى على الطريق المتعد أمام الجامعة الأزهرية وهو لابس الحرير المزركش وراكب حصاناً وحوله هيبه وخداه فاستثارت وجهاته غضب بعض الفرغاء وهجموا عليه وأزلوه من على حصانه ومزقوا ثيابه وكادوا يقتلونه لولا تدخل بعض من حلقاء المسلمين فى أمره (١) .

ولكن هذا الحادث لم ير بهدوء لأن الفاترين تقدموا إلى الأمير طاز يشعرون إليه وجاعة القبط . فأمر باستدعاء البابا المرقسى وقرأ له العهدة المكتوبة بين المسلمين وبين أهل الذمة الخاصة بالملابس . ومع أن البابا مرقس أعلن استعداده لأن يلتزم هو وشعبه بما جاء فى العهدة إلا أنه أدق صنوف العذاب وألقى فى السجن فترة من الزمن دون مراعاة لكرامته (٢) .

٢٧ - كذلك بعث السلطان برسالة إلى جميع ولايته يفرض عليهم فيها أن لا يستخدموا قبطياً فى دواوين الحكومة . فلما أن أحد القبط أعلن إسلامه بمنعونه من العودة إلى منزله ومن مقابلة أهله إلا أن أسلموا هم بدورهم . وعلى كل من يشهر إسلامه أن يلتزم المساجد والزوايا وأن يجلس عند أقدام الفقهاء . ويستمع إلى ما يقوله شيخ الإسلام . أما متى

(١) المخطوط للمقريزى ج ٤ ص ٤٠٠ .

(٢) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخله ص ٦٠ . تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص ٥٨٠ .

مات أحد القبط فيتولى المسلمون تقصيم تركته . فإن لم يكن له وارث دخلت الشركة بهيئ المال^(١) .

٢٧١ - ثم حدث أن تنازع وزيران مرقسان وانضم إلى كل منهما فريق يسانده فأدى هذا النزاع إلى خلق الملك الصالح واحلال أخيه الناصر حسن محله .

٢٧٢ - وبعد هذا كله وصل إلى مصامع ملك النوبة خبر تعذيب البابا المرقسى والقائه فى السجن كما وصلت أخبار البطش بالقبط والتشكك فيمن يسلم منهم فأصدر أمره بالقبض على التجار المسلمين من رهاياه وسجنهم ليكونوا رهائن لديه إلى أن يصدر الأمر بالأفراج عن الأتيا مرقس الرابع . وهذه الوسيلة فجع ملك النوبة فى بلوغ هدفه إذ قد خرج البابا الاسكندرى من السجن .

٢٧٣ - وقد جاز الأتيا مرقس الرابع كل هذه الشدائد بصبر واتزان ملقياً همه على الرب الذى اتعمته على رئاسة الكهنوت وعاملاً على مواساة شعبه . ثم رأى الأب السماوى أن يريحه من كل هذا الظلم والبطش فنقله إلى دار التعيم بعد أن قاد دفنة الكنيسة أربع عشرة سنة وأربعة شهور وستة وعشرين يوماً^(٢) .



(١) المخطوط ج ٤ ص ٤٠٦ .

(٢) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نقطة ص ٥٧ - ٦٣ .

ب - الأنبا يؤنس العاشر

٢٧٤ - الموقوف الخامس .

٢٧٦ - معاونة البطش .

٢٧٥ - حصاد صحيح .

٢٧٧ - المحن تزيد القوة على الاحتمال .

٢٧٤ - وخلال الظلم السائد ظل الكرسي المرقسى شاغراً ثلاثة شهور وستة أيام . ثم انجلى الظلام قليلاً فتوافد الأساقفة من الأقاليم على القاهرة وأرسلوا يدعون الأراخنة ليجتمعوا معهم . ومن مراحم الله أن الأمير يلها سهل لهم أمر التلاقي معاً للتداول في موضوع انتخاب البابا . ويبدو أن البطش الخارجى جعلهم أكثر ألفة وأقربى تماسكاً فتفاهموا في هدوء وأنسجموا وأنتهوا إلى الاجماع على راهب عالم قديس أصله من دمشق الشام ثم جاء إلى بلادنا وعاش فيها متبعاً نظام نساكها المتبتلين . ونتيجة لهذا الاجماع الرائع تمت شعائر الرسامة المقدسة التي ارتفع بها الراهب يؤنس الملقب بالمؤمن الشامى إلى كرامة وباسة الكهنوت العليا فأصبح البابا المرقسى الخامس والثمانين في أيام السلطان شعبان بن حسن الأشرف سنة ١٣٥٦ م ش (أو سنة ١٣٦٤ م غ) .

٢٧٥ - ومن المؤلم أن الطبيعة هي التي قست في بداية باهوية الأنبا يؤنس العاشر إذ قد شح الحصاد فانتشرت المجاعة وأدت إلى موت الآلاف من الناس لأنها استمرت ثلاث سنوات متتالية .

٢٧٦ - وتلين قسوة الطبيعة ولم تلين قلب الانسان الذي عاد إلى بطشه بأخيه الانسان كأنه في مأمن من غدر الأيام . ذلك أن السلطان « عزم على قطع دابر الأقباط ... فولى عدة وظائف كانت بيد الأقباط إلى جماعة من الفقهاء » (١) .

٢٧٧ - على أنه رغم كل قسوة وكل بطش ورقم العدد الكبير الذي ارتد عن دينه في تلك الفترة المدلهمة فإن البابا المرقسى وجد الحاجة ملحة

(١) التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوى - مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بمباريس سنة ١٧٢٧ ورقة ٣٥ ب ، تاريخ الكنيسة القبطية لتسى القمص ص ٥٨١ .

إلى تقديس الميرون . وهذا هو العجب فى الكنيسة القبطية : فلقد زادت بها
المحن قوة على الاحتمال إذ قد منحها الله تعالى حيوية كفلت لها البقاء فى
وجه كل ضيق وكل اضطهاد . وحينما لمس الأنبا يؤنس هذا الاحتياج بعث
بدعوة إلى الأساقفة ليوافوه إلى دير الأنبا مكارى الكبير . فلهى دعوته
عشرون أسقفاً . ولما اكتمل عددهم اشتركوا جميعاً فى الشعائر التى بها
يتقدس الميرون .

ولكن رئاسة الأنبا يؤنس الشهير بالموثق لم تدم غير ست سنوات وشهرين
وثمانية أيام كانت عصبة من بدايتها حتى النهاية ^(١) .



(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة .

ج - الأنبا غبريال الرابع

- ٢٧٨ - استقرار الرأي على انتخاب رئيس
٢٨٠ - الحاجة الى مزيد من الميزون -
الدير المحرق .
٢٨١ - سفينة مغيرة .
٢٨٢ - شئ من الاستقرار .
٢٧٩ - حرب أهلية مملوكية .

٢٧٨ - ومرت ستة شهور والكرسى المرقسى مازال شاغراً إذ كانت الضيقات الجاثمة على الصدر تقوم حائلاً دون الاجتماع للتشاور . إلا أن خالق الكون فى شامل رحمته قد جعل للإنسان المقدرة على الاحتمال وعلى السير فى الحياة رغم ما يعترضها من محن وآلام . ولولا هذه المنحة الإلهية ما استمر الكون عامراً يتوارثه الناس جيلاً بعد جيل . لأن بطش القوى بالضعيف لم يفتقر منذ بداية الخليقة . وخلال السحب القاتمة الحاجة لضوء الشمس رأى الأساقفة أن واجبه المراعى يحتم عليهم دعوة الأراخنة للتداول معهم فى أمر الخليفة المرقسى . وفعلوا اتخذوا الخطوات العملية بأن اجتمعوا هم والأراخنة . وبعد البحث وموازنة الأمور استقر رأى على رئيس الدير المحرق واسمه غبريال لأنه كان فاضلاً جليلاً عالماً عابداً ناسكاً مهيب الجانب^(١) . فأخذوه وساروا به إلى الاسكندرية إلى كنيسة باسم القديسين سرجيوس وواخس^(٢) حيث تمت رسامته يوم عيد الظهور الإلهى^(٣) . وقد ظل محتفظاً باسمه الرهبانى فأصبح الأنبا غبريال الرابع البابا الاسكندرى السادس والثمانين سنة ١٣٦٢ م (سنة ١٣٧٠ م غ) .

٢٧٩ - وما أن بدأ مباشرة رئاسة كهنته حتى قامت حرب أهلية بين المحاليك المواليين للسلطان والمحاليك المشايخين ليليفاً . وانتصر السلطان

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس أسقف الأشموتين . المجلد الثالث - الجزء الثالث - قام على نشره أنطون خاطر وأزولد بورمستر ص ١٢٦ .

(٢) كنيسة لم يعد لها أثر ولا تعرف لها مكان .

(٣) أو عيد الغطاس ويعرف بهذا الاسم لأن الثالوث الأقدس ظهر فى لحظة واحدة فالله الأب ظهر بصوته القاتل هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت (متى ٣ : ١٧) والله الروح القدس ظهر فى شكل حمامة . والله الابن كان ساعداً من نهر الأردن .

وأعوانه وطاردوا خصومهم إلى أن أغرقوهم في النيل . إلا أن الدائرة لم تلبث أن دارت على السلطان فلقى حتفه . وكان هذا التطاحن في شوارع القاهرة لم يكن كافياً إذ قد شب فيها حريق مزعج اتهم خمسمائة دار . ولولا أن سور القاهرة كان حاجزاً متيناً لأنت النار على نصفها . وكانت هذه الكوارث سبباً في هدوء التضيق على القبط إذ شغلت الماليك عنهم .

٢٨٠ - ومرة أخرى وجد البابا المرقسي أن الحاجة ماسة لمزيد من الميرون فأرسل يدعو الأساقفة للاجتماع به في دير الأنبا مكاري الكبير لبشاركوه اقامة شعائر الميرون المقدسة . وقد لى دعوته عشرة من الأساقفة فقط للصعوبات التي كانت قائمة وقتذاك . وكان سبعة من الأساقفة من الصعيد وثلاثة من الدلتا . ولقد تمت هذه الشعائر المقدسة في ذلك الدير الحريق الذي يلقب صاحبه بأبي البطارقة للمرة الأخيرة يومذاك . لأن الباباوات الاسكندريين أصبحوا يؤدونها بعد ذلك في الكنيسة التي تكون المقر البابوي ساعة اقامة هذه الشعائر .

٢٨١ - ثم حدث أن رست سفينة بالاسكندرية حاملة جنوداً صليبيين - نزلوا بالمدينة وعاثوا بها فساداً ونهبوا كل ما وصلت إليه أياديهم . ثم استطاعوا بعد ذلك أن يأخذوا خمسمائة أسير ويقلعوا بهم إلى بلادهم . فثارت ثائرة الماليك المسئولين في القاهرة والاسكندرية ولم يجدوا من يصبون عليهم جام هذه الفضيحة إلا القبط ففرضوا عليهم ضرائب فادحة ^(١) . وهكذا نجد أنه كلما هبط الصليبيون بلادنا وأوقعوا الأذى بأهلها استفزوا بعملهم النفوس ضد القبط ، فكان الضيق الذي يصيبهم ضيق مزدوج : ما يقع عليهم من بطش الصليبيين ومن كون هؤلاء الباطشين يحملون شارة المحبة والرحمة في عمليات القتل والغدر ، ثم ما يصيبهم من جهال مواطنيهم الذين كان يختلط عليهم الأمر حين يرون الصليب على صدور المغيروين على بلادهم .

٢٨٢ - على أن مضاعفة الضرائب (أو بالحرى الجزية) كانت النوع الوحيد من الاضطهاد الذي انصب على القبط في تلك الفترة فذاقوا طعم

(١) تاريخ دولة الماليك ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ١٠٧ .

السلام والاستقرار ولكن هذا السلام الذي سعد به الأتيا فبريال الرابع
وشعبه آنذاك لم يكن السبب الكافي لإطالة مدة رئاسة كهنته إذ قد انتقل
إلى عالم الروح بعد توليه الكرسي المرقسي بشماني سنوات وثلاثة شهور
واثنين وعشرون يوماً: ^(١)



(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة الحلقة الثانية ص ٦٤ - ٦٦ .

كنيستى أم ولود^(١) الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين

- | | |
|---|---|
| <p>٢٨٣ - نصب الكنيسة القبطية
٢٨٤ - تهرب متاوس في الرابعة عشرة
من عمره
٢٨٥ - التحاقه بدير الأنبا أنطوني .
٢٨٦ - الفرجة يتسييون في استنارة
الأمير يليقافند القبط
٢٨٧ - متاوس ينضم الى الدير المحرق .
٢٨٨ - انتخابه للسدة المرقسية .
٢٨٩ - استمراره على تواضعه ونسكه .
٢٩٠ - العناية الطاغى على قلبه .
٢٩١ - توزيعه كل ما لديه .
٢٩٢ - مشاركته شعبه في مختلف اشغاله .
٢٩٣ - السعيد بركة بن وجه المهر .
٢٩٤ - اثر غصبة البابا على الكلايين .
٢٩٥ - حكمته في القضاء .
٢٩٦ - برقوق يستشير في قبول
السلطنة .
٢٩٧ - استشفائه ما سيحدث بالحشة .
٢٩٨ - صلواته تؤدى بجاحد للى
الاستشهاد .
٢٩٩ - بعض الاشرار يعيرون فساده .</p> | <p>٣٠٠ - بحالة الأنبا متاوس
٣٠١ - سلسلة من الاضطهادات
٣٠٢ - عودة السلطان برقوق .
٣٠٣ - الله يتمجد في كنيسيه .
٣٠٤ - سلطان الأنبا متاوس على
الأرواح الشريرة .
٣٠٥ - هباته بيولب فقير .
٣٠٦ - الأمانة ميتا .
٣٠٧ - انقلابه لفساد من الهلاك لا يبدى .
٣٠٨ - صلواته حصن للراغبين فيها
٣٠٩ - قوة الصليب .
٣١٠ - استبداد الأمير سودون .
٣١١ - تضاعف البطش .
٣١٢ - الملك ميخائيل يوبخ احد
شمامسته .
٣١٣ - زيغ بعض القبط .
٣١٤ - تاجر الأمير جمال الدين على
الأنبا متاوس
٣١٥ - وسيته الأخيرة لقلاميذه
فتياحته
٣١٦ - تنبؤا بمن سيخلقه وهنوره
شعائر الرسامة .</p> |
|---|---|

٢٨٣ - نقف الآن أمام عملاق من عمالقة الكنيسة القبطية : رجل بلغ ذروة القداسة بل بلغ ذروة الكمال في كافة الفضائل المسيحية . فهو جدير بأن يقف جنباً إلى جنب مع أثناسيوس الرسولى وكيرلس عامود الدين

(١) مع تقديم وافر الشكر للدكتور راجب عبد النور لاصداره كتاباً بهذا العنوان المناسب للغاية .

وديسقورس الشهيد بغير سفاك دم ، وأن يتتظم ضمن السلسلة المهيبة التي كان مارمرقس ناظر الإلهيات أول حلقة فيها وما زالت ممتدة الى الآن بقوة النعمة الإلهية . والقديس العملاق الذي نقف أمامه الآن هو الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين . وقد شابه أثناسيوس الرسولي في أنه كان ولوعاً بأن يلعب الشعائر الدينية فيتحذ دور الأسقف ويجعل من التلاميذ زملائه كهنة وشمامسة وشعباً . كما شابه شنودة رئيس المتوحدين في أنه اشتغل برعى الأغنام وفي توزيع طعامه على الرعاة وانصرافه إلى الصلاة . وقضى في رعاية الغنم أربع سنوات من سن العاشرة إلى الرابع عشرة . ومع صغر سنه كان ذا شجاعة نادرة يحصى قطعانه من اللثاب والضيمان فكانت هذه الوحوش تهرب حالما تراه أو تسمع صوته .

٢٨٤ - ولما بلغ الرابع عشرة قصد إلى دير بالصعيد ^(١) حيث ترهب ولو أنه هل يشتغل راعياً للغنم . وبدأ يدرب نفسه على الصوم حتى أنه كان في الصيف يأكل مرة كل يومين وفي الشتاء مرة كل ثلاثة أيام . وكان أسقف المنطقة يرقبه باهتمام بالسبح فأمسك به وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره وكرسه قساً . ودهش الأب الروحاني القمص ابراهيم

(١) جاء في السنكار (٧ كهلك) ما نصه : « وأيضاً في هذا اليوم تبح القديس التقى الروحاني أنها متى . كان من مدينة بشناي . وقد ترهب في كنيسة السيدة العذراء المعروفة باسم مجاهيات . وذهب إلى اسنا وأصفون . وكان يتعهد بنسك جميل ... وكانت الوحوش الضارية تأتي عنده في الصحراء الداخلية حيث كانت قلائعه فتخر أمامه وتظهر لطفها فكان يخرج لها خبزاً ويطعمها ... » أما المقرئى فقد قال و كان بأصفون دير كبير . وكانت أصفون من أحسن بلاد مصر ، وأكثر نواحي الصعيد قراكه . وكان رهبان ديرها معروفين بالحلم والمهارة . فخرت أصفون وخرب ديرها . وهذا آخر أديرة الصعيد غرب النيل شمال اسنا « راجع كتاب « القديس متى المسكين » لمليكة حبيب يوسف ويوسف حبيب ص ٨ .

ملحوظة : بعد كتابة ما تقدم قرأت في مجلة « صوت الشهاداء » السنة الرابعة العدد الخامس (مايو ١٩٦٢) ص ٤١ ما يلى : « ... فلقد حث الرب قلوب الفيرون من أبناء هذا الشعب العظيم . تبرع أحدهم بهاب الهيكل وتبرع آخر بعمل منجنية جديدة . وتبرع غيره بكسوة المذبح وأقيمت بوابة كبرى للدير . وباب كبير لكتبة الدير . وقرى الدير بالمحصر . وبد التعمير تعمل على قدم وساق . ولقد أصبح الأمن متوفراً في الدير والراحة مكفولة . صلى فيه شعب المسيح في أسبوع الآلام والأحداث اللذين سبقاه . وينهر الدير الآن عدد كبير من يتوقون إلى التمتع بجلوسات هادئة مع الرب .

(الذى كان ملازماً للأسقف) لهذا التكريس وعبر عن دهشته للأسقف الذى وصف له مزاجها متاوس وانتهى إلى القول بأنه مستحق لأن يكون بطريركاً . فمجد الأب الروحانى الله الصليب فى قدسيه (١) .

٢٨٥- وحالما سمع متاوس بهذا الحديث بين رجلى الله ترك المكان الذى هو فيه فى خفية وذهب إلى دير الأنبا أنطونى أبى الرهبان . ولم يصرح لأحد هناك برتبته الكهنوتية مكتفياً بالخدمة كشماس . إلا أن الله الذى يتمجد فى قدسيه شاء أن يبين حقيقة ما سيكون إذ بينما هذا الشماس يقرأ التجيل القداس خرجت يد إلهية من الهيكل وقدمت له البخور ثلاث دفعات ثم اختفت . فلما رأى شيوخ النساك هذه الظاهرة الروحانية تيقنوا من أن هذا الخادم لا بد أن يجلس على الكرسي المرقسى . وحين علم ما يتهاوس به هؤلاء النساك تألم لأن انضامه كان عظيماً فعرك الدير جلسة وقصد إلى بيت المقدس حيث اشتغل بناء يقضى نهاره فى تشييد المبنى ولله فى تشييد نفسه . إلا أنه لم يلبث أن اضطر للمرة الثالثة أن يعرك المكان المقيم فيه لأن فضائله ذاعت فعاد إلى دير كوكب البرية ثانية .

٢٨٦ - وحدث أن قام الفرنجة بحملة على مدينة الاسكندرية فنهروا وسلبوا ثم سبوا عدداً من النسوة وهربوا . ولما كان هؤلاء الفرنجة يحصلون شارة الصليب على صدورهم فقد أوهروا صدور الأمير بلبغا ورجاله ضد القبط كالمعتاد . وكان هذا الأمير متولياً أمر مصر من قبل السلطان وقتذاك فأمر بالعضيق على القبط إلى حد أنه لم يكتف بالتكبل بساكنى المدن والقرى بل تعدهم إلى ساكنى الصحراء أيضاً . وصحب جام غضبه بصفة خاصة على رهبان الدير الأنطونى إذ قد بلغه أن به ذخائر ذات قيمة عظمى . فألقى القبض على متاوس الذى كان رئيساً وقتذاك وعلى عدد من الآباء منهم شيخ اشتهر بقداسته اسمه مرقس الأنطونى وساقهم أمامه ليذهب بهم إلى القاهرة . وكان يوسمهم ضرباً ورمياً على الأرض أثناء

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين طبع بإشراف أنطون خاطر وأزولده بومستر ... ص ١٣٦-١٣٧، ويحذر الإشارة هنا إلى روح الألفة بين الأسقف والقصر مما جعل الثانى يعترض فى ثقة على الأول الذى تقبل منه اعتراضه وليس له السبب فى تصرفه . كذلك يحذر الإشارة إلى تقدير الآباء للأنبا . وهم حذارة منهم .

السفر . ومنع عنهم الطعام والشراب . وقد استعطفوه ليسمع لهم بقليل من الماء راضين بالجوع ولكنه رفض طلبهم في قسوة وتشامخ .

وبينما هم يستعطفون وهو يزداد صلفاً هطل المطر بغزارة إلى حد أنه اضطر المسافرين إلى البقاء مكانهم تجنباً للسيل الجارف الذي قاجأهم في الصيف فشرب الجميع وارتووا من يد الله تعالى . ثم كمل الله مراحمه لأنهم حين وصلوا إلى اطفيج صدر الأمر من السلطان بالسماح لهم بالعودة إلى ديارهم في هدوء واطمئنان . فعادوا وهم يسبحون الأب السماوي على عظيم عنايته بهم .

٢٨٧ - ثم استأذن معاوس في مغادرة دير كوكب البرية وذهب إلى الدير المحرق . وهناك كان يتقل الرماد على رأسه ويفصل قنود الطعام وأراني الطبخ . ويخدم الشيوخ والمرضى ويقوم بواجب الضيافة نحو زوار الدير وضيوفه . ولشدة تقشفه لم تكن له قلاية خاصة . ولم يكن له غير الثوب الذي على جسمه . وكان يقضى معظم ليلته في مغارة خارج الدير وفي تلك الفترة شابه الأتيا أنطوني فيما أصابه من التجارب الشيطانية إذ كان يأتيه هدو الخير في زمرة من أعوانه في أشكال وحوش كاسرة ^(١) . ولكن هذه الكواسر الخيالية كانت تهرب منه كما سبق أن هربت منه الكواسر الواقعية وهو يرمي الأغنام . بل أن بعضاً من الأمهات الضارية الواقعية حين كانت لا تجد قوتاً لصغارها تأتي بها إليه فيعطيهما خبزها . كذلك كانت هذه الوحوش حين تراه سائراً وحده في الجبل تسير إلى جنه للالتئاس به .

ومن أرق ما حدث بينه وبين هذه الوحوش الكاسرة التي لاصلة بينها وبين الناس غير الفتك بهم أن ضبعة وجدته متوغلاً في الصحراء فحملت ملاسده في قمها وسارت أمامه . فتبعها ليعرف ما حاجتها . ومشت الضبعة إلى أن وصلت إلى صخرة تضم مغارة في داخلها . ودخلت الضبعة إلى المغارة فدخل معها . ووجد أن بالمغارة فجوة عميقة قد سقط في أسفلها جرو الضبعة وعجز عن الصعود منها . فتزل بنفسه وحمل الجرو على كتفه وأصعده إلى أمه التي أخذت تعلق قلبه في شكر وخشوع ^(٢) .

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ١ - الفصل المعلن « كوكب البرية » .

(٢) « القديس متى المسكين » لمليكة حبيب يوسف ويوسف حبيب ص ١٩ .

٢٨٨ - ثم خلت السدة المرقسية . وبعد مرور ثلاثة شهور على خلوها قام الأراخنة بالتشاور مع الأساقفة بحثاً عن برغبون فسي اختياره لرعايتهم . واستقر قرارهم على متاوس . وحين سمع بذلك هرب من الدير وركب مركباً اختفى في أسفله . إلا أن الأب السماوى الساهر على كتيسته أنطق ولداً صغيراً ضمن راكبي المركب فأرشداهم إلى مكانه . فلما وجد أنهم أمسكوا به حاول أن يهرب من رغبتهم في رسامته بأن أخذ مقصاً وقطع به طرف لسانه نفسه . ولكن الله فاحص القلوب والكلى أهرأه في الحال . فوجد نفسه للمرة الثانية عاجزاً عن الاقلاات . وعندها رجا عن جاعوه أن يسمحوا له بالذهاب إلى دير الأنبا أنطوني لاستشارة الشيوخ المقيمين به فقبلوا طلبه ولكنهم صحبوه إلى هناك خشية أن يهرب منهم للمرة الثالثة . فلما وصل إلى الدير أشار عليه الآباء الروحانيون بأن يقبل هذه الكرامة العظمى خضوعاً لإرادة الله . فأطاعهم وعاد مع صحبه إلى الشعب . فساروا به لساعتهم إلى الكتدرائية المرقسية بالاسكندرية . وحين بدأت صلوات الرسامة كان حاضراً أحد عشر أسقفاً فاشتبهى من أعماق قلبه أن يكونوا اثني عشر . ولم تمض غير دقائق معدودة حتى دخل الأسقف الثانى عشر . وهكذا استجاب الرب الإله لرغبة عبده الذى رفعت الشعائر المقدسة إلى كرامة الخلافة المرقسية فأصبح الأنبا متاوس الأول الملقب بالمسكين : اليها الاسكندري السابع و الثمانين . وكان ذلك في السادس عشر من شهر مسرى المبارك الذى هو عيد تذكارة سيدتنا كلية الطهر والدة الإله . وهى كانت شفيعة وحارسته من بدء حياته وظل محتجباً في حصن صلواتها طيلة حياته .

٢٨٩ - وحين استقر بالدار البابوية لم يغير من تواضعه ونسكه وسهره وصلواته . ووضع في منارة القلاية البطريركية بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة جرساً من النحاس لينبه به المؤمنين إلى مواعيد الصلاة . فكان كل من يسمع رنين هذا الجرس يتنهض مسرعاً إلى الكنيسة .

٢٩٠ - كذلك كان عطوفاً رحيماً يحمل الطعام والشراب بنفسه إلى المنقطعين والمستورين . ويتفقد الرهبان ويولى الراحيات عناية خاصة . وكان حنانه قوياً إلى حد أنه كان يوزع ملابسه الخاصة وحتى الملابس الكهنوتية فيكتفى ببذلة واحدة منها ليلبسها ساعة تأدية الشعائر المقدسة .

بل لقد حدث مرة أن رسم أسقفاً فقيراً الحال . وأراد أن يعطيه برنسه لأنه لم يكن لديه ما يشتري به البرنس . فعارضه تلاميذه بحجة أنه لاستعماله الخاص . وبينما هو يلح عليهم في إعطاء البرنس للأسقف إذ السيدة تقبض وتقدم له برنساً حريراً ثميناً . فأخذ منها شاكراً وأعطاء لقوده إلى الأسقف . فندم التلاميذ على معارضتهم إياه .

٢٩١- ولما رأى تلاميذه أنه يوزع كل ما عنده غير مستبق شيئاً لنفسه أخذوا يلحون عليه في أن يحتفظ بمئة مائة دينار كانت عنده . ولما تمت المحامهم حبس هذه الدنانير . ولكنه أخذ يلوم نفسه في الليل على حبسها قائلاً : « كيف خالفت وصية السيد ؟ ألا تؤمن بصدق مواعيده ؟ » . وندافع ضميره قام في اليوم التالي ليخرج المال المخزون فإذا به قد تضاعف لأنه وجد ألفاً ومئتين من الدنانير بدلاً من المئة التي كان قد حبسها . فأخرجها ونادى على تلاميذه وقال لهم : « تأملوا يا أولادى تحن الله علينا ! » وأمرهم بأن يشتروا غلالاً بالمبلغ لأنه علم بالروح بحدوث مجاعة فاشعروا الغلال واختزنوها . فلما حلت المجاعة أمر بتوزيع ما في المخزن بغير تفرقة بين مسلم أو يهودى أو مسيحي . وإذا عبر تلاميذه عن خشيتهم من أن تفرغ الغلال قال لهم : « فرقوا يا أولادى ولا تخافوا لأن عندي مخازن أخرى قابضة ملائكة » . وكان يشير بكلماته هذه إلى الفيض السماوى لأنه كان معتاداً أن يعيد عيدى السيدة العذراء ورئيس الملائكة ميخائيل شهرياً : الأول في الحادى والعشرين من كل شهر قبطى والثانى في الثانى عشر منه . وكان بعد الصلاة في هذين العيدين يدخل المخازن ويباركها قائلاً من أن بركة الرب تغنى ولا يزيد معها تعب .

٢٩٢ - وحياة متاوس المسكين صورة مثلى للفضائل المسيحية فلم يكن عطشه على شعبه قاصراً على توزيعه المال والملابس والطعام بل امدد إلى معاونتهم في أعمالهم . فكان يعجن مع العجائين ويحمل أدوات البناء مع البنائين . بل إنه كان يتزح المراحىض مع العمال . ومع ذلك فقد كان ذا هيبة ووقار حتى أنه حين كان يقف أمام المذبح ليردى انشعائر المقدسة يسطع وجهه بنور سماوى وتلمع عيناه ببريق روحانى . وكان يقف طوال فترة القداس لأنه كان يرى ابن الله قائماً عن يمين المذبح .

٢٩٣ - وحدث أن جاء يوماً أرغن غنى اسمه السعيد بركة بن وجه

المهر وجلس يتأمل محبته وحنانه ثم قال له : « أرجوك يا أبى أن تصلى من أجلى لكى يحسن المسيح قلبى فأوزع أموالى على المحتاجين كما أرجو أن تطلب لكى تكون ساعة انتقالى فى حضرتك » قال له الأنبا متاوس : « بحسب إيمانك ليكن لك » . وفى تلك اللحظة فاض الحنان على قلب السعيد بركة فصار يوزع ويعطى كل سائل . وحدث بعد ذلك بفترة أن ذهب هذا المؤمن لزيارة البابا وفيما هو جالس فى حضرتة فاضت روحه إلى خالقها . فقام البابا الحنون وكفنه بيده وهو يقول : « سألت فأعطيت . طلبت فوجدت . قرعت ففتح لك » .

٢٩٤ - وكما أن الأب السماوى كان يستمع لصلوات هذا القديس فيما يتعلق بأنقياء القلب كذلك كان يصفى إليه حين يغضب على المرائين . فقد حدث أن شماساً سرق حبة بستان خاص بأطفال يتامى وأخفاها . فسأله عنها فأنكر أنه أخذها وأضاف : « كلمتك تقطعنى يا أبى » فغضب البابا البار وقال له : « من فعلك يكون لك » وانصرف الشماس إلى بيته وما أن دخل الباب حتى سقط ميتاً . وحينها أهدت الحبة التى كان قد سرقها إلى أصحابها .

٢٩٥ - ولفاعلية الروح القدس الحال فيه كان الناس يأتون إليه بقضاياهم وشكاياهم العديدة . فكان يطلب إلى الجميع أن يصلوا الصلاة الربانية . وبعد أن يذهب باسم الأب والابن والروح القدس يقول : « الخلاص للرب » معلناً بذلك اتكاله التام على ارشاد الروح القدس وتوجيهاته فى كل ما يصدر من أحكام فذاع صيته حتى أن الملوك والولاة إذا ما واجهتهم مشكلة عسرة الحل أو قضية شائكة أرسلوا يطلبون إليه الفصل فيها . وكانوا يقولون ما يحكم به لساعتهم .

٢٩٦ - ولقد بلغت ثقة برقوق فى قداسة هذا البابا فى أنه لم يقبل السلطنة إلا بعد استشارته . فقرر الأنبا متاوس أن يذهب إلى دير الأنبا أنطونى ليستشير شيوخه فى هذا الموضوع . وحين علم الآباء الرهبان باقترابه خرجوا للقاءه حاملين الصليان والأناجيل والشموع والمجامر الممتلئة بخوراً متصاعداً نحو السماء . وقد صاحب البابا من القاهرة ثمانون شخصاً - انتظموا ضمن موكب الرهبان فألفوا مركباً رائعاً لأهيمهم الروحى . وامتلاً الجميع فرحاً وتهليلاً وبخاصة لأن الزيارة كانت قبل أسبوع الألام المحيية

التي لمخلصنا الصالح . وأول ما قام به البابا في الدير كان تكريس الكنيسة التي كان الأباء قد أكملوا بنائها باسم الفتية الثلاثة الذين أنقذهم الرب من أتون النار ^(١) . ثم احتفل الجميع بأسبوع البسخة الكريمة وانتهوا إلى ذروة القيامة المجيدة فامتلات القلوب نعمة وسلاماً .

وقبل أن يغادر الدير رجاً من القمص مرقس الأب الروحاني للدير أن يذكره في صلواته وعرض عليه موضوع برقوق . قال له رجل الله : « اذهب بسلام يا أبانا ولا تخف لأن الرب في رحمته بك قد جعل أمامك السماء أرضاً والأرض سماء . وانصح برقوق بقبول السلطنة » . فعاد إليها متاوس إلى القاهرة وذائق هو وشعبه أياماً من الرخاء . ولقد حفظ السلطان برقوق له الود وأكرمه ورفض أن يقبل أية سعاية أو رشاية فيه .

٢٩٧ - وقد رغب السلطان برقوق في المحافظة على صلوات الصداقة بين مصر والمحبة فرجاً من البابا أن يكتب خطاباً إلى ملكها « ويدم أصغر » الذي كان عاتياً شريراً . فلما جلس البابا لكتابة الرسالة إلى هذا الملك الظالم نطق الروح القدس على لسانه فوجهها إلى أخيه داود . وعارضه الرسل الذين كانوا سيحملون رسالته خوفاً من بطش ويدم أصغر ولكنه أصر على أن تظل الرسالة باسم أخيه داود . فخضعوا لاصراره وحملوها قاصدين إلى المحبة . ولما قربوا من حدود تلك البلاد حدث أن قام بعض المستولين على ويدم أصغر وعزلوه وأجلسوا أخاه داود على كرسي المملكة عوضاً عنه . فلما وصل رسل البابا كان الملك قد آل إلى الشخص الذي وجه إليه البابا رسالته . فلما فك الملك داود ختم الرسالة ووجد بها باسمه فرح فرحاً عظيماً وطلب إلى الرسل أن يعطوه الصليب والمنديل المرسلين هدية من البابا إليه . ودهش حاملوا الرسالة وسألوا الملك من أين علم بالهدايا وهم لم يخبروه بها . فأخبرهم بأن البابا نفسه هو الذي أعلمه بأمرها . ثم دعا وزراء وجنوده وأخته المباركة وقال أمام الجميع : « من قبل أن تمجلسوني ملكاً أبصرت هذا الأب البطريرك في رؤيا وقد أقام أخى من على الكرسي وأجلسنى عوضاً عنه وقال « هكذا يتزع الله الملك ممن لا يسير بالاستقامة ... » وبعد ذلك أعطاني هذا الصليب بيدي ودعا لى لكى يثبت الله كرسي مثل داود أبينا لأقضى بين الشعوب بالعدل . ثم باركنى وانصرف . وكنت أود أن أعلن هذه

(١) دانيال ٣ .

الرؤيا منذ أن شاهدها ولكن أختي المباركة خافت على من بطش أخي ولم أصفر . وحين سمع الجميع هذه الكلمات مجدوا الله الذي يظهر عجائبه في قديسيه وقد اعلم الخليفة المرقسى وهو في مصر بما سيحدث في الحبشة قبل أن يكون .

وبعد أن قضى رسل البابا بضعة أيام في ضيافة الملك داود عادوا إلى مصر وذهبوا لساعتهم فأخبروا السلطان برقوق بكل ما رأوا وما سمعوا فازداد اكراماً له ومحبة فيه .

٢٩٨ - وكان في أيامه راهب اسمه ابراهيم عاش في دير السريان أغواه الشيطان فترك الدير وتكر للمسيحية وانضم إلى الجيش إذ أصبح جندياً فيه . ثم أمعن في زيفه وأخذ يعاند البابا . وكان يعلم أن بعض الرهبان كانوا قد حادوا عن الإيمان ثم ندموا وتابوا إلا أنهم مع توبتهم صاروا يوصفون بالمجروحين . ورامعائاً في الشكاية بالبابا عاد هذا الجاحد إلى البرية مستهدفاً أن يجر هؤلاء الرهبان المجروحين إلى الرولة لكي يقتلوهم . ولكنه لم يجد غير اثنين فقط فجرهما على الرغم منهما وأتى بهما إلى القاهرة . وبالفعل نال هذان الرهبان إكليل الشهادة فضج الشعب من معاندة هذا الجاحد وطلب إلى البابا أن يدعو عليه ليخلصوا منه أجاب : « لا يا أولادى ، أنا لا أدعو عليه بل أدعو له لكي يرد الله إلى الإيمان ويمتعه أن ينال إكليل الشهادة » . ولم تنقض بضعة أسابيع على هذا الحديث إلا وامتلاً قلب ذلك الرجل ندماً وحسرة . وطمى عليه ندمه إلى حد جعله يذهب إلى الوالى لساعته ويعلن توبته وعودته إلى السيد المسيح . فما كان من الوالى إلا أن أمر بقتله وهكذا نال إكليل الشهادة بصلاة البابا البار .

٢٩٩ - وما أن الأنبا متاوس المسكين كان شديد الشغف بتفقد الرهبان فقد كان يزورهم كثيراً . وقصد ذات مرة إلى برية شبهت للسؤال عن نساكها وللاستجمام الروحى أيضاً . وانتبه بعض الأشرار فرصة غيابه عن القاهرة لأنهم كانوا يخافونه فقصدوا إلى كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) مستهدفين احراقها . وسمع السلطان برقوق بالأمر فأرسل لهم قضاة الاسلام الأربعة ليحققوا في دعوتهم بأن هناك مجديداً في تلك البعثة . وقد أثبت القضاة الأربعة بهتان هذه الدعوى وحكموا على الأشرار بالانصراف . ولحمة غيظهم من هذا الحكم رموا ببجيرة متقدة على أساس

الكنيسة قبل أنصرفهم . إلا أن تلاميذ البابا الذين كانوا قد سارعوا إلى المكان حملوا على أطفالها . وبينما هم منشغلون بأطفالها من أسفل أنزل رب الكنيسة المطر عليها فأطفأها من فوق في الحال . فامتلاً الجميع فرحاً وسبحوا الله على عنايته الأبرية .

٣٠٠ - فلما فشل المعاندون في احراق كنيسة السيدة العذراء وجهروا صيحاتهم إلى دير شهران . وكان البابا قد وصل إلى القاهرة فسارع إلى الدير ووقف بمفرده في مواجهة جمهرة الأشرار وقال لهم : « من منكم له سلطان فليجرد سيفه ويقتلني أولاً لأني لن أسمع لأحد أن يمس الدير وأنا حي » . وتراجع الكل أمام هذه الشجاعة . وخلال هذا التراجع ذهب البابا الباسل إلى السلطان وأطلعته على حقيقة الموقف . فما كان منه إلا أن أرسل قضاة الاسلام الأربعة إلى دير شهران كما كان قد أرسلهم إلى الكنيسة المعلقة . فحكموا بوجوب ترك الدير وزياراته في أمان . وهكذا فشلت المحاولة الثانية كما فشلت الأولى .

٣.١ - ولكن حدث أن قام مملوكان هما الأمير منطاش والأمير يلبغا السالمى على السلطان برقوق وقاوماه وخلعاه ونفياه إلى قلعة الكرك بسوريا . ولما أصبح زمام الأمور في أيديهما بدأ سلسلة من الاضطهادات . وبالطبع كان البابا الشخص الأول الذي صُهِبَ عليه جام شرهما . فلقد سمع منطاش بأن لدى رجل الله ذخائر وأموالاً طائلة فأرسل إليه وعنده ولكنه لم يجد لديه شيئاً بالمرة كما أنه واجه شجاعة نادرة في شخصه فأحس بالخجل وأطلقه . أما يلبغا فقد وجد من البابا مقاومة عنيفة حين كان يحاول اضطهاد الشعب فاحتدم غيظاً عليه وسجنه ثم جرد عليه سيفه يريد قتله فمد له رجل الله عنقه في هدوء وثبات وقال له : « أضرب سريعاً » فذهل يلبغا إلى حد أنه أطلقه أيضاً . إلا أن هذا التهجيم على الأنبا متاوس كان له ثمرته : فإن المملوك الذي نصب يلبغا أميراً غضب عليه وسجنه في أحد سجون الاسكندرية وأوقع به آلاماً مبرحة . وكان بعض من القبط يهدون مخاوفهم أحياناً لئلا يتمكن يلبغا من الإفلات من سجنه واستعادة سطرته والبطش بهم من جديد فكان رجل الله يطعنهم قاتلاً : « لا تخافوا الله يا أولادى فلن يخرج من السجن ولن يمس شعرة من رؤوسكم لأني وكلت بسجنه الأربعة حيوانات غير المتجسدين حاملي العرش الإلهي » . وقد تحققت كلماته بالفعل إذ ظل يلبغا مسجوناً إلى أن مات .

٣.٢ - ثم شاء الله في شامل رحته أن يرسخ السلام مرة أخرى في بلادنا فتهيأت الفرصة أمام السلطان برقوق لأن يعود إلى الحكم إذ قد عاد إلى مصر ظافراً وابتهج الشعب كله بعودته فخرج القبط بانجيالهم واليهود بتوراتهم وحمل الجميع الشموع وساروا في المركب الذي ألفه المسلمون لاستقبال السلطان .

ولقد أثبت السلطان برقوق جنارته بهذا التقدير الشعبي الشامل لأنه لم يحرص فقط على معاملة الجميع بالانصاف بل عمل على حفظ صلات المودة بينه وبين جيرانه من الدول : فكثرت صلاته مع اليمن والحبشة صلات من يستهدف تثبيت السلام . بل أنه حين أنتهز دلود بن أرعد ملك الحبشة الفرصة من تطاحن بعض الأمراء وأغار على أسوان لم يجهه برقوق بسد السيف بل رجا من الأنبا متاوس أن يرسل له خطاباً مع رسول خاص يطالبه فيه بالعودة إلى بلاده . وقد استجاب البابا الاسكندري هذا الرجاء على الفور وبعث برسالة مع أسقف صحبه رسول السلطان وقد استجاب ملك الحبشة على هذه الرسالة بخطاب بعث به إلى السلطان وهدية حملها واحد وعشرون جملًا^(١) .

وحدث في تلك الفترة عنها أن قصد إلى الحبشة أحد الأراخنة القبط اسمه فخر الدولة فعهد إليه الملك اسحق بن دلود بن سيف أرعد بترتيب أمور الدولة فنظم له طريقة تحصيل الضرائب وأنشأ له ديواناً ووضع مختلف القوانين المنظمة لأنشطة الحكومة . كذلك وضع فخر الدولة هذا تصميماً للملابس الملك الرسمية التي يتميز بها عن سائر أمرائه ورجاله . وكان ملوك الحبشة يخرجون عرايا قبل ذلك^(٢) .

٣.٣ - ولما كانت مواهب الله ثابتة من جيل إلى جيل ، ولما كان قد أعلن أنه يتمجد في قديميه ويكرم الذين يكرمونه فقد بدأ مجده وتكرمه بصورة باهرة في شخص البابا الكبير رغم لقبه بالمسكين . فمنحه مواهب عديدة من مواهب الروح القدس . فقد رأينا كيف أنه عرف بالروح من خلق

(١) نوايق الأقباط لتوفيق اسكاروس ص ٤٨ - ٥٨

(٢) قسام دولة المالكة الثانية لحكم أمين عبد السيد (دار الكتب - القاهرة

سنة ١٩٦٧) - ص ١٦٠

ويهم أصغر وقيام أخيه داود بدلاً عنه ملكاً على الحبشة . لكنه كان ذا مواهب متنوعة إلى جانب موهبة التنبؤ هذه . فلقد أجرى الله بصلاته الآيات العديدة من اخراج الأرواح الشريرة وشفاء المرضى وإقامة الموتى ولو أن المجال هنا سيقتصر على أمثلة قليلة للدلالة على مدى ما اختصه الله من مواهب .

٣.٤ - فقد حدث أن صبية اعتراها روح نجس . فحملها أبواها وأتيا بها إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة حيث يقيم البابا . وحين دخل بها تركها الروح النجس ووقف خارج الباب . وبدأ البابا يصلي من أجلها . وفي أثناء الصلاة حضر كاهن من الصعيد رغبة منه في نوال البركة الرسولية فقصد إلى الكنيسة و كان عن منحهم الله رقية الأرواح . فلما وصل إلى باب الكنيسة رأى الروح النجس واقفاً عنده فسأله عن سبب وقوفه وعلم منه أنه خاف يدخل إلى الداخل ولكنه منتظر الصبية ليعاود مضايقتها حالما تخرج . فأسرع الكاهن إلى الداخل وأسر في أذن البابا بما رأى وما سمع . ثم استكمل حديثه بقوله : « ولكنه حينما رأيته داخلًا وعلم أنني سأبلغك أمره انصرف لساعته خشية أن تحرقه صلاتكم القوية من على الأرض » فتعجب الجميع ومجدوا الله لعظم الآيات التي كانت تحققها السيدة العذراء بصلاته الأتيا متارس .

٣.٥ - وكان هذا البابا الساهر يتفقد شعبه بلا هوادة . فحدث أن عبر ذات يوم على منزل أحد الأغنياء فوجد الباب مريضاً ملقى على الأرض ضاعفت الأوساخ من وجعه وملائكة برائحة كريهة دون أن يجد من يهتم به . فأسرع البابا الرحيم وأتزر بمنديله وجلس إلى جانبه ينسل جسمه وثيابه وفراشه . ولما أحس هذا الباب المسكين بالراحة وباستجمام جسمه الذي أضناه المرض والجوع طلب إلى الله أن يتعطف عليه وينقله في الحال من عالم الجفاء والاهمال إلى عالم العناية والرعاية . فاستكمل الأتيا متارس خدمته لهذا الفقير بأن كفته بيديه الطاهرتين .

٣.٦ - ولما كانت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة المثر البابوي آنذاك فقد شاء البابا أن يجدد بعض المباني المحيطة بها . وبينما الفعلة يعملون سقط واحد منهم وهو حامل حجراً ثقيلاً وسقط الحجر عليه فانكسرت

أضلاعه ومات لساعته وامتلأ رفيقائه خوفاً وأرادوا الهرب . ولكن البابا الساهر علم بالأمر فهذا من ذعرهم وقال لهم : « اسكتوا ولا تقولوا إن الفاعل مات فهو لم يميت وأنا أضمن لكم بمراحم سيدي ومخلصي أنه حي وعند ذاك حمله أربعة منهم إلى الكنيسة ووضعوه أمام حجاب الهيكل تحت أيقونة السيدة العذراء حسب أمر الأنبا متاوس فغطاه بأزاره من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة من النهار المبارك . ثم طلب قليلاً من الماء الساخن ، ووقف يصلي ، وكلما صلى على عضو ومسحه بالماء الساخن تحرك هذا العضو . ولم يلبث أن قام الرجل معافى بشفاعة صاحبة الشفاعات والدة الإله وبصلوات خادميها الأمين البابا متاوس .

٣.٧ - كذلك حدث أن أرختاً كبيراً اسمه فخر الدولة وصل إلى الموت ووجد نفسه محاطاً بالملائكة يحاسبونه ويهكتونه فامتلات نفسه ذعراً وتلفت يمنة ويسرة أملاً في أن يرى الأنبا متاوس علي مقربة منه . ولما لم يجده ازداد رعباً . وإذا به يراه فجأة واقفاً إلى جانبه يصلي من أجله ويستعطف السيد المسيح في أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى لكي يتوب . وسمع فخر الدولة صوت المخلص يقول لصفيته : « قد سمعت لك في هذا الإنسان ووهبته لك . فعرفه أن يرجع عن خطاياهم ويتبع طريق الله » . وما أن انتهى المخلص من كلماته هذه حتى انتبه الرجل المائت وأفاق من غيبوبته ، وحالاً أفاق تماماً قصد إلى الدار الباهرة وروى للأنبا متاوس كل ما جرى له . وبكى البابا الحنون فرحاً واشفاقاً على أولاده ووالى هذا الأرغن برعايته حتى استقام تماماً .

٣.٨ - بل أن صلواته كانت حصناً حتى لمن لا يستطيعون الوصول إليه بالفعل وكانت رغبته في الاستشفاع به تكفي لأن تحصل لهم هذه الشفاعة . فقد حدث لبعض الأراخنة أن وقعوا في شدة مع الأمراء واضطربوا وأرادوا أن يلتجئوا إلى صلوات البابا . وفيما هم ذاهبون إليه أدركهم الليل فاضطربوا إلى المبيت حيث هم وفي تلك الليلة رأى أحدهم في حلم الأنبا متاوس قائماً أمام أيقونة مارجرس يستشفع به في أمرهم قائلاً بصوت مسموع : « يا شهيد الله يا مارجرس أنا لا أعرف لهم خلاصاً إلا بك » . وفي تلك اللحظة أمال الشهيد العظيم رأسه من الأيقونة ثلاث مرات كمن يقول نعم . ولما رأى البابا تواضع البطل انطرح على الأرض

أمامه . فعظم على الشهيد هذا الاتطراح وخرج من الإيقونة على هيئة فارس وأقامه ثم تبارك كل منهما من الآخر .

وفي الصباح قص هذا الأرغن حلمه على زملائه فخامهم الشك . ولكن لم تمض يرة وجيزة حتى جاءهم الأمر بالعفو عنهم من غير سعى ولا وساطة . فقاموا في الحال وذهبوا إلى البابا وقدموا له الشكر الوفير لأنه شفع فيهم من غير أن يطلبوا إليه بشفاهم ولمجرد استشفافه لحاجتهم .

٣.٩ - على أن الناس في كل مكان وكل جيل كثيراً ما ينسون القوى الروحية الخفية لكونها غير مرئية ويميلون إلى الارتكان على المال زعماء منهم أنه أقوى فعلاً في النفوس . ومع أن الشعب رأى في بابا النموذج الأمثل للروحانية وللتصامى على الماديات إلا أنه حدث على الرغم من هذا أن جاء أحد كتبة ديوان السلطان وهو قلق مضطرب وقدم له خمسمائة دينار قائلاً له : « يا رجل الله تقبل منى هذا المال وصلى من أجلى ، لأن السلطان برقوق يريد قتلى اليوم ولا أجد مخرجاً أمامى من هذه الورطة » أجابه البابا العفيف : « احتفظ بنفك لنفسك لأن الصلاة التى بالذهب لا قيمة لها . وإن أردت أن تخلص أعد الذهب إلى مكانه وخذ صليبهى ومتديلى معك . وأدخل بهما إلى حضرة السلطان » . ثم قام وصلى على رأس الرجل وأعطاه الصليب والمتدبل وأطاح الكاتب أمر بابا وذهب إلى السلطان الذى كان فى حدة الغضب ولكن ما أن وقعت عيناه على كاتبه حتى هدأت نفسه وأصفى إليه وكان كلمات الكاتب كانت كالندى على أذنيه وفرح الكاتب بهذا التحول العجيب ، وخرج بعد ذلك وأذاع ما حدث بين جميع عارفيه . فمجنوا الله على رحمته وعلى تقبله صلوات قديسه الأنبا متاوس .

ثم حدث أن وقع أحد أولاد الوزراء القبط تحت غضب السلطان وخاف عليه البابا فذهب لفرره يستغيث بالشهيد العظيم الأمير ثيودورس (تادرس) قائلاً له : « أنا أعرف يا شهيد المسيح أنك خلصت أولاد الأرملة من فم التين القاتل بجرأة عظيمة وأنا أنطقك بالسلطان الذى منعه لى ربي ومخلصى يسوع المسيح ولن أحلك من هذا الرباط قبل أن تنقذ هذا الشاب مما هو فيه من ضيق » . وكان الأنبا متاوس وقتذاك فى الكنيسة يخاطب الشهيد عن طريق أيقونته بهذه الدالة وهذا التفوذ بينما كان ابن

الوزير فى القصر يواجه السلطان الغاضب عليه . وفجأة وجد الشاب أن غضب برقوق قد هدأ إلى حد أنه أعلن له العفو . وحالما خرج من القصر السلطانى ذهب ليشكر البابا لأنه أدرك بالروح أن مثل هذا التحول الفجائى ما كان ليحدث لولا صلوات الأنبا متاوس من أجله . وقد فرح الشاب وأهله بهذه النجاة غير المنتظرة ومجدوا الأب السماوى الذى يهب قديسيه هذه الدالة وهذه الكرامة فى قلوب السلاطين ^(١) .

٣٩٠ - إلا أن دوام الحال من المحال فانتقضت فترة السلام التى رسخها السلطان برقوق بموته وتولى ابنه الناصر فرج السلطنة من بعده واتبع خطة أبيه فى انصاف الرعية . إلا أن الأمير سودون ما لبث أن تغلب عليه وأستأثر بالحكم . وكان عاتياً فأخذ يبطش بالرعية . وتآمر ذات يوم مع بعض أعوانه على الفتك بالقبط مستهدفاً القضاء عليهم جميعاً . وعرف الأنبا متاوس بالروح عن هذه المؤامرة فقام لساعته وذهب إلى كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر القديمة حيث حبس نفسه سبعة أيام متوالية وهو يصلى ناسياً الأكل والشرب والنوم وكل مطالب الجسد فى سبيل الذود عن شعبه . وبعد هذا الصراع الروحى المتواصل ظهرت له السيدة العذراء وسط نور ساطع وقالت له : « لقد قبل الله طلبتك وأبطل مؤامرة الماكرين مخلصاً شعبه من أيديهم » . حينئذ ابتهج قلبه وخرج من البهجة ووجهه يسطع كوجه ملاك . ويتدبير من الله أرسل الأمير سودون إلى البابا يدعو للحضور عنده . فلما ذهب إليه اعترف له بما كان يتوهم ضد الشعب القبطى فوبخه البابا الباسل توبيخاً قارصاً وأعلن له أن الله هو الحصن الحصين لشعبه وأن السلطان الأرضى مهما علا نفوذه لن ينال منهم الا بالقدر الذى يسمح به الله . وقد امتلأ قلب الأمير سودون خوفاً من هذه الكلمات كما امتلأ دهشة من شجاعة رجل الله فأطلقه فى سلام . وذهب هو وشعبه إلى كنيسة السيدة العذراء حيث قدموا الشكر للأب السماوى وعملوا تمجيداً للسيدة والدة الإله معينة المتجنيين إليها .

٣٩١ - ولقد اشتد الضغط على القبط من أعوان سودون أيضاً فقام أحدهم واسمه أوزيك ويطش بهم فسجن من سجن وقتل من قتل . واحتد

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط - المرجع السابق ص ١٨٧ - ١٨٨ . ومجدر الإشارة هنا إلى جرأة الأنبا متاوس ودأبه أمام القديسين وإلى اعتزازه بالسلطان الكهنوتى الممنوح له من رب المجد .

غضب البابا على هذا الأمير الذى لم يأن قلبه لأية خسارة . فتصد إلى كنيسة الملاك ميخائيل وحبس نفسه فيها ستة أيام بلياليها وهو يصلى ويتوسل إلى الملاك لكى يسارع إلى نجدة الشعب المعذب . وبعد الأيام الستة أرسل أحد تلاميذه ليستطلع الأمور . ولما وصل التلميذ إلى باب قصر ذلك الأمير وجده محمولاً على نعشه وقيل له بأن فارساً طعنه بحربة منذ ستة أيام ظل خلالها معذباً إلى أن مات متأثراً بجراحه . فعاد التلميذ مسرعاً وأخبر باباها بما سمع . فقام لساعته وعمل قجيداً لرئيس الملائكة ميخائيل الذى أعانه من غير أمهال وأراحه هو وشعبه من فاعل الظلم .

٣١٢ - وفى ذات يوم أتى شاب شماس إلى البابا يستنجد به ويقول : « أدركنى يا أبى لأن فارساً على حصان أبيض قد مر على ضرتى اليوم ضرباً موجعاً لأنى رغم كونى شماساً قد خالفت القوانين خلصة ولم أصم يوم الأربعاء والجمعة مع أنى لم أطلع أحداً على مخالفتى » . أجابه البابا : « لا تخف فأنا أعرف الفارس الذى ضربك وأنا سأأخذك إليه لتعوب أمامه ولا تعود إلى مخالفتك موقناً بأنه لا خفى إلا ويظهر كما قال لنا سيدنا » . قال الشماس : « أنى طوع أمرك يا أبى » . فأخذ البابا إلى كنيسة الملاك ميخائيل وكانت بها أيقونة لشفيبعها وهو ممسك ظهر جواد أبيض . وحالما وقعت عينها الشماس عليها قال : « بالحقيقة يا أبى هذا هو الفارس الذى ضرتى والحق أنى استحق الضرب الذى أوقعه بى لأنى شماس فى كنيسة . وأنى من اليوم نادم وتائب أمامه وبين يديك » . واستقام الشماس فعلاً منذ تلك اللحظة وأعطى المجد لله الذى منح البابا متاوس شفافية روحية وعطفاً أبوياً حتى لقد كان شعبه يقول عنه بأنه يشتري نفوس أولاده الآتين إليه وينجدهم بحرارة صلواته .

٣١٣ - وضاق عدو الخير ذرعاً بهذا القديس الذى استنصت روحه بالأنوار السمائية وانعكس وهجها على الشعب كله . فاستشار عليه أولاً بعضاً من أولاده الذين ساروا فى طريق اللهو والعبث ورفضوا أن يصفوا لتعاليمه وترجيحاته . وكان هو يبكى على غلاظة قلوبهم ويادوم على الصلاة من أجلهم . ولكنهم قادوا فى غيهم وغرورهم ولم يزدادوا إلا تشامخاً .

٣١٤ - وفى وسط هذه الضيقة التى أفلقت نفس البابا على المعاندين له

من شعبه استشار الشيطان أميراً من المماليك اسمه جمال الدين ، فأخذ هذا الأمير يعذب ويسجن ويقتل كل من استطاع القبض عليه من القبط . وزاد على ذلك بأن أرسل رسلاً إلى الحجاز واليمن خلسة يشيرون على حكامها بأن يكتبوا إلى السلطان خطابات يوجهون فيها إلى الأنبا متاوس تهمة زور مؤداها أنه يعرض ملك الحبشة على تخریب مكة . ولقد كشف الله هذه السعاية للبابا إذ أعلمه مقدماً بها قبل أن تصل الرسائل المملوكة بالشكوى ضده إلى مصر . فقام لغوره يستنجد بأم التور حسب عادته . ورجا منها أن ترحم شعبه حتى لا تتضاعف عليه الشدائد . فاستجابت ذات الشفاعات صلواته بأن أصيب بحمى شديدة اضطرت به إلى ملازمة الفراش . وحين سمع الأمير جمال الدين بمرضه هدأت حدته قليلاً . فسكت عنه بعض السكوت ولكنه استمر يعذب الشعب ثم أرسل يطلب البابا بخمسمائة ألف درهم ويتوعده بالتعذيب رغم مرضه إن لم يرسلها له . وقد جمع الشعب هذا المبلغ حياً في باباه ورجية منه في حمايته من ذلك الأمير العاتى . إلا أن الأمير ازداد صلفاً بعد أن قبض المال الذى أراد . وأرسل رسله يشدد على البابا بالحضور إليه . فطيب البابا خاطر الرسل ورجا منهم أن يهلوه إلى اليوم التالى فقط - الذى كان يوم الأحد . أما هو فكان قد علم بالروح أن ساعته قد حانت وأن الأب السماوى سينقله إلى فردوسه قبل أن يتمكن الأمير الظالم من أذيتة . وفعلأ حين وصل الرسل فى اليوم التالى وجدوا أنه قد أصبح فى مأمن من غدر أميرهم إذ قد فاضت روحه إلى خالقها فى الهمجة الأولى من ليلة الاثنين وذهل الأمير وأعرانه مما حدث .

على أن الله تعالى الذى قال « لى النعمة أنا أجازى » لم يدع هذا الطاغية فى أمان بعد استبداده بصفيه . لأنه لم يلبث أن غضب عليه السلطان عهد العزيز ابن برقوق لوشاية وصلت عنه . فأمر بالقبض عليه وعصره ، وأخذ منه أضعاف المال الذى أخذه عنوة من البابا وشعبه . وبعد ذلك أمر الجنود بضربه إلى أن مات .

٣١٥ - وكان الأنبا متاوس قد أرسل إلى تلاميذه ليحضروا إليه فأعلمهم بقرب انتقاله إلى الفردوس وأعطاهم وصيته فيما يتعلق بتكفينه . وطلب إليهم أن يدفنوه بدير الحندق ليكون بين أولاده حتى بعد انتقاله وبعد أن أنتهى من وصيته التف بأزاره راستودع روحه بين يدى الأب السماوى .

وقد بلغ من العمر اثنين وسبعين سنة : أربعين منها قبل الرسامة واثنين وثلاثين سنة راعياً لشعب المسيح . وقد اجتمع للصلاة عليه في جنازته عدد عديد من الأساقفة والكهنة والشمامسة وجماهير الشعب . واجتمع معهم رؤساء الطوائف المسيحية غير القبطية (الروم والأرمن) إلى جانب طائفة اليهود . وشمل الحزن كل القلوب حتى « كادت عمد البيعة أن تبكيه وهو راقد وصليبه في يده . وكانوا يتتبعون لأجل حسن مظهره وهيبته وصدقته وافتقاده المساكين وعلى احتماله وصبره ... ثم حملوه بالأكرام والتبجيل والوقار حتى كان حمله في تابوته كمثل حمل تابوت العهد . أين ذلك الرجل القوي الذي يستطيع أن يعمل ذلك التابوت من كثرة الخلقة المحيطة به المزدحمة عليه . وكانت الأجناد والعساكر أمام ذلك التابوت تحجبه إلى أن مضوا به إلى دير الخندق » (١) .

وقد حدث ليلة انتقاله أن اضطربت عظام القديسين المدفونين بدير الأنبا مكارى الكبير بهيرة شبيهت . وسمع صوت مع اضطراب العظام يقول « قوموا افتحوا الباب لأن متاوس قد حضر » . ولما فتح الرهبان الباب ولم يجدوا أحداً أندهشوا ولكنهم لم يعرفوا الحقيقة إلا بعد بضعة أيام حين وافاهم الخبر . فأدركوا أن أرواح القديسين شاخت أن تتبارك مع بعضها البعض فعبرت روحه على موضعهم . وأن الأجساد اضطربت حزناً على الشعب الذي فقد معلماً وأباً وراعياً ساهراً.

وبعد نباحته بأربعين يوماً حدث أن ثلاثة من الرهبان المجرحين كانوا مارين على دير الخندق وأمسى عليهم الليل فباتوا فيه . وقبيل الفجر قاموا من النوم استعداداً لصلاة باكراً فرأوا الأنبا متاوس مرتدياً برنسه وهو سائر يهخر بين الموتى متفقداً إياهم كما كان يفعل وهو ما زال على الأرض حين كان يطوف بالليل ليتفقد أولاده . ولم يعرف هؤلاء الثلاثة من هو هذا الكاهن البقظ وخافوا من رهبة منظره ومن النور المشع من وجهه فسقطوا على وجوههم ووجدتهم بعض الشمامسة فأقاموهم واستفهموا عن سبب وقوعهم وحين سمعوا وصفهم لذاك الذي كان يهخر قالوا : « إنه الأنبا متاوس الذي مازال يحنو على شعبه » . وأخلوهم إلى المكان المدفون فيه هذا القديس تحت مذبح الكنيسة فتباركوا منه

(١) تاريخ بطاركة للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين أشرف على طبعه أنطون خاطر وأزولد بومستر ص ٥٨

٣١٦ - وكان الأنبا متاوس قد تنبأ لتلاميذه قريبا انتقاله بأن الذي سيخلفه على الكرسي المرقسي هو غبريال المترهب بدير الأنبا صموئيل القلموني . على أن الناس كانوا قد سهوا عن هذه النبوة . ولكنهم في بحثهم عن من يخلفه استحضروا هذا الراهب الذي كهنسة السيدة العذراء (المعلقة) له رسموه قمصاً . وبينما هم يصلون رأى أحد الشيوخ القديسين الياها متاوس واقفاً عند جناح المنبح وهو يضع يده على رأس غبريال مع الآباء الحديسين . ولما رآه هذا الشيخ تقدم إليه طالباً إليه البركة . فباركه ثم قال له : اذكرني يا أخي لأني ماض إلى الاسكندرية مع الآباء لأشترك وإياهم في رسامة الياها غبريال « فتذكر الجميع نبوته وقتذاك .

وحدث أنهم حين كانوا في الكتدرائية المرقسية بالاسكندرية لتأدية الشعائر المقدسة لم ير الياها متاوس غير كاهن اسمه يوحنا كان قد أصيب بالحرس . ولما التقى به الياها قال له : « يا يوحنا - من الآن لن تكون أخيراً . فقم وتحدث وأخبر المجتمعين أنني حضرت مع جماعة القديسين لأشترك في تكريس غبريال ياها الاسكندرية » . ورجع القمص يوحنا إلى نفسه فإذا بلسانه قد انطلق . فأخذ يتحدث بعظائم الله وروى للجميع الحاضرين ما حدث له . وجميع الذين سمعوا مجدوا الله على المواهب العليا التي أغدقها الله على الأنبا متاوس في حياته وبعد نياحته ^(١) .



(١) تاريخ البطارقة ... للأنبا ساويرس طبع بإشراف أنطون خاطر وأزولك بدميتر من ١٣٦ - ١٥٨ ، سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة . الطبعة الأولى من ٧ - ٦١ .

ب - الشيخ الروحاني مرقس الأنطوني

- | | |
|---|--------------------------------|
| ٣١٧ - فاعليه الروح القدس | ٣٢٤ - اختياره الرهبنة . |
| الواقعة في الكنيسة . | ٣٢٥ - قضاءه ست سنوات في دير |
| ٣١٨ - نشأته مرقس . | الاتيا بولا ثم عودته الى دير |
| ٣١٩ - شدة تمسكه ليوى مرقس بالروحانيات . | الاتيا انطوني . |
| ٣٢٠ - اضطراره الى العمل منذ طفولته . | ٣٢٦ - مرقس طبيب روحاني للجميع |
| ٣٢١ - حنانه العميق . | ٣٢٧ - علاقته مع الامير يليقا . |
| ٣٢٢ - حبه الصلوات الكنسية . | ٣٢٨ - توجيهاته للرهبان . |
| ٣٢٣ - مثالية (١) . | ٣٢٩ - نيافته . |

٣١٧ - لقد قيل عن الاتيا أثناسيوس الرسولي حامي الإيمان القويم بأنه « جمع بين العزة المتشامخة وبين القداسة . وجاز الأهوال وظل مشمراً . وعرف معنى الهوس وظل مجيداً » (١) . وهذه الكلمات تنطبق على الكنيسة التي زاد عنها أثناسيوس بكل مواهب النادرة وبخاصة في هذه الحقبة المذلّمة من التاريخ . ذلك لأن الكنيسة كانت تجوز الاضطهاد ثم تذوق طعم الراحة على مدى تاريخها الطويل . أما في هذه الفترة فلم تخرج من ضيقة إلا لتجوز أخرى ، ولم تنج من اضطهاد إلا لتقع في ثان . ورغم هذه الأهوال المتلاحقة فقد بدت نعمة الله ورحمته فيمن عاش من القديسين ومن نال إكليل الشهادة . ويجب أن نتمعن في هذه الظاهرة الروحية العجيبة التي يعلنها لنا الله خلال المحجب والظلمات . لأن هناك من لا يتجهون بأبصارهم إلا إلى نواحي الضعف والنقص والجهود . ولكن - ألم يسر المجهود جنباً إلى جنب مع الاخلاص المتفاني منذ أن عاش مخلصنا الصالح على الأرض ؟ ألم يكن يهوذا الخائن زميلاً ليوحنا الحبيب الذي لازم قاده إلى الصليب ونال ثوابه بأن اتّمنه رب المجد على أمه ؟ لذلك حينما يحاول المتشائمون ارهاقنا بالاتهام ناحية الارتداد علينا أن نقدم لهم هذه الأدلة الرائعة التي تبرز لنا خلف السحب القائمة كالحيط الذهبي الساطع المعلن بهاء الشمس من وراء تلك السحب . فكنيستنا القبطية المجيدة جسدت حي

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ١ الفصل الخامس بحامي الإيمان القويم .

ناطق يؤكد كلمات القادى القائل: «فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا
أنا قد غلبت العالم»

ولئن كان الهابوات أشبه بقمة الهرم فليس من شك فى أن هذه القمة ما
كانت لتعلو نحو السماء فى ثبات لو لم يكن الهنيان تحتها متراعصاً ، هكذا
كان الشعب بأراختته وكهنته وأساقفته هرمأ متماسكاً ترتفع فوقه قمته
وحتى إن تدهرج حجر منها ظل الهنيان قائماً . وهذه هى حقيقة الواقع
للعصر الذى توج قمته الآنبا متاوس الملقب بالمسكين : كان فيه الجاحدون
المرتدون جنباً إلى جنب مع الشهداء البراسل ، وكان فيه قديسون بلغوا
ذروة سامية تضارع خسرات القداسة فى مختلف العصور كما كان فيه جهناء
رعديدون. وقد تهتت مراحم الله فى أن القديسين هم الذين أحرزوا النصر
ونجحوا فى شحذ الهمم وتقوية العزائم والإبقاء على الإيمان فى بهائه
وسطوره .

وما لا شك فيه أن الغالبية العظمى ممن عاشوا بإيمانهم وثبتوا فيه هم
الآلاف المقصودون الذين لا يذكرهم التاريخ اطلاقاً رغم أنهم صانعو التاريخ .
وما لا شك فيه أيضاً أن هناك أبطالاً عديدين أدوا الأمانة فى حرص
واخلاص ولكنهم مجهولون لأن وقد يظنون مجهولين إلى اليوم الأخير .
وسواء أكان البطل معروفاً أم مغموراً مجهولاً فإن الجميع معروفون لدى
عارف الخفايا الذى لا ينسى كأس ماء بارد . فمثلاً نقرأ فى مخطوطات هذا
العصر اسم الأب القمص الورد أنبا روفائيل النضاعى ولكننا لا نعرف عنه
إلا أنه كان الأب الروحى والمرشد الأمين لقديس برز إذ ذاك هو الشيخ
المتشح بالروحيات مرقس الأنطونى . كما نقرأ اسم الراهب يعقوب القليوبى
الذى من دير شهران والذى ذهب إلى دير الأنبا أنطونى طلباً لبركة الهابا
متاوس ولا تعرف عنه إلا أنه كان رئيساً للدير الذى رفع اسمه الآنبا برسوم
العريان . فما أعجب كنيسة الشهداء ! إنها كنيسة الكتائب العديدة من
الجنود المجهولين الذين تعفوا عن مجد هذا العالم سعياً وراء الأمجاد غير
المرئية .

٣١٨ - ولقد نشأ مرقس فى بلدة منشأة النصارى بالصعيد . ولما بلغ
الخامسة من عمره كان سائراً ذات يوم مع أمه فقابلهما الآنبا ساريس أسقف
أسيوط . فحمله على ذراعه وسأله عن اسمه . وأجابه الولد « مرقس »

فتهلل وجه الأسقف وقال له : « حقاً يا ولدى أنك مستشابه مرقس صاحب كورة مصر » ثم باركه وأرجعه إلى أمه موصياً إياها برعايته . ولقد فرح قلب أمه فرحاً عظيماً وتفلت وصية الأسقف بهمة بالفة وبخاصة لأنها ترملت بعد فترة وجيزة فوجدت نفسها الحارس الوحيد لهذا الولد الذي امتلأت نفسها يقيناً بأنه سيكون من المباركين.

٣١٩ - ولقد اعتاد أبوا مرقس أن يطربوا اليوم حتى الساعة التاسعة (١) باستمرار سواء في أيام الصوم المقررة من الكنيسة أو في أيام الأفاطار . فشب مرقس على عادة الصوم الانقطاعى يومياً منذ الخامسة من عمره . وكان يرقب والدته باهتمام بالغ بعد أن تبت من أبيه وبخاصة لأنه كان وحيداً . فكان متى رآها واقفة تصلى يشد وسطه بزئار ويقف إلى جانبها يرفع ضراسته مع ضراعتها . ويظل واقفاً إلى أن تنتهى من صلواتها .

٣٢٠ - وما أنه كان من أبوين فقورين ... فقد اضطر إلى العمل منذ طفولته . فكان يخرج مع الفلاحين يزرع وقت الزرع ويحصد وقت الحصاد ... وكان بالطبع يخرج مع الصبح ولا يعود إلا عند الغروب . فكانت أمه تعطيه غذاء . ولكنه كان يوزعه على من يجده أكثر احتياجاً منه ويظل طائراً إلى أن يعود مساءً لأمه .

٣٢١ - ورغم صغر سنه فقد ملأ الختان قلبه فلم يدفعه إلى توزيع طعامه أو التصديق بشئ من أجره الذى يكسبه بحرق جبينه فقط بل امتد إلى أبعد من ذلك . فقد لاحظ أن امرأة فقيرة تأتى وتسرق نصيبه مما يلتقطه . فصار يجمع لها كل ما يجده ملقى فى الخيط ويكومه على ما التقطه بدلاً من تربيخها . وحينما رأت عطفه عليها بالعطاء وبإخفاء تعديها تيقظ ضميرها وتابت عن شرها .

٣٢٢ - وحدث أن كان عليه توصيل بعض الخنطة من جهة إلى أخرى على ظهر حمارة . وبينما هو متجه بالخنطة مر على كنيسة وسمع منها ألحان الصلوات . فعز عليه أن يسير فى طريقه من غير أن يحضر الصلاة وينال بركتها الروحية. ولصدق إيمانه رسم علامة الصليب على الحمارة وربطها خارج الكنيسة ثم دخل وحضر القداس وتناول من الأسرار الإلهية وخرج فوجد الحمارة مكانها والخنطة على ظهرها دون أن يمسه أحد .

(١) هذه الساعة تبعاً للتوقيت الكنسى الخاص بالصلوات - وهي تقع فى حوالى الثالثة بعد الظهر .

ولأن وعيه الروحي كان مرهقاً فإنه كان يقضى ليالى الأعياد طاوياً
مصلياً استعداداً لصلوات العيد فى اليوم التالى . وحدث فى ليلة من
ليالى عيد الأنبا شنودة رئيس المتوحدين أن صارحه عدو الخير بحلم
مخيف . فقام لساعته وضرب ثلاثمائة مطانوه ^(١) وبذلك انتصر فى صراعه
وظفر ببركة الأسرار الإلهية .

٣٢٣ - ولا عجب فى أن يكون مرقس على هذه الدرجة من الحساسية
الروحية لأن أمه كانت نموذجاً مثالياً له . فهى كانت دائمة المواظبة على
حضور الصلوات الكنسية وعلى الصوم الانتقاعى يوماً حتى التاسعة .
وبعد هذا الصوم لا تطبخ غير المحبوب أو البقول . فلم تكن خميرة بركة
لايتها وحده بل إن جيرانها تعلموا بقوتها فصاروا هم أيضاً يواظبون على
الذهاب للكنيسة وعلى الصوم الانتقاعى إلى التاسعة .

كذلك لاحظ مرقس أن أمه رغم فقرها لم تكن تتردد سائلاً عن بابها .
فإن طرق بابها طالب احسان ولم يكن لديها نقود تعطيه ما تجمع لديها من
بعض الفراخ أو قليلاً من القمح . لذلك كان منزلها المتواضع مأوى للمساكين
والرهبان ومقصداً للمعوزين .

٣٢٤ - ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره أشعق إلى حياة الرهبنة .
فاستأذن من أمه وقصد إلى أحد الأديرة القريبة من منطقته . ولكنه دهش
حين رأى الرهبان لا يصومون طياً بل ويتهاونون حتى فى الصلوات . ولما لم
يرقه هذا السلوك عاد إلى أمه . وما أن وقعت عينها عليه حتى قالت له
« لقد ظننت أنك مت عن هذا العالم . فما الذى أتى بك ؟ احذر يا بنى
لأن الذى يضع يده على المحراث لا ينظر إلى الوراء أبداً لتلا بفشل فى أن
يكون صالحاً للكنوت السماء » ^(٢) . وحالاً سمع كلماتها تركها لساعته
وقصد إلى دهر كوكب البرية الأنبا أنطونى . وشاعت العناية الإلهية أن

(١) مطانوه أو مطانية كلمة يونانية أصبحت قبطية بالاستعمال ومعناها الاستغفار أو
الاسترحام ولتأديتها حسب التعلمات الكنسية يقول المصلى « يا رب ارحم » ويسجد إلى
الأرض ثم يقوم مع كل ترديد لكلمة « يا رب ارحم »

(٢) قارن بين موقف هذه الأم الأرملة مع وحيدها وبين موقف بعض الآباء
والأمهات الذين يعارضون فى رهبنة أبنائهم وبناتهم وأحياناً يعارضون أبنائهم الراهبين
فى الكهنوت !

يكون القمص روفائيل التعتاعي أبوه الروحي فى الدير ساعة وصوله . ففرح فرحاً عظيماً وتولى رعايته بضعة أيام . ثم أخذه إلى دير الأنبا بولا لقلة عدد رهبان ذلك الدير . لأن هذا الأب الروحي الحريص على غر ابته فى النعمة أراد له أن يعيش فى شبه عزلة كى لا تعوقه المغالطة عن جهاده الروحي وهو ما زال فى بدايته .

ولم يكتف مرقس بطاعة أبيه الروحي بالذهاب إلى دير الأنبا بولا فقط بل زاد على ذلك أنه حفر لنفسه قبراً بجانب بستان الدير ودرب نفسه على الاختلاء فيه . وأخذ أيضاً يدرب نفسه على الصوم يومين فثلاثة حتى استطاع أن يقضى أسبوعاً بأكمله طاوياً .

ولم يعقه الصوم عن العمل إذ كان يشتغل حمالاً للحطب فى بركة الأنبا بولا . وكان إخوته الرهبان يعطونه الطعام اللازم له خلال ساعات العمل ورغبة منهم فى أن يقتات منه كى لا يخور من طول الصوم . ولكنه كان يعطيه لجمالته سرّاً ويستمر طاوياً المدة التى قررها لنفسه .

٣٢٥ - وقد عاش فى دير الأنبا بولا ست سنوات على هذا النحو فأنهك جسمه إلى حد أن الرهبان حملوه ذات يوم وذهبوا به إلى دير الأنبا أنطوني ورجوا من رهبانه أن يمتنوا به ويجعلوه يأكل ما يشده به جسمه . ولكنه مع ذلك أصر على المداومة على الصوم الانتقاعى . وبعد الصوم الطويل لا يأكل غير نوع واحد من الطعام ولا يشبع تماماً . وحين يجلس إلى مائدة الطعام يضع الكتاب المقدس على حجره بينما الدموع تسيل على خديه فإذا سألته الأخوة عن سبب بكائه أجابهم بأنه يبكى عليهم لأنهم لم يفلحوا بعد فى تلجيم معدتهم . وأن الخير لهم فى أن يعملوا للطعام الباقى بدلاً من إشباع بطونهم بالطعام البائد .

٣٢٦ - كذلك تضاعف حنانه على الجميع سواء من الرهبان أو من يقصدون الدير للبركة . فكان يكلمهم بكلام الحياة ويعزى نفوسهم ويجبر بخواطيرهم فكان الجميع يجلسون حوله لتسرى إليهم نعمة الله الحالة فيه ولتستنير نفوسهم بالنور الروحي المشع من قلبه .

٣٢٧ - وحينما استبد الأمير يلبغا بالأنبا متاوس واقتحم دير الأنبا أنطوني ساق هذا الشيخ الروحاني ضمن من ساقهم أمامه . ولم يحترم

قداسته ولا شيخوخته بل ضربه ورعى به على الأرض ورفض طلبه حين رجا منه أن يعطيه من الماء . وعند ذاك رفع مرقس عينيّه نحو السماء وقال للأمير فى ثقة تامة : « ما دمت ترفض أن تعطينا ماء فإن الله تعالى سيروينا من يده » وما كاد يتفوه بهذه الكلمات حتى نزل سيل جارف من المطر رغم أن الوقت كان صيفاً . ولكن الختان الإلهى لم يلين قلب الانسان القاسى إذ أمعن يلهغا فى قسوته ولم يكف عن أذية هؤلاء القديسين إلا حين وصلوا إلى أطفيج واضطر إلى اطلاقهم بناء على أمر من السلطان .

٣٢٨ - ولقد شاء الآب السماوى أن يهد فى أيام هذا القديس فيلغ شيخوخة صالحة . وكان يجمع الرهبان ويوصيهم بالمحبة الأخوية والارشادات المحيية . وذات مرة حين رآهم يبكون لأنه كان يحدثهم عن قرب رحيله قال لهم « لا تهكروا يا أولادى لأتنى رأيت الكوكبين الساطعين أنطرنى وبلا يسجدان أمام العرش ويطلبان الى السيد المسيح أن يتركنى معكم قليلاً . فاستجاب لهم رب المجد وأعلمهما بأنه سيهينى سنتين أخريتين» وعاش السنتين اللتين تحدث عنهما ولكنه كان ضعيفاً إلى حد أنه قضاها ملازماً الفراش . ولكنه ظل صاحى العقل متيقظ القلب مشحوز الروح .

٣٢٩ - ولقد طارت روحه إلى العالم العلوى فى الساعة السادسة من النهار المبارك على وقع رنين أجراس القداس . وانتقل فى هدوء تام أذ قد أسند رأسه على كتف تلميذ له فى سكينه ودعة .

وحكى أحد نساك الدير بأنه رأى ساعة انتقال القديس جمهوراً من الأجناد السماوية نزلوا إلى الدير وأحاطوا به إلى أن جاءت امرأة حاملة طفلاً يغطى جلالها نور الشمس فجلست إلى جانبه وتقبلت روحه حتى أصدتها إلى السماء . بينما الجنود الروحانيون يرفعون ويسبحون .

كذلك عرف الأنبا رويس بالروح ساعة نياحة هذا القديس وخاطبه من مكانه بدير الخندق^(١) .



(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ... ص ٧٥ - ٨٥ .

ج - الأنبا رويس

- ٣٣٠ - قيمة الشخصية في حد ذاتها
 ٣٣١ - نخاعاً فريخ
 ٣٣٢ - تاجج الاضطهاد .
 ٣٣٣ - ليس له أين يستند رأسه
 ٣٣٤ - تواضع فريخ الجمل
 ٣٣٥ - شفافته الروحية .
 ٣٣٦ - تجمع التلاميذ حوله .
 ٣٣٧ - اطلاق لقب « انطونيوس » عليه
 ٣٣٨ - منزله على الانتقال إلى أماكن بعيدة
 ٣٣٩ - بطش الامير سزودون به
 ٣٤٠ - تلقيه باليوب الجديد .
 ٣٤١ - تبرؤه بالافراج عن الاتهامات
 ٣٤٢ - منيعه مع جندى عابر
 ٣٤٣ - مناله على أحد تلاميذه
 ٣٤٤ - استرجاعه شاباً جاعداً
 ٣٤٥ - صلواته خلاص لايمة
 ٣٤٦ - تبرؤه بحدوث مجاعة .
 ٣٤٧ - رفعه الصليب في جزائرهم
 ٣٤٨ - رعايته للناس حتى النهاية .
 ٣٤٩ - تسليمه الروح في يد السيدة العذراء .
 ٣٥٠ - لغة عن أرض لاثا رويس وكنيسته .

٣٣ - وفي وسط ظلام هذه الحقبة يسطع نور خاطف : نور لا نرى فيه فعل النعمة الإلهية فقط بل نرى أيضاً فاعلية هذه النعمة في شخص تنطبق عليه الآية القائلة : « كسجهولين ونحن معروفلون ... كفقراء ونحن غنى كثيرين . كأن لا شيء لدينا ونحن نملك كل شيء » ^(١) . كذلك نرى بوضوح تقويم الكنيسة لقديسيها بغير اعتبار لمال أو جاه عالمي . فالأنبا رويس لقبته الكنيسة بكلمة « أنبا » التي لا تطلق إلا على الأساقفة كما نظمته ضمن القديسين الذين تذكر أسماهم في المجمع أثناء القداس الإلهي ، ومع ذلك فقد كان رجلاً فقيراً من عامة الشعب : أبوه فلاح أجور . وهو شخصياً اضطر لأن يشتغل حتى في طفولته ليقوم بأود نفسه . ولم ينعم في يوم ما برتبة كنسية ولا حتى برتبة قارئ . ولكن الكنيسة وجدت فيه القداسة والسعي المتواصل نحو الكمال المسيحي والشفافية الروحية فوجدت فيه الانسان القدير باحترامها وتقديرها . وذلك درس رائع تقدمه لنا

(١) ٢ كور ٦ : ٩ - ١٠

كنيستنا ضمن الدروس العديدة عن قيمة الشخصية في حد ذاتها - هذه القيمة التي ستكون وحدها سند الاتصان حينما يقف أمام عرش الديان .

والأثنا رويس نفسه درس كله روعة : إنه نموذج للكفاح الدائم والمحبة المستميتة في الله والتواضع المتناهي والتفاني في سبيل الآخرين . لم يزعجه الاضطهاد ولم يخفه الضرب ولم يرعبه بطش العتاة من الحكام . بل وقف صامداً أمام كل شدة ، ثابتاً في وجه شتى الآلام . إنه نموذج حي للكنيسة التي نشأ فيها : كنيسة الصمود والثبات .

فلنتأمل حياته في تواضع لتعصرب إلها قوته . ولنتأمل في اجلال ليصرى النور الوضاح الذي غمره إلى نفوسنا فتستضيء بدورها وتسير في طريق الجهاد الموضوع أمامها .

٣٣١ - ولد هذا القديس بقرية منية يمين من قرى العربية . وقد أسماه أبواه فريج . وترى التربية الحسنة الشفقة التي هي نصيب أولاد الفلاحين في بلادنا حتى الآن . واضطر فريج إلى الاشتغال منذ نعومة أظفاره . فكان أحياناً يعمل مع أبيه في القبط وأخرى يبيع الملح على قعود (جمل صغير) يمتلكه . والطريف أن صداقة طبيعية صامتة بين فريج وبين قعود . لأن هذا الحيوان الأعجم كان يظاير رأسه تلبية لنداء صاحبه الذي دعاه رويس لهذا السبب . كما كان يغطيه إن رآه نائماً مكشوفاً . بل أن القعود كان كثيراً ما يناعب فريج بوضع رأسه بمحاذاة خد صاحبه كمن يقبله . كما أنه ذهب إلى أبعد من هذا لأنه حين كان يجده متأخراً في النوم يناعب قدميه برأسه إلى أن ييقظه . ولقد أحب فريج قعوده لهذه الداعبات الجذابة وكان يتندر بتوادره ويناديه بقعودى رويس وفي النهاية اتخذ اسمه لنفسه .

٣٣٢ - وفجأة انتقلت نيران الاضطهاد وحس وطيسها إلى حد أن عدداً من القبط جحدوا الإيمان من بينهم والد فريج . أما فريج الذي كان قد بلغ العشرين من عمره فقد هرب من قريته وسافر إلى مصر . وبالطبع سافر على قدميه . فأنهكه التعب فنام في الطريق . وفي أثناء نومه رأى رؤيا ساطعة : رأى رجلين يلعبان كاليرق بثياب بيض خاطفة قد حملاه إلى السماء وأدخلا كنيسة بها جمهور من السماويين . ثم سمع صوتاً يقول له : « أنت جائع فتقدم وكل من خبز الحياة » . وقاده الرجلان المضيئان إلى

الهيكل فتناول من الأسرار المقدسة وانتعشت روحه . ثم عاد به صاحبا إلى الأرض ثانية .

٣٣٣ - بعدما استيقظ ترك القاهرة واتجه جنوباً . قطاف الصعيد إلى قوص . وظل ينتقل من بلد إلى آخر لأنه آمن في انكاره لذاته حتى دما نفسه باسم قعوده رويس . وكلما ذاعت فضائله في مكان تركه إلى غيره . كما أنه لم يشأ أن يجعل روابط الدم والصداقة تعوقه عن التصاقه بالله . ولقد قتل بسيدته في أنه لم يكن له أين يستند رأسه . ورغم تجوله المستمر فإنه حرص على أن يأكل من عمل يديه . فأحياناً يعمل مدرأى (أى مغريل حنطة) وأخرى حملاً وغير ذلك . وكان لا يصرف من أجره على نفسه إلا بقدر ما يسد رمقه ويتصدق بالبعض منه ويرسل الباقي إلى أبيه كذلك كان يكتفى بما يستر هورته من اللباس محتملاً حر الصيف وقر الشتاء متخذاً لنفسه روحنا المصعدان نموذجاً بل لقد بلغ احتقاره للمال أنه قال ذات يوم لأحد تلاميذه : « إياك أن تطأ برجلك هذا العقرب فيلدغك ويميتك » . والتفت التلميذ إلى الناحية التي يشير إليها القديس فوجد درهما ذهبياً .

ولشدة تقشفه أخذ يدرّب نفسه على الصوم الانتقاعى فكان يصوم يومين ثم ثلاثة إلى أن تمكن من أن يعيش ستة وعشرين يوماً بغير طعام إطلاقاً كما شهد بذلك الأنبا متاوس .

٣٣٤ - وبينما هو في الصعيد دخل ذات يوم يفتقد إحدى العائلات ففرحوا به فرحاً عظيماً لسماعهم عنه رغم أنهم لم يكونوا يعرفون اسمه - ولما سأله قال لهم اسمي *Texi eq̃̃not* (أوتيجى إفلير - أى تيجى الكاذب) . فتعجب الجميع لمعرفة القبطية رغم أنه لم يتعلم . ولقد ظل اسم تيجى هو الاسم المذكور به في تصانيع الكنيسة وصلواتها حتى اليوم . وبارك القديس أفراد العائلة واحداً واحداً وأخذ يعلمهم ما هو نافع لبنيانهم . كما أنه أخبر كلا منهم عما في قلبه فامتثلوا دهشة وقدموا السبح لله الذى أعطى الناس مثل هذه العطايا .

٣٣٥ - كذلك كان يدوام على تناول من الأسرار المقدسة على الرغم من تخشعه منها . فكان يسمى للكمال استعداداً للتناول . ويوخ من يتجاسر أن يتقدم بغير استعداد . وحين كان يقف أمام الكاهن ليأخذ منه

السر المقدس يتراجع قليلاً إلى الوراء . ولما سئل عن السبب قال بأن ما من أحد يستحق التناول من هذه الأسرار المقدسة إلا من كان جوفه طاهراً نقياً كأحشاء سيدتنا مريم التي استحققت أن تحمل المسيح في أحشائها .

ولقد كشف الله عن بصيرته ومنحه شفافية روحية فكان يرى مجد الله حالاً داخل الهيكل ونوره ساطعاً فوق رؤوس المتناولين بينما يرى الجسد المقدس يقطر دماً . وكان واقفاً ذات يوم بالقرب من الكاهن الحديم أثناء شعائر العباد فلما أخرج أبونا الطفل من جرن المعمودية هتف الأنبا رويس قائلاً « أكسيوس » لأنه رأى الشيوخ والسهرافيم قياماً فوق المعمودية .

٣٣٦ - وقد اكتسبت قداسة الكثير من الناس فتجمعوا حوله وتتلذذ له البعض منهم . ولكن لما كان متعشفاً عارى الرأس مكشوف الجسد حافى القدمين فإن العامة كثيراً ما تعدت عليه . وحدث أن تهجم عليه بعض الأشرار ورجموه بالحجارة . وكان قد درب نفسه على الصمت التام فلم يلتفت بكلمة أمامهم رغم الآلام التي عانها من الرجم . ولما تركه هؤلاء الأشرار ملقى تحت كومة من الحجارة جاء تلاميذه ورفعوه وأدخلوه إلى مخزن قريب ليعتنوا به . وفي داخل المخزن بهت التلاميذ إذ رأوا ناراً تشتعل في ركن منه فطمأنهم القديس قائلاً : « لا تظنوا أنها نار بل أنه نهر سيدنا يسوع المسيح الذي تعطف وظهر لى تحقيقاً لكلمة المزمور القائلة إنه « يعينه على سرير وجهه » .

٣٣٧ - ولم يكن ظهور السيد له المجد هذه المرة بالمرة الوحيدة بل أنه تراعى له في عزلاته المختلفة خمس مرات بمجد لا ينطق به . كما خاطبه ذات مرة فماً لأذن .

ولأنه نال كرامة هذه الاستعلانات الإلهية فإن الكنيسة منحته لقب « θεοφανισος » ، أي رآني الاستعلانات الإلهية .

والى جانب هذه الكرامة العظمى كرامة رؤية رب المجد وسماع صوته فإنه كان يرى قديسى الرب أيضاً ويتحدث معهم .

٣٣٨ - كذلك منحه الله موهبة روحية عجيبة - هي المقدرة على الانتقال إلى البلاد البعيدة والعودة منها في مدة وجيزة كما منحه استشفاف الأسرار المكنونة ودخول الأماكن وأبوابها مغلقة . ومن الحوادث التي تبين قدرته على الانتقال أن جاءت ذات يوم امرأة من أغنياة القبط

تستنجد به قائلة : « يا رجل الله أرحمني . فإن زوجي قد ذهب مع الأمير
منطاش إلى الشام وطال غياباه ولا أدري ما جرى له » . فقال لها بتواضع
عظيم : « من أين لي أن أعرف أخباره وهو في الشام ؟ » ولكنه وقف
يصلي وسهت روحه ، ١٠ يقرب من الساعة ثم عاد إلى نفسه وقال لها : « إن
زوجك كان في شدة عظيمة ولكن الرب نجاه » .

ولما رجع زوجها سالماً سأله عما حدث له . فأجابها : « بينما أنا
عائد ثار على الجنود المنطاشية في الصحراء . إذ وجدوني وحيداً بينهم وأرادوا
الاستيلاء على ما في عهدي من مال للأمير . وإذا بشيخ عاري الجسم
حافي القدمين مكشوف الرأس ظهر لي على رأس جماعة هجموا على الجنود
ورددوا شملهم ثم رافقوني إلى حدود الأمان . ودخلت أنا إلى السلطان
برقوق وسلمته العهدة ورويت له ما حدث . وأراد أن يعرف من هو الشخص
الذي أنقذني ولكنني لم أستطع الإجابة لجهلي به إذ قد غادرني بنفس
المهاجرة التي جاعني بها فهتفت زوجته بفرح : « إنه القديس الطوباري
رويس الذي شفى عيني من الرمد قبل سفرك إلى الشام » .

وذهب الرجل وزوجته إلى الأنبا رويس يشكرانه ولما قدما له شيئاً من
المال قال : « لماذا تشكراني ؟ أنا لم أعمل شيئاً » . ثم وجه الحديث إلى
الزوج قائلاً : « أما المال فخذك معك . وأذهب إلى السلطان برقوق الذي
أعطاك هذه النقود من خزانته . وهو سيعينك في خدمته مدة ست سنوات »
وامتلأت نفس الرجل دهشة وذهب إلى السلطان فأبلغه بما جرى . وقد
اشتاق السلطان إلى أن يرى رجل الله والتعرف به ^(١) . وقد خدم هذا
الرجل القبطي في ديوان برقوق ست سنوات كما تنبأ له الأنبا رويس .

كذلك حدث أن ذهب القديس ذات يوم إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة
زويلة فوجد في ساحتها انساناً غريباً مريضاً طريحاً على الأرض من أهالي
نقادة اسمه وهبة . وكان وهبة هذا شديد الإيمان بالشهداء الأنبا بيشاي
والأنبا بطرس الراقدين بجبل أسبوط . وفي ضعفه واشتداد وطأة المرض
عليه تمنى أن يستطيع الوصول إليهما ويستشفع بهما لينال الشفاء . وبعد
قليل رأى وهبة الأنبا رويس يرقد إلى جانبه ويعانقه ويقول له : « قم يا وهبة
لأحملك وأوصلك في أسرع وقت ممكن إلى جبل أسبوط » . ورأى وهبة

(١) لم يخبرنا المخطوط أن كان السلطان قد تمكن من رؤيته أم لا

- كما في رؤيا - القديس رويس ممسكاً به خارجاً إلى خارج الكنيسة ويقتله وجد نفسه في جمل أسبوط أمام مشوى الشهيد داخل الكنيسة التي باسمهما . فتعجب كل العجب ومجد الله القدوس . وكان وصوله مع الأتيا رويس في أثناء القداس . فتناول الاثنان من الأسرار المقدسة . ثم أعطاهما انسان قربانة وبعد ذلك أحس وهبة بأن الأتيا رويس قد حمله وعاد به إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وانتبه إلى نفسه فإذا بالقربانة في يده . وأحس بالصحة والقوة فقام لساعته فرحاً وقص على كل من رآهم ما حدث له .

ولما كانت النفس طامعة فإن وهبة حين أراد أن يرجع إلى بلده ذهب يبحث عن الأتيا رويس لعله يوصله إليه . فلما قابله التفت إليه القديس وقال له : « يا وهبة ألم يكفك أنهم حملوك إلى جبل أسيرط فتأتى اليوم مطالباً بأن يحملوك إلى نقادة أيضاً ؟ »^(١) فاكتمى وهبة بتقديم الشكر له وعاد إلى مدينته حيث أذاع ما فعله معه رجل الله .

٣٣٩- وحينما استبد الأمير سودون بالأتيا متاوس وشعبه استحضر الأتيا رويس وبدأ يسأله عن حياته وأعماله فلم يجبه بكلمة . فأمر بضربه أربعمئة صفا . فانهال عليه الجند ضرباً وجرحوه وأسألوا دماء . ولكنه ظل صامتاً . واحتدم سودون غيظاً وأمر بتشهيره . فألبسوه زياً مسخاً وأخلوا بطوفون به الشوارع وهم يستهزئون به ويضربونه ويصفقون عليه ويركلونه ويشدون شعر رأسه ولحيته ورغم هذا كله بقي على صمته . وكان معه واحد من تلاميذه ناله أيضاً التعذيب والهزة . ولما وجد المعتاه أن القديس في حال الموت رموا به في تلميزة في السجن . ولكن رب المجد ظهر لهما وشفاهما . ومع ذلك فإن التلميذ أخذ يلوم معلمه الذي قال له : « ألم تتأمل المسيح واقفاً أمام بيلاطس في صمت تام ؟ فكيف تلومنى على سكوتي ؟ » .

وكان في السجن ثمانون قبطياً انقضت عليهم الشهور العديدة وهم تحت الضيق والعذاب . فلما رأوا القديس طرحوا وجوههم على مواضع جراحاته وطلبوا إليه بدموع أن يصلى من أجل نجاتهم فرفع عينيه نحو السماء وابتهل سراً . ولم ينته اليوم حتى حضر الأتيا متاوس شخصياً ومعه الأمر بالافراج عنهم .

(١) لعل القديس يشير هنا إلى أن الملائكة هي التي حملت وهبة اسمائنا منه في انكار ذاته .

٣٤ - وكما لقبته الكنيسة بكلمة ثيوفانيوس لفرط الرؤى الإلهية التي اختبرها كذلك لقبته بأيوب الجديد لصبره وطول أناته واحتماله .

٣٤١ - أما حين كان الأتيا متاوس نفسه مسجوناً بأمر الأمير بلبغا السامى ومعه العدد الوفير من أهنته فإن الأتيا رويس كان حابساً نفسه وقتذاك فى خلوة روحية . فذهب إليه أحد تلاميذ البابا يعاتبه قائلاً : « ماذا تفعل يا رجل الله والأب البطريك مسجون وفى ضيقة ؟ ألا تصلى من أجله ؟ » فلما سمع القديس هذه الكلمات قام لساعته ورفع عينيه نحو السماء ثم قال بصوت غير واضح « ستنا السيدة تخلصه » . ثم وقع على تلميذ البابا سبات فرأى صليهاً من نور فى سحاب السماء وقد خرجت منه حمامة بيضاء حسنة بسطت جناحيها فوق رأس الأتيا متاوس . وسمع صوت الأتيا رويس يقول : « يامتى ^(١) لا يخف قلبك لأن الحمامة الحسنة التى تحبها قد خرجت اليوم لتخلصك » وعند ذلك انتهت التلميذ من سباته وذهب إلى السجن فأخبر البابا بما رأى وما سمع . وبينما هو يقص الخبر إذ بأمر من خصوم بلبغا قد هجم على السجن وكسر أبوابه وأخرج منه الأتيا متاوس وجميع من معه . وفرحوا وتهللوا إذ أدركوا أن الحمامة الحسنة التى حلت الحديد لمتباس قديماً هى التى أرسلت هذا الأمير فكسر أبواب السجن وأفرج من البابا ومن معه .

٣٤٢ - ومن طريف معاملة هذا القديس لبعض الناس أن جندياً كان قد اعتاد أن يأخذ معه بعض المال أثناء دأوريته ليتصدق به على الفقراء . فمر ذات يوم على الأتيا رويس ولم يكن يعرفه . ولكن لأنه رآه عرياناً قدم له صدقه . فقبلها منه وقال : « أنتظر حتى أتصدق عليك نظير ما تصدقت به على بل وأكثر منه لأن المسكنة أيها الجندي التى من أجل الله أغنى من غنى هذا العالم » . ثم أخذ حفنة من التراب الذى تحته ووضعها فى منديل الجندي . وأبدي الجندي امتعاضة لهذه العطية . ولكن القديس قال له : « لا تشهاون فى هذا المنديل . لأنك بما أنك تصدقت على فهذا الله يعطيك أضعاف صدقتك لأنك بما أحيت الرحمة بالمساكين » .

(١) هنا أيضاً مثل رائع عن التواضع المسيحى والمحبة الصادقة لأن القديس ينادى البابا باسمه مجرداً من كل لقب . وبالطبع وصل النداء إلى أذنى البابا الذى لم يقضب عليه بل حتى لم يشر إلى هذا النداء المجرد بآية إشارة .

ولما وصل هذا الجندى إلى بيته وقص على أهله ما حدث فتحروا
 المتدبل ليروا ما فيه فإذا به يحمل عملة فضية جديدة فامتثلوا عجباً .
 ومذاك قوى إيمان الجندى وازداد رحمة . ثم دفعه رغبته في المزيد إلى
 البحث عن أنها رويس ثانية . وما أن اقترب منه حتى قال له رجل الله :
 « ما أطعمك ! أتظننى فلاحاً عندك فأيتت لتطلب منى الخراج ^(١) اذهب
 أعط فلاحيك المساكين كماداتك ولا تطلب منهم خراجاً كما تطلب منى
 الآن . لأن من زرع شيئاً حصده . ومن أعطى أعطاه الله أضعافاً » فاطاعه
 الجندى وداوم على العطاء والتوزيع .

٣٤٣- ولم تكن عنايته بطالبي معونته قاصرة على الشفاء والإغاثة من
 الضيق فقط بل إنها شملت أيضاً إعانة من نجح الشيطان في أن يصرعهم
 ومن أروع الأمثلة على هذا الحنان في نجدة الساقطين المثالين التاليين .

كان له تلميذ بناحية منية السيرج اسمه ميخائيل انتابه مرض الصرع
 حتى كاد أن يقضى عليه . وحينما اشتدت عليه وطأته استغاث بالأنبا
 رويس فحبر عليه تلبية لاستغاثته (التي كانت نفسية فقط) . ولكن
 ميخائيل لم يتبينه لشدة مرضه ولأنه كان محاطاً بزمرة من الخلائق سود
 الوجوه معهم كلابات من نار يريدون أخذ روحه بها . وكلما طرحوا الكلابات
 في حلقه صرخ مستغيثاً بقديس الله . ثم حانت منه التفاته فرأى معلمه
 يطرد أولئك السود من أمامه . ففرح قلبه وهتف : « يا رجل الله رد عني
 هؤلاء وارحمني منهم » فسأله القديس : « هل تعوب يا ميخائيل ؟ » .
 أجابه : « يا رجل الله إني أعلن توبتي إلى الله أمامك » فانتهر القديس
 تلك الخلائق وأبعدھا عنه فتراجعت في الحال ، وعادت روح ميخائيل إليه
 كما عاد إليه وهيه . وإذا به يرى الأنبا رويس كأنه في داخل كنيسة فأراد
 أن ينحني ويقبل قدميه . ولكن القديس اختفى عنه . وحين رأت أم ميخائيل
 ابنتها ينحني نحو الأرض وهي لا ترى أحداً غيره استغثت منه عما يفعل
 فأخبرها بما حدث فمجدت الله الذي يتعجب في قديسيه .

٣٤٤ - أما المثل الثاني فيتلخص في أنه كان هناك شاب قبطي غني
 جميل الوجه اسمه فخر الدولة بن المؤمن . أغواه عدو الخير بالجاء العالمي

(١) أو الضريبة المقررة على الأرض .

والمناصب العالية إلى أن جعله يجمع إيمانه ويدخل في خدمة السلطان برفوق وكان يقضى أيامه في اللهو واللذات . ثم تزوج من امرأة لعوب . وبعد مدة أحس بأنه مقيد بها ولا يستطيع الأتلات . وفي قلقة واضطرابه ذهب إلى الأتبا رويس واعترف له بكل ما حدث قاتلاً : « يا رجل الله ارحمنى لأن علو الخير صرعنى ولم تعد لى القدرة على الفكاك منه » أجابه القديس : « لا تخف فمذ الآن لن يصرك لآنى رأيتك تصارعه وتغلبه . لذلك سأعضلك وأصارع معك . ولن أكف من مصارعتى حتى تهزمه . أما إن طلبك الملك قبائى سأرده عنك » وتقوى قلب الشاب بتلك الكلمات المعزية المعضدة فقرر أن يتوب وأن يترهب أيضاً . فقام لفوره تاركاً كل شئ وراءه وقصد إلى دير الأتبا أنطونى أبى الرهبان حيث أقام مدة طويلة فى جهاد روحى عنيف . وكان كلما سأل عنه السلطان وعرف مكانه جعله الرب يسهو وينسى . وسمع الشاب التائب فازداد جهاداً وامتلاً قلبه ثقة وتعزية . وحينما علم بموت السلطان ذهب إلى القاهرة وقدم الشكر لرجل الله . ثم انتقل إلى العالم الهائى وقد تنقت نفسه من شوائبها وتطهرت روحه .

٣٤٥ - وما يجب ذكره أن صلوات هذا القديس التى اكتسبت العدد العديد من المؤمنين قد استعادت أباه إلى الإيمان وجعلت منه شهيداً .

٣٤٦ - ومن المراهب الروحية التى خدم بها الأتبا رويس جيله تنبؤه بمحدث مجاعة وغلاء فاحش . فحث الناس على الاستعداد لمقابلة هذه الضائقة قبل حدوثها كما فعل يوسف بن يعقوب مع فرعون^(١) . وقد أطاعوه فعلاً واختزنوا ما يستطيعون من القمح والضروريات الحبيبة . وكانت هذه خدمة كبيرة وبخاصة للفقراء إذ قد ارتفع ثمن أردب القمح من أربعين درهماً إلى أربعمائه درهماً وحين سأل الناس عن موعد انتهاء هذا الغلاء أجاب : « إنى أطلب من الله أن أموت قبل زواله لأن الشدة التى ستحدث بعد أصعب من شدته » ولقد حقق الله طلبه فنتقله إلى فردوسه أثناء الغلاء .

٣٤٧ - ولقد قضى الستين التسع الأخيرة من حياته ملقى على الأرض ، لشدة ضعفه ومرضه . ولكنه عاشها فى رضى وصمت كعادته ،

(١) تله ٤١ : ٣٤ - ٣٦ .

إلا أنه على الرغم من مرضه وشيخوخته أراد بعض القضاة أن يمتحنوه فدخلوا عليه يسألونه عن إيمانه وعندها قام في قوة كان لا مرض فيه وقال لهم في توكيد : « ها الصليب مدقوق على راسي » ثم أخذ يرسم نفسه بعلامة الصليب من قمة رأسه إلى قدميه . فأصيب السائلون بفشعريرة هزتهم هزاً عنيفاً وخرجوا لساعتهم .

٣٤٨ - ومع ضعفه ومرضه فقد استمر الناس يلهيهم إليه طالبين شفاعته ونصحه . وكل من جاء وجد عنده الفرح من ضيقته والشفاء من مرضه والعزاء لقلبه . وظل يكلمهم بكلمات التبعة ووجههم نحو الحياة الروحية والتسامي عن الماديات . فوجد فيه الجميع الطبيب الشافي والأب المراسي .

ولما علم بقرب انتقاله من هذا العالم دعا تلاميذه وأوصاهم بالمحبة وباركهم واحداً واحداً . ثم طلب ماء وغسل جسده جزءاً جزءاً راسماً كل أعضائه بعلامة الصليب . وقال لتلاميذه : « ها أني قد غسلت جسدي حتى لا يكشفه أحد بعد انتقالى » .

٣٤٩ - وفي يوم الأحد ٢١ باهه سنة ١١٢١ (١٨/١٠/١٤٠٤م) أسلم روحه الطاهرة . ولم يكن أحد إلى جانبه في تلك اللحظة . ولكن قبطياً مؤمناً كان يقطن على مقربة منه قال : « قد رأيت في تلك الساعة امرأة منيرة كالشمس جالسة إلى جانب هذا الأب وقد تسلمت روحه المباركة تحقيقاً لأمنيته » (١) .

٣٥٠ - ولقد قضى الأنبا رويس الجزء الأكبر من حياته في المنطقة التي تعرف بدير الخندق ولكن اسمها تحول إلى اسمه بعد ثيافته ودفن فيها فأصبحت معروفة باسم أرض الأنبا رويس .

ويجدر الوقوف قليلاً للتأمل في تاريخ هذا الدير : فقد كان للقبط أيام أن بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة سنة ٩٦٩ م دير يعرف بدير العظام أو دير العظيمة كان يضم أجساد بعض القديسين . وأراد باني القاهرة أن يدخل

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالح نخلة ص ٨٦ - ١٠١ ، ويقول في الصفحة الأولى منها إن ناسخ المخطوط المتضمن لسيرة الأنبا رويس وهو مسعود بن حنا ولد سيدهم الخوانكي صراف ناحية كوم اشفون وإن المهتم بها هو القصص برسوم خادم بهمة الشهيد مرقوريوس أبي السيلين بحارة البطرك بمصر القديمة .

هذا الدير ضمن تخطيط المدينة . وأدخله فعلاً وجعل منه المشهد الحسينى .
ومقابل هذا أعطى القبط تعريضاً عنه بأن وهبهم الأرض التى صارت
تعرف بدير الخندق . وبذلك تكون هذه الأرض ضمن ممتلكات القبط منذ
ألف سنة ^(١) .

وبعد مرور ثلاثة قرون على هذه الهبة كتب أبو المكارم سعد الله بن
جرجس مسعود يصف المنطقة فقال بأنها تحتوى على عشرة كنائس أكبرها
كنيسة القديس جورجىوس . وظلت هذه الكنائس قرناً أو ما يزيد إلى أن
هدمت ضمن ما هدم من الكنائس والأديرة التى تخربت سنة ١٣٤١م . أيام
السلطان الناصر قلاوون .

ثم حدث فى أيام المنصور قلاوون أن بنى القبط فى هذا المكان
كنيستين : إحداهما باسم الملاك الميخائيل وثانيتها باسم أبى السوفيان
الذى تغير اسمها إلى اسم الأنبا رويس بعد دفنه فيها . وقد جددت بناؤها
جمعية نهضة الكنائس برئاسة الأرشمندياكون أيوب فرج فى عهد الأنبا
يوساب الثانى البابا الاسكندرى المئة والخامس عشر سنة ١٩٤٩ . أما
كنيسة الملاك فقد تخربت سنة ١٨٨٨ ثم شيدت بدلاً منها كنيسة باسم
السيدة العذراء شرقى كنيسة الأنبا رويس تجددت عمارتها عدة مرات آخرها
سنة ١٩٢٢ . ويتوالى الأيام أصبحت الأرض المحيطة بالكنيستين جهانة
للقبط الذين يحبون دائماً أن يكونوا على مقربة من قديسيهم وشهداءهم فى
الحياة وفى الممات . على أنه لما اتسعت القاهرة وأصبحت أرض الأنبا رويس
داخلها وضمن حركتها قررت الحكومة المصرية منع الدفن فيها . ثم صدر
الأمر برفع الأجساد المدفونة فيها وتحويلها إلى الجبل الأحمر الذى أعطته
الحكومة للقبط لهذا الغرض . وعلى أثر ذلك قام نزاع جديد حول هذه
الأرض . كانت الظروف قد تبدلت والقرون توالى ولكن النزاع القديم عاود
الظهور - وهذا النزاع يدور حول ملكية الأرض : أهى حقاً ملك للقبط
أم أنها ملك للحكومة لأنها كانت مرفقاً عاماً هو مرفق الجبانة ؟ وهذا
تقدم حبيب حنين المصرى وكيل المجلس المحلى العام نيابة عن البطريركية
القبطية بمذكرة إلى وزير الصحة فى ١٠/١٢/١٩٣٧ م قال فيها بأنه حدث
ماتنين وخمسين سنة أن تقدم بعض الناس بالشكوى إلى قاضى القضاة من
أن القبط يملكون أرضاً مقدارها فدان به الدير المعروف بدير الخندق إلى

(١) النجهم الزاهرة لاهن تغرى بردى ج ٤ ص ٤٣٠ .

جانب مقام الشيخ الدمرداش ، وأنهم تجاوزوا حدود ملكيتهم إلى أن أصبحت عشرة أفدنة . فعين قاضى القضاة لجنة لفحص الشكوى ، وقصد الرجال المستولون إلى الأرض وعابثوها واستفسروا عن حدودها وملكيتها ثم رفعوا تقريرهم إلى قاضى القضاة أثبتوا فيه أن القبط يملكون تسعة أفدنة وستة عشر قيراطاً وعشرة أسهم ، وأن هذه الأرض كلها مملوكة لهم من أيام جوهر الصقلى ، وقد أقر وزير الصحة هذه الأسانيد المقدمة من حبيب حنين المصرى ولكن الوزارة سقطت قبل البت في الموضوع .

وقد عاود حبيب حنين المصرى سعيه سنة ١٩٤٣ بأن وجه مذكرة إلى رئيس مجلس الوزراء . وفى هذه المرة جاء رد الحكومة بالاعتراف بملكية القبط لنصف الأرض ويتأجير النصف الثانى لهم بايجار اسمى قدره جنيه مصرى في السنة لمدة تسعة وتسعين سنة على أن يبنى القبط عليها مبانيتها للخدمة العامة لا للاستثمار - وعند ذاك تتركها لهم نهائياً .

ونتيجة لهذه الموافقة أقيم على هذه الأرض مبنى أصبح منذ فبراير سنة ١٩٥٣ معهداً عالياً للدراسات القبطية يضم قاعة كبرى دُعيت أولاً باسم القاعة اليوسابية ثم تغير اسمها إلى القاعة المرقسية . وقد استعمل هذا المعهد في بادئ الأمر مقراً للكلية الاكليريكية أيضاً . على أن البطريركية شيدت سنة ١٩٦٢ كلية اكليريكية وأقامت إلى جانبها أجنحة للطلبة الداخلية وللمكتبة ولغيرها من ملحقات الإكليريكية .

وفى بدء سنة ١٩٦٨ بدأت الكنيسة القبطية تستعد للاحتفال بمرور تسعة عشر قرناً على استشهاد مارمرقس كاروز ديارنا المصرية المحيية . فتقرر اقامة كتدائرية ضخمة على اسم الرسول الشهيد فوق أرض الأنبا رويس تقام تحت مذهبها مقصورة خاصة لوضع رفات مار مرقس الذى قبل بولس السادس بابا رومية بأن يعطيها هدية إلى الأنبا كيرلس السادس الخليفة المرقسى المئة والسادس عشر بعد أن تفريت عن أرض الوطن ما يقرب من ألف سنة إذ كان التجار الهندقيون قد سرقوها ففى القرن التاسع^(١) . رفلاً علت الكتدائرية متسامية نحو السماء وأقيمت فيها الحفلات التذكارية في ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٨ واليومين التاليين . ووضعت الرفات الكريمة ففى المقصورة المخصصة لها والتي أصبحت مزاراً مقدساً

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ٤٧٤ .

يجمع إليه كل من يرغب في بركة « ناظر الإلهيات »^(١) ولضخامة
الكتدرائية المرقسية اقتضى الأمر هدم كنيسة السيدة العذراء الملاصقة
لكنيسة الأنبا رويس . وعلى ذلك لم يعد على هذه البقعة من الكنائس
القديمة غير الكنيسة الصغيرة التي تحمل اسم الرجل الذي عاش فقيراً مدى
حياته والذي كثيراً ما ارتضى أن يغمس لقمته في التراب وهو الأنبا
رويس . وإلى جانب هذه الكنيسة الضخيلة الحجم تقوم الكتدرائية
الضخمة ، وإلى شمالها الكلية الكليريكية بمختلف مبانيها ، وعلى امتداد
هذه المباني يقوم المعهد العالي للدراسات القبطية . وإنا العجب كله في أن
الأرض بأكملها تعرف باسم الأنبا رويس . وهنا موضع للعجب فعلاً إذ هو
صورة باهرة لتقدير الله وإكرامه . فهذه المباني العظمى لها صيت في أنحاء
العالم وبالتالي أصبح اسم الأنبا رويس يرن في مشارق الأرض ومغاربها .
حقاً لقد اختار الله فقراء هذا العالم ليحقر الأغنياء . لقد كان هذا القديس
فقيراً أمياً مضطهداً مهاناً مزدري به وهو على هذه الأرض أخفى اسمه خلف
اسم قعوده لتتناهى تواضعه . والآن يدوي اسمه في كل مكان مع أنه ترك
هذا العالم منذ أكثر من خمسة قرون ونصف . فما أعجب عمل الله وما
أمجده في قديسيه^(٢) .



(١) أحد ألقاب مارمرقس الرسول .

(٢) كتاب « القديس فريج الشهير بالأنبا رويس » أصدرته كنيسة .



الأنبا رويس

يفتح باب الكنيسة لتلميذه سليمان الذى كان
ملازماً له فى حياته كما لازمته بعد انتقاله - فإن
القديس كان يفتح له باب الكنيسة فى الفجر حين
يقرع سليمان بابها مع أن الأنبا رويس كان إذ
ذاك قد انتقل إلى الفردوس .

د - تتابع الركب

٣٥١ - المعروفون من شهداء هذه الحقبة . ٣٥٢ - ناسخ بارع .

٣٥١ - وما أن الاضطهادات لم تهدأ قط خلال هذه الحقبة استشهد العدد الوفير من أبناء الكنيسة وبناتها كما فعل من سبقهم وكما سيفعل من يجرى بعدهم . لأن الكنيسة كانت تحبب دوماً على مقاوميتها بتقديم الدليل المادى الملموس على قوة إيمانها : وهذا الدليل هو الاستشهاد . وضريبة الدم التى دفعتها كفلت لها الحياة اثباتاً لقول رب المجد بأنه إن لم تمت حبة الحنطة فلن تأتى بشمر^(١) . على أن الغالبية العظمى من هؤلاء الشهداء ليسوا معروفين إلا لدى الأب الذى يرى فى الخفاء . ولكن التاريخ احتفظ لنا بأسماء البعض منهم بنينا لتقوسنا وترسيخاً لعقيدتنا .

أما أسماء الشهداء التى وصلتنا من هذه الحقبة فهى :

١ - ميخائيل أبو مقيطف باكورة الشهداء إذ كان أول من نال اكليل الشهادة .

٢ - بناته الثلاث اللواتى تقدمن إلى جلاديهن وهن يزغردن فى فرح وتهليل كأنهن ذاهبات إلى عرس .

٣ - رزق الله تلميذ ميخائيل .

٤ - إيليا الذى من دير درنكة .

٥ - القس سدراك وفضل الله ورفيقهما المختار داود البنا وهؤلاء الثلاثة نزلوا من جبل القديس الأنبا أنطونى ليكونوا على استعداد لأن يتالوا اكليل الشهادة اقتداءً بأبى الرهبان الذى نزل إلى الاسكندرية فى اضطهاد مكسيميانوس وهو يقول : فلاذهبن إلى حيث نيران العذاب . فإن سمحت النعمة الإلهية باستشهادى تجدننى مستعداً ، وإن لم تسمح بذلك

(١) يو ١٢ : ٢٤ .

أكون على أقل تقدير واقفاً إلى جانب المضطهدين من أبناء القديس
مرقس الانجيلي الشهيد ^(١) .

٦ - الرهبان الثلاثة بركة وجرجس وجرجس الذين كانوا مترهبين بدير
الأنبا أنطوني أيضاً فنهجوا منهج الثلاثة السابقين وتركوا الدير وذهبوا إلى
حيث يمكنهم أن ينالوا الاستشهاد .

٧ - أرماتيموس الحبشي الذي ذكر اسمه في نسخة أخرى بأنه
أرشيليدس الحبشي وكان مترهباً بجهل قصام .

٨ - القس قزمان الحراز الذي كان من القلندول .

٩ - القس ابر الفرج من غرب قمولة .

١٠ - القس روفائيل من البحيرة .

١١ - القس يوحنا من أهالي طرخ .

١٢ - القس هبة الكاتب الذي سفكوا دمه بالاسكندرية .

١٣ - الراهب موسى الذي من الجهوش وصحبته ستة جنود - وقد
سفكت دماء السبعة في الطريق النازل من اورشليم إلى غزة .

١٤ - البكر الطاهر جديد من أهالي الجيزة - وقد حكموا عليه أن
يتبع جده فأجابهم : « عجلوا بقتلي يا هؤلاء فليس لي أب ولا أم ولا جد
سوى المسيح » .

١٥ - الشاهان المجاهدان بمصر نصر الله وأبراسحق .

١٦ - يعقوب ويوحنا من سنباط .

١٧ - يولس من منية بني خصيب .

١٨ - فريج الطناني .

١٩ - يعقوب القس الذي اضطره الأمير يلفا السالمى إلى أنكار

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص ١٠٠ .

المسيح فهرب عند المساء وذهب ساعة أن بدأ الصبح وأعلن اعترافه بالمسيح
فقال إكليل الشهادة .

٢٠ - منصور بن بطرس ورفيقه داود الأملوث اللذين سعى بهما
إبراهيم السرياني وجرحهما من بركة شبهت إلى مصر رغبة منه في أن
يدفعهما إلى جعد الإيمان . ولكنهما صبرا وجاهدا وصرعا الشيطان بأن نالا
إكليل الشهادة . وقد نذرت بسالتهما إلى قلب إبراهيم فدفعته إلى الحرية
والى أن يسير بدوره في طريق الاستشهاد فيكفر عن خطيته بدمه .

٢١ - الشاب المجاهد ماماديوس المهر ميخائيل - ويتضح من اسمه
ومن مسلكه أنه كان مسلماً ثم آمن بالمسيح ونال صيغة المعمودية . وكلما
هاتفه الحكام ثم سألوه عن اسمه أجاب : « أما اسمي الأول الذي أطلقه
عليّ أبواي فهو ماماديوس وأما اسمي الذي أموت عليه وأحيا به فهو
ميخائيل » . وظل ثابتاً لا يعطى غير هذا الجواب إلى أن قطعوا رأسه بعد
السيف .

٢٢ - أبو الفرج البنا الذي كان من نواحي القدس .

٢٣ - غبريال من بلدة هر .

٢٤ - إبراهيم من أهالي شبرا .

٢٥ - يعقوب الذي من المناوات .

٢٦ - جرجس الذي اشتهر « بابن الراهبة » والذي اقترف الكثير من
الآثام . ولكنه عاد إلى نفسه كالابن الضال وتاب وقدم دمه ثمناً لتوبته
فصار خاتمة لشهداء هذه الحقبة .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن صلوات الأنبا رويس تابعت أباء فأعادته إلى
الإيمان بعد الجحود وجعلت منه شهيداً^(١) .

وإذا ما تأملنا هؤلاء الشهداء عرفنا أن هناك كثيرين غيرهم ممن نالوا
نعمة إكليل الشهادة . لأن كلاً منهم من بلد مختلف مما يدل على أن

(١) سلسلة تاريخ ... لكامل صالغ نخلة ... ص ٦٢ - ٦٤ .

الاضطهاد عم البلاد كلها من الشمال إلى الجنوب . وذلك ارتوت أرض النيل من أقصاها إلى أقصاها بهذه الدماء الزكية فازدادت خصباً ورواء .

٣٥٢ - ولقد استلزم تتابع الركب الاستمرار في شتى الميادين : فكما سار الشهداء في طريق سلفاتهم هكذا سار المجاهدون في مختلف الأعمال ، ومن أبرز سهل الجهاد في بلادنا باللات سبيل الكتابة . ولقد شهد الذين هم من خارج يدقة الكاتب المصري وجمال خطه ونساخته كما شهدوا بتقدير الكنيسة لهذا العمل الفني الثقافي ^(١) . والنساخ أيضاً بينهم الجنود المجهولين إذ لا يمكن أن يخلو صلبان كنسى من جنوده المجهولين ؛ فمنهم من كان بالجهل الشرقي الذي هو برية الأتيا أنظروني منة ناسخ قضا حياتهم داخل الدير في النساخة وتزيين ما يكتبون . وكان على كل عشرة منهم أن يختصوا بتوع معين من الكتب : فمثلاً على عشرة أن يكتبوا كتب المصحف بينما يكتب عشرة آخرون الأبصلموديات وهكذا . وكانوا جميعاً يجيدون اللغة القبطية كما تعل على ذلك كتابتهم لها لأن ما تبقى منها صحيح واضح متقن : فكل صفحة تحتوي على العدد الواحد من السطور ، والسطور متساوية تماماً ، ويأخذ كل حرف جزءاً محدداً من السطر لا يتعداه طولاً ولا عرضاً . ومع هذه الدقة وهنا الاثنان فمن لا تعرف غير اسم الرئيس لهؤلاء الكتب المكافعين . فقد عثر الباحثون على صحائف بمسحة قديمة بخط المعلم جرجس الناسخ مؤرخة سنة ١١٠١ ش (١٣٨٥ م) جاء بها أنها منقولة عن نسخة أقدم منها بكثير كتبها الراهب بطرس الدونكى الذى نشأ في درنكة بالسيوط ثم تهرب بدير أنى الرهبان .

ولمجد فيما يتبقى من الكتب المخطوطة أن نساخ القبط كانوا يبدأون أول الكتاب (أو أول الفصل) بما يسمونه « الدكة » وهو رسم يتوسطه صليب تحيط به الزخارف النباتية أو الهندسية ، وأحياناً يستبدلون هذه الدكة بصورة لقديس أو شهيد . أما هوامش الصفحات فكانت عريضة لكي يزخرفوها برموز وأشكال مستقاة من الطبيعة النباتية أو الحيوانية بل

(١) قصة الكنيسة القبطية ج ٢ الفصل بعنوان « كاتب مبدع » .

أن الحروف كانوا يستعملونها أحياناً إطاراً للزخرفة - فمثلاً يرسمون داخل حرف وجه إنسان ويرسمون حرفاً آخر على شكل نسر .

ولقد قيل عن الراهب بطرس الدونكى بأنه كان يصنع بنفسه الحبر والألوان التى يحتاج إليها فى عمله ^(١) . فكان ينتج الحبر الأسود والأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والفضى والذهبى ^(٢) .

هذه شهادة التاريخ فى لحظة عن جهود القبط خلال هذه الحقبة . ومع كونها مجرد وريقات متناثرة إلا أن فيها الدليل على صدق عزيمتهم وثباتهم على العقيدة العظمى التى تسلموها جيلاً عن جيل .



(١) لا يزال التساخرون من الرهبان يعملون حبرهم وألوانهم بأنفسهم لتظل ثابتة على مر الأيام .

(٢) مرشد المتحف القبطى وكنائس مصر القديمة والحصن الرومانى لوديغ شنودة ص ٦٦ - ٦٧ .

منحنيات الطريق

الأنبا غبريال الخامس

- ٣٥٢ - انتخاب البابا الاسكندري .
٣٥٦ - تهديد البابا المراتسى بالقتل .
٣٥٤ - خلو الخزانة البابوية .
٣٥٧ - سفر الأنبا غبريال الخامس على شعبه .
٣٥٥ - رسالة بطريرك الانطاكية .

٣٥٣ - طفى الأسى على القلوب عندما أحست بالفراغ الهائل الذى أحدثه انتقال البابا متاوس . إلا أن الاحساس برعايته حتى بعد انتقاله انساب إلى داخل القلوب المسيرة فملأها عزاء روحياً . وبنعمة هذا العزاء المنبعث من المحبة النافقة المناسبة من قلب البابا المتنيح اجتمع الأساقفة والأراخنة معاً بعد انقضاء ثلاثة شهور وعشرين يوماً للتشاور معاً فيمن يصلح انتخابه لرعايتهم وفيما هم يتشاورون ذكر بعضهم أن الأنبا متاوس قد تنها بأن خليفته سيكون غبريال المترهب بدير الأنبا صموئيل القلمونى ^(١) . فكان هذا التذكر حافزاً لهم لأن يستقدموا هذا الراهب من ديره ليكون باباهم وقت المراسم الدينية المقدسة فى سنة ١٤٠٢ م . ش . فى سلطنة فرج بن برقوق وبها أصبح الأنبا غبريال الخامس البابا الاسكندري الثامن والثمانين .

وقد بدأ هذا الراهب حياته العملية كموظف فى الحكومة ^(٢) . ثم ترك الوظيفة لأن حياة الرهينة استهوتته ولهذا السبب لقبوه بمستوفى الجيزة نسبة إلى عمله الحكومى وهر جمع الضريبة من أهالى تلك المنطقة . إلا أن حياته الرهبانية جعلت إخوته الرهبان يلقبونه بغبريال الأمجد .

٣٥٤ - وبما أن الأنبا غبريال قد وصل إلى الكرامة البابوية بعد أن كان الأمير جمال الدين قد ابتز أموال الكنيسة فقد وجد الخزانة خاوية خالية . وكان ظلوها لم يكن كافياً إذ قد زاد عليه أن الأحباش قطعوا عاداتهم

(١) راجع ج ١ من قصة الكنيسة القبطية الفصل المئتين « معترف جري » .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص ٦٠٠ .

السبوية في ارسال المال الذي كانت العادة قد جرت في ارساله . على أن الأنبا غبريال كان قد عاش أيام رهبته في تقشف وزهد تامين وعرف أن يدرب نفسه على القناعة والرضى بما يجده من طعام ومن ملبس فكان هذا التدريب خير سند له أيام بابهوته إذ اضطر إلى أن يعيش على عطايا أولاده وتقدماتهم . وحين كان يرضى في افتقاده شعبه كان يتنقل على قدميه لضيق ذات يده . ومع ذلك لم يمل من افتقاده وصبر على الفقر في رضى ورضا .

٣٥٥ - وحدث أن جاء إلى مصر في أيامه كاهن أنطاكي اسمه باسيلوس بهنام مع عدد من أصدقائه ورجوا من البابا الاسكندري أن يرسم باسيلوس بطريكاً على المدينة المحبة للمسيح أنطاكية . ورحب الأنبا غبريال الخاص بهم وسارع إلى عقد مجمع من أساقفته وتشاور معهم في هذا الموضوع الحيوى . وانتهى المجمع إلى تكليف بعض الآباء لتأدية شعائر الرسامة المقدسة وهم : أنبا ميخائيل أسقف سمند ، أنبا غبريال أسقف أسيوط الشهير بابن كاتب القوصية ، وكان رئيساً لدير الأنبا مكاري الكبير قبل رسامته أسقفاً ، وأنبا كيرلس الأسقف السرياني للقدس المعروف بابن نيشان ، والقس الأسعد أبو الفرج كاهن كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر القديمة . وفرح الآباء بهذا التكليف وقاموا بصلوات الشعائر الخاصة برسامة الأساقفة في كنيسة أبى السيفين وبها أصبح باسيلوس بهنام بطريكاً لأنطاكية باسم أغناطيوس بهنام الأول . وخلال هذه الشعائر قرأ القس أرميا جميع أوامير البطريكية ^(١) . وبعد هذه الرسامة الكريمة سافر البطريك الأنطاكي إلى اورشليم ومنها إلى مقر كرسيه . ومن عجب الله في قديسيه أن البابا الاسكندري العائش على محبة أولاده قد استطاع أن يزود شريكه في الخدمة الرسولية بكل ما يحتاج إليه في السفر حتى الدابة التي كان محتاجاً إلى ركبها وقد قام بتوديعه وقد من الكهنة والأراخنة فراقوه حتى المطرية .

٣٥٦ - ثم وصلت الأنباء إلى سلطان مصر بأن التجار المسلمين يلاقون

(١) لم يذكر لنا كاتب هذه السيرة شيئاً عن القس أرميا غير هذه الجملة .

الشيء الكثير من سوء المعاملة والتضييق في الحبشة . فلم يحقق في صحة هذه الأنباء ولم يحصها بل استدعى لفرود الأنبا غبريال الخامس وهدده بالقتل إن لم يمنع الأحباش من اضطهاد هؤلاء التجار^(١) . ولقد وعد البابا الاسكندري بالكتابة للملك الحبشة وتوصيته بالكف عن أذاهم . ولقد تداركت مراحم الله هذا البابا الصبور إذ قد قبل السلطان كلامه وتركه وشأنه بمجرد أن وعد بالوساطة .

٣٥٧ - وعلى الرغم من الضيق المادي ومن اضطهاد الحكومة له فإن الأنبا غبريال الخامس ظل يتنقل بين شعبه لمواساته ولتشجيعه على الإيمان . كذلك وضع كتاباً في الطقوس الكنسية تذكيراً لأولاده بأهمية هذه الطقوس وبكل ما فيها من روعة . وقد قضى في رئاسة الكهنوت سبع عشرة سنة وثمانية شهور واثني عشر يوماً تنجح بعدها بسلام ودفن بما يليق به من إكرام في كنيسة السيدة العذراء ببابلون الدرج (في آخر مصر القديمة)^(٢) .



(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمسي القمص ص ٦٠١ .

(٢) سلسلة تاريخ ... جمعة الشمس كامل صالح نخلة - الحلقة الرابعة ص ٦-٩ .

شهادة الذين هم من خارج

- ٣٥٨ - كاتب د القبر المصبوك.....
- ٣٥٩ - رسالة البابا الاسكندري .
- ٣٦٠ - كاتب قبلى للامير برسباى .
- ٣٦١ - غضب الطبيعة .
- ٣٦٢ - زيارة بطريرك انطاكية لمصر .
- ٣٦٣ - تقديم الميزون .
- ٣٦٤ - تعيين جديد .
- ٣٦٥ - مناورات رومانية .
- ٣٦٦ - احكام سلامة .
- ٣٦٧ - خطاب من ملك الحبشة .
- ٣٦٨ - رد فعل حبشى .
- ٣٦٩ - ضرب البابا المرقسى .
- ٣٧٠ - تقاتل عشرين مملوكا .
- ٣٧١ - مراسيم سلامة .
- ٣٧٢ - فيضان شحيح .
- ٣٧٣ - جهود للال .
- ٣٧٤ - اسقف واع .
- ٣٧٥ - نياحة الالبابا يونس العادى عشر .

٣٥٨ - من العجيب أن الأتبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين الذى عاش فى القرن العاشر يتسب له تاريخ البطاركة الذين عاشوا فى القرون المتأخرة بل إن آخر جزء من هذا التاريخ المتضمن سير البطاركة حتى أوائل القرن العشرين منسوب له ، والواقع أن الأسقف الأشمونى لا يختلف ممن جاموا بعده فى الزمن فقط بل إنه يختلف عنهم بصورة قاطعة فى أسلوبه . فهو لم يكتب بسرد سير البطاركة وإنما تكلم بالتفصيل عن الحوادث الكنسية والقومية أيضاً فأعطانا صورة شاملة للعصور التى أرخ لها . أما المؤرخون الذين جاموا بعده فإنهم لم يكتبوا بالافضاء عن ذكر الحوادث القومية فقط بل أن هناك عدداً من الباباوات لا نجد لهم تاريخاً غير سطرين أو ثلاثة إذ يكتفى كاتب السيرة أن يخبرنا بأن هذا البابا أو ذاك قد تربع فى الدير الفلاتى ورسم فى تاريخ كنا وتنتج بعد ذلك بكذا من الزمن . فنجد تاريخهم أشبه بالسجل المجرد الذى لا يشفى غليلاً^(١) . على أن الله الذى لا يدع نفسه بلا شاهد قد ألهم بعض المؤرخين المسلمين بالكتابة

(١) من يدري ؟ ربما كتب هؤلاء المؤرخون بالتفصيل كما فعل الأتبا ساويرس ولكن البطش المتلاحق امتد الى انتاجهم فلتاه كما حدث حين خرب دير الاتبا أنطونى والأتبا بولا .

عن هؤلاء الآباء وعما جرى في أيامهم . فتجد أن الشيخ السخاوي قد سجل في كتابه « التبر المسبوك في ذيل السلوك » أخباراً لها أهمية كبرى لحوادث جرت في بابوية الأنبا يؤنس الحادى عشر . وقد أطلق عليه اسم مؤنس بطريرك البعاقبة كما أشار إليه في بعض الأحيان باسمه الأول وهو فرج اليعقوبى مضافاً إليه صفة التمييز الكبرى وهي « النصرانى » .

٣٥٩ - ولقد ظلت السدة البابوية شاذرة مدة أربعة أشهر وثمانية أيام اجتمع بعدها المجمع المقدس ودعا إليه الأراخنة للتداول معاً . ومن نعمة الله أن اتفقت كلمة الجميع في هدوء وصفاء إذ قد وقع اختيارهم على القس الأسعد أبى الفرج كاهن كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السفين)^(١) أحد الذين اشتركوا في الشعائر المقدسة الخاصة برسامة البطريرك الأنطاكي ، ولقد تمت رسامة هذا الكاهن المكرم في ١١ مايو سنة ١٤٢٠ م في باسم يؤنس الحادى عشر أيام أن كانت مقاليد الحكم في يدى الملك الأشرف برسباى .

٣٦٠ - وحينما كان برسباى أميراً كان في ديوانه كاتب قبطى اسمه تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله ثوما . فلما تولى السلطنة استمرت ثقته في كاتبه القبطى فقربه إليه وأخذ يرقبه إلى أن جعله ناظرًا للاسطبل السلطاني^(٢) .

٣٦١ - إلا أنه من المزلم - حين كان السلطان مسالماً واثقاً بكاتب قبطى ناقد الكلمة - أن تعصف الطبيعة بالمصريين في أشكال ثلاثة أصابت بلادنا وقتذاك وهي : زلزال ففيضان ناقص أعقبه هبوط سريع في مستوى مياه النهر الخالد وغلاء فاحش في سعر الحاجيات ثم تفشى الوباء الذى كان يحصد المئات من الناس يومياً . وأنه لمن العجيب العجيب أن تحدث هذه الهلايا الطبيعية في وقت حقق فيه الملك برسباى الهدوء والعدالة للشعب المصرى

(١) أشتغل هذا الكاهن بالتدريس أولاً في مدرسة بالمكس - راجع تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص ٦٠١ .

(٢) الهيروغليفية القبطية في عهد المماليك (بالانجليزية) لريتشاردز ص ٣ تقرأ من « المنهل » مخطوط ورقة ٣٦٤ ب .

قاطبة . فكان الضيق من مستلزمات الحياة لهذا الشعب في تلك الحقبة من تاريخهم . إذ أنه حتى حين حكم ملك عادل قامت الطبيعة بتنقيص الحياة عليهم ، وكان الهلايا الطبيعية لم تكن كافية إذ قد اختل نظام الأمور عند موت برسباى . فتعاقب بعده أربعة من المحاليك على الحكم خلال باهوية الأتبا يؤنس الحادى عشر . وفى أثناء حكم جقمق الملقب بالملك الظاهر ثار عدد من أصغر الأمراء بالهجرة وأقاموا لهم سلطاناً ووزراء . ولكن الملك الظاهر لم يلبث أن قمعهم وباعهم خارج مصر . وفى أعقاب هذه الاضرابات جاء الفيضان ناقصاً مرة أخرى . فقلت الأسعار غلوا فاحشاً استمر سنتين متتاليتين ذاق فيها الشعب ملة الجوع . وضاعف المذلة تفشى الطاعون الذى أدى الى الهبوط بتعداد الشعب هبوطاً عنيفاً . إلا أن المراحم الإلهية بدت واضحة فى أن هذا الطاعون المزعج أخذ يتلاشى أثناء الخمسين المقدسة . وهى أيام الفرج التالية لعهد القيامة المجيدة والتي كان اللهب إذ ذاك يحبون بعضهم البعض طوالها بتلك الكلمات الملوثة بالبهجة وهى : « خريستوس أنستى : أليثوس أنستى » أى « المسيح قد قام ... بالحقيقة قد قام » .

٣٦٢ - ولقد رأى البطريرك الأنطاكى مار أغناطيوس التاسع (الذى كانت قد تمت رسامته فى مصر) أن يأتى إلى بلادنا لتهنئة الأتبا يؤنس الحادى عشر بنفسه وبخاصة لأن هذا البابا الاسكندرى كان ضمن الذى قاموا بالشعائر الدينية للرسامة . ولما وصل البطريرك الأنطاكى إلى مصر لاقاه البابا الاسكندرى بالمحبة الأخوية واشترك البطريركان فى صلوات القداس الإلهى التى هى أسس صورة للأخوة المسيحية والتي يحس بها المؤمنون احساساً فعلياً بأنهم أعضاء فى جسد الرب المرفوع على المذبح . فرج الشعب كله لهذه المشاركة الروحية العظمى .

٣٦٣ - ثم قال البطريرك الأنطاكى لشريكه فى الخدمة الرسولية بأنه لم يعد لديه مهرون ، بل ولم تعد لديه خميرة للميرون إذ قد نضب ما عندهم من غير أن ينفطنوا إلى ذلك . فاتفق معه البابا المرقسى على الاحتفاء باقامة الشعائر المقدسة الخاصة بالميرون لاعطائه قدر ما يحتاج إليه .

وفى أحد الشعانين قصد البطريركان إلى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) حيث صليا معا احتفاء بهذا اليوم المقدس وظلا فى هذه الكنيسة العريقة



جزء من لوحة « موعظة القديس مرقس في الاسكندرية »
 من عمل چنتيلي بلينى
 وأخيه چيوفانى (سنة ١٥٠٤ م)

المليئة بالذكريات الدالة على العناية الإلهية طوال اسبوع الآلام لتأدية صلوات هذا الأسبوع المجيد . وفى باكر خميس العهد الإلهى قاموا بصلوات الميرون ثم بصلوات اللقان فصلوات قداس ذلك اليوم الذى فيه أعطانا رب المجد عهده بتقديمه جسده ودمه الأقدس طعاماً روحياً لمن يتناول منه وعلامة مرئية على الصلة الحقة التى تربط المؤمنين به وترفعهم إليه . وكان معهم خلال هذا الأسبوع المقدس ماركيرلس مطران أورشليم . وقد ظل ضيوفنا الكرام فى بلادنا الرحيمة مدة شهر ثم غادروها إلى أورشليم . وقد صاحبهم إلى المطرية عدد من كهنة القبط وأراختها بعد أن زود كل من البطريركين أخاه بالبركة الرسولية .

٣٦٤ - وما أن انتهت هذه الزيارة الأخوية حتى بدأ شئ من التنقيص . فقد قام الشيخ الأمير الأقصرانى - أحد شيوخ المسلمين - بالكشف على الكنائس لمعرفة ما إذا كان قد حدث فيها أى تغيير أو ترميم أو تهديد ونتيجة لهذا الكشف أمر السيد شهاب الدين أحمد النعمانى المصرى باغلاق عدد منها ربما يتم التحقيق فى أمرها . ومن نعمة الله أن أعيد فتح هذه الكنائس بعد انتهاء التحقيق .

٣٦٥ - وحدث أن قوت شركة الترك وانتصروا على امبراطور القسطنطينية الذى اضطر إلى ترك هذه العاصمة القديمة نهائياً . ولما انتهى به الأمر إلى الاستقرار فى بلاد اليونان رأى أن يتفاهم مع ملوك الغرب ومع المسئولين عن الكنيسة فى البلاد الغربية . ونتيجة لما جرى من مفاوضات وأحداث انعقد مجمع فى مدينة بال (بسويسرا) ثم انتقل إلى مدينة فيرارا بمدينة فلورنسا (وكلتيهما فى إيطاليا) مستهدفاً إيجاد الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية . إلا أن الكنيسة الشرقية هنا كانت كنيسة القسطنطينية التى هى الكنيسة الوحيدة الموجودة فى أوروبا لأن كل الكنائس الشرقية الأخرى أفريقية آسيوية - وهذه المجموعة من الكنائس لا خلقيدونية^(١) خلافاً لكنيسة القسطنطينية ، والذى حدث فى هذا المجمع الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس عشر هو أن قام شئ من

(١) راجع الفصل الأول من قصة الكنيسة القبطية ج ٢

التآلف بين الكنيستين الأوربيتين : القسطنطينية ورومية . أما الكنائس « الأفرو - آسيوية » فظلت بعيداً كما كان شأنها منذ مجمع خلقيدون المشتوم . لأن الاختلاف في العقيدة الذي هو أساس التباعد من الأول قد أضيف إليه مطالب البابا الروماني في مغالاة غريبة عن التقاليد الرسولية^(١) .

٣٦٦ - ثم رأى السلطان إذ ذاك أن يعقد مجلساً بحضور قضاة المسلمين الأربعة ومعهم الأنبا يؤنس الحادى عشر ورؤساء المذاهب اليهودية . فاجتمعوا كلهم . وبعد التداول قرر القضاة المسلمون أن يجتمع الكل عند شيخ الاسلام الأكبر فذهبوا إلى بيته . وقد قرر على كل منهم أن يلزم نفسه التزاماً شرعياً أنه لا يحدد في كنيسة ولا في دير ولا في قلعة ولا في صومعة ولا في بيعة عما هو كائن في مملكة السلطان بنفسه ولا بمن يستعين به بناء ولا غيره ولا يرم ما خرب أو تعيب من جدرانها وأخشابها وغير ذلك بالآلات القديمة ولا غيرها . ولا يدفع لمسلم خمرًا يبيع أو غيره ولا يسقيه له . ومتى خالف ذلك أو شيئاً منه كان جزاؤه أن يخرب السلطان جميع تلك الكنيسة أو الدير أو القلعة أو الصومعة أو البيعة التي يفعل فيها ذلك . وأن يفعل فيه ما يقتضيه رأيه ... »^(٢) .

٣٦٧ - وحضرت في تلك الفترة بعثة مؤلفة من ملك الحبشة درج يعقوب وعلى رأسها شخصية من كبار رجال الملك ومعه عهد الرحمن (وهو تاجر معروف) وأحضروا معهم هدايا مؤلفة من سمين جارية وطشت وأبريق من ذهب وسيف ملهـب ومهماز وعدد من الأواني الذهبية . كذلك حملوا خطاباً من الملك الحبشى إلى سلطان مصر . وقد استهل خطابه بالتحيات والمبالغة في عبارات التكريم ثم قال : « ... وقصدنا لنبديد ما سبق من العهد من الملوك المتقدمين من بلادكم وبلادنا اتباعاً لأثارهم المشكورة . وقصدنا اعلامكم ذلك بشارة لكم ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف

(١) راجع الفصل الأول من قصة الكنيسة القبطية ج ٢ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمتى القصص ص ٦٠٢ . سلسلة تاريخ جمعه الشماس

كامل صالح نخلة ص ١٥ - ١٧ .

والاتفاق بيتنا وبينكم بلا خلاف ... وأنهم كانوا قاهيين بالعدل خصوصاً
 بإخوتنا النصارى متوصيين ويرجعوا عنهم القوم الراءدين وهن كنائسهم والقتل
 على من كان فيها من الأكسة والرهابين ... وقد بلغنا الآن أن هذه القواعد
 تغيرت من قبل قوم كانوا عن طريق العدل حائدين وفي طريق الظلم
 خائضين . والآن إذا مات أحد من أخوتنا النصارى لا يدفن إلا بعد مشقة
 كبيرة لأهله وأقاربه . ويؤخذ منهم ما لم يهر به عادة في أيام الملوك
 السالفين ... ثم بلغنا أيضاً أن ثم من يتعرض إليهم في كنائسهم في
 أوقات صلاتهم وفي أيام أعيادهم يقطع مصانعاتهم وأخذ ما لا يستحقون
 أخذه . أنهم في غاية الضيق من ذلك ... وإخواننا النصارى الذين هم الآن
 تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نرف قليل لا يمكن أن يكونوا قدر
 قيراط من المسلمين القاطنين بأقليم واحد من بلادنا ... ولم نزل نحسن إليهم
 في كل وقت وحين ... سامعين لأقوالهم رادعين من يتعرض لهم ...
 فاسألوا التجار المترددين إلى بلادنا يخبرونكم بذلك بالحق والصدق . ومن
 نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمي الفتن التي هي
 أشد من القتل عند العارفين ... والقصد من عظمة سلطانكم أن تتوصوا
 غاية التوصية بإخوتنا النصارى لتصير بيتنا المودة وتفرح في أيام سلطنتكم
 الرعاية بعد السلام الواقى التام على المجلس الشريف السلطاني . وعلى
 معبيد وعلى أمرائه وقضاة الشرع وعلى كل من حوت مملكته العالمة ^(١) .

٣٦٨ - إلا أن السلطان وأمرائه غضبوا غضبة جامعة لما جاء في هذا
 الخطاب إذ أحسوا بأن مظالمهم قد شاعت خارج الحدود المصرية . ولكن
 السلطان رغم غضبه أرسل الهدايا النفيسة إلى الملك درع يعقوب ومعها
 خطاب يرفض فيه الرجاء بحسن معاملة القبط زعماً منه أنهم هم الذين
 أذاعوا أخبار ظلمه وأنهم في الوقت عينه يجددون في أبنية كنائسهم
 وأديرتهم من غير إذن . فلما وصل رد السلطان استشاط الملك غضباً بادره
 واحتجز الرسل السلطانية في بلاده . ثم حارب شهاب الدين بن سعد ملك
 المسلمين في الحيشة وقتله وحكم على رئيس وفد السلطان أن يركب معه
 وأخذه إلى المكان الملقى فيه الرجل المقتول ليرى بعيتيه ما حدث .

(١) السخاوى ج ١ ص ٢٩ - ٤٠ شرحه ج ١ ص ٦٧ - ٧١ .

٣٦٩ - ووصلت هذه الأنباء إلى مصر كما وصل خبر احتجاز الوفد

السلطاني فثار ثائرة السلطان ولم يجد من يصب عليه ثورته غير البابا نفسه . فأرسل واستدعاه وأصدر الأمر بضربه فضربوه ضرباً مبرحاً بلا احتشام ، ثم فرض عليه أن يكتب خطاباً إلى الملك الحبشي يعرفه فيه بكل ما أصابه من ضرب وإهانة كما يوضح فيه تهديد السلطان بإعادة القبط انتقاماً لكل ما قد يصيبه من تضيق على مسلمي بلاده . وطلبه بإعادة الوفد السلطاني إلى مصر بغير تعويق . وحين وصل الخطاب البابوي إلى ملك الحبشة استدعى رئيس الوفد وأخفق عليه العطايا ولكنه ماطله في الاذن بالعودة . ولما طال المطال وأمتلأت نفوس مندوبي السلطاني سأمًا قال رئيسهم في صراحة : إن كنت تريد قتلى فانا على استعداد لذلك . وإلا - فما داعي المماطلة ؟ وتركه الملك دون جواب ثم أرسل إليه في اليوم التالي رسولاً يحمل إليه الاذن بالعودة إلى مصر . وقد صحبه في سفره مندوب من لندن درج يعقوب فوصلوا القاهرة بعد غياب دام أربع سنوات^(١)

إلا أن عودة رسل السلطان لم تهدأ من غضبه ضد البابا يؤنس الحادي عشر وشعبه . فعقد مجلساً رأسه شخصياً وحضره القضاة المسلمون الأربعة . ثم استحضر البابا المرقسي فحكم السلطان بضربه وحبسه في المقشرة وأخذ كل ما لديه من مال . وزاد على ذلك بأن فرض عليه أن لا يكتب ملك الحبشة اطلاقاً ، بل ولا يرسم لهم مطراناً ولا كاهناً إلا بعد استئذانه . فإن خرج على هذا الحكم في أي يوم تضرب عنقه فوراً . وكتب خمس نسخ بهذه الأحكام احتفظ كل من قضاة الاسلام الأربعة بنسخة والنسخة الخامسة أعطيت للبابا الاسكندري .

٣٧ - وكان هذه الهلايا كلها لم تكن بكافية . فقام مشرون مملوكاً

من المفسدين وهاجموا بيوت القبط رغبة منهم في الاستيلاء على ما لديهم من خمر . ولكن القبط وقفوا في وجوههم وقتلواهم وتغلبوا عليهم إذ قد سقط ثلاثة من المماليك صرعى فقر الآخرون^(٢) .

(١) السخاوي ج ١ ص ٧٧ .

(٢) شرحه ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٣٧١ - وبعد ذلك أصدر السلطان بعض مراسيم خاصة بغير المسلمين أهمها أنه لا يجوز لطبيب قبطي أو يهودي أن يعالج المسلمين . إلا أن عقلاء المسلمين رفقوا أن يعملوا بهذا المرسوم واستمروا يلجأون للأطباء الذين يثقون في مهارتهم بنقض النظر عن دينهم . كذلك طلب تاجر الجوالي^(١) أراخنة القبط وأخذ يدقق في سؤالهم عما إذا كان في بيوتهم جاريات مسلمات . وضيق عليهم في السؤال حتى اضطروهم إلى عرض جواريتهم عليه ليتأكد من أنه لا توجد مسلمة بينهن .

٣٧٢ - وعاد شعور القلق يسيطر على المصريين جميعاً ولو أن نصيب القبط منه كان مضاعفاً .. ذلك لأن الأنباء تواترت بأن الأحباش يجهزون جيشهم ومراكبهم لغزو الحجاز وأنهم ينوون بعد ذلك قطع مياه النيل عن مصر . وحدث أن الفيضان جاء ناقصاً للغاية فبدأت القلوب تضطرب . وضاق الرزق . واستمر نقصان المياه فأخذت الأسعار ترتفع وشح الخبز . ثم سرى القلق إلى قلب السلطان فأرسل إلى الخليفة يرجو منه الابتهاال إلى الله ليرفع غضبه ويجعل النيل يفيض . كذلك وزع الصدقات والاحسانات الكثيرة . ولكن النيل بدلاً من أن يزيد أخذ يتناقص أكثر فأكثر . وعندها نودي على الشعب بالصلاة في الصحراء . فخرجت جموعهم تتزاحم : القضاة والعلماء والمشايخ والرجال والنساء والأطفال . وكان الشعور بالضيق شديداً إلى حد أنهم رضوا بخروج القبط معهم للصلاة . واستمر هذا الجمع الحاشد يصلّى عدة أيام متتالية إلى أن تعطف الله عليهم واستجاب لدموعهم وابتهاالاتهم . والعجيب أن النيل بدأ يتزايد في شهر توت - وهو الشهر الذي يبلغ فيه الفيضان منتهاه .

٣٧٣ - ومن المؤلم أن عدداً من كبار القبط جحدوا إيمانهم وأعلنوا إسلامهم إذ قد استهوتهم المناصب واستمالهم حب المال لأنهم جميعاً نالوا الرتب العليا ووصلوا إلى مراكز مرموقة من النفوذ . وعلى الرغم من ذلك فإن جحودهم لم يكن واقياً لهم من غضب السلطان إذا ما ثار : فمثلاً كان هناك رجل اسمه ابن كاتب المناخ ولى الوزارة عدة مرات . وذات مرة حمى

(١) الجوالي كانت ضريبة مفروضة على القبط بالاضافة إلى الضرائب العامة .

غضب السلطان عليه فأمر بمصادرة أمواله وبضربه بالمقارع ضرباً أفضى إلى موته رغم معرفة السلطان بأن هذا الرجل قد خرج على المسيحية ^(١) .

٣٧٤ - ومقابل هذا الجحود يبرز بعض الآباء الساهرين الذين جاهدوا في سبيل الإيمان وتقوية المزانم والصمود في وجه الضيقات . وأبرز هؤلاء الآباء أنها قرياقص أسقف البهنسا الذي لم يكتف بافتقاد شعبه ووعظه وتوجيهه بل وضع الميامر العديدة في مديح السيدة العذراء وفي قيامة رب المجد وفي لجوء العائلة المقدسة إلى مصر وفي مديح الشهيد بقطر .

٣٧٥ - وبعد كل هذه الضيقات والآلام انتقل الأنبا يونس الحادى عشر إلى فردوس النعيم بعد أن قضى على الكرسي المرقسى أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً . وكان مقره بكنيسة السيدة العذراء بهارة زويلة . وقد دفن في دير الخندق إلى جوار الأنبا متاوس المسكين ^(٢) .



(١) السخاوى ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) مجلة تاريخ ... لكامل صالح خلة (الحلقة الرابعة) ص ١٠ - ٤١ .

فترة من الهدوء

أ - الأنبا متاوس الصعيدى

٣٧٨ - تقيس الميرون .

٣٧٦ - التطلب الأنبا متاوس الثانى

٣٧٩ - ليأخذ البابا المرقسى .

٣٧٧ - تطلب بطرلق الحبشة .

٣٧٦ - مرة أخرى شغرت السدة المرقسية . واستمرت شاغرة هذه المرة أربعة شهور . ثم أجمع الاساقفة والأراخنة باتفاق عجب على أن الراهب سليمان الصعيدى المتنسلح بدير العذراء الشهير بالمعرق هو الرجل الذى يرفهون فى رعابته إياهم . ونتيجة لهذا الاجماع سافر مندوبوهم إلى الدير المعرق واستحضروه إلى مصر حيث تمت الشعائر المقدسة لرسامته فأصبح الأنبا متاوس الثانى البابا الاسكندرى التسعين . وتميزاً له عن الأنبا متاوس المسكين أطلق عليه اسم متاوس الصعيدى ^(١) .

٣٧٧ - ثم وصلت إلى مصر بعثة حبشية لكى تطلب إلى البابا المرقسى أن يرسم للحبشة مطراناً عوضاً عن المطران الذى كان قد تنحى . ومن نعمة الله أن السلطان المنتصور فخر الدين عثمان قد أحسن استقبال هذه البعثة واستفسر عن الغرض من حضورها . ثم سهل لأعضائها أسباب الوصول إلى الأنبا متاوس الثانى لعرض مطلبهم عليه . وكان ملك الحبشة إذ ذاك مازال درج يعقوب . ولما علم البابا الاسكندرى بما يطلبون سارع إلى اختيار راهب ممتاز ورسمه باسم الأنبا غبريال .

٣٧٨ - ومع أن رئاسة كهنوت الأنبا متاوس الصعيدى لم تدم غير ثلاثة عشرة سنة إلا أن أربعة من السلاطين توالوا على الحكم خلال تلك المدة .

ولقد وجد أثناء بابهوتة أن الكنيسة فى حاجة إلى الميرون لأن ما تبقى منه لم يعد كافياً إلا لأن يكون « خميرة تخمر العجين كله » . فأرسل يدعى الأساقفة ليجتمعوا معه ويؤدوا شعائرها المقدسة . فحضر ستة منهم : خمسة من الصعيد وواحد من الدلتا . وقد أقيمت الصلوات فى كنيسة

(١) شرحه ص ٤٥ .

السيدة العذراء بمحارة زويلة . وكان المهتم بهذا العمل المقدس هو صاحب الذكر النائم المولى الأجل الأرخن الرئيس المحب للمسيح الأرثوذكس المكرم الشيخ ولي الدولة ميخائيل المهتم بالبيعة المذكورة والناظر على الشعب الأرثوذكسي والبيع المقدسة بأورشليم . وقد شاركه بركة هذه الخدمة الشماسان المكرمان برسوم بن الأشقر والشمس أبو المنصور .

٣٧٩ - ثم تنبع الأنبا متاوس الصعدي في هدوء وسكينة ودفن هو أيضاً بدير الخندق إلى جانب سميه العظيم ^(١) .



(١) سلسلة تاريخ ... جمعه كامل صالح نخلة . المجلد الرابعة ص ٤٣ - ٤٦ . .

ب - استمرار الهدوء

٢٨٠ - انتخاب البابا الاسكندري الحادي والتسعين .
٢٨١ - مطاردة غبريال .
٢٨٢ - فترة سبات .

٢٨٠ - وكان في دير الأنبا أنطوني كوكب البرية راهب اسمه غبريال العرياي بالنسبة إلى أنه نشأ في قرية العراية المدفونة (أو أبولوس بالقرب من البلينا) فلما انقضت خمسة شهور على نباحة الأنبا متاوس الثاني اجتمع الأساقفة مع الأراخنة للتشاور معاً . وانتهت مشاوراتهم إلى اختيار غبريال العرياي . وتمت رسامته من غير امهال فأصبح الأنبا غبريال السادس البابا الاسكندري الحادي والتسعين في ٩ فبراير سنة ١٤٥٨ م ش . وظلت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة المقر البابوي حيث أقام طيلة مدة رئاسته التي سادها الهدوء . ولم يعكر صفوها أية ضيقات والتي لم تدم غير ثمانى سنوات وعشرة شهور وستة أيام فدفن هو أيضاً إلى جانب سلفائه المباشرين بدير الخندق . وقد احتفل بجزائه احتفالاً شعبياً فسارت الجماهير خلفه من كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة إلى مقره الأخير وقد ظلت السدة المرقسية شاغرة مدة سنتين وشهر واحد واثنين وعشرين يوماً .

٣٨١ - ثم اجتمع الأساقفة والأراخنة واستقر رأيهم بعد التداول على الراهب ميخائيل السمالوطي الذي لم يذكر المؤرخون في أي دير ترهب . فأخذوه إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ورسموه البابا الاسكندري الثاني والتسعين باسم ميخائيل الرابع . على أن باباويته لم تدم غير سنة واحدة وثلاثة أيام . فمر كما يمر السحاب العابر . وبعد الصلوات الجنائزية ذات الروعة الخاصة دفن ببابلون الدرج .

٣٨٢ - وطالت الفترة التي خلا فيها الكرسي المرقسي حتى بلغت سنتين وشهرين وثمانية أيام . وكأنما صحا الأساقفة من سباتهم فسارعوا إلى الاجماع وأرسلوا يدعون الأراخنة الذين لبوا الدعوة لساعتهم إذ أفاقوا هم أيضاً من السبات الذي حل عليهم . ومع ذلك فقد طال التشاور وطال معه

البحث . أخيراً اهتدى الجميع إلى اختيار الراهب يوحنا المحرقاوى ليجلس على الكرسي الرسولى : كرسى مارمرقس البشير ضياء بلادنا المصرية باسم يؤنس الثانى عشر على أن باهوتته لم تلم غير ثلاث سنين وأربعة أشهر^(١) .



(١) شرحه ٤٧ - ٤٨ .

صلة قديمة

- ٣٨٣ - القبط يوحنا بن الحسرى
٣٨٤ - عطشه وعمله .
٣٨٥ - القبط وقبرص
٣٨٦ - صيد في الماء العكر .
٣٨٧ - تنبؤ المماليك .
٣٨٨ - الملقن الخمس .
٣٨٩ - نهاية عصر المماليك .
- ٣٩٠ - فترة بناء .
٣٩١ - تخريب دير الأنبا انطوني
والأنبا بولا .
٣٩٢ - الشهيد صليب .
٣٩٣ - لوحة عن عصر المماليك .
٣٩٤ - القتلى واللايرة التي اندثرت
في العصر المملوكي .

٣٨٣ - وعاد تتابع الأيام والليالي يحتم اجتماع الاساقفة والأراخنة لكي يتداولوا معاً في ذلك الموضوع الحيرى الذى يقتضيه النظام الكنسى . وهو موضوع التفكير فيمن يكون الراعى الأول . وكانت قد انقضت خمسة شهور وخمسة أيام على نهاية الأنبا يونس الثانى عشر . فاجتمع المستولون في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وفى ظل والدة الإله وروحانها أجمعوا على انتخاب الراهب يوحنا ابن المصرى المولود في مدينة صدفا بديرية أسبوط . ولم يذكر المؤرخون الدير الذى ترهب فيه . وفقد أقيمت شعائر الرسامة المقدسة في ١٠ فبراير سنة ١٤٧٥ م ش باسم يونس الثالث عشر البابا الرابع والتسعين في حكم الملك قايتباي^(١) .

٣٨٤ - ولقد شابه هذا البابا الأنبا متاوس في حبه المتناهى لتوزيع ما عنده على كل من يسأله : فكانت حسناته تشمل الجميع حتى اليهود . وكان يضع كل ما يأتيه من مال تحت الفروة التى يجلس عليها ومتى تقدم إليه سائل مد يده وأعطاه ما يدخل فيها من غير أن ينظر إليه فكان بعمله هذا لا يبقى على مال عنده إطلاقاً .

كذلك كان الأنبا يونس الثالث عشر عالماً بالعلوم الكنسية معضلاً فيها حتى أنه كتب الكثير من المؤلفات في طقوس الكنيسة وفى تعاليمها ولو أن هذه الكتب لم تطبع^(٢) .

(١) له حصن قائم عند مدخل الميناء الشرقية بالاسكندرية - وكانت هي الميناء الوحيدة لذلك الثغر في أيامه .

(٢) « التواريخ » لابن الراهب ص ٢٤٣ .

٣٨٥ - وكانت هناك علاقة قديمة بين القبط وبين جزيرة قبرص إذ يجب أن لا يغيب عن بالنا أن القديس مرقس كاروزنا الحبيب كان قد حمل الإشارة إلى تلك الجزيرة مع برتاها قبل أن يجرى إلها . إلا أن المعلومات الخاصة بالقبط في الكتب القبرصية ضئيلة رغم أنه قلما يخلو كتاب من ذكرهم . وليست لدينا أية تفصيلات عن الجالية القبطية التي ظلت في تلك الجزيرة قرونًا طويلة والتي لم يعد لها أثر الآن . ويذكر جاكوبوس دى فيرونا (الايطالى) فيما كتبه عن كنائس فاما جوستا (مهنا قبرص) بأن هناك يعاقبه بينهم . ولما اعتلى الأتبا يؤنس الثالث عشر السدة المرقسية ألقى خطاباً باهرياً ضافياً وجهه إلى أساقفته ومن بينهم « أنها ميخائيل القبرصى المطران على قبرص ثم على رودس » . وكان هذا المطران مرسوماً بيد البابا الاسكندرى . ومن مخلفات مكتبة دير أبى يعنيس مخطوط مذكور فيه بأن الأتبا يؤنس أهدى إلى الأتبا ابرآم الذى رسمه خلفاً للأتبا ميخائيل كتاب الطب الروحاني .

ثم حدث حين غزا الأتراك جزيرة قبرص بعد ذلك بسنوات أن قتلوا عدداً من الكهنة أحدهم المطران القبطى . ويذكر لنا المؤرخ الايطالى ستيفانو دى لوزينيانو بأن نيقوسيا عاصمة قبرص تزينها القصور والكنائس اليونانية ... والقبطية ... ، والقبط يشتركون في المواكب الكنسية التي كانت تنظم أيام الأعياد السيدية وعيد مارمرقس ، وكنيسة القبط تحمل اسم القديس أنطونيوس ... والقبط ليسوا في نيقوسيا فقط بل أنهم في الجبال الواقعة في شمال الجزيرة ولهم دير باسم الأتبا مكارى الكبير ، ويقع هذا الدير بالقرب من قرية بلاتان الخاصة بالأرض وأغلب الظن أن هذا الدير أصبح في حيازة الأرمن القاطنين في تلك المنطقة إذ لا يزال اسمه « سورب ماجار » (أو دير مكارى) ... وحينما تم للترك الاستيلاء على الجزيرة قاموا بإحصاء عام وذكروا ضمنه أن القبط بين المجموعات المفروض عليها ضرائب^(١) .

(١) راجع مقال لهورمستر عن « القبط في قبرص » (بالانجليزية) نشره في مجلة الآثار القبطية المجلد السابع سنة ١٩٤١ ص ٩-١٢ .

٣٨٦ - وكانت العلاقة بين مصر والحشة قد سادت نتيجة للخصومات التي قامت بين سلاطين مصر وملوك الحبشة . وقد بلغ توتر العلاقة حداً جعل من المتعذر على البابا الاسكندري أن يرسم مطراناً لأولاده الأقباش . وحدث أن وجد الملك داود الثاني نفسه محتاجاً إلى مطران كما وجد أن البرتغاليين يهرون على بلاده في تجارتهم مع الهند . فأشار عليه بعض مستشاريه أن يلجأ إليهم طلباً لمطران يمسوس الكنيسة . وعلى الرغم من ادراكه بأن البرتغاليين تابعون للكنيسة الكاثوليكية التي تختلف في عقيدتها عن الكنيسة القبطية إلا أنه انصاع لمشورة رجاله وأرسل إليهم بطلبه . وبالطبع رحبوا هم بهذا الطلب إذ رأوا فيه فرصة للتدخل في شئون الحبشة . وسارع الخبر الروماني إلى رسامة مطران كان طبيباً بالجيش اسمه يواز بارموداز . ولم يكتف بهذه الرسامة بل ضاعف اعتدائه بأن أطلق عليه لقب « بطريرك الاسكندرية » ^(١) ومع أن هذا المسلك كان غير لائق كما أنه مخالف لقوانين مجمع نيقية (المجمع المسكوني الأول) إلا أنه لو كان هذا الموضوع حقيقياً فلماذا أطلق الخبر الروماني لقب « بطريرك الاسكندرية » على صنيعة في حين أنه يزعم بأنه متسلط على البطريرك الاسكندري ؟ فلو أن البابا الاسكندري كان قد خضع له بالفعل لكان قد اعترف بوجوده وطلبه ولما أطلق لقبه الشرعي على شخص فرضه هو على الحبشة .

٣٨٧ - وفي عهد هذا البابا ذاق المصريون جميعاً شيئاً من السلام لاتشغال الممالك بالحروب الخارجية من جهة وبمناخساتهم فيما بينهم وبين بعضهم . وقد أدت هذه المنافسات في النهاية إلى تولي قانصره الغوري سلطنة مصر . وكان - بخلاف أقرانه - متزناً عادلاً أحسن معاملة رعاياه . وفي أيام حكمه وصل إلى مصر أميران حبشيان موقدين من قبل داود الثاني ملك الحبشة ومعهما هدايا ثمينة . فأحسن السلطان استقبالهما وأكرمهما كل الأكرام . ثم أعربا له عن رغبتهما في زيارة الأراضي المقدسة للتحرك بها فسهل لهما سبيل السفر . كذلك جاء إلى مصر في تلك الفترة زوار من البندقية لاقوا من السلطان كل أكرام هم ايضاً .

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمسي النص من ٦٠٦-٦٠٢ . سلسلة ... تاريخ ...
جمعه كامل صالح تحلة الحلقة الرابعة من ٥٢ .

وفى حكم القورى عاود المصريون تعبيدهم بوقاء الثيل تعبيداً شعبياً واسعاً فكانوا يخرجون فى السفن والزوارق كما كانوا يفعلون كلما أحسوا بشئ من الحرية . كذلك كانوا يخرجون إلى المتنزهات العامة فى مختلف المناسبات . ومن أهم هذه المتنزه جزيرة الروضة - حيث المقياس - التى كانت إذ ذاك مليئة بالأزاهير العطرة والحمايل الظليلة . وبركة الرطلى التى كانت متصلة بالخليج الكبير والتى أقيمت على جانبيها أماكن المرح والطرب . ومن وسائل الترفيه فى ذلك العصر « خيال الظل » .

كما أن ما تبقى من المنشآت والمرافق من عصر القورى يدلنا على أهمية الفنون والصناعات التى ازدهرت إذ ذاك وهى « صناعة البناء وزخرفة المباني وصناعة الترخيم والحزف والهندسة الزراعية وصناعة السفن والأسلحة . ولقد نال طب العيون عناية خاصة فى ذلك الوقت (١) .

على أن قانصوه رغم عنايته قد ظل مملوكاً فى تصرفاته - أى أنه اتبع سياسة الغدر بمناقضه - ويكل من تتسم فيهم الرغبة فى التفوذ ... ومع ذلك فلم يفتن تماماً إلى خطر الزحف التركى حين بدأ على إيران لأنه كان هو نفسه خصماً للشاه . فلو أنه نسي خصومته وتحالف مع إيران ضد الترك لتمكن بهذا التحالف من درء خطر الترك الداهم ولكنه ظل قاهماً فى عاصمته ... فانتصر الترك على إيران ثم تحولوا إليه (٢) .

٣٨٨ - ولقد ذكر بعض المؤرخين أن المسيحية انتهت تماماً فى الخمس مدن الغربية فى بابهية الأنبا يؤنس السادس (فى عهد صلاح الدين (٣)) إلا أن ما تبقى من رسائل الأنبا يؤنس الثالث عشر - وفى طرس بركنه بالذات الصادر منه فى سنة ١٥٠٠ م ش يبين أن هذه المدن كان لها أسقف فى عهده . ولو أن هذا الأسقف اضطر إلى مغادرتها حين دخل العثمانيون شمال أفريقيا بعد احتلالهم مصر . وكان اسمه الأسقفى قرياقص . فلما ترك أيبارشيتته ورجع إلى مصر استعاد اسمه الرهبانى وهو ساويرس وذهب

(١) الأشرف قانصوه القورى لمحمود رزق سليم ص ١٢ . ١٤ . ٢٢ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستافلى لايون بولد ص ٥٣ .

(٣) راجع ف ١٧٥ من هذا الجزء .

إلى دير السيدة العذراء الشهير بالسريان حيث قضى بقية حياته . وقد
انشغل في هذه الفترة بوضع الكتب الكنسية التي مازالت موجودة في
مكتبة ذلك الدير ^(١) .

ولقد كانت بهذه المدن عدة أبارشيات - المعروفة منها الآن عشرة هي :

- ١ - أفريقية ، ٢ - برقة ، ٣ - برنيقة ، ٤ - طرابلس الغرب ،
- ٥ - تونس ، ٦ - درنة ، ٧ - قابس ، ٨ - قرينى (قبروان) ،
- ٩ - ليبيا ، ١٠ - مراقبة ^(٢) .

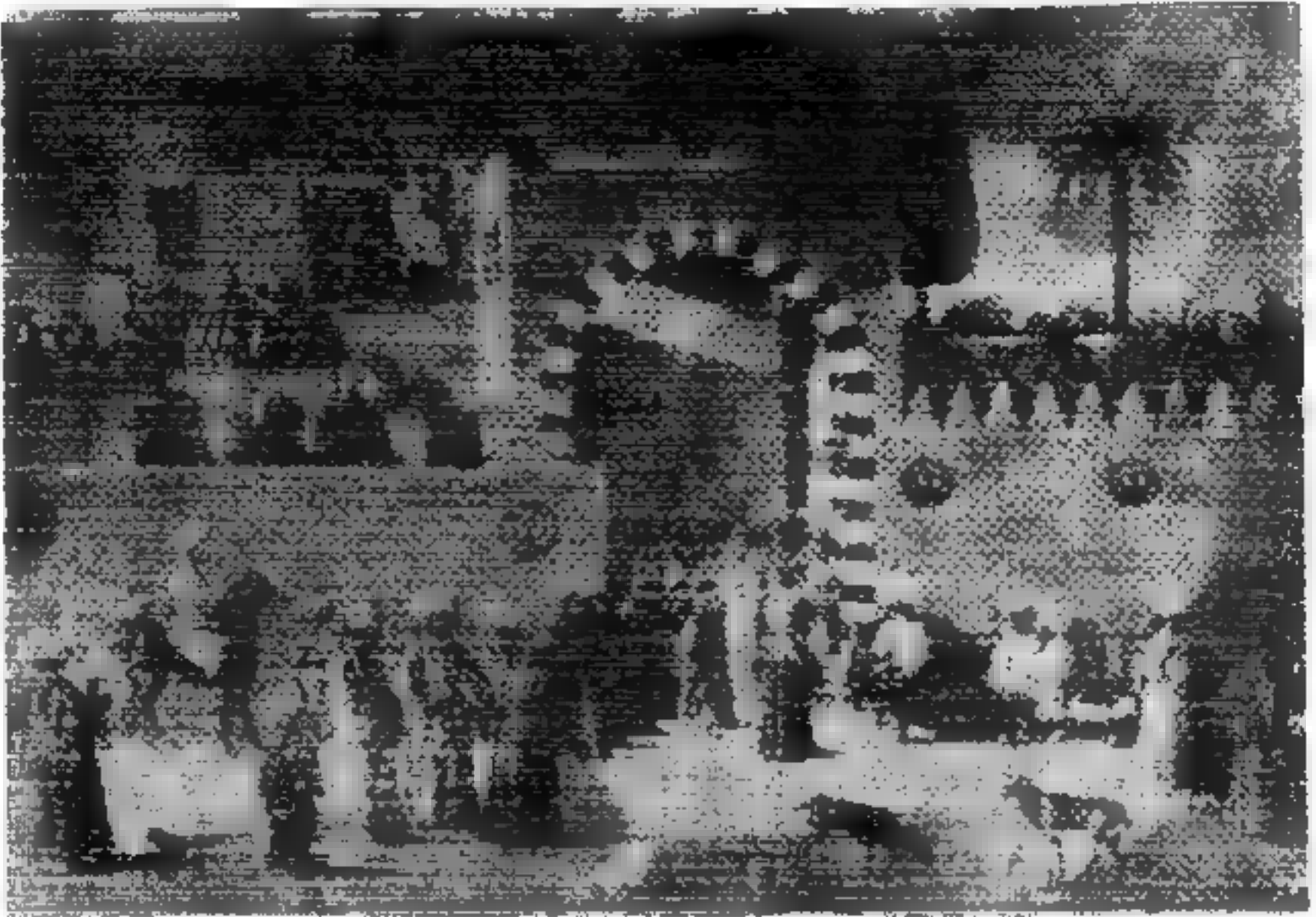
٣٨٩ - حدث أن هاجم الترك المصريين في مرج دابق فواجههم السلطان
قائصوه ولكنه خر صريعاً في تلك المعركة . ورغم الخطر الداهم من هؤلاء
المغبرين فإن الماليك ظلوا على تنازلهم بل لقد قامت بينهم الدسائس ضد
طومانباي ابن أخى قائصوه وغدروا به بأن انضموا إلى الأتراك . وحين انتصر
السلطان سليم الأول التركى ودخل مصر أمن طومانباي وقربه إليه لشجاعته
ولكن دسائس خصومه وحصاده من الماليك جعلتهم يوغرون صدر السلطان
التركى إلى حد أنه أمر بشتقه . وبنهاية طومانباي انتهت دولة الماليك
وحلت محلها الدولة العثمانية ولو أن من بقى من الماليك ظل فترة من
الزمن يتناوش الحاكم المفروض على مصر من سلطان تركيا . ومع أن
المصريين جميعاً عاشوا في خطر وقلق أثناء تقاتل الماليك والترك إلا أنهم
عاشوا فيما بينهم وبين بعضهم في سلام : المسلمين والقبط معاً .

٣٩٠ - ولقد دامت بابهية الأتبا يونس الثالث عشر أربعين سنة جاهد
خلالها الجهاد الحسن : فجدد عمارة الكثير من الكنائس والأديرة إلى جانب
ما وضعه من الكتب الخاصة بتعاليم الكنيسة وطقوسها . ثم تنجح بسلام
وأقيمت الصلوات الجنائزية عليه في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة
حيث دفن أيضاً ^(٣) .

(١) سلسلة تاريخ ... الحلقة الرابعة لكامل صالح نخلة ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) عن مقال لكامل صالح نخلة خاص بأبارشية المدن الخمس نشره في مجلة جمعية
الترفيق العدد الصادر في ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ص ١٠ .

(٣) سلسلة تاريخ ... ص ٥١ - ٥٢ .



صورة تمثل مقاومة السلطان القروري لسفراء الهندية وعلى رأسهم
دومينيكو تريفيزانو من عمل أحد مصوري الهندية في نهاية القرن
السادس عشر (متحف اللوفر)

ولقد ساند الأتيا ميخائيل الرابع أسقف القيس باباء في جهوده البتانة إذ قد سعى جهده لجعل مكانة الكنيسة في مستوى عال وختم شعبه بتفان وإخلاص^(١) .

٣٩١ - وحدث في تلك الأيام حادث مروع أضاع على الاتسانية الشيء الكثير من تراثها الروحي . وهذا الحادث هو أن بعض القبائل العربية المقيمة في الوجه القبلي قامت بحملة شعواء على ديري الأتيا أنطوني والأتيا بولا وتمكنوا من اقتحام الديرين فقتلوا كل من فيهما من الرهبان دون تمييز لسن ولا لقداسة وقد ظل الديران خربين زهاء ثمانين عاماً . وخلال هذه السنوات عاش المغبرون داخلهما وكانوا إذا ما أرادوا الطهي أو الاستدفاء أوقدوا النار في المخطوطات التي كانت محفوظة بمكتبي الديرين . وهكذا أضاعوا الشيء الكثير مما كتبه الآباء ولن يمكن تعويضه . وقد فطى الدخان المتصاعد من هذه النار جنود الكنيسة وغشى الأيقونات المرسومة عليها . إلا أن العلم الحديث جاء في هذا القرن وأزال الغشاء الذي أحدثه الدخان فأعاد الأيقونات إلى سابق رونقها - بعكس الكتب التي احترقت وضاعت نهائياً^(٢) .

٣٩٢ - ولما كان حكم الماليك ملتبساً بالضيق والاضطهاد فقد زخر بفتنتين من القبط : فئة المتمسكين بعتقدهم الراضين بكل ما يترتب عليه هذا التمسك من تعذيب وتكول ، وفئة الجاحدين الذين غرهم مجد العالم أو أزعجهم الاضطهاد . ومع أنه ليس من شك في أن الشهداء كانوا كثيرين إلا أن الأسماء التي وصلتنا من مجموعاتهم قليلة . وفي هذه الفترة لا نجد غير اسم قديس عرف أن يصمد في وجه الألام اسمه صليب .

ولد هنا القديس في بلدة هور (بالقرب من ملوى) وكان أبواه خائفين الله قريباه التربية الروحية الحقة وعرفا كيف يجعلان العقيدة تترسخ في أعماقه فلا يرضى بها بديلاً . ولما بلغ سن الشباب اختاراً له زوجة من

(١) من مقال لقمص ميخائيل خاص بإقليم المنيا في العصر القبطي السنة الرابعة العدد الثاني (فبراير سنة ١٩٦٢) ص ٢٨ .

(٢) سلسلة تاريخ ص ٦٨ .

ونرجو أن تذكرنا عند المسيح إلهنا . وليكن الرب معك . وليشدك .
ولتشملك معونة السيدة العذراء إلى أن تكمل سعيك « ثم تركته
ورجع إلى البيت .

وأقلمت المركب . وكانت الرحلة شاقة لأن الجنود المكلفين بهراسته لم
يكتفوا بتقييده بل استمروا يوسعون ضربه وسخرية . على أن أم الرحمة
كانت تشرق عليه كل ليلة وغلاً قلبه هزأ . كما كان الملاك ميخائيل ملازماً
له . فلما وصلوا إلى القاهرة أخذ الجنود إلى جماعة من القبط وطالبوهم
بأن يدفعوا له أجره سفره لأن القديس لم تكن معه أية نقود . ولما عرف
هؤلاء القبط بكل ما جرى له دفعوا الأجرة بسرور ثم قدموا إليه طعاماً
ليأكل ووقفوا يخدمونه ويقدمون له كل ما يمكنهم من خدمته . فامتلات
نفسه راحة وقال لهم : « لقد تعبت معي وأرحتم نفسي فأسال المسيح ربنا
أن يعرض تعبك في ملكوته الأبدي كما يقضى لكم حاجاتكم في هذه
الدنيا الفانية » .

وبعد ذلك أخذ قائد حرسه لزيارة شقيقته التي كانت ذات إيمان وطيد
ولكن حنانها عليها فأخذت تبكي . فودعها القديس في صمت تام دون أن
يتفوه بكلمة . ثم سار به القائد إلى حاكم القاهرة الذي أخذ يسأله عن
إيمانه وعما قال أمام حاكم الصعيد . فامتلاً القديس نعمة واعترف الاعتراف
الحسن معلناً في جساره إيمانه بالمسيح الذي تجسد ليخلص الناس . وفي
صباح اليوم التالي سار به الحاكم إلى السلطان الذي كان جالساً وسط
مجموعة من قواده وجنوده ورجال بلاطه ولكن القديس لم يرهب مجلسهم ولم
يتردد في إعلان إيمانه رغم تهديده بالتعذيب . قال له السلطان : « اصغ
إلى نصحي . اترك دين آباءك وأنا أسامحك » فأجابته : « أنى أومن
بالمسيح ربى وإلهى وأعلن إيماني به جهاراً » فأرسله السلطان إلى قضاة
المسلمين الأربعة ليروا رأيهم فيه فلما سمعوا اعترافه الذي أصر على إعلانه
كما أعلنه أمام الولاة وأمام السلطان نفسه حكموا بإعدامه بعد التشهير به
ووكلا أمر تنفيذ الحكم إلى أمير من المماليك . فأمر هذا الأمير باحضار
جمل . ثم صلبوا القديس على صليب من خشب ورطوه على ظهر الجمل
وأخذوا يطوفون به في شوارع القاهرة وهم ينادون على المارة بذنبه . وكان

صليب خلال هذا كله متهلل الوجه صامتاً هادئاً . بل أن نعمة الله أضاعت على وجهه فانعكس ضوؤها العجيب من وجهه على كل من رآه . وملاء هذا النور سلاماً مما جعل القبط الذين رأوه يمتثلون فرحاً وسلاماً هم أيضاً .

ولما وصلوا إلى ساحة الاعدام كان السياف واقفاً يحمل في يده سيفاً مسلولاً ولكن شكله ووقفته لم يحركا للقديس ساكتاً فظل على هدوئه . وكان هناك قاض واقفاً على مقربة من السياف فسأله إن كان مستعداً لأن ينجس من الموت بأن ينكر المسيح علانية فأجابه في هدوء على الفور : « لقد عشت نصرانياً وأموت نصرانياً » فأمر القاضي السياف بأن يقتله . فاستل السياف وقطع به رأسه في الساعة السادسة من يوم الاثنين المبارك الموافق الثالث من كيهك سنة ١٢٢٩ ش . فقال اكليل الشهادة الذي اشتهاه . وكان يوم استشهاده في عيد تذكار دخول السيدة العذراء إلى الهيكل بركة صلاته فلتكن معنا . آمين (١) .

٣٩٣ - لمحة عن عصر الماليك : إن عصر الماليك سواء منهم البحرية أو البرجية - هو من أعجب الأحداث في تاريخ مصر المليء بالعجب . فقد جمع بين المتناقضات جمعاً غايه في الغرابة . ففيه انهزم الصليبيون إلى غير رجعة . وفيه انهزم المغول تماماً . وامتد سلطان مصر من شمال سوريا إلى جزيرة قبرص إلى الحجاز . وخطب الملوك - حتى الأوروبيون منهم ودها . وفيه أيضاً رصدت الأوقاف على وجوه البر والاحسان ونالت العلوم والفنون حظاً وافراً من التشجيع ، وشيدت الجوامع الرائعة التي مازال منها يبهز الناظرين « بل لقد كانت هناك مشاتل تهاج فيها الأشجار والزهور والرباحين يشتريها الناس داخل أصص فخارية ويزدهونها في حدائقهم الخاصة أو على أسطح منازلهم . أما الطنافس (السجاجيد الفاخرة) فكانت تحفاً فنية رائعة : تسحر رؤيتها العيون ويريح ملمسها النفوس بل يشير الفكر والتأمل . ولا تزال هذه الطنافس واضحة في صور الفنانين الأوروبيين إذ رسموها فوق العروش أو منشورة من النوافذ والشرفات أو مبسوطة فوق الموائد والمنايح الكنسية » إلا أنه على الرغم من

(١) سلسلة ... ص ٥٩ - ٥٨ .

هذا الملك المحتد وهذا البذخ الواضح فقد عانى المصريون ألماً من العسف والجور . فقد تعالى عليهم الممالك واحتقروهم وأذلّوهم وفرضوا عليهم الضرائب الفادحة وملأوا حياتهم قلقاً واضطراباً لكثرة الفتن الداخلية . أما القبط فبالإضافة إلى ما أصاب إخوانهم المسلمين قد وقع عليهم من العذاب ألوان معبّنة فلم يكن لشخص منهم حرمة حتى البهاوات لم يكونوا في مأمن من أذاهم . فبطشوا بالأشخاص وخرّبوا كل ما امتدت إليه أياديهم من كنائس وأديرة (١) .

٣٩٤ - ونذكر هنا أهم الأديرة والكنائس التي تهدمت في هذه الحقبة : دير القصور - قال أبو الحسن علي بن محمد الشاهشي في كتاب الديارات : وهذا الدير في أعلى الجبل على سطح في قلته وهو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة وفيه رهبان مقيمون به وله بئر منقورة في الحجر . وفي هيكله صورة مريم عليها السلام في لوح والناس يتصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة . وفي أهله غرفة بناها أبو الجيش خسارية لها أربع طاقات إلى أربع جهات . وكان كثير الغشيان لهذا الدير معجباً بالصورة التي فيه ... وإلى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فيها ، وهو مطل على الصحراء والبحر ... وهو أحد الديارات المقصودة والمتنزعات المطروقة ، دير مارحنا - قال الشاهشي - هذا الدير على شاطئ بركة الجيش وهو قريب من النيل وإلى جانبه بسايتين أنشأ بعضها المعز . ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مسور ... ويقرب الدير بئر تعرف بئر محماتى عليها جميزة كبيرة ، دير مقارة شلقيل - لطيف معلق على الجبل وتقر في الحجر ولا يتوصل إليه من أعلاه ولا من أسفله ولا سلم له . وإنما جعلت له تقور في الجبل فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سارية فأمسكها بيده وجعل رجليه في تلك التقور وصعد . وبه طاحونة يديرها حمار واحد . ويطل هذا الدير على النيل تجاه متقلوط وتجاه أم القصور . وتجاهه جزيرة يحيط بها الماء وهي التي يقال لها شلقيل ... ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصاري وهو على اسم يرمينا : دير بقطر - بحاجر أنتوب من بني مر تحت الجبل ، وهو دير كبير جداً وله عيد يجتمع فيه النصاري شرقاً وغرباً ويحضره الأسقف ،

(١) المخطوط للمقرئ ص ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٠٦ - ٥٠٧ .

دير أبي هرمينة بحر قار وبحرية برية قار وهو مملوء كتباً وحكماً ... وأبو هرمينة هذا من قدماء الرهبان المشهورين . دير السبعة جهال بأخموم - هذا الدير داخل سبعة أودية وهو دير عال بين جهال شامخة لا تشرق عليه الشمس إلا بعد ساعتين من الشروق لعلو الجبل الذي هو في لفته ... وعلى هذا الدير من خارجه عين ماء تظللها صفاقة ، دير أبي بشادة الأسقف - بالحاجر وتجاهه في الغرب منشأة أخميم . وأبو بشادة من علماء النصارى ، دير نهيا - قال الشافعي : « ونهيا بالجيزة وديرها من أحسن ديارات مصر وأنزهها وأطيبها موضعاً وأجلها موقعاً . عامر برهبانه وسكانه وله في أيام فيضان النيل منظر عجيب لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فإذا انصرف الماء وزدعت الأرض أظهرت أراضي غرائب النواوير وله خليج يجتمع فيه سائر الطير فهو أيضاً متصيد ممتع ... وقد خرب هذا الدير : دير أيسوس - وله في خامس عشر بشنس عيد فإذا كانت ليلة هذا العيد سرت فيه بئر تعرف ببئر أيسوس . وقد اجتمع الناس إلى الساعة السادسة من النهار ثم كشفوا عن البئر فإذا بها قد قاض ماؤها ثم ينزل فحيث وصل الماء قاسوا منه إلى موضع استقر فيه الماء فما بلغ كانت زيادة النيل في تلك السنة من الأذرع : دير يحسن القصور - على رأس الجبل الذي غربي أسبوط على شاطئ النيل وله عدة أعياد : أديرة أدونكة - اعلم أن ناحية أدونكة هي من قرى النصارى الصاعدة . ونصاراها أهل علم في دينهم وتفاسيرهم في اللسان القبطي . ولهم أديرة كثيرة في خارج البلد من قبليها مع الجبل وقد خرب أكثرها وأديرة أدونكة المذكورة قريب بعضها من بعض وبينها مغائر عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات من كتابة القدماء كما على الهرايس وهي مزخرفة بعدة أصباغ ملونة تشتمل على علوم شتى ... ويقال إنه كان في الحاجر ثلثمائة وستون ديراً وأن المسافر كان لا يزال من البدرشين إلى أصفون في ظل البساتين وقد خرب ذلك وباد أهله : دير موشة - خارج أسبوط من قبليها بنى على اسم توما الرسول الهندي . وهو بين الفيضان وفي أيام النيل لا يوصل إليه إلا بالركب . والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطي الصعيدى . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ولهم أيضاً معرفة تامة باللغة

كنيسة يومينا بالحمراء . ولم تزل هذه الكنيسة إلى أن كانت واقعة هلم الكنائس ، كنيسة الالزهرى - كان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها وبجانبها عدة كنائس ... أخذ الفعلة في الحفر حول الكنيسة حتى بقيت قائمة في وسط الموضع الذي عينه السلطان ليحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة وكان القصد من ذلك أن تسقط الكنيسة من غير قصد لخرابها . وصارت العامة من غلمان الأمراء العاملين في الحفر وغيرهم في كل وقت يصرخون على الأمراء في طلب هدمها وهم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة (٩ ربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ) وقت الصلاة والعمل من الحفر بطل فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عال الله أكبر ... وهدموا حتى بقيت كوماً وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخلوا جميع ما كان فيها ... وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخلوا منها مالا وقماشاً وجرار خمر . فكان أمراً مهولاً ثم مضوا إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة الهنات كان يسكنها بنات النصارى ... فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا الهنات ... وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها . كنيسة بدير الخندق ... وكانت هذه المخطوب الجميلة في مدة يسيرة قلما يقع مثلها في الأزمان المتطاولة .

كنيسة أبسوطير - وممنها المخلص - بمدينة أخميم وهي كنيسة معظمة عندهم وهي على اسم الشهداء . وفيها بئر إذا جعل ماءه في القنديل صار أحمر قانياً كأنه الدم ؛ كنيسة بناحية أشتين - وكان بهذه الناحية مئة وستون كنيسة خربت كلها إلا أربع كنائس . وأكثر أهل أشتين نصارى وعليهم الدرك في العقارة ، وبناحية ريفة كنيسة بوقلته الطبيب الراهب صاحب الأحوال العجيبة في مداواة الرمدى من الناس وله عيد يعمل بهذه الكنيسة ، وبناحية بوتيج كنائس كثيرة قد خربت وصار النصارى يصلون في بيت لهم سراً ... (٢)

(١) المخطوط للمقرئى ص ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٢) المخطوط للمقرئى ص ٥١٢ ، ٥١٣ - ٥١٨ .

أسبوع البسغة ^(١)

إن هذا الأسبوع يوصف بكلمة « أسبوع الآلام » ويبدأ بأحد الشعانين وينتهي بعيد القيامة المجيدة . وهو أقدس أسبوع في السنة اطلاقاً في نظر آباء الكنيسة القبطية . وأول يوم منه هو أحد الشعانين أو أحد الصعف . فيه تذكّر الكنيسة دخول السيد المسيح له المجد إلى اورشليم وخروج الجماهير لاستقباله بأغصان الزيتون وسعف النخل وهم يهتفون : « أوصنا لابن داود ... مبارك الآتى باسم الرب » ^(٢) وما أن هذه الذكرى - رغم ما فيها من فرح وبهجة - هي المدخل إلى أسبوع البسغة أو أسبوع الآلام فإن التقليد الكنسي الذي تسلمه الآباء جيلاً بعد جيل يقضى بأن تتركز كل صلوات هذا الأسبوع الممتلئ بهبة على آلام الفادى وحده . ولما كان لابد أن يتنقل بعض الناس خلاله من هذا العالم إلى الدار الباقية رسم الآباء إقامة تجهيز عام عقب الانتهاء من صلوات أحد الشعانين. هذا التجهيز العام يتضمن الصلوات التي تقال على الموتى قبل دفنهم فيقال وقعداك استرحاماً على جميع من قد تنتهي أيامهم على هذه الأرض قبل عيد القيامة المجيدة . وتختتم هذه الصلوات بلحن « يا ملك السلام » يقال بالنغمة الحزينة . ثم يعطى الكاهن البركة ويصرف الشعب بسلام .

وتبدأ صلوات البسغة مساء الأحد - أى في ليلة الاثنين ، وتتضمن « خمس ساعات » هي صلوات الساعات الأولى والثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشر . وتتضمن كل ساعة قراءة من التورات الخاصة بالآلام رب المجد عليها تسبحة الأربعة والعشرين قسيساً المحيطين بعرش الحمل فأجزاء مختارة من المزامير فالانجيل الخاص بالساعة . أما التسبحة فهي مأخوذة من سفر الرؤيا وكلماتها هي « لك القوة والمجد والمرة والبركة الى

(١) كلمة يونانية معناها الفصح لأن المسيح له المجد هو حمل الله الذى يحمل خطايا العالم . وخروف الفصح أو خروف الفدية لدى اليهود كان رمزاً للذباة العجيب الذى حققه المسيح له المجد لجميع الناس على مدى الأجيال بالآلام وصلبه .

(٢) يو ١٢ : ١٢ - ١٩ .

الأبد آمين يا صانوثيل إلهنا وملكنا ، لك القوة والمجد والعزة والبركة الى الأبد آمين يارتا يسوع المسيح (تضاف إليها كلمة « مخلصنا الصالح » من ليلة الأربعاء) ، لك القوة والمجد والعزة والبركة الى الأبد آمين «^(١) . ولكل ساعة طرح هو عبارة عن تعليقات الآباء على الإنجيل الساعة^(٢) وبعد الانتهاء من الطروحات يقرأ الكاهن الطلبة^(٣) . وتنتهي كل فقرة منها بكلمة « نسألك يا رب اسعدنا وارحنا » فيجيب الشعب « يا رب ارحم » والتسبحة والمزمور والإنجيل القبطي ومرد الطرح والطلبة - جميعها - تقال بالحنان خاصة بهذا الاسوع المقدس الذي يفيض بذكرات محبة الله وحنانه وعطفه على الانسان الذي خلقه .

وصلوات البسطة تقال خارج الهيكل^(٤) أيام الاثنين والثلاثاء .

(١) تقال هذه التسبحة قبطياً ومصرياً وينشدونها نصف الشماعة أولاً ثم النصف الثاني وتقولها كل مجموعة ست مرات بالتناوب مرة بعد مرة . والترات العشرة الأولى (خمس ثم خمس) تقال بالقبطي والمرة الحادية عشرة تقال بالقبطي ولكن أكثر مد في المقاطع بينما تقال المرة الثانية عشرة بالعربي .

(٢) كتاب طروحات البسطة المقدسة للقمص فيلوثاوس المتأري والمعلم ميخائيل جرجس (القاهرة سنة ١٩١٤) فمثلا في طرح عشية أحد الشمانين يقرأ الجزء الخاص بدخول السيد المسيح له المجد إلى اورشليم الذي ينتهي بكلمات « قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك راكباً على أتان وجعش ابن أتان » وعلى هذه الآيات التعليق التالي : « فيها نعظم هذه الأعجوبة الجالس على الشاروبيم ركب على جعش ابن أتان التعدير . هو جالس على الأرض لم يترك عنه السماوات جالس في حضن أبيه حاضر في اورشليم ... » .

(٣) هناك طلبتان : احدهما للصباح وأخرى للعشاء . وكلتاها صورة رائعة لعشق المحبة التي ملأت قلوب الآباء الذين كتبوها - لأن كلا منهما تشمل صلوات من أجل المخلوقات المختلفة مع الضراعة إلى الله بأن يتراخ عليها ويعينها ويسد احتياجاتها .

(٤) وذلك لأن ذهبة الخطية كانت تلبح خارج المحلة (أو خارج الهيكل) أنظر عدد ١٩ : ١ - ٥ وقارنه بما قاله بولس في عبرانيين ١٣ : ١٠ - ١٣ .

والأربعاء صباحاً ومساءً والصباح خمس ساعات^(١) ومثلها للجمعة . أما الخميس فاسمعه خيس العهد لأن فيه شاء المسيح له المجد أن يعطى تلاميذه ومنهم إلى جميع المؤمنين باسمه عهده الجديد وهو متحد جسده المقدس ودمه الكريم لهم ليأكلوه ويشربوه ويعيشوا به فيرتبطوا بفاديتهم ارتباط الأغصان بالكرمة أو ارتباط الأعضاء بالجسد فتسرى حياته فيهم . وبما أنه له المجد قد غسل أرجل تلاميذه في ذلك اليوم الخامس فإن هناك صلوات خاصة بتقديم الماء يقال بعد الصلوات الصباحية الخمسة وتعرف « بطقس القنّان » . وعند الانتهاء من شعائر القنّان يغسل الكاهن أرجل الكهنة فالشماسة فالشعب على مثال ما صعد الرب مع تلاميذه . وبعد الانتهاء من غسل الأرجل يزاح ستار الهيكل لتأدية شعائر قنّاس خميس العهد^(٢) . وفي هذا القنّاس لا تقال صلاة الصلح التي هي نهاية طقس القنّاس عادة علامة على أن الصلح الحقيقي لم يتم إلا بصلوب المسيح في يوم الجمعة العظيمة . كما أن القبلة التي تختتم بها صلاة الصلح ممتوحة بسبب القبلة الغائبة التي باع بها يهوذا سيده . كذلك لا يقال للمجمع ولا الترحيم لأن الكنيسة وهي متشفلة بالتأمل في موت الرب لا مجال أمامها لتذكّار أحد من الرافدين - وقد سبق لها أن صلت عليهم بعد قنّاس أحد الشعانين . أما في أثناء تناول فلا يقال للزموه لثمة والخمسون « سبهوا الرب » كما هي العادة بل تقال صلاة الساعة الحادية عشرة . فوسئل ستار الهيكل من جديد ويركز المتناولون لتهامهم على السر العجيب المزمعون أن يتناولوه بينما تقال الصلاة للمؤمنين الذين لن يتناولوا من الأسرار المقدسة يومذاك . وتختتم هذه الشعائر العظمى بالطرح ولحن ملك السلام فالبركة .

(١) هذه ساعات الصلوات اليومية وهي تختلف عن الساعات الزمنية في أن الفجر يبدأ في الساعة الأولى فتكون الساعة السابعة هي منتصف النهار (أو الثانية عشر ظهراً تبعاً للتوقيت الزمني) .

(٢) هذا القنّاس هو الشعائر الوحيدة التي تقام داخل الهيكل خلال هذا الأسبوع المقدس لأن صلواته خاصة بالذبيحة اللائمة التي تميد إلى قلوبنا وأرواحنا ذبيحة رب المجد على الصليب حين قدم ذاته طوعاً وبإرادته ليقتنونا من عبودية الموت .

وفي المساء - أي في ليلة الجمعة العظيمة - تقرأ الساعات الخمس كالمعتاد وبعدها يسمع الشعب وصية قاده كما سجلها له يوحنا الحبيب في الأصحاحات الرابع عشر إلى آخر السابح عشر وفيها يهب الرب سلامه لتلاميذه ولكل المؤمنين باسمه من بعدهم ، ويصلي من أجل الذين سيؤمنون باسمه على مدى الأجيال : إنها كلمات العزاء والتعزية الروحية التي يستهدف منها رب المجد فيض السكنة على قلوبهم وبعد أن يصفي المؤمنون لهذه الكلمات المعزية تقال الطلبة المسائية يتبعها لحن ملك السلام بالهركة .

ثم يأتي يوم الجمعة ذروة ذلك الأسبوع الرائع - ولذلك تسمى بمختلف الأسماء : فهر يوم الجمعة العظيمة أو الجمعة الكبيرة أو الجمعة الحزينة . ولقدسية هذا اليوم تستمر فيه الصلوات من الصباح الباكر إلى السادسة مساءً أو ما إلى بعدها . وفي هذا اليوم استهدف الآباء تصوير آلام السيد المسيح تصويراً حقيقياً واقعياً . فكل ساعة من ساعات الصلوات تتضمن ما جاء في أسفار العهد القديم من رموز وتنبؤات خاصة بالفداء ثم تحقيق هذه الرموز وهذه التنبؤات فيما حدث للمخلص من تشاور عليه فالتقبض عليه غدراً فسوقه من محكمة إلى محكمة فوقوف تارة أمام رؤساء الكهنة وطوراً أمام الوالي الروماني ثم أمام الملك اليهودي ، وما ناله من ضرب وإهانة وتعذيب إلى أن هلقوه على الصليب . وحين سمروه على خشبة اللعنة ورفعوها فوق الجلجثة لم يكن هناك جزء من جسده من غير جرح يقطر دماء : من رأسه القدسي المكمل بالشوك إلى قدميه الكريميتين المشقوقتين بالمسامير . هذه الألام المبررة تصورها الصلوات الكنسية ساعة بساعة . وتختتم كل ساعة بالطلبة (الصباحية والمسائية) التي يردد خلالها الشعب « يا رب ارحم » ، يتبعها لحن ملك السلام بالهركة .

ويدخل ضمن ذكريات هذا اليوم المقدس اعتراف اللص المصلوب عن يمين القادي الحبيب ولهذا يقال هذا الاعتراف بعد^(١) ميعر الساعة السادسة فيتلو الكاهن (أو رئيس الشمامسة) الفقرة يردد الشعب كله بعدها « أمانة اللص »

(١) ميعر كلمة سرهانية معناها تذكر .

يقوله : « اذكرنى يا رب إذا جئت فى ملكوتك . اذكرنى يا قدوس إذا جئت فى ملكوتك . اذكرنى يا سيد إذا جئت فى ملكوتك » .

وصلوات يوم الجمعة العظيمة تتضمن أيضاً الساعة الثانية عشر . وفى ختام هذه الساعة تقال « يا رب أرحم » أربعاً عشرة مرة . وتنتهى للشعب إلى أهمية هذا الاستغفار يهيب الشماسة بالشعب قائلين : « أيها الأخوة : لقد رسم الآباء البررة للكنيسة المصرية المقدسة أن تقيم نفسها يوم جمعة الصليوت الكريم مقام العالم بأسره وقتل المسكونة وهى تصرخ من أقطارها الأربعة مستمطرة رحمت مخلصها الصالح وخلاقها العظيم الذى فى مثل هذا اليوم الرهيب سحق بقدرته صليبه أبواب الجحيم ووطئ بسلطان موته شركة الموت . واذا لم تكن هذه الكنيسة شيئاً آخر سواكم أنتم معاشر المصريين المؤمنين بالرب يسوع كان حقاً عليكم تقديس ذلك المرسوم الأسمى الكريم . فترسموا ما رسم لكم الآباء الأطهار واسترحموا الرب متجهين نحو الشرق « كيريايسون » (مئة مرة) ونحو الغرب (مئة مرة) ونحو الشمال (مئة مرة) ونحو الجنوب (مئة مرة) ^(١) . وبعد هذا الاسترحام يدور الشماسة حول المذبح - داخل الهيكل - وهم يتشدون « كيريايسون » ثم لحن الدفن . والشماسة فى دورتهم يتقدمون الكاهن المسك بالمهخرة وهو يهخر أمام الصليب وأيقونة المسيح الراقدة فى القبر ^(٢) ويحمل كل منها شماس متجهاً بوجهه نحو الأب الكاهن وموالياً ظهره لآخرته السائرين فى موكب الدفن وهكذا تنتهى صلوات الجمعة العظيمة بإبداع جسد رب المجد فى القبر (ممثل فى أيقونته التى يلفها الكاهن بقطعة من الكتان الأبيض وازعماً الصليب فوقها وحوله الورود والمطرور) .

على أن آباء الكنيسة القبطية رأوا بإرشاد الروح القدس أن يسهروا إلى جانب مخلصهم المدفون فرتبوا صلوات أطلقوا عليها اسم « ليلة

(١) عن كتاب « مختارات من أحد الشعانين للقبامة » لشماسة كنيسة الرسولين بطرس وبولس (البطرسيّة) صدر فى أبريل سنة ١٩٧١ ص ١٨ .

(٢) الكنيسة المصرية أو القبطية (بالانجليزية) لهوومستر ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .
راجع أيضاً الفصل الخاص بأسبوع الآلام من الكتاب عينه ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

أبو غالمسيس ^(١) ، تقال أبتداء من حوالى منتصف ليلة السبت النور وتنتهى حوالى الساعة والنصف من صباح ذلك اليوم الذى وصفوه بالنور ^(٢) . وهذه التسمية مع الصلوات المرتبة توضح لنا مدى تفهم الآباء للكنوت المسيح . فهو - له المجد - قد جاز الآلام والاهانات التى لا يمكن أن يصفها لسان . والآباء أوضحوا لنا عجز الانسان عن التعبير بقولهم إن الشمس حين أخفت نورها فى منتصف النهار إنما اخفت خجلاً إذ لم تستطع أن ترى خالقها فى العار الذى يجوزة . وبعد كل ما ذاق من اهانات وتكيل استودع روحه يدي أبيه . فمات وحمل جسده المجرع النفر القليل من الاحياء الذين وقفوا إلى جانبه حتى النهاية إلى القبر . وخلال الساعات التالية لدفنه حتى مطلع شمس صباح السبت وضع الآباء صلوات يترقبون بها أثناء سهرهم بجوار قاديهم الحبيب الرائد داخل القبر . وتتضمن هذه الصلوات أربع عشرة تسبحة وردت فى العهدين القديم والجديد ^(٣) تليها تمجيد

(١) هذه الكلمة تعريف لكلمة أبو كالمسيس اليونانية ومعناها الرؤية أو الاستعلان ، وذلك لأن سفر الرؤيا يقرأ كله فى تلك الليلة وفى أثنائها يقنص زيت المسحة وهو لذلك يوصف « بزيت أبو غالمسيس »

(٢) تقام صلوات فى كنيسة القيامة بالقدس صباح السبت من العاشرة إلى ما يقرب من منتصف النهار يهراق من بعدها نور ينبعث من القبر المقدس الذى رقد فيه قاديها الحبيب . ولهذا النور خاصية عجيبة هى أنه لا يحرق أى شئ خلال النصف ساعة الأولى من ظهوره .

(٣) هذه التسابيح هى: تسبحةان لموس النبى الأولى من خروج ١٥ : ١ - ٢١ والثانية تثنية ٣٢ : ١ - ٤٤ ، ٣ - لحنة أم صموئيل : ١ صموئيل ٢ : ١ - ١٠ ، ٤ - حزقيا الملك : أشعيا ٣٨ : ١٠ - ٢٠ ، ٥ - لمسى بن الملك حزقيا : وهذه وردت فى الكتب الكنسية وهى مأخوذة من المزامير ولكن ليس لها نص حرفى فى الكتاب المقدس كباقي التسبحات ، ٦ - ليونان النبى : الاصحاح الثانى ، ٧ - لميخون النبى : الاصحاح الثالث ، ثلاث تسبحات لأشعيا النبى الأولى فى أصحاح ٢٥ والثانية ٢٦ : ١ - ٩ والثالثة ٢٦ : ١٠ - ٢٠ ، ١١ - لدانيال النبى : الاصحاح الثالث تتبعها تسبحة عزريا وهو فى أتون النار ، ١٢ - تسبحة السيوف الطراء لوقا ١ : ٤٦ - ٥٥ ، ١٣ - لذكريا والد يوحنا المعمدان - لوقا ١ : ٦٨ - ٨٠ ، ١٤ - لسمعان الشيخ : لوقا ٢ : ٢٩ - ٣٣ .

الملائكة ^(١) والصلاة الربية وقانون الايمان . وكذلك تقرأ قصة سوسنة العفيفة وسفر الزامير والرؤيا ^(٢) بأكملها . وهذه الصلوات كلها تتحدث بمجد المسيح وملكوته العجيب ويقوته على الاستماع إلى من يستنجدون به . فمثلاً في تسبحة الثلاثة فتية الذين ألغاهم نوحذ نصر في الأتون الملتهب تسمعهم يهتفون : « مبارك أنت يا رب إله أبائنا وفرق المسيح وفوق المتعال إلى الأبد » وهذه الكلمات هي المرد الذي يردده الشعب كله بعد كل فقرة من فقرات هذه التسبحة . وثمة مرد آخر لهذه الليلة العجيبة هو : « ليس عبد بلا خطية ولا سيد بلا مغفرة » . فالصلوات في مجموعها إنما تمجد المسيح ، ومعنى هذا أن الأباء سبوا عمق الفداء الذي أكمله رب المجد فقدموا له التسبيح والتمجيد حتى وهو راقد في القبر .

وتنتهي صلوات « أبو خالمسيس » بالقداس الإلهي في الصباح الباكر من يوم السبت . ثم تبدأ صلوات عيد القيامة في الساعة مساءً من ذلك اليوم وتستمر إلى حوالي الواحدة بعد منتصف الليل ^(٣) . فبعد قراءة ١ كو ١٥: ٢٢ - ٥٠ ، ١ بط ١٥: ٣ - ٤ ، أع ٢: ٢٢ - ٣٣ ، ينشد الشماسة نحن القيامة فتعلقاً على أثره جميع أتوار الكتيبة ويسدل ستار الهيكل ويدور الحوار التالي - باللحن - بين شماس واقف خارج الهيكل وآخر داخله :

(١) وردت بأكملها في آخر الفصل .

(٢) تولد سبع شعوع أو سبعة قناديل على هيئة صليب وإلى جانبها يقف صليب ثم يقرأ الحاضرون سفر الرؤيا حول آباء ملو من زيت الزيتون ، فيبدأ الكاهن القراءة ثم يتناوب الحاضرون - كل بدوره - قراءة فصل من هذا السفر العجيب إلى أن ينتهوا منه . وتتخلل القراءة برودات مختلفة - راجع كتاب يورمستر (المذكور أعلاه) . ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٣) بعد الانتهاء من هذه الصلوات في كتيبة القيامة بالقدس يستريح المؤمنون ما يقرب من الساعة يعودون بعدها إلى الكتيبة لينتظموا في مواكب تدور دورات الانتصار حول القبر المقدس وهم ينشدون ألحان القيامة المجدبة ويستمررون في ترانيمهم وتسابيحهم حتى يسطع أول شمع للفجر على تبة الكتيبة .

- ارفعوا أيها الرؤساء أرواحكم وارتفعى أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك
المجد .

- من هو ملك المجد ؟

- الرب العزيز الجبار . الرب القوى فى القتال .

ارفعوا أيها الرؤساء أرواحكم وارتفعى أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك
المجد .

- من هو ملك المجد ؟

- رب القوات هذا هو ملك المجد .

وحالما ينتهى الشساس من هذه الكلمات تضاء الأنوار وتحدث ضجة
ويهتف الكل : « خريستوس أنسى » ... « المسيح قد قام » ويتجمع
الشماسية فى موكب ويدورون حول الكنيسة ثلاث مرات وهم ينشدون لحن
القيامة . وينتهى الموكب بالسندورة داخل الهيكل حول المذبح ثلاث مرات
أيضاً . وبعد هذا الموكب الرائع وترنم الشماسية بلحن الانتصار تقال خطبة
عيد القيامة ^(١) يليها المجيل القداس مباشرة . وبعد الرسالة الباهرة فالعظة
فالقداس الإلهى .

والرابط بين الحياة والموت وبين المخلص المدفون والمخلص المنتصر على
الموت جعل آباء الكنيسة القبطية يترغفون بصلوات التهليل والتسبيح وسط
حلقة القبر . وفى وسط نغمة الحزن ترن نغمة الانتصار ، وخلال ومضة
الفرح والتهليل تهدو نغمة الحزن . فالكنيسة القبطية فيما وضعت من
الصلوات والألحان الخاصة بأسبوع الآلام قد أوضحت خلالها أنها تتبعت
قاديها فى كل خطوة من خطواته نحو تحقيق الفداء : « فهلت قائلة
أوصانا يا ابن داود » يوم أحد الشعانين ، واتشعت بالسواد فى أسبوع
الآلام ، ولكنها رغم الحزن الذى غمرها قد عبرت عن رجائها الثابت
اللامتزعزع فى ذلك الذى قال : « فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن
ثقروا أنا قد غلبت العالم » .

(١) هذه الخطبة مما كتبه أولاد المسال .

ولا يفوتنا أن نذكر بأن الأحد السابق لأحد الشعانين هو أحد التناصور ،
والسبب في تحديد يوم معين للمعمودية الجماعية هو أن الآباء كانوا يركزون
جهودهم على تعليم الموعوظين ^(١) أثناء الصوم الأربعيني المقدس . ولما
كان محظوراً على الموعوظين أن يحضروا صلوات القداس الإلهي ، ولما كان
المستولون في الكنيسة يريدون أن يهيئوا لهؤلاء الموعوظين فرصة الاستمتاع
بقداسات ختام الصوم وسبت لعازر وأحد الشعانين وما يليها من الصلوات
المقدسة ، فقد كانوا يمتحنونهم قبل أحد التناصور ومن ينجح منهم ينل صيغة
المعمودية في ذلك الأحد لينضم إلى جماعة المؤمنين وتنتعش روحه بالصلوات
التي وصفناها .

وما دمتنا في صدد الحديث عن الفداء العجيب الذي أكمله رب المجد
نعود إلى الإشارة بأن الكنيسة القبطية تؤمن إيماناً وطيداً بأن الخبز والخمر
يتحولان بالفعل والواقعية إلى جسد الرب ودمه نتيجة لصلوات القداس
الإلهي ^(٢) . وهي - إلى جانب هذا - تؤمن إيماناً ناهياً عن هذه العقيدة
بالتحول ، وهذا الإيمان هو أن كل مؤمن حينما يتناول يأخذ المسيح بأكمله .
ولكى يوضح لنا ذهبي القم هذه الحقيقة « لو أننا وضعنا أي عدد من
الأوعية المملوءة ماء في الهواء الطلق لانعكست الشمس بأكملها داخل كل
وعاء . فإن كانت الشمس - وهي إحدى المخلوقات - تنعكس كاملة في
كل وعاء مهما بلغ عدد الأوعية أفلا يستقر خالق الشمس داخل كل نفس
تتناول السر المقدس مهما بلغ عدد المتناولين ؟ ^(٣) ولهذا السبب علمنا الآباء
أن لا نسجد بعد تناول لأن الشخص الذي يحمل المسيح في داخله لا
يستطيع السجود من جهة ولا يجوز له السجود من الجهة الأخرى .



(١) هم الذين يتلقون التعاليم المسيحية قهيداً لتفطيمهم في المعمودية .

(٢) قصة الكنيسة القبطية ج ١ الفصل الأخير منه .

(٣) الأسرار السبعة لحبيب جرجس .

تسبحة الملائكة التى تقال ليلة

« أبو غالمسيس »

المجد لله فى الأعالي وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة .
تسبحك . تباركك . نخدمك . نسجد لك . تعترف لك . تنطق بمجده .
نشكرك لأجل مجدك العظيم .

يارب . يا ملك . يا سماوى . يا لله - يا أب . ضابط الكل -
يارب . يا ابن . يا وحيد الجنس . يا يسوع المسيح والروح القدس .
يا رب . يا الله . يا حمل الله . يا ابن الآب . يا رافع خطايا العالم .
ارحمنا يا حامل خطايا العالم . اقبل تضرعنا . أيها الجالس من يمين الآب
ارحمنا .

أنت وحدك القدوس . أنت وحدك المتعالي .

الرب يسوع المسيح . والروح القدس فى مجد الله الآب . آمين .
فى كل يوم أباركك . وأسبح اسمك القدوس إلى الأبد وإلى أبد الأبد .
من الليل تدلج روحى إليك يا الله لأن أوامرك هى نور على الأرض .
تلوت فى طرقك لأنك صرت لى معيناً .

فبالغدوات استمع صوتى يا رب . بالغداة أقف أمامك وترانى .

أهلنا يا رب لهذا اليوم وبغمر خطية احفظنا .

تباركت أيها الرب إله آبائنا وتزاهدت بركة . واسمك القدوس مملوء مجداً
إلى الأبد آمين .

فلتكن يا رب رحمتك علينا كمثل اتكالتنا عليك . لأن أعين الكل
تترجاك .

لأنك أنت تعطيتهم طعامهم فى حينه .

استمعنا يا الله مخلصنا يا رجاء أقطار الأرض كلها .

وأنت يا رب تحفظنا وتنجيها وتنقذنا من هنا الجيل وإلى الدهر آمين .
مبارك أنت يا رب علمني عدلك . مبارك أنت يا سيد فهمني حقوقك .
مبارك أنت يا رب أتر لي برك . يا رب رحمتك كاتبة إلى الأبد . وعن
أعمال يديك لا تغفل يا رب .

يا رب ملجأ كنت لي من جيل إلى جيل .
أنا قلت يا رب ارحمني وأشف نفسي لأنني قد أخطأت إليك . يا رب قد
لجأت إليك فنجني وعلمني أن أحمل رضاك . لأنك أنت هو إلهي ومنبوع
الحياة عندك . وشورك يا رب تعالين الثور . فلتأت رحمتك على الذين
يعرفونك وعدلك على المستقيمين بقلوبهم .

لك تحب البركة . لك يجب التسبيح . لك يليق المجد . أيها الأب والابن
والروح القدس الكائن من البدء والآن وإلى الدهر الداهرين آمين .
حسن هو الاعتراف بالرب والعزيل لاسمه العالي . لكي أخبر برحمته
في الصباح وحقه في كل ليلة .

قدوس الله . قدوس القوي . قدوس الذي لا يموت (ثلاث مرات) .
المجد للأب والابن والروح القدس الآن ودائماً وإلى دهر الداهرين آمين .
أيها الثالوث المقدس ارحمنا . أيها الثالوث كلي القداسة ارحمنا . أيها
الثالوث القدوس ارحمنا .

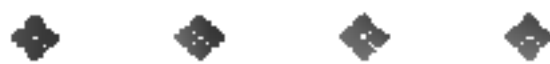
يا رب ارحمنا ^(١)

(١) وردت هذه التسمية مع بقية التسميات في كتاب يتضمن المزامير جاء في آخره
ما يلي : « لجز طبع هذا الكتاب المقدس في اليوم السابع عشر من شهر تموز الذي
هو أيوب سنة ألف وسبعمائة أربعة وأربعين للتجسد الإلهي .

وبعد أن استمتعت أرواحنا بالصعود مع الرب على جبل التجلى فرأينا مجده حتى خلال آلامه وأهاناته تنزل عن هذا العلو الشاهق لتواجه مختلف الأمور . ومن بينها ملحوظة هامة هي :

يتساءل الكثيرون عن السبب في وجود أماكن عليا في الكنائس (وخاصة القديمة منها) مخصصة للسيدات وعما إذا كان يرجع إلى أن المسيحية فرقت بين الرجال والنساء . واجابة على هذا السؤال نقول بأن السبب ليس في كون المسيحية قد فرقت بين الجنسين ولكنه يرجع إلى أنه في العصور الوسطى كان يحدث أحيانا أن يقتحم جنود الوالى الكنيسة فيقتلون من يقتلون ويأسرون من يأسرون . لذلك رأى الآباء حرصاً على السيدات والأطفال أن يخصصوا لهم أماكن عليا متصلة بمنازلهم بهمرات داخلية فلا يحتاجون إلى المشى في الشوارع للوصول إلى الكنيسة أو للعودة منها . وكان هناك ديدبان عند باب الكنيسة لمراقبة الآتين من بعد . فإذا ما رأى الجنود مقيدين أعطى إشارة بذلك فتختفى السيدات والأولاد لساعتهم . وحين يصل الجنود فعلاً لا يجدون أمامهم غير الرجال .

وثمة تقليد ضاعت معالمه الآن هو التناهى في التواضع ففنانو العصور الماضية وناقلاو الكتب وواضعوها وبناء الكنائس والنساجون - هؤلاء جميعاً وغيرهم كانوا لا يوقعون على منتجاتهم بل يكتفون بحملة جميلة قصيرة هي : « عوض يا رب من له تعب في ملكوت السماوات » مبرهتين بذلك على اكتفائهم بالتقدير الإلهي .



جدول باباوات الاسكندرية المذكورين في هذا الكتاب

رقم	البطرك	تاريخ التقدمة	مدة الإقامة على الكرسي	المسكون المصرون
٦١	مينا الثاني	٩٤٨	١١	١٧
٦٢	ابرام الأول	٩٦٨	٦	٣
٦٣	فيلوثيوس الأول	٩٧١	٧	٢٤
٦٤	زخارياس الأول	٩٩٦	١١	٢٧
٦٥	شودة الثاني	١٠٢٤	٧	١٤
٦٦	خريستودولس	١٠٢٩	٨	٢٩
٦٧	كيرلس الثاني	١٠٧٠	٦	١٤
٦٨	ميخائيل الرابع	١٠٨٤	٧	٩
٦٩	سكارى الثاني	١٠٩٤	١	٧٧
٧٠	غيريال الثاني	١١٢٢	٢	١٤
٧١	ميخائيل الخامس	١١٢٦	٩	-

ملحوظة : التقويم المتبع في هذا السجل هو التقويم الشرقي القبطي وينقص ثمانى سنوات عن التقويم الجولاني القري

تابع أسماء بابارات الاسكندرية

رقم	البيطريوك	تاريخ التالفة	مدة الإقامة على الكرسي	سنة شهر	المسوك المعاصرون
٧٢	يوزنس الخامس	١١٣٨	١٠	١٨	الظاهر والقائر . المعادل والمخند صلاح الدين .
٧٣	مرفس الثالث	١١٥٧	٦	٢٢	صلاح الدين والعزير والنصور والمعادل .
٧٤	يوزنس السادس	١١٨٠	١١	٢٦	الكامل والمعادل والصالح والمظفر .
٧٥	كيرنس الثالث	١٢٢٦	٩	٧	شجرة الدر وموسى والأشرف والمعتز والمظفر وكن الدين بيبرس .
٧٦	أثناسيوس الثالث	١٢٤٢	١	١١	ركن الدين الظاهر بيبرس .
٧٧	غيريال الثالث	١٢٦١	٢	٢	السعيد ناصر الدين والمعادل وقلاوون والأشرف ومحمد بن قلاوون
٧٨	يوزنس السابع	١٢٦٣	-	٢٩	المعادل والنصور ومحمد بن قلاوون .
٧٩	ثيودور سيوس الثاني	١٢٨٦	٧	٦	محمد بن قلاوون ومحمد بن قلاوون
٨٠	يوزنس الثامن	١٢٩٢	٣	٢٠	محمد بن قلاوون .
٨١	يوزنس التاسع	١٣١٢	٥	٦	محمد بن قلاوون .
٨٢	بنيامين الثاني	١٣١٩	٨	١١	محمّد بن قلاوون .
٨٣	بطرس الخامس	١٣٢٢	٦	٨	أبو بكر النصور وعلاء الدين الأشرف وأحمد الناصر وإسماعيل الصالحي وشعبان الكامل وابن ناصر المظفر وحسن بن ناصر الناصر .

صالح بن ناصر الصالح وحسن بن ناصر الناصر ومحمد بن المنصور	١٤	٥	١٢٤٢	مرقس الرابع يوزنس العاشر غيريال الرابع متارس الأول الملقب بالمسكين	٨٤
شعبان بن حسن الأشراف .	٦	٢	١٢٥٦		٨٥
شعبان بن حسن الأشراف وعلى بن شعبان المنصور .	٨	٢	١٢٦٢		٨٦
على بن شعبان المنصور وابن شعبان الصالح وبرقوق ولرج ابن برقوق الناصر وعبد العزيز بن برقوق .	٢٠	٥	١٢٧٠		٨٧
فرج بن برقوق الناصر والمستعين والمزيد والمظفر وتترسيف الدين الظاهر ونصر الدين الصالح وأبو النصر الأشراف .	١٩	٨	١٤٠١		٨٨
أبو النصر الأشراف ويوسف جمال الدين العزيز وأبو سعيد الظاهر وعثمان فخر الدين المنصور .	٢٤	١١	١٤٢٠	غيريال الخامس يوزنس الحادي عشر	٨٩
أيبال أبو النصر الأشراف وأحمد بن أيبال المويد وخشقدم سيف الدين الظاهر .	١٢	-	١٤٤٥		٩٠
ابن سعيد الظاهر وأبو سعيد الظاهر وقايتباي أبو النصر الأشراف	٨	١٠	١٤٥٨		٩١
قايتباي .	١	-	١٤٦٩		٩٢
قايتباي .	٢	٤	١٤٧٢		٩٣
قايتباي ومحمد الناصر وقانصوره الأشراف وقانصوره الظاهر وطرحانباي الحادل وقانصوره الخوري وطرحان الأشراف .	٤٠	١٠	١٤٧٥	يوزنس الثالث عشر	٩٤

مراجع الكتاب

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين :

- ١ - تاريخ بطاركة الاسكندرية نشره مع ترجمته بالانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد بورمستر - المجلد الثاني ج ٢ .
- ٢ - تاريخ بطاركة الاسكندرية نشره مع ترجمته إلى الانجليزية أنطون خاطر وأوسولد بورمستر المجلد الثالث ج ٢ .
- ٣ - تاريخ البطاركة للأبنا يوساب أسقف قوة .
- ٤ - تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة .
- ٥ - تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القصص .
- ٦ - تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية) لكامل صالح نخلة وفريد كامل .

كامل صالح نخلة :

- ٧ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسي الاسكندري - الحلقة الثانية .
- ٨ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسي الاسكندري - الحلقة الثالثة مطبوعات دير السيدة العذراء (السريان) .
- ٩ - سلسلة تاريخ بطاركة الكرسي الاسكندري - الحلقة الرابعة .
- ١٠ - تاريخ القدس لعارف باشا العارف .
- ١١ - قصة الأقباط في الأراضي المقدسة لديمتري رزق .
- ١٢ - تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية لخليل ابراهيم قراقيا .
- ١٣ - كنيسة مصر في أفريقيا لزاهر رياض .

عبد الرحمن زكى :

- ١٤ - القاهرة : تاريخها وآثارها .
- ١٥ - تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الاسلامى .
- ١٦ - القلعة .
- ١٧ - مصر ورسالتها لحسين مؤنس .

المقرئى :

- ١٨ - المخطط - كان طبع هذا الكتاب بدار الطباعة المصرية المنشأة بهولاق القاهرة المعزية على ذمة ... روفائيل عبيد . (سنة ١٨٧٠ م) .
- ١٩ - القول الابرئى (طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٠ على نفقة مرقس جرجس) ..
- ٢٠ - مصر فى عصر الدولة الفاطمية لمحمد جمال سرور .
- ٢١ - نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين لعطية مصطفى مشرفة .
- ٢٢ - « سفر تامة » لناصر الخوسرور نقله إلى العربية عن الترجمة الفرنسية يحيى الخشاب (القاهرة سنة ١٩٤٥) .
- ٢٣ - أهل الذمة فى الاسلام لحسن حبشى .
- ٢٤ - تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ترجمه عن الانجليزية مصطفى زيادة والياز العربى .
- ٢٥ - مصر فى عصر الأيوبيين للياز العربى .
- ٢٦ - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروهم ج ٢ .

عبد العزيز مرزوق :

- ٢٧ - الناصر محمد بن قلاوون .
- ٢٨ - الفن الاسلامى فى العصر الأيوئى .

محمد زكى حسن :

- ٢٩ - الفن الإسلامى فى مصر .
- ٣٠ - كنوز الفاطميين .
- ٣١ - تاريخ مصر الحديث لزيدان .
- ٣٢ - تاريخ مصر الإسلامية : العصران الأيوئى والمملوكى لجمال الدين الشبال .
- ٣٣ - قيام دولة المماليك الثانية لحكيم أمين .
- ٣٤ - تاريخ دولة المماليك فى مصر للمسير وليم مور ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

محمود رزق سليم :

- ٣٥ - عصر سلاطين المماليك وتناجه العلمى والأدبى .
- ٣٦ - الأشرف قانصوه الغورى .
- ٣٧ - موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية جمعه يعقوب جرجس وأشرف عليه زاهر رياض .
- ٣٨ - لويس التاسع فى الشرق الأوسط لجوزيف تسيم يوسف .
- ٣٩ - نوايخ الأقباط لتوفيق اسكاروس .
- ٤٠ - المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو .
- ٤١ - الدير المحرق للأبنا غريغوريوس .
- ٤٢ - خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية لشهادة حورى ونقولا حورى .
- ٤٣ - ميامر أنبا يولس الهوشى عن الأعياد السيدية نشرها دير السيدة العذراء بالسريان .
- ٤٤ - القس بطرس السندمتى : التصحيح فى آلام المسيح (القاهرة سنة ١٨٧٢) .
- ٤٥ - كتاب تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتى لابن كاتب قهصر - عنى مراجعتة ووضع حواشيه القمص أرمانىوس حبشى شتا الهرماوى الهرموسى نشرته جمعية المحبة سنة ١٩٢٩ .
- ٤٦ - كتاب الشفا فى كشف ما استتر من لاهوت سيدنا المسيح وما اختفى لأبى شاكى بن الراهب أبى الكرم بطرس بن المهلب طبعه القمص جرجس بطرانية بنى سوف والراهب بدير أبى يعنيس كاما فى باباوية الأنبا كيرلس الخامس .
- ٤٧ - مختصر البيان فى تحقيق الايمان المرسوم بالحواوى لابن المكين طبعه القمص بطرس عبد الملك - القاهرة سنة ١٩٠٦ .
- ٤٨ - ابن كبر لجرجس فيلوثاوس عوض - القاهرة سنة ١٩٣٠ .
- ٤٩ - روضة الفريد وسلوة الوحيد لسمعان بن خليل أبى الفرج - طبع فى القاهرة سنة ١٦٠٢ ش .

٥٠ - أثر القرن التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة في العصر الفاطمي لسعاد ماهر .

٥١ - تراث الاسلام تعريب لجنة الجامعيين لنشر العلم ج ٢ .

٥٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لتغرى بردى .

٥٣ - كنيسة أم ولود لراغب عبد النور .

أيريس حبيب المصرى :

٥٤ - قصة الكنيسة القبطية (ج ١) من تأسيسها إلى سنة ٤٣٥ م .

٥٥ - قصة الكنيسة القبطية (ج ٢) من سنة ٤٣٥ - ٩٤٨ م .

٥٦ - أديرة وادى النطرون (رسالة مارميثا العدد السادس) لثير شكرى .

٥٧ - صور من تاريخ القبط - مطبوعات جمعية مارميثا العجايب - الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .

٥٨ - القديس متى المسكين للملكة حبيب يوسف ويوسف حبيب .

٥٩ - القديس فرج الشهير بالأنبا رويس - أصدرته الكنيسة التي تحمل اسمه الملاصقة للكتدرائية المرقسية العظمى التي بدئ بإنشائها سنة ١٩٦٨ .

٦٠ - الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية (مطبوعات وزارة الثقافة) لوليم سليمان .

٦١ - تاريخ التربية القبطية لسليمان نسيم .

٦٢ - نشرة عن كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة لتري خريستو .

٦٣ - الكرسي الأورشليمي لكامل صالح نخلة .

٦٣ - مجلة صهيون عدد ٦ (يونيو سنة ١٩٤٩) .

٦٥ - مجلة جمعية التوفيق سنة ١٩٣٨ .

٦٦ - د الشماس ميخائيل بن بدير الدمنورى ، مقال لكامل صالح نخلة نشره في مجلة نهضة الكنائس السنة الثالثة عدد ٤ (أبريل سنة ١٩٤٢) .

- ٦٧ - البابا كيرلس الثالث (مطبوعات دير السيدة العذراء الشهير بالسريان) لكامل صالح نخلة .
- ٦٨ - مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة .
- ٦٩ - دليل المتحف القبطى لمرقس سمكة (ج ١ ، ٢) .
- ٧٠ - سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمرقس سمكة رعى عهد المسيح .

القصص ميصائيل بحر :

- ٧١ - تاريخ القديس الأنبا يحنس التصوير .
- ٧٢ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٣ (مارس سنة ١٩٦٢) .
- ٧٣ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٤ (أبريل سنة ١٩٦٢) .
- ٧٤ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٥ (مايو سنة ١٩٦٢) .
- ٧٥ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة عدد ٦ ، ٧ (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢) .
- ٧٦ - اقليم المنيا فى العصر القبطى مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة السادسة عدد ١ (يناير سنة ١٩٦٣) .
- ٧٧ - دار المعارف القبطية لرمزى تادرس (ج ١) .
- ٧٨ - دائرة المعارف العمومية للهستانى - المجلد العاشر .
- ٧٩ - مذكرة ملكية دير السلطان بالقدس للأقباط الأرثوذكس أصدرها الأنبا ياكوبوس مطران الكرسى الأورشليمى فى أغسطس ١٩٥٣ وأيدها الأنبا باسيليوس خليفته بمذكرة أصدرها فى مارس سنة ١٩٦١ .
- ٨٠ - كتاب طروحات البسخة المقدمة للقصص فيلوثاوس المقارى والمعلم ميخائيل جرجس - القاهرة سنة ١٩١٤ .
- ٨١ - مختارات من الشعانين إلى القيامة لهيئة شمامسة كنيسة القديسين بطرس وبولس (البطرسية) - أبريل سنة ١٩٧١ .

- ٨٢ - « عصر الخفاء في مصر الاسلامية » مقال لمحمد عبد الله عثمان
نشره في مجلة الهلال ديسمبر سنة ١٩٢٦ .
- ٨٣ - « المصريون أول من ابتدع المكتبات ومثلها الأعلى مكتبة
الاسكندرية » مقال لرؤوف حبيب نشره في جريدة وطني ١٠/٣٦/١٩٦٩ .
- ٨٤ - « عجائب الأنبا برسوم العريان » مقال لموتا منصور نشرته في جريدة
وطني ٢٧/٩/١٩٧٠ .
- ٨٥ - « الأيقونة فن أهدته مصر إلى العالم » مقال لايذاك فانوس نشرته
في جريدة وطني ١٢/١٢/١٩٧٠ .
- ٨٦ - « دور القاهرة الحضاري » مقال لعبد الرؤوف يوسف نشره في جريدة
الأهرام ١٩/١/١٩٦٩ .
- ٨٧ - « عن كتاب سفر نامة لناصر الخوسرور مقال لحسن الهاشا نشره في
جريدة الأهرام ٢٤/١/١٩٦٩ .
- ٨٨ - « فن صناعة الخزف » مقال لعبد الرؤوف يوسف نشره في جريدة
الأهرام ١/٢/١٩٦٩ .
- ٨٩ - « الكشف عن قصر أخت الحاكم بأمر الله مقال لآمال بكير نشرته في
جريدة الأهرام ١٨/١/١٩٧٠ .
- ٩٠ - « القاهرة في العصر المملوكي مقال لوليم سليمان نشره في مجلة
الطلیعة عدد ٢ من السنة الخامسة (فبراير سنة ١٩٦٩) .
- ٩١ - « التوقيعات الإلهامية لمحمد مختار باشا .

المخطوطات :

- ٩٢ - تاريخ البطارقة للقمص شنودة الصوامعي اليرموسى نقلًا عن النسخة
المخطوطة بدير اليرموس .
- ٩٣ - مخطوطة محفوظة بكنيسة القديس جرجس المزاحم ببساط النصرى
للراهب مينا معاصر هذا القديس (وقد نشرت مكتبة كنيسة مارجرس
باسبورتنج مرجزاً عنه مأخوذاً عن هذه المخطوطة) .

بولس بن الرجاء :

- ٩٤ - الواضح .
- ٩٥ - نوادر المفسرين .
- ٩٦ - هتك المحجوب .
- ٩٧ - سيرته الخاصة .
- ٩٨ - لباب الآداب لأسامة منتقذ الكنائس .
- ٩٩ - مخطوطة رقم ١٠٦ طقس بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .
- ١٠٠ - تزيان العقول لعلم الأصول .
- ١٠١ - التواريخ لابن الراهب .
- ١٠٢ - مخطوطة رقم ٥١ تاريخ بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .
- ١٠٣ - مكاتبات كيرلس بن لقلق مخطوط رقم ٢٩١ لاهوت بالمكتبة البابوية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة .
- ١٠٤ - الكلمات المهمة في مباشرات أهل الذمة للاستناوى .
- ١٠٥ - المذمة في استعمال أهل الذمة : مخطوطة محفوظة بدار الكتب رقم ١٦٩٣ .
- ١٠٦ - التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوى : مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٧٢٧ .
- السنكسار - الكتاب المقدس (بعهديه القديم والحديث) - ميامر الأنبا بولس الهرشى .
- مزامير داود النبى وفي آخره تسيحات سبت النور (أو سبت الفرح) سنة ١٧٤٤ م .
- السيرة العطرة للشهيدة نربارا وكنيستها الأثرية بمصر القديمة المسماة باسمها (القاهرة سنة ١٩٧١) .

- القصائد : العلم والتعليم
الأندلس الجديدة
توت عتخ آمون
لأحمد شوقي أمير الشعراء
« ليالى الصيف فى مصر » لالياس فياض (عن كتاب مختارات
الزهور - القاهرة سنة ١٩١٤) .

107 - A.S. Atteya : History of Eastern Christianity .

O. Burmester :

108 - Canons of Christodolus , 66th Patriarch of
Alexandria Muséon T 45.

109 - Canons of Kyrillos II 67th Patriarch of Alexandria
Muséon T 46.

110- Canons of Gabriel ibn Tureik 70th Patriarch of
Alexandria , Pub. in Orientalia Christiana Periodica ,
Roma . 1935.

111- The Sayings of Abba Mikhail Bishop of Damietta
Pub. in Orientalia Christiana Periodica Roma 1936.

112- The Egyptian or Coptic Church-Pub. by Société
d'Archeologie Copte , le Cairo 1967.

113- A.J. Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt -
Vol. I and II .

114- Archimandrite V. Guettée : Histoire de l'Eglise - Paris
et Bruxelles 1866

115- G. Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne - TIV
Dela Conquête Arabe à la Conquête Ottomane , par G.
Wiet .

- 116- S. Lane - Poole : History of Egypt During the Middle Ages , Vth . ed . (London 1936)
- 117- Lossky : The Mystical Theology of the Eastern Church.
- 118- A. Mallon : Une Ecole des Savants Coptes (Beirout 1907).
- 119- Richards : The Coptic Bureaucracy in the Mamluke period .
- 120- Ph. Sherard : The Art of the Icon , Pub. in "Sacrament and Image " pub by the Fellowship of St. Alban and St. Sergius (London 1967).
- 121- Wallis-Budge ;The Ethiopic Synxarium (translation) Cambridge 1928 .
- 122 - E. White : The Monasteries of Wadi - Natrun - Vol . II.
- 123- G. Weit : Précis de l'Histoire d'Egypte .
- 124- Père de Hénaut : L'Egypte de Menès à Fouad I (Le Caire 1935) .
- Encyclopaedia Britannica .
 - Encyclopédie des Sciences Religieuses.
 - Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte , Vol. III , IV,V,VII,IX,XIV.
 - The Sunday times, 14/7/63 .

